موسوعة تاريخ الأمبراطورية العثمانية

السياسي والعسكري والحضاري



المجلد الثاني

الدار العربية للموسوعات

موسوعة

تاريخ الإمبراطورية العثمانية

السياسي والعسكري والحضاري

٦٢٩-١٣٤١هـ / ١٢٣١-١٩٢٢م

تأليف

يلماز أوزتونا

ترجمة

عدنان محمود سلمان

مراجعة وتنقيح

د. محمود الأنصاري

المجلد الثاني

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣١هـ



الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

خالد العاني: مؤسسها ومديرها العام



سلاطين بني عثمان



المبحث الخامس

الدولة العثمانية العالمية بعد القانوني
(١٥٦٦ - ١٦٨٣)

الدولة العثمانية العالمية بعد القانوني (١٥٦٦ - ١٦٨٣)

١) جلوس سليم الثاني (١٥٦٦/٩/٧)

كان سليم الثاني وليا للعهد منذ قتل أخيه الكبير مصطفى خان قبل ١٣ سنة (١٢ سنة و ١٠ أشهر و ١ يوم) والآن يرتقي العرش وعمره ٤٢ سنة .

ولي ٦ سنوات على قره مان (قونية) ، ١٤ سنة على صاروخان (مانيسا) ، وأخيرا ٥/٥ سنة في جرميان (كوتاهية) .

جاء إلى استانبول وارتقى العرش بعد ٢٣ يوما من وفاة أبيه في سيجتوار (١٥٦٦/٩/٣٠) . بقي فيها ٣ أيام ثم غادرها ، وعند مجيئه إلى بلغراد ، كان الجيش يتحرك للعودة بقيادة صهره الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا . كان في صحراء موهاج . كان قد مضى ٤٨ يوما على وفاة السلطان سليمان ، وعندما أبلغ الجيش بوفاة البادشاه ، تأثر إلى درجة كادت أن تنقلب إلى قلاقل . كان قد بقي على قيد الحياة قليل جدا من الجنود الذين شاهدوا سلطانين ، يتذكرون عهد السلطان سليم (ياوز) . اعتلى السلطان سليم خان الثاني العرش بعد يومين أمام الجيش في صحراء سيرم Sirem خارج بلغراد . أقام الجيش صلاة الميت للقانوني في ٢٦ ت١ في صحراء سيرم . نادى أستاذ سليم الثاني الأستاذ السلطاني (خواجه سلطاني) عطاء الله أفندي ، قائلا « الصلاة للميت » وأقام الصلاة . وصل الجثمان إلى استانبول في ٢٨ ت ٢ قبل وصول الجيش بأسبوع . وقد أقام شيخ الإسلام أبو السعود أفندي صلاة الميت مرة أخرى في استانبول . اشترك في حمل الجثمان إلى سليمانية مئات الآلاف من أهالي استانبول .

بقى سليم الثانى فى استانبول ٦ أشهر و ١٨ يوماً وغادرها (١٥٦٧/٦/٢٢) متوجها إلى أدرنة . قضى الشتاء فى أدرنة . اجتمع به سفيرا إيران وألمانيا . تجددت معاهدات الصلح مع هاتين الدولتين وصودق عليها . وضع حجر الأساس لجامع سليمية فى أدرنة فى نهاية سنة ١٥٦٧ .

٢) القضية اليمنية (١٥٦٧ ــ ٦٩)

برزت القضية اليمنية بتمرد الإمام الزيدى . انحصر العثمانيون فى شريط ساحلى ضيق . انتقل القسم الأعظم من القطر لحوزة الإمام . قسم الديوان اليمنى ــ لغرض تأمين دفاع أفضل ــ إلى إيالتى اليمن وصنعاء على أن يكون مركزها زبيد ، وكانت الأولى منها تشمل البحر الأحمر التى تسمى تهامة ، والثانية المنطقة الجبلية التى تسمى جبل . ارتبطت عدن وحضرموت بصنعاء ، وقد سهل هذا انتقال القطر بكامله لسيطرة الإمام . لأن السلطة والجيش العثمانى انقسمت إلى قسمين . ونزل الإمام مطهر إلى الساحل واحتل مخا . تمكن العثمانيون بصعوبة من الاحتفاظ بزبيد وعدن .

عين الديوان أوزدمير أوغلو عثمان باشا واليا على صنعاء (١٥٦٧/١٢/١٦) . كان والد عثمان باشا قد سبق وأخذ صنعاء من الإمام . وعثمان باشا ، كان يعرف القطر بصورة جيدة . كان عثمان باشا قد نقل قبل مدة من منصب والى (فريق أول) الحبشة ، ويقيم فى القاهرة فى انتظار تعيينه الجديد . كلف والى مصر قوجا سنان باشا بإخماد عصيان اليمن كقائد أعلى (سردار) (١٥٦٨/٨/١٥) ، ورفعت رتبته إلى درجة وزير (مارشال ، مشير) . خصص قائد الهند قورد أوغلو خير الدين خضر رئيس ، مع ١٧ سفينة حربية لأمر عثمان باشا . جاء عثمان باشا بأسطول من السويس إلى جدة . أنزل خيالته فيها وساقهم برا إلى اليمن . وسار هو وجنوده المشاة عن طريق البحر ونزلوا فى الأراضى اليمنية عن طريق ميناء حديدة . احتل تعز التى كانت قد انتقلت لحوزة الزيديين قبل ١٠ أشهر . أما سنان باشا ، فقد سار بجنده من القاهرة فى ١٥٦٩/١/٥ عن طريق البر واجتاز الحجاز ، عسير ، اليمن وجاء إلى المناطق الجنوبية من القطر .

دب الخلاف منذ المقابلة الأولى بين القائد والوالي،بين سنان باشا وعثمان باشا . وقد كان بينهما أساساً نفور متبادل . كان عثمان باشا من رجال والى الشام السابق لالا مصطفى باشا الذى كان عدوا لدودا لسنان باشا . وكان سنان باشا ، من رجال الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا ، وكان يعتمد عليه . كان لالا مصطفى باشا من أسرة صوقوللو (صوقوللو ــ زاده) . لكنه كان يأمل إسقاط ابن عمه صوقوللو محمد باشا ويحتل منصبه هو . كان هناك نزاع عنيف بينهما وهما من أسرة صوقوللو . سيسرى هذا النزاع من استانبول إلى اليمن ، إلى مصر ، إلى بودين وقفقاسيا .

كان العلماء معارضين لصوقوللو . إذ إنه كان بمثابة الوزير الدكتاتور . كان يستفيد من ترك سليم الثانى كامل أمور الدولة إلى الحكومة . وكان المعروف أن سليم الثانى لايكن محبة متزايدة لصهره صوقوللو ويحب مودبه (لالا) السابق مصطفى باشا . لكنه كان عازما على عدم إظهار مشاعره هذه ومزجها بأمور الدولة ، وظل هذا شأنه إلى النهاية . حاول جهده الحيلولة دون سحق صوقوللو منافسيه ، ولم يفكر فى عزله . إذ إن صوقوللو كان ملتزما من قبل صنف الجيش الموجود فى استانبول المسمى حاميات قابوقولو ، وخاصة من قبل الانكشارية الذين هم أقدر هذه الحاميات . كان الوزير ٣ وثم ٢ داماد بياله باشا ، قد تزوج بابنة سليم الثانى الثانية . كان ينفر من صوقوللو ، لكنه لم يكن يظهر ذلك أبدا . كان يأمل أن يتصدر تلقائيا فى حالة وفاة صوقوللو . أما لالا مصطفى باشا ، فكان قد قدم خدمات جمة إلى سليم الثانى ويمكن أن يقال بأنه ضمن له العرش ، ويسر له أن يتغلب فى نزاعه مع إخوته ، أذكى وأمكر رجل فى عهده . أما عثمان باشا ، فإنه أعظم جنرال فى عهده . كان يحاول أن يقى نفسه من عداء سنان باشا المخيف معتمدا على دهائه العسكرى ومستندا على لالا باشا .

جاء أوزدمير أوغلو عثمان باشا إلى استانبول على أثر عزله من وظيفته كوال على اليمن من قبل سنان باشا وتعيين حسن باشا مكانه ، تاركا جنده لسنان باشا ، للتعرف على أوامر الديوان . تمكن لالا مصطفى باشا مستفيداً من تأثيره على السلطان ، من إنقاذ عثمان باشا أكبر عسكرى وزير فى القرن ١٦ من غضب صوقوللو بصعوبة ، حيث قد اتهم عثمان باشا بترك جنده ، وطلب إعدامه . قال

للبادشاه : « سيدى السلطان : إن عبدكم عثمان باشا أكسب دولتكم العلية الأقطار كالسودان ، الحبشة واليمن ، أوزدمير باشا هو ابن العبد المخلص لوالدكم طيب الله مثواه فى الجنة ، سلك درب أبيه وحصل على مكاسب كثيرة فى اليمن ، لاشك أنه يليق بعفوكم » . أمر الخاقان صوقوللو بتعيين عثمان باشا واليا على إيالة البصرة ، وحذره من إصابة عثمان باشا بأى ضرر . بقى عثمان باشا الذى ذهب إلى إيالة البصرة التى تشمل عدا العراق ، شرق الجزيرة العربية وكامل الساحل الغربى لخليج البصرة ، وبقى إلى حين بعيدا عن مؤامرات استانبول السياسية . كان قد ذهب إلى قطر يعرفه جيدا ويجيد لغته ويستطيع فيه أن يظهر قدارته العسكرية .

من ناحية أخرى ، استرجع سنان باشا اليمن من الأمام وساق الزيديين من الشمال إلى بحر عمان فى الجنوب . وجاء قورد أوغلو خضر رئيس بأسطوله واسترجع عدن من الزيديين (١٥٦٩/٥/١٥) . انتهت حركات اليمن باسترداد صنعاء فى ٢٦ تموز (١٥٦٩) . كانت قد بقيت لدى الإمام مطهر قلعة كوكبان . تم الاستيلاء عليها كذلك (١٥٧٠/٥/١٨) . تعهد الإمام بطاعة الخليفة . ورغم سفك دماء عثمانيين كثيرين ، لم يمس بسوء بسبب هويته الدينية . وخشى كذلك من ثورة الشعب الزيدى . كان الزيديون الذين هم شيعة معتدلون ، يعيشون مع السنيين على قدم المساواة . ولكن كان من الخطر ترك اليمن لإدارة الزيدية ؛ إذ إن البرتغاليين سيحتلونها فور انسحاب الجيش العثمانى . جاء بهرام باشا إلى زبيد (١٥٧٠/٥/٢١) . وكوال (فريق أول) أخذ عهدا من الأشراف ومن بينهم شيوخ حضرموت . كان يعرف البلاد بصورة جيدة ويجيد التكلم بالعربية حيث إن والده قرة شاهين باشا وكذلك أخيه الكبير رضوان باشا كانوا ولاة على اليمن . حكم اليمن بدراية تامة لمدة ٧ سنين .

أما سنان ، فقد أركب جنوده سفن الأسطول من مخا وغادر اليمن (١٥٧١/٣/١) . كان قد ترك القاهرة قبل ٢ سنة و ٢ شهر ، وبقى فى اليمن ١ سنة و ١٠ أشهر . صعد إلى البر فى جدة . حج . اجتمع بأمير مكة أبو نمى . انشغل فى الحجاز بالأمور الإدارية وجاء إلى استانبول . دخل إلى الديوان الهمايونى ، إلى حكومة الإمبراطورية العثمانية كوزير ٧ وأخير . أما الوزير ٦ ، فكان خصمه اللدود لالا مصطفى باشا .

٣) حملـــة أندونـــيزيا (١٥٦٨ ــ ٦٩)

أسرة قورد أوغللرى ، هى إحدى الأسر التركية البحارة الشهيرة فى القرن ١٦ . إن قائد الهند قورد أوغلو خضر خير الدين رئيس الذى حقق حملة أندونيزيا ، هو ابن مصلح الدين رئيس ، قائد الأسطول فى محاصرة القانونى لرودس سنة ١٥٢٢ ، الذى سمى ابنه باسم زميله بربروس خير الدين باشا .

كانت توجد فى سومطرة فى ذلك القرن ، ملكية آجه Açe المحلية المسلمة . دامت هذه الدوله من ١٥١٤ إلى ١٩٠٣ . تسلط البرتغاليون على هذه المناطق أيضا . بدأوا بإعاقة الأمور البحرية للآجيين . كان الجالس على العرش ، علاء الدين رعايت شاه قهار (١٥٣٧ ــ ١٥٦٨) الحاكم ٣ لآجه . وهو الذى طلب المساعدة من العثمانية . لكن كان الجالس على العرش خلال حملة أندونيزيا ، حسين شاه (١٥٦٨ ــ ١٥٧٥) .

كان قد مضى ٣٠ سنة على حملة الهند التى جرت فى ذات الموسم الذى جرت فيه حملة بروزة لسليمان باشا ، و ٧٠ سنة على وصول أول سفينة برتغالية جلبت بضاعة من الهند ، إلى أوروبا فأصابت البندقيه بالقلق خوفا على تجارتها .

لم يكن الحكام المسلمون فقط هم الذين يطلبون المساعدة من استانبول ، وإنما بدأ الحكام الهندوس كذلك . فمثلا ، كان اثنان من راجات سيلان والبنغال قد أرسلا رسالتين إلى استانبول ، يذكران فيها أنه فى حالة مساعدتهما عسكريا وتكنولوجيا ، فإنهما سيعترفان بالبادشاه متبوعا لهما ويقران الدين الإسلامى . أرسل السلطان سليمان مساعدات تكنولوجية إلى خاقانات وخانات تركستان كذلك . أرسل مدافع ، بنادق وعسكريين فنيين .

فكر السلطان ياوز سليم فى فتح قناة السويس واعادة الحركة لطريق البحر الأبيض . وبذلك سوف تقل الرغبة فى طريق رأس الرجاء الصالح الطويل جدا . لكن وافاه الاجل . والقانونى كذلك كان قد أمر الوزير الأعظم سميز على باشا ببحث موضوع القناة . وقد أخذ مشروع القناة بعين الاعتبار فى عهدى كل من سليم الثانى وابنه مراد الثالث ، و لم يتحقق ، فقد أصر قائد القوات البحرية قيليج على باشا على

ذلك ، عارضه صوقوللو محمد باشا . وربما كان ذلك لأن العثمانية كانت أغنى دولة فى العالم ، ولم تتمكن آسيا التى لاحظت غناء أوروبا الذى يفوق التصور لغاية أواسط القرن ١٨ ، من اتخاذ التدابير اللازمة ، ولم يتيسر إدراك قرب انتقال تفوق عالم البحر الأبيض الذى يرقى عهده إلى ٢٠٠٠ سنة ، إلى غرب البحر الأبيض .

كان السلطان سليمان قد أرسل مساعدة إلى آجه قبل قورد أوغلو خضر رئيس . وعلى سبيل المثال ، أرسل لطفى بك كسفير وأرسل معه ٨ من المدفعيين وعدة مدافع . أخذ سلطان آجه الهدايا ، قائلا : إنه عبد الخليفة المخلص ، وإنه سيعامل أى جندى يرسله ، معاملة الأمير ، وطلب مساعدة على نطاق أوسع . أرسلت إليه عدة مساعدات أخرى بأساطيل صغيرة . وأصبحت آجه بهذه المساعدات على مر الزمن ، صاحبة حصة عثمانية كبيرة . وفى حملة ملقة ١٥٦٧ ، كان تحت إمرته ٤٠٠ جندى بحرى عثمانى (لوند) (Menez Pinto Les Voyages ، باريس ١٦٢٨) . إن وفاة القانونى فى الوقت الذى قرر فيه تقديم مساعدة كبيرة ، واستبقاء الأسطول بسبب قضية اليمن ، أدى إلى تأخير المساعدة لعدة سنوات . وأخيرا ، أبحر قورد أوغلو من السويس فى ١٥٦٨ بـ ٢٢ قطعة من سفنه . سلم إلى السلطان مهمات تكنولوجية كثيرة ومئات من المتطوعين البحريين والمدفعيين . توسعت بذلك حدود الدولة العثمانية إلى الشرق الأقصى إلى جنوب شرق آسيا وإلى أندونيزيا . اعترفت دولة آجه التى تحكم شمال سومطرة وماليزيا ، بالعثمانية متبوعا لها . منح الأتراك القادمين مراتب عالية . أعطيت لهم قيادة الأسطول . قام الآجيون بواسطة هذا الأسطول بفتوحات مهمة . وهناك من هؤلاء الأتراك الذين تزوجوا بالنساء الآجيات من ارتقى إلى مرتبة الإمارة . احتفظ شعب آجه بالمدافع والأعلام التركية كذكرى مقدسة حتى يومنا هذا . واليوم يقول كثير من أهالى آجه بأنهم أحفاد البحارة الأتراك ، لكنهم نسوا التكلم بالتركية (ولمزيد من التوسع راجع الوثائق الأرشيفية العثمانية الرسمية فى سجل الوقائع اليومية للديوان الهمايونى Dîvân-Hümayûn Mühimme defteri ، انظر العقيد (ميرالاى) البحرى صفوت بك ، Bir Osmanli Filosunun Sumatra Seferi, TOEM no.10,11 .) لقد دحرت بدرجة كبيرة المساعدة العثمانية التعرض البرتغالى فى أندونيزيا ــ ماليزيا .

٤) حملة استراخان (١٥٦٩)

إن إمارة (خانلق) استرخان Astirhan (أجدرخان Ejderhan، استراخان Astrahân) هى دولة تركية يترأسها أمراء من أسرة جوجى أولوصو المنتسبة إلى بنى جنكيز ، وإحدى الدول التى تشكلت من أنقاض دولة الطون أوردى .. كانت الدولة فى أواخر عهدها تابعة للعثمانية . لكن روسيا احتلتها فى ١٥٥٦ وسيطرت على دلتا الفولغا ، وكان القطر عند القيام بحملة استرخان ، تحت الحكم الروسى منذ ١٣ سنة .

كان هدف الحملة استرداد الإمارة القديمة وأكثر من ذلك ، فتح قناة بين نهرى الدون والفولغا وتأمين المرور بين البحر الأسود والخزر بصورة متقابلة والوصول إلى تركستان عن طريق البحر . لو حفر طريق طوله ٥٠ كم من الموقع الذى ينعطف فيه النهران ، فسوف يمتلىء الطريق بالماء . وهكذا كان بالإمكان تأمين طريق نهرى طوله ٩٥٠ كم بين الميناء التركى Azak(Rostov) الواقع على بحر آزوف Azak واسترخان الواقعة على بحر الخزر . توجد حاليا مدينة فولغاغراد (قديما جارستان وحاليا ستالينغراد) فى الموقع الذى يقترب فيه نهر الفولغا (بالتركية : Idil) من الدون (بالتركية : Ten) على منعطف الفولغا . حفر الروس هذه القناة فى ١٩٥٢ ، وربطوا البحرين ببعضهما .

أمر سليم الثانى (Dîvân-Hümayûn Mühimme Defterleri ، ٧ ، ٩٤٨) باسترداد إمارة قزان التى كانت فيما مضى تابعة للعثمانية من الروس . وعلى الرغم من أن عملا كهذا كان مهما جدا .. يقتضى ذهاب البادشاه أو على الأقل الوزير الأعظم ، فإن صوقوللو محمد باشا لم يكلف أحد الوزراء ، وإنما كلف مستشار المالية جركس قاسم بك الذى عينه واليا (فريق أول) على كفه . ولم يتمكن هذا من السيطرة لا على الجند ولا على جيش العمال ولاعلى خان قرم . تصرف خان قرم بطريقة تؤدى إلى تمييع هذا العمل وعدم وصوله إلى نتيجة . كان يخشى من بقاء جنود البحرية والمشاة العثمانيين بصورة مستمرة فى حالة فتح القناة وأخذهم قرم من سلالة كيراى إذا اقتضى الأمر .

تحرك الأسطول لحملة استرخان من استانبول (١٥٦٩/٨/٤) ، ودخل ميناء

آزاك (روستوف) أى إلى مصب نهر الدون . بدأ ٨٠٠٠ انكشارى ، أكثر من ٢٠٠٠٠ سباهى تمارلى و ٣٠٠٠٠ عامل فى حفر القناة اعتبارا من آزاك . أما خان قرم دولت كيراى فإنه دخل مع ٣٠٠٠٠ من خيالته استرخان (١٥٦٩/٩/١٢) . ورغم سرية المدفعية العثمانية فقد رفع حصار القلعة بعد ٨ أيام ، وبناء على ذلك تعذر أخذ قلعة المدينة من الروس . جدير بالذكر أن القراميين غزاة وصاعقة ينفرون من محاصرة القلاع لأنها عملية شاقة وتستدعى خسائر كثيرة . من الواضح أن روح اللامبالاة التى أحاطت بالعملية لم يكن يتوقع معها أى نجاح للعملية .

لقد كانت عملية مهمة ؛ لأنها تجتاج السدين:الإيرانى والروسى ، وتربط تركية بتركستان ، ومع ذلك فقد توقفت . أوقفت الأعمال فى القناة بحجة هجوم البرد . إن قصد خان قرم ومبلغ فزعه من العثمانية يظهر من كلامه التالى :

« عندما تبدأ جنود العثمانية بالقدوم إلى الأراضى القبجاقية وشيروان (أوكراينا وشمال آذربيجان) سوف لاتبق هناك قيمة للتتر ويحتمل أن تذهب قرم من أيدينا ! » .

ألقى سليم الثانى مسئولية عدم التوفيق فى هذه العملية على عاتق صوقوللو بهذه الكلمات : « يقتضى تغريمك كافة المصاريف والأضرار ! » لقد كان تشخيص العثمانية للخطر الروسى فى هذه الفترة وحتى بعدها بوقت طويل .. قاصراً ؛ فقد كان ينظر إلى موسكو على أنها دولة من الدرجة الثانية تسدد ضريبة سنوية للعثمانية . أما قرم فإنها لم تفكر فى هذا الخطر أبدا (لأجل تدقيق الوثائق العثمانية الرسمية عن المعلومات حول هذه القناة ومحاولة فتح استرخان وقزان ، انظر أحمد رفيق ، Bahr-i Hazar-Karedeniz Kanali ve Ejderhan Seferi, TOEM, No. 43) .

٥) حملة قبرص (١٥٧٠ ـ ٧١)

انتقلت جزيرة قبرص التى أخذت فى الحملة الصليبية الثالثة من البيزنطيين والتى اسس فيها ملكية كاثوليكية لاتينية وجيء بأسرة Lusignan الفرنسية لرئاستها .. إلى حوزة البندقية وأصبحت مستعمرة بندقية . ولكون الشعب القبرصى رومى الأصل ، فقد عامله الإيطاليون الذين تلو الفرنسيين معاملة الكلاب . قامت مصر (المماليك)

فى ١٤٢٤ بمحاولة جدية لفتح الجزيرة . احتل الأسطول المملوكى الذى أنزل الجنود فى ميناء Limasol (بالتركية : ليماسون) Magosa (بالتركية : ماغوسا) ، وأسروا الملك Janus وأرسلوه إلى القاهرة . أصبحت قبرص تابعة للسلطان المملوكى وتدفع ضريبة سنوية . وعندما انتقلت الجزيرة لادارة البندقية ، أخذت البندقية كذلك فى تسديد هذه الضريبة إلى القاهرة . وبانتقال مصر إلى السلطان سليم فى ١٥١٧ ، أبلغت الجمهورية البندقية من تلقاء نفسها بأنها سوف تدفع ضريبة قبرص السنوية بعد الآن إلى استانبول .

لم تكن قبرص وكرا للقراصنة وبلية على المسلمين كجزيرة رودس فى حالة الصلح مع البندقية ، ولكنها كانت كذلك عندما تكون البندقية فى حالة حرب مع تركية ، لكن وجود مستعمرة لاتينية من بقايا الحروب الصليبية فى شرق البحر الأبيض ، كان شيئا قد مضى عهده . كانت تقطع طريق الأناضول ــ مصر البحرى . هذا عدا أنها كانت فى عهد الأمويين وبداية عهد العباسيين تشكل إحدى إيالات الامبراطورية الإسلامية ، ثم انتقلت لحوزة البيزنط ، ومازال بقبرص أماكن إسلامية مقدسة من بقايا عهد الحكم العربى .

نشأت فكرة فتح قبرص عند سليم الثانى . كان صوقوللو معارضا . كان الأميرالات يضغطون على البادشاه لتحقيق ذلك ويبحثون عن محاذير بقاء مستعمرة أوروبية فى شرق البحر الأبيض . كان خروج السلطان والوزير الأعظم فى حملات عبر البحار ممنوعا فى النظام العثمانى . كان صوقوللو يخشى من وزير يفتح قبرص فيحصل على شهرة فينافسه . وفى الوقت ذاته ، كان يقول : إن محاولة كهذه سوف لاتقتصر على حرب عثمانية ــ بندقية وإنما سوف تجر إلى حرب أوروبية جديدة .

قام الوزير داماد بيالة باشا بواسطة التشكيلات السرية العثمانية بعملية تدمير واسعة فى ميناء ومصنع السفن البندقى . شب حريق كبير ، استولى الذعر على الناس ، احترقت سفن كثيرة فى الميناء وفى المصنع ، انتبه مجلس السناتوفى البندقية اتضح أن الهدف هو قبرص . ذهب أسطول مسيحى مكون من ٢٠٤ قطعة إلى المياه القبرصية لحماية الجزيرة . رتب الديوان لقبرص أكبر عدد من السفن لم يسبق أن تجمع حتى ذلك التاريخ دفعة واحدة ، خصص لهذه العملية ٤٠٠ . جاء أسطول الاستطلاع لمراد رئيس إلى مياه قبرص فى شهر آذار وفى شهر

أيار ، سار الوزير ٣ داماد بيالة باشا بالقسم الأعظم من الأسطول الهمايونى من استانبول (١٥/٥/١٥٧٠) . ولكون قائد القوات البحرية وناظر البحرية مؤذن — زاده على باشا جنرالا بالأصل وليس أمير بحر ، عين للقيادة بيالة باشا . أما الجيش البرى فقد تولى قيادته الوزير ٦ لالا مصطفى باشا وسوف يكون هو المسئول عن فتح الجزيرة . وبذلك يكون قد كلف لفتح قبرص ١ أميرال — كبير ، ١ مارشال (مشير) ٣ فريق أول بحرى و ٧ فريق أول . الفرقاء الأول البحريون هم ناظر البحرية على باشا ، بربروس — زاده حسن باشا وأولوج على باشا . كان الأسطول يحتوى على ١٠٠٠٠٠ شخص ؛ ٦٠٠٠٠ منهم جنود مشاة والبقية بحرية وجدافة . دخل الأسطول ميناء ليماسول (١/٧/١٥٧٠) وجرت عملية الإنزال فى اليوم التالى .

إن أقرب نقطة من قبرص إلى الأناضول ٧٠ ، إلى سورية ١٠٠ ، إلى مصر ٣٨٠ كم . وفى ٤ تموز جرى إنزال على ميناء لارنقة كذلك (بالتركية : طوزلا) . فتحت Kyrinia (بالتركية : كيرنة أو سرينية) فى ٩ تموز وبدأت محاصرة لفكوشة فى ٢٢ تموز . كان مركز الجزيرة لفكوشة ، لكن أقوى القلاع تحصينا كانت ماغوسا . كانت حامية لفكوشة ١٠٠٠٠ جندى بندق و ١٥٠ مدفعا . فتحت لفكوشة فى الهجوم العام الثالث بعد ٤٩ يوما (٩/٩/١٥٧٠) ، قتل والى عام قبرص Nicolo Dandolo . وبعد فترة قليلة استسلمت باف ، ليماسول ولارنقة . عين لالا مصطفى باشا ، والى شهرزور السابق مصطفى باشا واليا على قبرص واستبقاه فى لفكوشة مع ٢٠٠٠ جندى وجاء أمام ماغوسا .

كان ٥ جنرالات بندقيين يقومون بحماية ماغوسا المحصنة جدا ، ومعهم ٧٠٠٠ من جنودهم و ٧٥ مدفعا (Von Hammer ، ٦ ، ٤٠٨) ، لكنها تسلمت فى هذه الأيام ١٦٠٠ جندى وكمية كبيرة من المهمات . عاد بيالة باشا إلى استانبول فى ٦ ت١ (١٥٧٠) وفى ٤ آيار ١٥٧١ ، غادر استانبول الوزير ٢ برتو باشا (الذى لم يكن أميرالا وكان عسكريا بريا) وعين « قائدا للأسطول » « دونانمه سردارى » كان بيالة باشا . وهذه إحدى ترتيبات صوقوللو الغريبة التى تدل على نفوره من البحريين . أبحر برتو باشا مع قائد القوات البحرية مؤذن — زاده على باشا ، مع ٤٠٠ قطعة من الأسطول الهمايونى إلى إيطاليا ، وحالوا دون قدوم المساعدات إلى

قبرص بنجاح . وفى الوقت الذى كان فيه الأسطول يقوم بإنزال على صقلية ، كان لالا باشا مستمرا فى حصار ماغوسا وكان قد استبقى تحت إمرته ٤٠ سفينة فقط . كان باقى الأسطول قد انتشر فى مياه إيطاليا وبضمنه أولوج على باشا وبربروس ــ زاده حسن باشا .

سقطت ماغوسا فى الهجوم (بالعثمانية : يورويوش) ٦ (١٥٧١/٨/١) وتم فتح قبرص فى غضون ١٣ شهراً . تكونت الإيالة الجديدة بإضافة ٤ ألوية (علائية = آلانية ، إيجل = سلفكة ، طرسوس ، سيس = قوزان) من الأناضول . تم إسكان عدد كبير من الأتراك الأناضوليين فى الجزيرة . وبينما كان تعداد قبرص التى يسميها الاتراك « يشيل أده » (أى الجزيرة الخضراء) عند الفتح ١٢٠٠٠٠ (روضة الأبرار ، ص ٤٥٠) زادت إلى ٣٦٠٠٠٠ .

منحت العثمانية لرئيس الأساقفه الأرثوذكسى كافة الصلاحيات وأعطته الصلاحيات المدنية بالنسبة للجماعة الرومية ، ولم تكن لرئيس الأساقفه هذه الصلاحية فى العهد البندقى . غنم الأتراك المدافع الموجودة فى الجزيرة وعددها ٧٦٠ مدفعا .

بقى « فاتح قبرص » لالا مصطفى باشا فى الجزيرة مدة مجموعها ١ سنة ، ١/٥ شهر . أما الحملة فقد استمرت نحوا من ١/٥ سنة . غادر لالا باشا الجزيرة فى ١٥ أيلول (١٥٧١) (Hammer ، ٦ ، ٤١٧) .

٦) هزيمة اينبختى Inebahti (١٥٧١/١٠/٧)

عقد البابا فى ٢٥ آيار ١٥٧١ معاهدة الاتفاق ضد العثمانية مع ملك أسبانيا ، دوج (رئيس جمهور) البندقيه وضموا إليها بعض الدول الصغيرة كذلك . هذا هو الاتفاق ١٣ الموجه ضد تركية منذ تأسيس الدولة العثمانية (Hammer ، ٦ ، ٤٢٠ ــ ١) . ذكر البابا بيوس ٥ فى الكتاب الذى حرره إلى ملك أسبانيا فيليب ــ ابن شارل ــ كوينت ــ المؤرخ ١٥٧٠/٣/٨ مايلى : « لاتوجد فى العالم المسيحى أية دولة مسيحية يمكنها أن تقف لوحدها تجاه العثمانية . وبناء على ذلك يجب على كافة الدول المسيحية أن تتحد لتكسر الغرور التركى . » .

كانت أجهزة المخابرات التركية فى البندقية وروما قد أبلغت الديوان الهمايونى خبر

معاهدة الاتفاق عندما كانت فى مرحلتها التحضيرية ، على بساط المفاوضات . وفى سنة ١٥٧٠ وصيف ١٥٧١ كان الأسطول الهمايونى قد فتش عن الأسطول الصليبى ولم يعثر عليه ، ولعل ذلك يؤكد أن العثمانية لم تكن غافلة .

كان قائد الأسطول الوزير ٢ برتو باشا ، قد تسلم أمر العثور على الأسطول الصليبى وإبادته ، وكان الديوان قد أعطى الأمر القطعى ذاته إلى قائد القوات البحرية . لكن كلاً من برتو باشا أو مؤذن ــ زاده على باشا ، كانا قائدين لم يركبا السفن إلا حديثا وقضيا حياتهما كجنرالين فى القوة البرية . ومع أن الأسطول التركى فى البحر الأبيض يبلغ نحو ٤٠٠ سفينة ، لكنها توزعت عند حلول الخريف إلى قواعد مختلفة . أما السفن الـ ١٨٤ التى تشكل القسم الكلى ، فهى بإمرة برتو باشا ومؤذن ــ زاده على باشا ، فقد جاءت إلى قاعدة اينبختى (Lepanto) . ذهب عدد غير قليل من الضباط بإذن أو بدون إذن إلى هنا وهناك لقضاء الشتاء . ويظهر كذلك إن الجنرالين لم يتمكنا من السيطرة على الأسطول وضبطه . وهناك عدد كبير من السفن كانت تحتاج إلى إصلاح وأودعت مصنع التصليح فى إينبختى بسبب سيرها مدة طويلة . اينبختى Inebahti ، وهى ميناء عثمانى فى اليونان على خليجى باتراس ــ كورنثوس ، الساحل المواجه لها مورا وميناء Patras (بالعثمانية : باللى بادرا) .

كان الأسطول الصليبى (أرمادا) يحتوى على ٢٩٥ سفينة و ٣٠٠٠٠ جندى ، ١٦٠٠٠ جداف (فورسا) و ٢٠٨ من السفن الحربية (قادرغه) ؛ ١١٤ منها بندقية و ٧٠ أسبانية و ١٢ بابوية و ٦ مالطية و ٣ جنوية و ٣ سافوائية . كان القائد العام أخو فيليب الثانى Don Juan « وهو ابن الإمبراطور كارلوس الثانى ابن زنى » (كاتب جلبى ، تحفة الكبار ، ص ٩٢) ، أى أنه كان ابنا غير شرعى . كان قائد الأسطول البندقى الأميرال ــ الكبير Veniero ، والأسطول البابوى الأمير Marco-Antonio Colonna . ويقود الأسطول الأسبانى Giovanni Andrea Doria الذى هزم فى جربة أمام بيالة باشا . كان الأميرال ــ الكبير لصقلية Cordona على رأس ٨ قطع من الأسطول الطليعى . كان الاميرال ــ الكبير لنابولى Marki Bazzano على رأس أسطول الاحتياط المكون من ٣٠ قطعة . ويحتوى الأسطول على أميرالات مشهورين بينهم دوق Parma ، أميرال ــ كبير جنوة دوق Urbano ، أميرال ــ كبير كاستيليا ، صهر ملك البرتغال ولى عهد بارما Alessan dro

Farnese ، أميرال ــ كبير مالطة Guistiniani (Hammer ، ٦ ، ٤٢٢ ــ ٥) .

كان الأسطول التركى يحتوى على ١ وزير (مارشال ، الوزير ٢ برتو باشا) ، ٤ فريق أول بحرى (قائد القوات البحرية مؤذن ــ زاده على باشا ، والى الجزائر ألولوج على باشا ، والى طرابلس الغرب جعفر باشا وبربروس ــ زاده حسن باشا الذى كلف بواجب المستشار لبرتو باشا) ، ١٥ لواءً بحرياً ، ونحو ٢٠٠ قائد سفينة (قبطان) . كان حسن باشا الذى يعيش أشهره الأخيرة فى الـ ٧١ ، وألوج على باشا فى الـ ٦٤ سنة من عمره . كان بين الألوية البحريين صالح باشا ــ زادم محمد بك ، بربروس ــ زاده محمود بك ابن حسن باشا المولود من ابنة طرغد باشا . كان جميع الجدافة الموجودين فى الأسطول التركى على الإطلاق من المسيحيين . كان هذا الأمر عنصرا مهما . إن كثيراً من الضباط الذين شاهدوا السفن وقد ألقت مراسيها فى إينبختى لقضاء الشتاء وتوقعوا أن العدو لايهجم فى هذا الموسم ، انفصلوا عن سفنهم ، وفضلا عن ذلك كان هناك نقص فى الجدافة (بجوى ، ١ ، ٤٩٦ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٢٨ ؛ سلانيكى ، ١٠٥ ؛ تحفة ، ٩٢) .

وعلى أثر اقتراب العدو ، جمع برتو باشا فى سفينته الأميرالية ١٩ أميرالا ٤ منهم فرقاء أول (بكلربك) و ١٥ منهم ألوية (سنجق بك) ، وعلى أثر اختلاف الرأى وانقسامه إلى قسمين ، انفض المجلس الحربى دون قرار . كان الثقل فى جانب برتو باشا ومؤذن ــ زاده على باشا ، إذ إن كليهما كانا مسئولين أمام الديوان . كلاهما لم يكن من البحرية . اقترح أمراء البحر الحقيقيون تكتيكا مغايرا وأصروا عليهم وخاصة أولوج على بك ، ولكنهم لم يفلحوا فى إقناع برتو باشا ومؤذن ــ زاده على باشا . أراد الأميرالات عدم دخول هذه المعركة إلا بعد قصف قطعات العدو بمدافع القلاع وإتلافها ومن ثم تعقبه . وعندما أفاد برتو باشا وعلى باشا بأنهما استلما أمر الهجوم بصورة مؤكدة ، أجابوا بوجوب الخروج إلى البحار المفتوحة . أفاد الباشوات بأنهم سوف لن يبتعدوا عن الساحل . اكد قائد القوات البحرية خاصة أنه هو المسئول عن الأسطول وكرر ذلك مرارا ، إن عباراته التالية التى تدل على جهله أصبحت فى ذمة التاريخ : « أى كلب هو ذلك الكافر حتى نخافه ؟ » (سلانيكى ، ١٠٤ ؛ « إننى لاأخشى على منصبى ولا على رأسى ، أن الأوامر الواردة من الديوان تشير إلى الهجوم » (بجوى ، ١ ، ٤٩٦ ــ ٧) ؛ « لاضير من

نقص خمسة أو عشرة أشخاص من كل سفينة .. ألا توجد غيرة على الإسلام ، ألا يصان شرف البادشاه ؟ » (منجمباشى ، ٣ ، ٥٢٨ — ٩) . ولم يجد صياح أولوج نفعا إذ قال « أين الذين حاربوا مع خير الدين باشا وطرغدجه باشا ، لماذا لايتكلمون ، هل يمكن أن تكون حرب بحرية فى ساحل ؟ » (تحفه ، ٩٣) .

جرت حرب إينبختى (Lepanto) إحدى أكبر الحروب فى التاريخ ، بشكل دموى رهيب . استشهد قائد القوة البحرية مؤذن — زاده على باشا وابنه ، وأسر الأسبان ابنه الآخر . قتل الأميرال البندقى Barbarigo . غرقت سفينة الأميرالية لبرتو باشا وشدت إلى الساحل بتضحية كبيرة وأنقذت . كان أولوج على بك يقود الجناح الأيمن . لم يفقد أية سفينة حربية من سفنه البالغ عددها ٤٢ . أباد كامل الأسطول المالطى الذى جابهه . قتل الأميرال — الكبير المالطى واغتنم رايته . استصحب بربروس — زاده حسن باشا وابتعد عن ساحة القتال . حيث لم تعد ترجى فائدة من المركز والجناح الأيسر العثمانى .

إن كشف خسائر الحرب كان مخيفا لكلا الطرفين . ١٤٢ سفينة تركية بين غريقة وجانحة على الأرض أو مستولى عليها . استولى العدو على ٦٠ سفينة ، اقتسمت بين دول الاتفاق ، كما استولى على ١١٧ مدفعا كبيرا و ٢٥٦ مدفعاً صغيرا صالحة للاستعمال خرجت من هذه السفن . تم تخليص ٣٠٠٠٠ من الأسرى الجدافة المسيحيين الذين كانوا فى الأسطول الهمايونى . سقط آلاف من الأتراك شهداء و ٣٤٦٠ أسيراً . كان مجموع الشهداء والأسرى الأتراك يقارب ٢٠٠٠٠ . كانت خسائر المسيحيين ٨٠٠٠ قتيل ، ٢٠٠٠٠ جريح ، وقليلا جدا من الأسرى (Hammer ، ٦ ، ٤٢٩) . لم تبق تقريبا سفينة حربية أو ناقلة مسيحية غير مصابة . فقد Cervantés كاتب دون كيشوت – الذى كان قد عاش سنين طويلة فى الجزائر كأسير لدى الأتراك – ذراعه اليسرى . جرح أيضا القائد Don Juan .

كان ٣ من أسرى الأتراك برتبة لواء بحرى وأحدهم ابن قائد القوات البحرية . حاز المسيحيون على ٣ شارات رأس لبرتو باشا ، راية مؤذن – زاده الحريرية المطرزة بالذهب (أعاد البابا هذه الراية إلى تركية فى ١٩٦٥ كرمز للصداقة) .

لم تكن خسارة العثمانية الحقيقية خسارة مادية وإنما كانت خسارة معنوية . زالت شهرة العثمانية بأنها دولة « لاتقهر » ، وثبت فعليا إمكان قهرها . كانت تركية حقا

هى المنتصرة فى حرب البندقية ، و لم تكن إينبختى سوى حرب واحدة ضمن تلك الحروب ، لكنها كانت حربا ذات مغزى كبير . رقصت أوروبا فرحا .

« أثبتت إينبختى بأنه يمكن قهر الأتراك . ولكن لونظرنا إلى نتيجة الحرب كما كتبها فولتير فى Essai Sur les Moeurs لاعتقد المرء بأن الأتراك هم الذين انتصروا فى إينبختى » . إن هذا الانتصار لم يحقق للمسيحيين والدول المسيحية أدنى مكسب ، فهذه الهزيمة أفادت العثمانيين من حيث إثبات أنهم أمة على درجة من القدرة والرفاهية ، فهم قد شيدوا عددا من السفن يعادل مافقدوه فى اينبختى ، وجهزوها وأثثوها وأنزلوها فى البحر الأبيض خلال عدة أشهر .. ويعتبر هذا العمل من أسرع الأعمال التى سجلها التاريخ ، وفى الوقت الذى كان البنادقة يشيدون التماثيل فيه على شرف انتصارهم ، كان الأتراك يعملون فى مصانع سفنهم على قدم وساق وبجهد منقطع النظير ، لقد منح البادشاه قسما من أراضى حديقته الخاصة إلى المصنع لغرض إنشائه ٨ سفن ، وشيد الأتراك خلال شتاء واحد وهو الذى عقب إينبختى ١٥٣ سفينة حربية وجهزوها وهى أكثر من التى فقدوها فى إينبختى . وبذلك يكون الأسطول التركى قد فاق عدد مجموع سفن دول الاتفاق . وأساساً فإن المعاهدة التى عقدت مع البندقية صريحة جدا ، وهى تبين من هو المنتصر فى الحرب . إن انتصار اينبختى لم يجد نفعا للمسيحيين (Von Hammer ، ٦ ، ٤٣٠ - ٣) .

ولتقوية الروح المعنوية لشعب إستانبول ، استصحب أولوج على باشا صديقه بربروس - زاده حسن باشا مع القطع البحرية الموجودة فى بحر إيجة ، ودخل إستانبول بعد الهزيمة بشهرين ، ١٣ يوما مع أسطول كبير يتألف من ٨٧ سفينة حربية . مثل الأميرال بين يدى سليم الثانى ، وبدل اسمه إلى « قيليج على » (على القاطع أو على السيف) . تمت ترقيته من منصبه إلى قائد القوات البحرية وناظر البحريه . وهكذا دخل بين أعضاء الديوان بحار صلب لايستريح له صوقوللو أبدا . لكن الوزير ٢ برتو باشا ، أحال نفسه على التقاعد . سر صوقوللو لخلاصه من أحد منافسيه . أصبح بيالة باشا المكروه أكثر من صوقوللو وزيرا ثانيا . توفى بربروس - زاده حسن باشا بعد عدة أسابيع من عودته إلى إستانبول .

غادر قيليج على باشا إستانبول مع ٢٤٥ سفينة حربية (١٥٧٢/٦/١٣) . كانت خطة أسطول الحلفاء إنقاذ قبرص . لكنه كان قد قدم ضحايا كثيرة من السفن

وخاصة من البشر ، ولعدم امتلاكه مخزونا من الأطعمة لم يتمكن من الدخول إلى قبرص ، فاتجه إلى المياه التركية بعد أن ضمد جراحه بأمل الاستيلاء على مورا ومودن . لكن دون جوان ابتعد وذهب حينما شاهد قيليج على باشا قادما مع أسطوله ومتجها نحوه . إن تمكّن الأسطول التركي من تعويض خسائره خلال شتاء واحد خيب آمال إسبانيا والبندقية . اختلف دون جوان مع البنادقة أيضا وعاد إلى إسبانيا . مات البابا بيوس ٥ الذى كتب رسالة إلى الشاه الصفوى كما كتب إلى الإمام الزيدى فى اليمن يدعوهما للتحالف (١٥٧٢/٥/١) .

عقدت معاهدة إستانبول بين تركية والبندقية (١٥٧٣/٣/٧) ، وهى تتكون من ٧ مواد من بينها ؛ تسدد البندقيه إلى تركية ٣٠٠ ٠٠٠ ليرة ذهب كغرامات حرب رمزية ، تزاد الضريبة السنوية لجزيرة زنتا Zenta الموجودة فى حوزة البندقية من ٥٠٠ ليرة ذهب إلى ١٥٠٠ . تبقى قبرص لدى تركية . تلقت البندقية – التى خشيت من احتمال هجوم قيليج على باشا على كريت – خبر الصلح بسرور .

تحرك قيليج على باشا بالأسطول من إستانبول فى السنة التالية (١٥٧٣/٦/٣) . كان الوزير ٢ داماد بيالة باشا موجودا كذلك . تم تدمير سواحل إيطاليا الجنوبية المشرفة على بحرى Adria و Tiren . كانت هذه الحملة التى جرت بواسطة ٢٢٠ سفينة حربية مقدمة لفتح تونس . لقد كان أخذ قبرص من البندقية بمثابة تعويض عن خسارة إينبختى ، وسوف تؤخذ بعدها تونس من إسبانيا .

(٧) فتح موسكو (١٥٧١/٥/٢٤)

سار خان قرم دولت كيراى فى ربيع ١٥٧١ بجيش مكون من ١٢٠ ٠٠٠ خيال أكثرهم من قرم ، وقسم منه جنود عثمانيون ، إلى روسيا . استصحب معه سرية مدفعية عثمانية . جرت هذه الحملة للتعويض عن هزيمة استرخان وتحذيرا للروس من محاولتهم التوسع أكثر . تشتت الجيش الروسى بعد أن خسر ٨٠٠٠ شخص ولم يتمكن من الدفاع عن موسكو . دخل الأتراك موسكو وأحرقوا المدينة . عاد الخان إلى قرم مع ١٥٠ ٠٠٠ أسير وعلى أثر انتصاره ، حصل على لقب « تخت – آلان » (كاسب العرش) . شاهد الأتراك الذين دخلوا موسكو فى ٢٤ أيار ١٥٧١

وأحرقوا حتى سراى الكرملين،فرارمعظم الأهالى وأسروا البقية . وفى ١٥٧٢ ، سار دولت كيراى بحملة ثانية . اجتاز نهر Oka ، لم يصعد إلى الشمال أكثر من ذلك . دفعت روسيا ضريبة سنوية قدرها ٦٠٠٠٠ ليرة ذهباً وعقدت صلحا مع قرم (d'Ohsson ، ٧ ، ٤٤٣ ؛ Lavisse - Rambaud ٥ ، ٧٤٩ ؛ Hammer ، ٦ ، ٤٤٦) . لقد أدى ترك القيصر إيفان (المذهش) الرابع ٣٠٠٠٠ خيال و ٦٠٠٠ جندى مشاة من حملة البنادق وفراره من موسكو واغتنام الأتراك خزينة القيصر الموجودة فى قصر الكرملن (هذه الكلمة تركية الأصل) ، ومقتل أخوى زوجة القيصر الإثنين ، كل ذلك أدى بسلالة Rurik إلى الانقراض . بارك سليم الثانى دولت كيراى بإرساله إليه سيفا مرصعا وخلعة وكتابا سلطانيا . لم يلتفت الديوان أبدا إلى سفراء الروس الذين جاءوا لإيقاف الغزوات القرامية ، وكان الشعب فى إستانبول حانقا جدا على الروس بسبب احتلالهم إمارات قزان وإسترخان . إن هاتين الإمارتين هما من أوائل الأقطار التى انتقلت لحوزة المسيحيين،وحاليا مسلمة ومازالت لدى الروس .

(٨) حملة تونس (١٥٧٤)

كانت مشكلة مسلمى الأندلس مستمرة بين العثمانية وإسبانيا ولاتزال تشكل جرحا بليغا وداميا وتعرقل الديوان عن عقد الصلح مع أكبر دولة مسيحية .

كانت إسبانيا فى حالة حرب مستمرة ، تزعم الثوار المسلمين فى الأندلس بالتسلسل ابن أمية ، عبد الله بن عبدو ومحمد منصور .

صعد جماعة الأندلسيين المحاربين إلى سفوح سيرانفادا ، ثم إلى ذراها ، ذبحهم دون جوان غالب إينبختى بصورة قذرة . حقيقة لقد تكبد الإسبان خسائر جسيمة ولكنهم لم يكن قد بقى لديهم مايخشون على ضياعه (١٥٦٩) .

اقترفت إسبانيا الظلم ذاته تجاه رعاياها البروتستانت الموجودين فى إسبانيا ، هولندا . وأشهر اثنتين من هذه المجازر البشرية هى ذبح كل سكان مدينة Harleem البالغ عددهم ١٥٠٠٠ نسمة فى ١٥٧٣ وتكرار الفعل ذاته فى ١٥٩٥ مع كل سكان مدينة Dullans البروتستانت البالغ عددهم ٤٠٠٠ نسمة Lavisse-Rambaud ، ٥ ، ١٣٠) .

استمر أولوج على باشا فى الاهتمام بقضية المهاجرين الأندلسيين عند تعيينه واليا (فريق أول) على الجزائر اعتبارا من ٢٧ حزيران ١٥٦٨ وحتى تعيينه ناظرا للبحرية وقائداً للقوات البحرية (قبودان دريا) . وكان قبلها قد قام بالولاية (برتبة لواء) على تلمسان لمدة طويلة ، ونقل مهاجرين أندلسيين على دفعات عديدة . وهو أحد الأميرالات من بقايا عهد الإخوة بربروس الذين قلوا كثيرا ، كما أنه خبير كبير بأمور المغرب والأندلس . أرسل سفنه الـ ٤٠ إلى ميناء Almeria (بالعربية : المرية) فى إسبانيا . وتمكن من توصيل قدر كبير من الأسلحة النارية إلى الثوار فى جبال الأندلس . أركب آلاف المهاجرين من الذين أمكنهم الاقتراب إلى الساحل .

اجتاز المياه المواجهة لوهران ودخل فاس مع ١٤٠٠٠ جندى تركى ، ٦٠٠٠٠ جندى عربى بربرى أكثرهم مهاجر أندلسى و ١٤٠٠ جمل محمل بالبارود وجاء أمام أسوار فاس .

تمكن عدة مئات من جنود البحرية الأتراك من النزول فى الأراضى الإسبانية مع أسلحتهم النارية ومن بينها المدافع ، والوصول إلى الثوار الأندلسيين والانضمام إليهم .

وفى ١٥٦٩ جرى إنزال على الأندلس على نطاق أوسع . عدة مئات من جنود البحرية ، دخلوا أعماق الأندلس ومعهم ٤٠٠٠ بندقية ومهمات أخرى وانضموا إلى الثوار .

ومن ناحية أخرى ، كان شعب مدينة تونس يعانى من أمرين ، ظلم الإسبان والحفصيين . جاء أعيان الشعب وممثلوهم إلى إستانبول أيضا وشكوا مصائبهم بعد استراحتهم فى الديوان (١٥٦٣) . كانوا يريدون قدوم العثمانية وطرد السلطان والحامية الإسبانية من مدينة تونس ، خاصة وأن التونسيين كانوا يشاهدون المدن وعلى رأسها مدينة الجزائر والموانىء الجزائرية قد اغتنت جدا بفضل مبيعات الغنائم التركية ، كما استقر فيها الأمن بشكل لم يسبق له مثيل من أية إدارة حتى ذلك التاريخ .

سار أولوج على باشا بعد أن ترك وكيلا عنه فى الجزائر ، على تونس بـ ٥٠٠٠ جندى تركى و ٦٠٠٠ عربى (أيلول ١٥٦٩) . ورغم أن السلطان الحفصى قابله بـ ٣٠٠٠٠ جندى فقد انتقل هؤلاء الجنود إلى صفوف أولوج على باشا .

لجأ السلطان إلى الحامية الإسبانية فى حلق الواد .

دخل الباشا مدينة تونس (ك١٥٦٩/١) استبقى رمضان بك (باشا) فى المدينة كوال .

جاء السلطان الحفصى بعد مدة مع الإسبان وطرد رمضان بك وجنوده الـ ٣٠٠٠ . ورغم أن أولوج على باشا راجع الديوان مرارا سواء حول القيام بإنزال واسع النطاق على الأندلس أو فتح مدينة تونس الحاسم ، لكنه لم يحصل على أية نتيجة من بطل الصلح صوقوللو محمد باشا .

حاول أولوج على باشا بعد أن أصبح عضوا فى الديوان الهمايونى وقائدا للقوات البحرية باسم قيليج على باشا فى إستانبول أن يشرح الوضع للوزراء فى الديوان . ومع أن بيالة باشا أيده ، إلا أن الأكثرية فى الديوان كانوا ينظرون إلى الكلمة التى ستخرج من فم الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا . وصرح للديوان بأن بربروس – زاده حسن باشا الكبير السن مطلع أتم الاطلاع على قضايا المغرب وأوصاهم بتعيينه مرة أخرى فى الجزائر بدلا منه . أنفذ الديوان هذا التعيين ، لكن حسن باشا توفى قبل مغادرته إستانبول (١٥٧٢/٣/١٥) .

رفع اللواء البحرى والى قوجا إيلى (إزميت) أحمد بك إلى رتبة الأميرالية (فريق أول بحرى) وأرسِل إلى الجزائر .. ولحين قدومه قام ميمى Memi رئيس أحد الأميرالات المشهورين بإدارة الإيالة بالوكالة (Divân - Hümayûn Mühimme Defteri ، ١٠ ، ١٧٩) . كان الوالى الجديد أحمد باشا ، أميرالا قديرا نشأ فى كنف قيليج على باشا ، ولأن أمه إسكندرانية ، كان يجيد التكلم بالعربية وكان أمير لواء بحرى (والى) على رودس ، قبل كونه واليا على قوجا إيلى .

ورغم أن ثلاثة أرباع تونس تابعة للعثمانية لإيالة طرابلس ، إلا أن إسبانيا كانت تحتل شمال القطر ومدينته الكبيرة تونس .جاء دون جوان مع ١٣٨ سفينة حربية و ٢٧٠٠٠ جندى إلى تونس . كان رمضان بك (باشا) الشهير الذى كان يحمل لقب « تونس سنجق بك » (أى لواء بحرى « والى » تونس) قد ترك مدينة تونس وأقام فى القيروان التى لايصلها النفوذ الإسبانى – الحفصى . استدعى الديوان أحمد باشا إلى إستانبول وعين رمضان بك بمنحه رتبة بكلربك (فريق أول بحرى) واليا على إيالة الجزائر (١٥٧٤/٣/٢٧) بدلا منه ، استنادا إلى أنه أكثر خبرة منه بأمور

المغرب . كان دون جوان قد ترك فى تونس ٨١٠٠ جندى ثم عاد . كان رمضان باشا عازما على إخراج الإسبان من تونس وكذلك من فاس ، وكان عالما بأن أستاذه قيليج على باشا سوف يسانده فى الديوان . كان أميرالا واسع البصيرة ويحتمل أنه آخر بحار تركى داهية فى القرن ١٦ ، وأصغرهم سنا . فصل الديوان الأراضى التونسية من إيالة طرابلس وأسس إيالة تونس الجديدة وعين حيدر باشا واليا عليها (١٥٧٣/٥/١٧) . كان حيدر باشا مقيما فى القيروان . وفى هذه الحالة كان فتح تونس الحاسم قد استكمل وفى انتظار المحاولة العثمانية .

خلع الإسبان السلطان أحمد الذى لم يستطع الدفاع عن تونس وظفر بها الأتراك . توسل أخوه مولاى حميد لدى الدون جوان لاحتلال مكان أخيه الكبير ، وحاول كثيرا فى هذا الشأن دون جدوى . أرسل مع عائلته للإقامة فى مدينة نابولى . لكن الأخ الآخر مولاى محمد ، أصبح الحاكم ٢٤ والأخير لحفصيى تونس بلقب « نائب الملك الإسبانى وأمير (infant) الملكية الإسبانية فى تونس » . كانت نهاية هذه السلالة السنية - المالكية البربرية المستعربة التى دامت ٣٤٦ سنه منذ ١٢٢٨ قد دنت .

سار الأسطول الهمايونى من إستانبول (١٥٧٤/٥/١٥) لأخذ مدينة تونس من الإسبانيين . جرت مراسم عسكرية ودينية كبيرة أمام قبر بربروس ، وبعد تحية القبر بمدافع السفن أبحرت ٢٩٨ سفينة تحمل ٤٠٠٠٠ جندى ، ٧٠٠٠ منهم إنكشارية و ٤٨٠٠٠ جدافة . كان ناظر البحرية المشير البحرى قيليج على باشا قائدا للأسطول ، والقائد العام الوزير قوجا سنان باشا قائدا للقوات البرية . جاء الأسطول إلى تونس (٢٢ تموز) بعد أن دخل ميناء مسينا وقام بعرض . كان الأسطول يحتوى عدا قائد البحرية على ٤ فرقاء أول بحريين (والى طرابلس مصطفى باشا ، والى تونس حيدر باشا ، والى الجزائر رمضان باشا ، والى الجزائر السابق ثم والى قبرص أحمد باشا) . كان الإسبانيون قد حصنوا قلعة حلق الواد (بالفرنسية : La Goulette ؛ بالإسبانية : Gouletta) بشكل ممتاز . قاوم الإسبان بشدة فى هذه القلعة التى سبق أن انتقلت لحوزة العثمانيين مدة ٣٣ يوما . فتحت فى ٢٤ آب . قتل ٥٠٠٠ جندى إسبانى - إيطالى وأسر ٣٠٠٠ منهم . كان الأميرال Pagano Doria بين القتلى ، وكان القائد العام Don Pietro والسلطان الحفصى محمد بين

الأسرى . أرسل مولاى محمد مع عائلته إلى إستانبول وخصص له قصر أقام فيه إلى نهاية عمره . غنمت العثمانية ٢٢٥ مدفعا و ٣٣ راية ، أرسل منها ١٩٠ مدفعا إلى إستانبول . زرع قيليج على باشا ٣٠ لغما وفجر هذه القلعة الشهيرة ليقطع الطريق على مجيء الإسبانيين الذين لم يكن أمامهم بعد تفجير القلعة سوى مدينة تونس المفتوحة .

أنقذت البلاد التونسية من تسلط الإسبان مدة قرن تقريبا . سقطت فى ١٣ أيلول قلعة Bastion (بالعربية : البسطيون) الموجودة فى أحد جوانب مدينة تونس التى يقوم بحمايتها ٢١١٠٠ إسبانى بعد حصار دام ٦ أيام . دخلت المدينة الكبيرة التى تحتوى على أكثر من ١٠٠ ألف نسمة من السكان فى حوزة العثمانية لمدة ٣٠٧ سنة . دامت الحملة ٦ أشهر و ١٦ يوما . وقف السلطان سليم الثانى الذى تسلم خبر الفتح بعد ٣٤ يوما (١٧ ت ١) من الفتح لمشاهدة عودة الأسطول الهمايونى (١٥٧٤/١١/٣٠) . كان قد بقى من عمره ١٥ يوما . أهدى قيليج على باشا سيفا مرصعا و ٣٠٠٠ ليرة ذهب وهدايا أخرى .

نقل حيدر باشا مركز الإيالة من قيروان إلى مدينة تونس ، زوده قيليج على باشا بـ ٤٠٠٠ جندى إضافى . أسست فى تونس كما فى الجزائر حامية إنكشارية من المتطوعين القادمين من الأناضول الذين ليست لهم أية علاقة بحامية الإنكشارية الموجودة فى إستانبول . (تحفة الكبار ، ٩٧ – ٨ ؛ يجوى ، ١ ، ٥٠١ – ٣ ، صولاقزاده ، ٥٩٤ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٣١) .

(٩) وفاة السلطان سليم الثانى (١٥٧٤/١٢/١٥) وشخصيته

توفى السلطان سليم خان الثانى على أثر سقوطه من جراء انزلاق قدمه أثناء استحمامه فى حمامه فى سراى طوبقابو . توفى بعد عدة أيام من هذه الحادثة بسبب نزيف دماغى (١٥٧٤/١٢/١٥) . كان عمره يتجاوز الـ ٥٠ سنة بـ ٦ أشهر و ١٨ يوما . دامت سلطنته ٨ سنوات و ٣ أشهر و ٨ أيام . توفى فى ذات العمر الذى توفى فيه جده السلطان ياوز سليم الأول وسلطنة ياوز تزيد على سلطنة حفيده بـ ٥٠ يوما فقط . الشبه ينتهى هنا ، فقد كان سليم الثانى هو السلطان العثمانى الأول الذى

لم يتمكن من اللحاق بركب أجداده . ومع أن حلقة الدهاة قد جاءت بعد ذلك بين الحين والآخر بثمارها لكنها اكتملت بالسلطان سليمان القانونى ولم تتعداه إلى السلطان سليم الثانى .

كان السلطان سليم ، أول سلطان يولد فى إستانبول ، وهو كذلك أول سلطان يموت فيها . دفن فى فناء جامع أياصوفيا فى قبره الجميل من بناء سنان ، ورغم تشييده جامعه الكبير سليمية فى أدرنة ، إلا أنه لم يتيسر أن يدفن فيه .

كان متوسط القامة ناصع الجبين . عيناه كستنائيتان تميلان إلى الصفرة ، أشقر ، صيادا وصانع أقواس ماهرا . اشترك فى حملات أبيه الهمايونية ، وشاهد أقطارا كثيرة جدا ، تمت تنشئته وتعليمه بشكل ممتاز لكنه ترك أمور الدولة بشكل واسع إلى صهره صوقوللو محمد باشا الذى كان أكبر منه سنا . وهو وزيره الأعظم الأوحد . هو أول حاكم لم يخرج إلى الحملات بنفسه . ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن الحملات كانت عبر البحار وأن صوقوللو اتبع سياسة عدم خروج البادشاه للحملات لئلا يخرج هو كذلك .

لم يخرج صوقوللو إلى الحملة أبدا طيلة مدة وزارته العظمى الطويلة . ومع خشيته من صوقوللو ، والأصح من الانكشارية الذين يستند عليهم ، لم يسمح لصوقوللو بالقضاء على كثير من رجال الدولة الذين أراد البطش بهم . وحماهم بشكل يليق بذكائه . ولولا هذه الحماية لما تمكن لالا مصطفى باشا (الذى سيفتح قبرص) ولا أوزدمير أوغلو عثمان باشا (الذى سيفتح القفقاس) من احتفاظهما بحياتهما . وكذلك كان فتح قبرص وتعيينه أميرالا كقليج على باشا إلى القيادة البحرية ونظارة البحرية ، نتيجة لقراره الشخصى ، واستمر على طريقة أبيه فى محبته للبحارة .

كان حاكما رقيقا ، حساسا ، متواضعا ، يحب المشروبات ، مدركا لمصلحة الدوله ولايقبل على العمل الكثير . شاعريته مشهورة . إن بيت الشعر التالى الذى قاله يعتبر من أجمل الأبيات فى الشعر التركى بأسره ، البيت معناه :

نحن بلبل يشكو من حرقة نار الفراق لو مرت ريح الصبا بحدائق أورادنا لانقلبت نارا

بناته ، أسمهان سلطان (١٥٤٤ - ١٥٨٥/٨/٧) ، جوهرخان سلطان (١٥٤٤ - ١٥٨٠) ، فاطمة سلطان (١٥٤٨ - أيلول ١٥٨٠) وقد تزوجن بالتسلسل بالوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا (١٥١٠ - ١٩٧٩/١٠/١٢) ، الوزير ٢ داماد بيالة باشا (١٥١٠ - ١٥٧٨/١/٢١) ، الوزير الأعظم داماد سياوش باشا (وفاته ١٦٠٢) . ابنته الأخرى شاه سلطان (١٥٤٤ - أيلول ١٥٨٠) تزوجت بداماد جارقجيباشى حسن باشا (وفاته ١٩٧٤/١/١٣) (وزير) ، ثم بالوزير داماد زال محمد باشا (١٥٣٠ - ١٥٨٠) .

كان أولو شهزاده (ولى العهد) مراد واليا على مانيسا . جاء إلى إستانبول مساء يوم ٢١ك١/١٥٧٤ وجلس على العرش . أمه نوربانو والده سلطان (١٥٣٠ - ١٥٨٣/١٢/٧) . كان السلطان مراد ٣ واليا على آقشهر مدة ٣ سنوات ، ثم مايقرب من ١٤ سنة واليا على صاروخان (مانيسا) ووليا للعهد منذ جلوس والده نحو ٨ سنوات و ٣ أشهر . كان عمره عند جلوسه ٢٨/٥ سنة . وفى صباح يوم ٢٢ك١ تقبل بيعة صهره الوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا ، صهره الآخر الوزير ٢ داماد بيالة باشا ، الوزير ٣ أحمد باشا ، صهره الآخر الوزير ٤ دماد زال محمود باشا ، الوزير ٥ لالا مصطفى باشا ، الوزير ٦ قوجا سنان باشا ، شيخ الإسلام حامد أفندى ، الأفنديه قضاة العسكر وناظر البحرية قيليج على باشا .

(١٠) اتحاد امبراطورية فاس مع الدولة العثمانية (١٥٧٦/٣/٩)

مات أبو عبد الله محمد المهدى الشيخ سلطان فاس ، بعد سلطنة دامت ١٨ سنة ، عن عمر يناهز ٦٩ سنة (١٥٥٧/١٠/٢٣) .

كان والى الجزائر صالح باشا قد دخل مدينة الجزائر على عهده فى ١٥٥٣ وأسس نظام الحماية العثمانية . لكن فاس كانت قد رفضت هذه الحماية بعد عدة سنوات . ولكن نفوذ العثمانية لم يرفع عن إيالة الجزائر فى أى وقت من الأوقات . كانت العثمانية تتخوف من اتفاق فاس مع إسبانيا والبرتغال ؛ حيث إنها كانت قد سلكت هذا الطريق مرات عديدة . كان ٨ من أولاد محمد ٢ العشرة ، على قيد الحياة حين وفاته فى ١٥٥٧ . كان قد قتل بنفسه أحد ابنيه اللذين ماتا وهو مولاى عبدالله الأول فى ١٥٥٠ ، والآخر هو مولاى عبد القادر ، قتله بربروس - زاده حسن باشا فى العام ذاته . كان عبد الله الأول

(أبو محمد عبد الله الغالب) الذى خلف محمد ٢ وعمره ٣٠ سنة قد تعايش مع العثمانية بصورة جيدة ؛ أرسل إلى سليم الثانى سفراء وهدايا . ومات بعد سلطنة دامت ١٦ سنة (١٥٧٤/١/٢١) . خلفه ابنه الأصغر محمد ٣ . لكن عميه مولاى عبد الملك ومولاى أحمد حاولا إسقاط ابن أخيهما والجلوس على مقام السلطنة . وقد كان مثل هذا الوضع مألوفا لدى سلالة فاس الحاكمة وهو أحد أسباب الضعف الكبرى لهذه الدولة ؛ إذ كان يستعين الذى يريد قهر خصمه بالإسبانيين أو البرتغاليين . وهذا كان يسبب قلقا كبيرا للدولة العثمانية .

جاء مولاى عبد الملك إلى إستانبول . صعد أولا إلى الديوان الهمايونى وقابل أركان الحكومة العثمانية بصورة رسمية ، ثم اجتمع بمراد الثالث بناء على طلبه . وطلب عرش فاس على أن يكون تابعا للبادشاه .

أيد قيليج على باشا فى الديوان هذا الطلب بشدة . حيث إن الاتحاد مع فاس ، عدا أنه حلم كافة ولاة الجزائر ، فإن مولاى عبد الملك (وهو صديق قيليج على باشا) كان أميرا صديقا للعثمانية ويجيد اللغة التركية ، وكان قد بقى فى الجزائر ضيفا على قيليج على باشا لسنوات طويلة . أدرك مبلغ قدرة العثمانية لا بالسماع ولكن بالمشاهدة . كان يكره الإسبانيين والبرتغاليين لما فعلوه مع بالمسلمين فى الأندلس والمغرب ، كذلك كان يخشى كثيرا من استيلاء المسيحيين على فاس . وكان يدرك جيدا أنه لولا وجود العثمانية لاحتلت إسبانيا والبرتغال كافة المغرب منذ زمن بعيد ، تزوج بابنة التاجر الفاسى الحاج موراتو المقيم فى إستانبول .

تحرك الديوان بعد أن تسلم بيان والى الجزائر رمضان باشا العلنى عن مولاى عبد الملك وتقرير قيليج على باشا السرى . كتب رسالة إلى محمد ٣ ابن أخ عبد الملك وطلب تركه نصف شمال القطر لعمه عبد الملك ، حيث إن فاس الشمالية هى من المناطق الحساسة التى تخشى العثمانية تعرضها للاستيلاء الإسبانى أو البرتغالى . رفض محمد ٣ .

سار رمضان باشا من الجزائر ، ويلاحظ أنه بالإضافة إلى عدم وجود وحدة داخلية فى دولة فاس ، فإنها كانت مفتوحة للاستيلاء الخارجى ، خرج كل من عبد الملك وأخيه عبد المؤمن الذى يؤيد أخاه الكبير اللذين كان يتسلم كل منهما

راتبا شهريا قدره ألف ليرة ذهبا ، من الجزائر مع رمضان باشا . كان الجيش العثمانى مكونا من ٧٠٠٠ جندى بحرية و ٧٠٠ سباهى (فارس) و ١٠٠٠ قول أوغلو (التركى المولود من أم عربية) و ٦٠٠٠ فارس عربى بربرى (المجموع ١٤٧٠٠ جندى) . وبالطبع كانت المدفعية متوفرة كذلك .

وقد انضم إليهم فى الطريق الفاسيون المؤيدون لعبد الملك . ارتفع عدد الجيش إلى ٢٠٠٠٠ .

اجتاز الباشا مدينة فاس . شوهد جيش محمد ٣ البالغ ٦٠٠٠٠ شخص قرب مكناس . لكن الأندلسيين الموجودين فى هذا الجيش انضموا إلى الصفوف العثمانية . تمكن الباشا من كسر السلطان بسهولة . فر محمد ٣ .

دخل العثمانيون مدينة العرش فاس . أعلن رمضان باشا مولاى عبد الملك سلطانا (١٥٧٦/٣/٩) باسم خليفة الكرة الأرضية مراد خان الثالث . جاء قيليج على باشا بصحبة الأسطول الهمايونى إلى البحر الأبيض للحيلولة دون مساعدة إسبانيا لمحمد ٣ . لم يكن محمد ٣ الذى خلع بعد سلطنة دامت سنتين وشهرا وتسعة عشر يوما ، ينوى ترك العرش لعمه مولاى عبد الملك الذى كان عمره ٤٩ سنة . وطلب المعونة من إسبانيا والبرتغال الدولتين المسيحيتين الحائزتين على أكبر قوة عسكرية وبحرية فى العصر واللتين كانتا ألد أعداء العثمانية والعالم الإسلامى كافة فى ذلك التاريخ . انسحب محمد ٣ إلى مراكش مركز البرابرة الخالص فى الجنوب .

كان السلطان عبد الملك حاكما عاقلا ، تمكن من تنمية معلوماته فى السياسة العالمية باختلاطه بالمحيط العثمانى ، وقد أدرك بأن فاس فى حالة انحطاط وأنه يعيش حاليا عصر المرابطين والموحدين وبداية عهد المرينيين ، ومن ثم فإن من مصلحته أن يلتف بصدق حول السياسة العثمانية ، وإلا فستكون بلاده طعما لإسبانيا والبرتغال .

أرسل إلى إستانبول ٢٠٠٠٠٠ ليرة ذهباً ضريبة عن السنة الأولى ، وأفاد بأنه خادم السلطان مراد المخلص ، وبدأ بإصلاح الجيش والنظام الفاسى متخذا تشكيلات النظام العثمانى نموذجا له ، وقد جلب لهذا الغرض من الجزائر ضباطا أتراكا ، وكان لباسه كلباس البادشاه العثمانى وقلنسوته مماثلة له ، وكان يخرج لصالة الاستقبال يوم الجمعة باحتفال عسكرى مثله ، وحتى تشكيلات الحراسة فى قصره جعلها على غرار

تشكيلات سراى طوبقابو . وأخذ من الجزائر كميات كبيرة من المدافع والتجهيزات العسكرية الأخرى ، وسدد لخزينة الجزائر عن المساعدات التى تسلمها مبلغ ٤٨٠٠٠٠٠ قطعة ذهب . وتقلد السيف الذى أرسله له مراد الثالث وارتدى الخلعة .

سار بجيشه إلى ابن أخيه محمد ٣ واحتل مراكش . جاء رمضان باشا إلى واحة فجيج وألحقها بإيالة الجزائر . إلا أن الديوان عزل رمضان باشا لعدم تقديمه المساعدة إلى السلطان عبد الملك فى حملته على مراكش وأمره بالبقاء فى موقعه لحين استلامه أمرا جديدا . نقل الأميرال أولوج حسن بك الشجاع والشديد جدا وعمره ٣٠ سنة من وظيفة لواء بحرى فى سلانيك إلى وال على إيالة الجزائر مع ترفيعه إلى رتبة فريق أول .

نشأ أولوج حسن باشا كجندى بحرى لدى طرغد باشا ، ثم كضابط بحرى لدى قيليج على باشا ، وقبطان (قائد سفينة) ثم لواء بحرى فى حمايته ، كان قد عين كوال (فريق أول بحرى بكلربك) على الجزائر بتوصية قيليج على باشا أيضا . وكان الأديب الإسبانى الشهير Cervantes قد أسر على يدميمىMemi رئيس وأهدى إلى حسن باشا ، ثم أطلق سراحه بعد أن خدم عدة سنوات لدى حسن باشا كعبد . وكان مؤلف دون كيشوت ، قد كتب عن سيده أولوج حسن باشا قائلا : « رجل لامع العينين ، معجب بنفسه ، ظالم » . والمعلوم أن أولوج حسن باشا ، أصبح ناظرا للبحرية وقائدا للقوات البحرية بعد وفاة قيليج على باشا وبقى فى هذا المقام ٣ سنوات ، ٣ أشهر ومات وهو ناظر للبحرية وعمره ٤٤ سنة (١٥٨٨/٤/١٤ - ١٥٩١/٧/١٢) ولو قدر له أن يعيش لأصبح أميرالا مرشحا ليكون من كبار البحارة المشهورين .

(١١) انتصار وادى السيل (١٥٧٨/٨/٤)

جاء أولوج حسن باشا إلى الجزائر ١٥٧٧/٧/٢٧ وسار فورا بحملة جزر باليرBalear . أمر الديوان الذى علم بأن محمد ٣ طلب مساعدة من إسبانيا والبرتغال ، حسن باشا بتولى أمور إيالة الجزائر وأسطولها والحملات البحرية ، والانتباه إلى عدم

إصابة الجزائر بأى ضرر من قبل العدو ، أما رمضان باشا فقد كلفه الديوان بالدفاع عن سلطان فاس عبد الملك ضد المستولين المسيحيين .

كان ملك البرتغال Sebastiano ، يستعد لحملة فاس منذ ٣ سنوات . طلب مساعدة إسبانيا أيضا . وعد فيليب الثانى ملك البرتغال الشاب بالمساعدة ، شريطة أن يتزوج بإحدى بناته . وافق سيباستيانو رغم نفوره من النساء . وهكذا تسلم من اسبانيا ٥٠ سفينة حربية و ٥٦٠٠ جندى مشاة . سيدفع فيليب ثلث مصروفات الحملة ، على أن تكون ثلث الفتوحات التى ستجرى فى فاس لإسبانيا ، وثلثيهما للبرتغال . حقا إنها كانت قسمة عادلة ! .

ستكون سواحل فاس على الأطلسى بكاملها من حصة البرتغال ، وتقسم سواحلها على البحر الأبيض بين البرتغال وإسبانيا ، وتكون سلطنة فاس دولة برية ، تؤخذ تحت حماية البرتغال ، ويطرد العثمانيون منها ويزاحون .

غادر الملك Sebastiano البرتغال (١٥٧٨/٦/٤) لتحقيق هذا الهدف وأنزل الجنود فى ميناء أرزيلة على الأطلسى فى جنوب غربى طنجة ، بهدف أخذ ميناء العريش (بالفرنسية : Larach) . لكنه عندما علم بمسيرة رمضان باشا إليه من الجزائر ، نزل إلى سهل وادى السيل على مقربة من الجنوب - الشرق للقضاء على العثمانية . شاهد الجيشان بعضهما قرب مدينة القصر الكبير (بالإسبانية : Alcazarquivir) الكائنة فى هذا السهل . ستحسم كل من تركيا والبرتغال نزعهما الخفى طيلة ٦٠ سنة والذى يجرى على الأغلب فى البحار الهندية ، فى هذا الموقع .

كان رمضان باشا قد عين فى هذه الأيام واليا (فريق أول) على إيالة تونس ، لكنه نظراً لسعة معرفته بشئون فاس كلف من قبل الديوان بمهمة طرد المستولى فى فاس ، ولم يكلف أولوج حسن باشا .

جاء من تونس إلى شمال فاس مسرعا ، وعلم أن مجموع الوحدات الإسبانية المساعدة والفاسيين الموالين لمحمد ٣ والجيش البرتغالى قد ارتفع عدده إلى ٨٠٠٠٠ جندى و ٣٦٠ مدفعا . كان هذا الجيش يشتمل على وحدات بابوية ، وإيطالية ، وألمانية ، وحتى فرنسية . أما الأسطول البرتغالى - الإسبانى ، فكان على سواحل الأطلسى من فاس . تمكن رمضان باشا من جمع مايقرب من ٣٠٠٠٠ جندى تركى

ونحو ٣٠٠٠٠ جندى عربى . سمى الأوربيون هذه المعركة باسم « معركة الملوك الثلاثة » ، لوجود ملك البرتغال ومحمد ٣ فى صفوف جيش العدو ووجود السلطان عبد الملك فى الطرف المقابل . وفى الحقيقة كانوا ٤ ملوك ، حيث إن أخا عبد الملك ، سلطان المستقبل أحمد الثانى كان فى الجيش العثمانى .

أباد رمضان باشا ، الجيش الصليبى بشكل حاسم خلال ساعات . خسر العدو نحو ٢٠٠٠٠ قتيل ونحو ٤٠٠٠٠ أسير . تمكن ٢٠٠٠٠ من جنود العدو من النجاة واللجوء إلى الأسطول فى الساحل بصورة مشتتة (Hammer ، ٧ ، ٥٥) . كان ملك البرتغال وكبار رجال الدولة البرتغالية بين القتلى . انتقل ٣٦٠ مدفعا لحوزة العثمانيين . أمر رمضان باشا بقتل محمد ٣ الذى دعا المسيحيين إلى البلاد فورا . كان السلطان عبد الملك مريضا . لكنه رغب فى أن يترأس الوحدات الفاسية . كان يائسا تماما . كان لايعتقد أن الجيش العثمانى الصغير سيتمكن من قهر العدو الذى جاء بجيش جرار ، كان قلقا جدا خشية دخول بلاده تحت الحكم المسيحى . ياترى هل سيتمكن الجيش العثمانى - الفاسى من الانسحاب بخسائر طفيفة ؟ وعندما علم بحصول رمضان باشا على نتيجة حاسمة وأن الملك كذلك قتل مات فى لحظتها من شدة الفرح . وطارد الباشا العدو حتى ساحل الأطلسى ، وأعطى للأسطول التركى الذى يقوده سنان رئيس أمر الهجوم . انكسر الأسطول البرتغالى - الإسبانى الذى لم يتمكن من التحرك والاستدارة بسبب تعب الجنود المنهزمين . غرقت كثير من السفن البرتغالية ومات آلاف البرتغاليين . أنقذ الأتراك ٥٠٠ منهم وانتشلوهم من الماء إلى السفن التركية . ولم يفقد الأتراك ولا سفينة واحدة .

أعلن رمضان باشا حينما علم بوفاة السلطان عبد الملك فى ساحة الحرب أخاه مولاى أحمد سلطانا بلقب « أبو عباس أحمد المنصورى الذهبى » . كان أحمد الثانى فى الـ ٢٩ من عمره . وهو ٧ الأشراف السعديين . قضى فى العرش مدة ٢٥ سنة حتى ١٦٠٣/٩/٥ . يعتبر عهده من ألمع الفترات التى عاشتها فاس . حرص على التعايش مع الدولة العثمانية . كان أحمد الثانى فى الـ ٨ من عمره عندما احتمى مع أخويه الكبيرين عبد الملك وعبد المؤمن لدى والى تلمسان كلاجئين سياسيين ، ثم لدى والى (فريق أول) إيالة الجزائر ، وكان قد أقام سنوات عديدة فى الجزائر . تعلم اللغة التركية ، شاهد قدرة العثمانية بعينيه . ولد مولاى إسماعيل أحد ابنى

السلطان عبد الملك فى هذه المدينة ، عاش فى إستانبول وتطبع بالعادات التركية وأصبح كالأتراك .

سار السلطان أحمد ، فى الطريق التى سلكها أخوه . دعا آلاف العثمانيين إلى فاس . جدد تشكيلات دولته على النظام العثمانى . قسم بلاده إلى إيالات كما فى الدولة العثمانية . وعين على رأس كل منها والى إيالة بلقب « باشا » وهذا النظام مطابق للنظام الملكى (المدنى) العثمانى ، تمثل ألقاب باشا وبك التى يمنحها سلاطين فاس ؛ ذكريات بقيت من هذا العهد ، كما ساند الحركة الوطنية البرتغالية ضد إنكلترا وهولندا وإسبانيا ، بناء على مارسمته سياسة الديوان ،وطبق سياسة مخاصمة تماما لإسبانيا . تسلم من السلطان مراد الثالث رسائل سلطانية عديدة تبين امتنانه . وكانت العثمانية قد اتخذت كافة التدابير لمنع أى تدخل برتغالى أو إسبانى فى فاس بعد الآن . وعلى سبيل المثال ، أمر أولوج حسن باشا ، بقتل وزير (رئيس وزراء) فاس المدعو ابن رضوان الذى ثبتت علاقته بالإسبانيين . أنقذ مراد الثالث أحمد الثانى وأبناءه من قلقهم بشأن المدعين بالسلطنة بتكراره مراراً أن فاس ستبقى لأحمد الثانى ومن ثم لأبنائه . ومن كتاب البادشاه المؤرخ ١٥٨٢/٨/١٣ الموجه إلى السلطان أحمد : « ستنتقل ولاية فاس عن طريق الإيالة نسلا بعد نسل (من الأب إلى الابن) إلى انقراض الزمان وتعتبر كبقية ملحقات إمبراطوريتنا » (مهمة دفترى ، ٤٨ ، ٣١) .

قلق السلطان أحمد بقدر ماقلقت إسبانيا من حملات قيليج على باشا فى غرب البحر الأبيض فى ١٥٨٢ و ١٥٨٣ . حيث إن فكرة الباشا فى جعل فاس إيالة كالجزائر كانت معلومة . لكن الديوان كان يعلم بأن فاس لاتشبه الجزائر ، وأنها تملك سلالة حاكمة عريقة جدا ومنحدرة من نسل الرسول (ص) . ورغم محاولات الباشا العديدة لم يسلك الديوان هذا الطريق . إن الكتاب السلطانى المؤرخ ١٥٨١/٣/٨ الذى أرسله مراد الثالث لوالى (فريق أول) الجزائر يدعو إلى الانتباه : « يبقى السلطان أحمد فى مقامه مادام يتلو الخطبة الشريفة فى منابر مساجد بلاد فاس ويطبع السكة اللطيفة باسمى ولايصدر منه مايشعر بالخيانة » (مهمه ، ٤٢ ، ٨٣) .

استدعى أولوج حسن باشا من الجزائر إلى إستانبول بعد ٥ سنوات و ٧ أشهر . أصبح جعفر باشا لمدة ١١ شهراً ، ثم (ت /١٥٨٣/٢) رمضان باشا للمرة الثانية ، وبعد عدة أشهر تولى أولوج حسن باشا مرة أخرى ولاة على الجزائر . قتل رمضان

باشا ١٥٨٩ بطلقة أثناء شجار جرى بعد مجيئه من تونس إلى الجزائر بقليل .

سيطر أولوج حسن باشا فى فترة ولايته الثانية مع أميراليه المشهورين جدا الرئيسين ممى (محورة عن كلمة محمد) ومراد على غرب البحر الأبيض . طارد Giovanni Andrea Doria حتى ميناء جنوة . حرق ميناء Alicante الإسبانى . أوصل المساعدات إلى الأندلسيين . نقل كثيرا جدا من الأندلسيين إلى المغرب . خرب المناطق المجاورة لبرشلونة وأنقذ ٢٠٠٠ تركى من الأسر . اختلف مع السلطان أحمد بسبب فجيج . جاء السلطان أحمد إلى هذه الواحة وأعاد المسئولين الأتراك بعد إعزازهم وإكرامهم إلى الجزائر . أبلغ حسن باشا بأن هذه الواحه التى ألحقها رمضان باشا سابقا تعود لإيالته وطلب تخليتها فى الحال . قال السلطان أحمد بأن السلطان مراد كان قد تلطف وأهداه هذه الواحة . سأل حسن باشا الديوان . أيد الديوان ذلك . وأمر ترك الواحة إلى السلطان (١٥٨٤/١/٢٦) . إن مجموع مدة إدارة حسين باشا للجزائر فى الدفعتين ٩ سنوات و ٧ أشهر . وقد تسلم أمر تعيينه ناظرا للبحرية وقائدا للقوات البحرية وطلب قدومه إلى إستانبول (١٥٨٨/٤/١٤) وبعد ٢٤ ساعة من وفاة أستاذه قيليج على باشا أصبح كل من محمد باشا والى طرابلس الغرب ، وبعده بعدة أشهر استانكويلو أحمد باشا واليين (فريق أول) على إيالة الجزائر . قام أحمد باشا بحملة كبيرة على إسبانيا ، لكنه نقل فى السنة التالية (١٥٨٩) إلى إيالة طرابلس . أصبح خضر باشا وبعد ٤ سنوات (١٥٩٣) شعبان باشا واليين برتبة فريق أول . استدعى إلى إستانبول بعد سنتين (ك١٥٩٥/٢) . قام بإدارة الإيالة بالوكالة لمدة ٤ أشهر مصطفى بك أحد فرقاء أول البحريين وقريبه من الدرجة الأولى . ولى خضر باشا للمرة الثانية . وأصبح مصطفى بك واليا برتبة الباشوية (ك١٥٩٧/٢) . استدعى إلى إستانبول وأرسل بدلا منه دلى حسن باشا (ك١٥٩٩/١) . عين سليمان باشا واليا (ك١٦٠٠/١ – ١٦٠٤) وعلى أيامه جاء قائد القوات البحرية وناظرها – الذى صار بعدها وزيراً أعظم كذلك – إلى الجزائر (١ أيلول ١٦٠١) مع ٧٠ سفينة حربية و ١٠٠٠٠ جندى مشاة ، ورغم أنه بحث عن الأسطول الإسبانى إلا أنه لم يعثر عليه . ولى خضر باشا للمرة ٣ ، لكنه توفى فى مقامه (١٦٠٥/٥/١٨) . حكم الجزائر فى المرات الثلاث مدة ٧ سنوات . عين كوسة محمد باشا (١٦٠٥/٥/١٨) ثم

مصطفى باشا برتبة وزير (ك١/١٦٠٥) ورضوان باشا (١٦٠٨) ومصطفى باشا مرة أخرى (١٦١٠ - ١٦١٣) ولاة على الجزائر .

(١٢) تونس وطرابلس الغرب وإفريقية الوسطى

فصل لواء فيزان (فزان) عند تأسيس إيالة تونس ، عن إيالة طرابلس وألحق بإيالة تونس . كان مركز الإيالة مرزوق صرف والى (برتبة لواء) فزان محمد بك جهدا كبيرا فى نقل النظام العثمانى إلى أواسط إفريقية . نزل من مرزوق مع ٥٠٠ جندى نحو الجنوب مسافة ١٩٥٠ كم عن البحر الأبيض بخط مستقيم . ووصل شمال بحيرة جادو . إن القسم الأكبر من الصحراء يشكل أقساما غير صغيرة من دولتى جادو والنيجر الحالية . تم ربطها بلواء فزان . تبعت دولة بورنو التى تقع على جنوبها ، العثمانية . أما الدول الزنجية المسلمة الموجودة فى غرب إفريقيـة بين الأطـلسى ونهر النيجر فكانت تابعة لفاس وبذلك كانت تتمتع بنظام عثمانى . ورغم أن ملك بورنو إدريس يملك ١٥٠٠٠ فارس و١٥٠٠٠ جندى مشاة فقد راجع الديوان وعرض أن يكون خادما لخليفة سطح الأرض (خيلفة روى زمين) ، لكنه مل من ضغط محمود بك . أمر الديوان محمود بك بعدم المساس باستقلال بورنو وأن يطبق عليها نظام الدول التابعة (مهمة ، ٣٠ ، ١٨٨ ، ٢١٣ ـــ ٥) .

وخضوعا للضرورة أعيد تشييد قلعة حلق الواد التى هدمها قيليج على باشا (١٥٨٨) . فصل لواء سفاقس Safaskus بأمر الديوان من إيالة طرابلس (ليبيا) ، وضم إلى إيالة تونس (مهمة ، ٦٤ ، ١١٦) . جعلت جزيرة جربة لواء وربطت بطرابلس . أدار ممى رئيس (محمد باشا) طرابلس والجزائر كوال ، إدارة ممتازة . كان رجلا مسنا . أما استانكويىو أحمد باشا فقد عين واليا على الجزائر وطرابلس بعد تونس واستشهد أثناء إخماده إحدى حركات التمرد ودفن فى طرابلس ابنه الوزير الأعظم على باشا .

وقد يجدر بنا تحقيقا للفائدة أن نشرح النظام العثمانى لفاس (La Pax Ottomawa ، بالعثمانية : نظام عالم) .

لم تكن تبعية إمبراطورية فاس للإمبراطورية العثمانية تبعية عادية . إن تبعيتها كملكية بولونيا تماما . كان سلطان فاس تابعا للبادشاه العثمانى مباشرة . أى أنها لم تكن ضمن نظام الدول التى تتسلم الأوامر من الديوان الهمايونى مباشرة . التزم مولاى أحمد المنصور الثانى الذى توفى فى مراكش السياسة الخارجية العثمانية تماماً ، وأرسل ضريبته إلى إستانبول ، وعلى الأصح للبادشاه تأكيدا صريحا لتبعيته .

لقد طبق النظام العثمانى فى بلاده وقام بحملة إصلاحات عسكرية واجتماعية ، لكنه لم يدع للأتراك مجالا للتدخل فى الشئون الداخلية . كان ولاة الجزائر يرغبون فى التدخل فى شئون فاس الداخلية ، فحاول الحيلولة دون ذلك بدقة .

وخلفه بعد وفاته (١٦٠٣/٩/٣) أبناؤه الثلاثة بالتسلسل . أحدهم زيدان الناصر (١٦٠٣ - ١٦٢٧) سعى جهده فى عدم الانفصال عن الدولة العثمانية . لكن الإثنين الآخرين لم يهتما كثيراً بذلك وانفصلت فاس على مر الزمن عن النظام العثمانى وأخذت تتقدم منفردة نحو مصير منفصل .

وأخذ الفلاليون (أشراف الفلالية) الذين هم فرع لنفس الأسرة الحاكمة يتنازعون فى ١٦٤٠ مع السعديين (أشراف السعدية) من أجل فاس . وفى ١٦٥٨ انفردوا بالحكم فى فاس ، وانقطعت العلاقة مع الدولة العثمانية على عهد الفلاليين .

أخذ نفوذ العثمانية يتزايد فى الملكيات الزنجية فى إفريقية الوسطى ووصل إلى غايته . حاول طرغد باشا اعتبارا من ١٥٥٠ إدخال بورنو ، أقدم (تأسست نحو عام ١٠٠٠) وأهم دولة إسلامية فى هذه المنطقة ، إلى النفوذ العثمانى . لكن إرسال الملك إدريس ٣ سفراء لإستانبول فى ١٥٧٧ وعرضه تبعيته ، أكسب الوضع صفة قطعية (بورنوسنية - مالكية) . إن إدريس ٣ هو ابن أخ الملك محمد الذى عرض تبعيته لطرغد باشا فى ١٥٥٠ . وفى ١٥٧٧ أرسلت الأسلحة النارية بأمر الديوان للمرة الأولى فى التاريخ من طرابلس إلى بورنو (Ki - Zerbo Le Monde Contemporain ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٦٢٩) . حيث كانت بورنو فى مقدمة الدول الإسلامية التى كافحت الوثنيين ونشرت الدين الإسلامى فى إفريقية .

لقد كان وادى السيل نهاية للدولة البرتغالية المعظمة . امحت البرتغال من الجغرافية السياسية لمدة ٦٠ سنة . لم تستطع البرتغال التى فقدت جيشها وأسطولها ومليكها

فى وادى السيل أن تصون استقلالها تجاه جارتها إسبانيا لمدة ٦٠ سنة (١٥٨٠ - ١٦٤٠) وأصبح ملك إسبانيا ملكا على البرتغال فى ذات الوقت . وفى هذه المرة أخذ الديوان فى مساندة البرتغال ، وإرسال المساعدات إلى الوطنيين البرتغاليين الذين ثاروا ضد إسبانيا . أرسلت تعليمات محدودة بهذا الشأن لفاس وللجزائر ؛ إذ إن اسبانيا - برتغال متحدة ، كانت مخالفة لسياسة الديوان . وعلى الرغم من أن البرتغال كانت ماتزال محتفظة ببرازيليا إلا أنها لم تعد بصورة نهائية فى عداد الدول العظمى .

١٣) إدخال إنكلترا تحت الحماية العثمانية

على الرغم من أن إسبانيا ادركت بعد حرب عثمانية دموية شديدة دامت ٦٥ سنة أنها فقدت المغرب وأنها سوف لاتتمكن من جعل المغرب أمريكا لاتينية ، الا أنها استمرت فى تسلطها على جميع الأماكن ؛ تسعى من ناحية لإفناء العرب المسلمين من رعاياها بأنواع التعذيب التى لايصدقها العقل ، وتتسلط من ناحية أخرى على فرنسا التى ضعفت بسبب دخولها فى النزاع الكاثوليكى - البروتستانتى . وآسى فيليب الثانى نفسه بأخذه ملكية البرتغال على عاتقه . لكنه لم يقنع ، ذهب إلى حد التفكير فى الاستيلاء على إنكلترا . لم يكن ذلك عسيرا بسبب كون هولندا وبلجيكا مستعمرتين إسبانيتين . اضطرب الديوان الهمايونى . كان قد أنقذ فرنسا من براثن شارل - كوينت ، والآن سيضع كافة إمكاناته فى المساعدة لإنقاذ إنكلترا من براثن ابنه .

اعترف الديوان لإنكلترا ، بعد البندقية وفرنسا بحق المتاجرة بحرية فى موانىء تركية مع تطبيق تعريفة جمركية مخفضة (١٥٨١/٩/١١) وذلك بغرض تنمية تجارة إنكلترا .

طلبت الملكة اليزابث فى رسالتها إلى مراد الثالث مساعدته ضد الكاثوليك الذين سمتهم « عبدة الأصنام » وذكرت أن عبادة التصاوير فى المذهب البروتستانتى ممنوعة كما فى الدين الإسلامى (Hammer ، ٧ ، ١٤١ ، ٢٥٢) .

كتب السلطان فى خطابه السلطانى الذى حرره فى ١٥٨٠ للملكة « وأنتم كذلك عليكم الطاعة والانقياد لبابى العالى » ووعدها بالمساعدة المالية والعسكرية .

حررت الملكة كتبا عديدة ومنفصلة – تطلب فيها المساعدة – إلى الوزراء الأعظم كسنان باشا وسياوش باشا ، وناظر البحرية قيليج على باشا ، والأستاذ السلطانى (شيخ الإسلام) سعد الدين أفندى وإلى زوجة البادشاه صفية خاصكى سلطان وأرسلت إليهم هدايا ثمينة . كانت إليزابث فى ١٥٨٧ ترجو « إرسال ٦٠ – ٧٠ سفينة حربية تركية على الأقل » تجاه الأسطول الإسبانى (Hammer ، ٧ ، ٢٦٥) . طلبت فرنسا كذلك المساعدة . كان الملك فى باريس يلقى الفزع فى قلب السفير الإسبانى بقوله:إن ٢٠٠ سفينة حربية عثمانية مستعدة لفتح طولون ، رهن إشارته . كانت فرنسا مطوقة لأن شمال وجنوب إيطاليا ، وفى الشمال بلجيكا ، كانت تعود لإسبانيا (كانت منطقة إيطاليا الوسطى فقط تعود للبابا والشمال – الشرقى من إيطاليا للبنادقة) . زار السفير Sir William Horborne ، قيليج على باشا فى مقامه فى سفينته الإميرالية (١٥٨٤/٤/١٦) ، وقبل يد قائد القوات البحرية (قبودان دريا) وسلمه كتاب الملكة . (يورد السفير فى تقريره السياسى تعجبه من طلاء سفينة الباشا من الخارج والداخل بطلاء الذهب) أجابه الباشا بأنه سوف يقدم لإنكلترا المساعدة القصوى التى يعينها الديوان .

فوجىء الأسطول الإسبانى المخيف الذى أعلنته إسبانيا بأنه « الارمادة التى لاتقهر » بعاصفة لم يسبق لها مثيل وتحطم فى بحر الشمال (آب ١٥٨٧) بعد أن جعلت إسبانيا العالم بأسره يصدق أنها سوف تحتل إنكلترا .

تنفس الديوان والدول التى سئمت من التسلط الإسبانى الصعداء .

١٤) دخول بولونيا التبعية العثمانية (١٥٧٣ – ١٥٩٢)

مات فى ١٥٧٢/٧/٧ آخر ملك لبولونيا ودوق – كبير ليتوانيا من أسرة Yagellon (بالبولونية : Jagellonsky) . ظل عرش بولونيا خاليا . كانت بولونيا من الدول العظمى وتعتبر فى ذلك العهد ملكية أقوى بكثير من روسيا . كانت تمتد اعتبارا من داخل ألمانيا إلى منطقة قريبة من غرب موسكو (٦٩٧ ٠٠٠ كم^2 و ٧ ملايين نسمة ولأجل المقارنة ، ملكية إنكلترا ٣٤٧ ٠٠٠ كم^2 ، ٥/٩ مليون نسمة) .

أرادت ألمانيا أى أسرة هابسبورغ إجلاس أرشيدوق (أمير إمبراطورى) من سلالة هابسبورغ علي عرش كراكوفى Krakovi . كانت صلة القرابة بالأسرة البولونية المالكة تعطى ألمانيا مثل هذا الحق . قرر الديوان الهمايونى الحيلولة دون ذلك ؛ إذ إن تشكيل ألمانيا تمتد من الراين إلى موسكو سوف يصنع بالنسبة للعثمانية ماردا جديدا .

قرر الديوان بعد إجراء المحادثات اللازمة إجلاس أحد الأمراء من فرنسا التى تحت حمايتها على عرش كراكوف . اتفق فى هذا الشأن مع كل من مجلس الأشراف (Diyet) البولونى وملك فرنسا شارل ٩ . انتخب هنرى شقيق شارل ٩ لملكية بولونيا وأعلن بالكتاب السلطانى لسليم الثانى ملكا على بولونيا (١٥٧٣/٥/١٧) (« استنادا لأمرنا الشريف نصبنا وعينا شقيق ملك فرنسا ملكا على ولاية بولونيا (Leh) أتفضل عليكم أنتم أمراء بولونيا ، أن تتقبلوا كلكم بالإجماع الملك المشار إليه عند قدومه إلى بولونيا ؛ وفى حالة مخالفتكم أمرى الشنزيف لايتقبل منكم أى عذر » .

أعلن ، على أثر هذا الخط السلطانى ، مجلس الأشراف البولونى (Leh Diyet) Henri de Valois ملكا على بولونيا . جاء الملك هنرى إلى بولونيا . لكنه بقى ٤ أشهر و ٢٣ يوما فقط ثم غادرها إلى باريس خلسة دون أن يخبر الشعب الذى انتخبه ملكا . مات أخوه الكبير هنرى ٩ دون أن يخلف ولدا . أعلن ملكا على فرنسا بدلا منه بلقب هنرى ٣ . استاء الديوان . كان عرش بولونيا قد خلى مرة أخرى . تجدد أمل ألمانيا . كانت ألمانيا قد هددت بحرب أكيدة وكان الديوان قد اضطرها إلى العدول عن ذلك ، لكن الديوان كان يخشى من الأمر الواقع . وفى هذه المرة انتخب باقتراح صوقوللو ، الأمير Bathory أمير أردل (ترانسلفانيا) التابعة للعثمانية ، أى أحد المجريين ملكا على بولونيا وتمكن من الحصول على موافقة مجلس الأشراف البولونى (١٥٧٥/١٢/١٣) . يأمر الخط السلطانى (١٥٧٦/١/٢٣) الذى أرسله مراد الثالث إلى الملك باثورى بأنه « أمر وتفضل » بمنح إمارة أردل كذلك ، لكنه سيقوم بإدارة أردل وبولونيا – ليتوانيا كدولتين منفصلتين وأن كلا الدولتين هما جزءان لاينفصلان عن الدولة العثمانية « بمثابة ممالكنا المحروسة وتلتزم بالطاعة والانقياد » . وافقت بولونيا فى معاهدة ١٥٧٧/٧/٣٠ المكونة من ٢٤ مادة على كونها جزءاً من

الدولة العثمانية ، وأن الملك Bathory بصفته ملكا على بولونيا ودوقا - كبيرا لليتوانيا تابع للبادشاه ، وبصفته أمير أردل سيتلقى الأوامر من الديوان بصورة مباشرة .

جلس مراد الثالث ، وقد انضمت دولتان كبيرتان كفاس على الأطلسى فى الغرب ، وبولونيا - ليتوانيا فى بحر البلطيق فى الشمال إلى النظام العثمانى .

مات الملك Bathory فى ١٥٧٨ بلا وريث . ووقع الديوان كذلك فى مشكلة . عرض دوق - كبير فلورنسا استعداده لدفع مليون ليرة ذهبا دفعة واحدة للديوان ، إذا ماانتخب ملكا على بولونيا ، وأن يسدد ضريبته السنوية بانتظام .

لم يسع الديوان انتخاب أمير لهذا العرش تابع لإسبانيا . وانتخب الأمير السويدى Sigismund الذى لم يكن لقطره أية مشكلة مع العثمانية . كان إمبرطور ألمانيا رودلف ٢ (١٥٧٦ - ١٦١٢) ، يرغب فى تزويج ابنه بأميرة السويد وتنصيبه ملكا على بولونيا . راجع الديوان ، فرفض ، وبناء على ذلك سار الأرشيدوق Maximilian بجيش ألمانى على بولونيا ودخلها وظفر بالأميرة عنوة وأراد تحقيق رغبته بالأمر الواقع .

هزم الجيش البولونى المعزز بوحدات الصاعقة التركية الألمان فى حرب Krakovi الميدانية (١٥٨٨/٦/٢٦) وأسر الأرشيدوق . أجلس Sigismund الثالث على عرش بولونيا ؛ كما أصبح بالإضافة إلى ذلك فى ١٥٩٢ ملكا على السويد . كان قد ترك المذهب البروتستانتى وأقر المذهب الكاثوليكى عند تتويجه ملكا على بولونيا ، ونظرا لعدم موافقة السويديين فى ١٦٠٤ على ملك كاثوليكى ، ترك عرش السويد ، وظل ملكا على بولونيا فقط . احتل ملك بولونيا الذى توج بحضور طرغد جاووش أحد مرافقى السلطان مراد الثالث بخط سلطانى ، موسكو فى ١٦١٠ - ١٢ ولبس تاج القيصر فى الكرملن . كان عداء السويد وبولونيا تجاه الروس متمشيا مع سياسة الديوان .

نظم كل من Bathory و Sigismund الجيش البولونى على غرار الجيش العثمانى . رفعت المتبوعية العثمانية عن بولونيا بعد ذلك ، لكن النفوذ العثمانى استمر على مدى سنوات طويلة . تعتبر معاهدة ١٥٩١/٩/١٦ وثيقة هامة ، وهى تبين تبعية بولونيا - لتوانيا العثمانية ، وتنص على أن تسدد بولونيا إلى إستانبول ٢٥٠٠٠٠ ليرة ذهبا سنويا

وتسدد من ناحية أخرى ضريبة إلى قرم ، كما تنص على أن تتعهد باتباع السياسة الخارجية العثمانية .

كان الإمبراطور الألمانى ، ليس بصفته إمبراطوراً ، وإنما بصفته أرشيدوق النمسا ، تابعا للبادشاه (هامر ، ٧ ، ٤٠) ، وكان يهتم بإرسال ضريبته إلى البادشاه كل عام . وكان عليه أن يأخذ موافقة إستانبول حتى فى اختيار الأميرة التى سيتزوجها ابنه . وبينما وصلت شوكة العثمانية فى الخارج إلى هذا الحد ، بدأ الفساديدب فى الداخل . لكن العالم الخارجى لم يكن قد أحس بهذا الفساد بعد . كانت « الدولة العالمية العثمانية » أمرا واقعا ، ولم تكن أية دولة تقوم بأى عمل على رغم العثمانية وإنما كانت تستأذنها وتأخذ موافقتها ، وكانت الدول المقاومة للعثمانية كأسبانيا وإيران لاتوفق غالباً فى مساعيها .

ومع أنه لم يشعر لا العالم الخارجى ولا العثمانيون فى تلك الفترة بنثر بذور الانحطاط العثمانى ، كذلك لم يشعر أحد بنثر بذور الانتعاش الروسى . لم تكن لروسيا أية أراض فى القارة الآسيوية فى ١٥٨٧ ، وخلال المدة القصيرة جدا لغاية ١٦٠٠ احتلت قسما لايستهان به من سيبريا ، ومنذ ١٥٩٢ توسعت أراضيها إلى حد ٥ ملايين كم^2 و ٧ ملايين نسمة ، وبالنسبة للعثمانية كانت روسيا دولة من الدرجة الثانية تابعة لها بل كانت تابعة لتابعها قرم . ولم تكن فكرة أوروبا عن روسيا مختلفة عن هذه .

كان القيصر بالنسبة لملك بولونيا « سائس خان قرم » . والملك بالنسبة للروس « خادم الأتراك » (Lavisse – Rambaud ، ٥ ، ٧٥٢) . ترك إيفان « الرهيب » (مدهش) (١٥٣٣ – ١٥٨٤) لقب « الأمير – الكبير » لأجداده الحكام واتخذ لنفسه فى ١٥٤٧ لقب « قيصر » (جار) الذى يعنى « ملك – كبير » أو « إمبراطور – صغير » .

كان على سطح الأرض حتى سنة ١٥٨٩، ٤ بطاركة أرثوذكس ، وكان هؤلاء البطاركة المقيمون فى كل من إستانبول ، القدس ، أنطاكية وأسكندرية من رعايا العثمانية وكان الأول الذى « يسمى جهان بطريكى » (بطريك العالم) أرفعهم منزلة . رفع Yeremia بطريك إستانبول فى ذلك التاريخ درجة مطران موسكو إلى

درجة بطريك أرثوذكس خامس بعد ذهابه إلى موسكو مرات متعددة . وهكذا ظهر بطريك ليس من رعايا العثمانية . كان ذلك أول علامة على عدم تمكن العثمانية من احتضان كامل العالم الأرثوذكسى (Lavisse-Rambaud ، ٥ ، ٧٥٨ - ٩) . وإن كانت العثمانية حتى ذلك الوقت قادرة على سحق روسيا . تقدم خان قرم غازى كيراى ٢ فى ١٥٩١ ، حتى أسوار موسكو . وانتصر على القيصر مثلما انتصر أبوه دولت كيراى فى حروب عديدة وأجبره على دفع ضريبة سنوية ، وسوف يسدد القيصر هذه الضريبة لخان قرم لغاية ١٦٨٩ .

١٥) بدء الحرب مع إيران (١٥٧٨/٤/٥)

استقبل الشاه طحمسب جلوس مراد الثالث بسرور بالغ . مثل بين يدى السلطان مراد ، (١٥٧٥/٥/١٣) طوقمان محمد خان من الأتراك الآزريين ابن الصدر الأعظم شاه قولو الذى قدم آنذاك إلى تركية (١٥٦٨/٢/١٦) للتوقيع على معاهدة أدرنه . كان الوفد الإيرانى مكونا من ٢٥٠ شخصا يصحب معه هدايا محملة على ٥٠٠ جمل . قدمت لخاقان العالم ٦ جرارات مليئة بالماس ، الزمرد ، الياقوت ، اللؤلؤ والهدايا الأخرى . مات الشاه طحمسب بعد فترة قصيرة (١٥٧٦/٥/١٤) . دامت سلطنته ٥٢ سنة إلا ٢١ يوما . كان عمره ٦٢ سنة ، وشهران و ٢٠ يوما . وكان قد ترك لإيران الدولة الثانية فى العالم خزينة احتياطية لايصدقها العقل . خلع (١٥٧٧/١١/٢٤) ابنه إسماعيل الثانى الذى خلفه لميله إلى المذهب السنى - الشافعى . خلفه أخوه الكبير محمد خدابنده . كان أعمى وعمره ٤٥ سنة . كانت السلطة الحقيقية بيد أبنائه ميرزا حمزة وعباس . كان الوضع الداخلى لإيران متأزما .

وكانت العثمانية تشعر أنها دائنة ، وتطلب من الصفويين الشىء الكثير . أخذ هذا التفكير يتعاظم على مر الزمن .

عارض صوقوللو بشدة الحرب مع إيران ، لم يتمكن من منعها . حال دون ذهاب البادشاه إلى إيران ، ولم يذهب هو أيضا .

أعطيت القيادة لفاتح قبرص لالا مصطفى باشا . سار القائد من إستانبول . أعلنت الحرب على إيران بصورة رسمية (١٥٧٨/٤/٥) . ولكن بإصرار من

صوقوللو انقسمت جبهة إيران بعد قليل إلى قسمين ، بقيت الجبهة الشمالية لدى الوزير ٣ لالا باشا . عين خصمه اللدود قوجا سنان باشا الذى كان برتبة وزير ٤ فى الديوان ، لقيادة الجبهة الجنوبية (١٥٧٨/٥/٩) . ولم يكلف الوزير ٢ داماد بيالة باشا بواجب فى البر ، لكونه أميراً بحريا .

جاء لالا باشا إلى قونية . قبل غطاء صندوق قبر مولانا . فتح صحيفة من المثنوى - بصورة غير مقصودة - فى حضور المتصوف الكبير المعنوى . كانت أمامه أبيات شعرية تتحدث عن فتوحات إسكندر الكبير . سر القائد . كان لالا باشا قد طلب أوزدمير أوغلو عثمان باشا مساعدا له (رئيس أركان الجيش) . عين عثمان باشا واليا (فريق أول) على البصرة ومن ثم على دياربكر . عزله صوقوللو الذى ينفر منه ، من إيالة دياربكر ، وعين بدلا منه ابن عمه صوقوللو - زاده درويش باشا . لم يذهب عثمان باشا إلى إستانبول خشية إصابته بحادث . كان مقيما فى دياربكر . جاء إلى لالا باشا الذى عسكر فى قرية جنس Cinis (١٥٧٨/٧/١) . كان يحمل مهمات الجيش العثمانى ٤٠٠ قطار من الإبل (القطار الواحد = ٧ جمال) وكان القطار ٢٦ هو الذى يحمل الخزينة والحاجات الثمينة ، أما القطار ١٥٠ فكان يحمل الأعتدة والبقية تحتوى على الأطعمة . كلف القائد العام ، الذى سمع بخبر هزيمة الوالى خسرو باشا لأمير خان قرب وان أوزدميرا أوغلو بمهمة إيقاف الجيش الصفوى المقبل عليه . خرج أوزدميرا أوغلو قبل الجيش ، وصل الجيش العثمانى إلى شمال غربى بحيرة جلدر Çildir . شوهد الجيش الصفوى بقيادة طوقماق خان الذى كان قد جاء إلى إستانبول مع الوفد قبل مدة .

١٦) حروب ميدانية كبيرة فى صيف وخريف ١٥٧٨ وفتح قفقاسيا

كان لدى طوقماق خان ٣٠٠٠٠ فارس. كان مساعداه والى كنجة أمام قولو خان وقره خان أسطه جالو . كان والى أرضروم بهرام باشا ووالى دلقادر (مراش أحمد باشا) ، فى جناحى عثمان باشا . كانت كتيبة الاستطلاع تتقدم الجيش العثمانى بقيادة آمر كتيبة بايبورت بكربك ، ويعقبه فورا كوحدة طليعية والى (برتبة لواء) أردخان عبد الرحمن بك . وسوف يحدد هذا القتال مصير قفقاسيا ، إما أن تظل لدى إيران ، أو تنتقل إلى العثمانية .

كسر عثمان باشا الجيش الصفوى التركمانى الذى يتكلم اللغة ذاتها بسهولة . ترك طوقماق خان الذى قدم ٥٠٠٠ قتيل و ٥٠٠ أسير وآلاف الجرحى ساحة القتال . كانت خسائر العثمانية عبارة عن ٧ أمراء كتيبة من الأكراد و ٢٠٠ شهيد وعدة مئات من الجرحى (حرب جلدر الميدانية ١٥٧٨/٨/٩) . دخل لالا باشا إلى تفليس (١٥٧٨/٨/٢٤) بعد أن احتل آخيلكلك فى ١٠ آب . لم يتمكن Dawith ملك الكرج فى كارثلى Karthli من صيانة مدينة عرشه وكان قد لجأ إلى متبوعه الشاه . كانت مدينة أرثوذكسية مسيحية ، وكان بها مسلمون كثيرون . لم يمس الشعب بأى سوء . عين لالا باشا والى قسطمونى محمد بك ابن صولاق فرهاد باشا والى بغداد ، أول والٍ على تفليس . كان Alexandré ٢ ملك كاختى Kakheti الكرجى الأقل أهمية فى الشرق ، جاء إلى تفليس وقبل يد لالا باشا . جعل لالا باشا من Kakheti إيالة كذلك باسم إيالة كرجستان وعين الكساندرخان واليا (فريق أول) عليها (١٥٧٨/٩/١) .

أصبح من الواضح أن هدف الفتح العثمانى هو شيروان (شمالى آذربيجان) . أراد الصفويون قطع طريق شيروان . جاء أمير خان وطوقماق خان مع ٢٠٠٠٠ من فرسان التركمان . هزم أوزدميرا أوغلو عثمان باشا الجيش الصفوى مرة أخرى (معركة قويون كجيدى الميدانية ١٥٧٨/٩/٩) . قتل ٥٠٠٠ جندى صفوى . مات ١٠٠٠٠ غرقا فى آراس أثناء انسحابهم . أسر أو هرب ٥٠٠٠ من الجرحى . كان بمعية عثمان باشا فى هذا الانتصار ٤ فرقاء أول (ولاة) ، (حلب ، أرضروم ، دياربكر ، دلقادر) . وجدير بالذكر أن عثمان باشا الذى أكسب الدولة كرجستان بانتصاره فى جلدر ، كان قد أكسبها كذلك آذربيجان التى يطلق عليها اسم « شيروان » بانتصاره فى قويون كجيدى . كان لالا باشا أدهى وأذكى رجال الدولة فى عهده . ترك إدارة جميع الحروب لعثمان باشا ، ولم يبد أدنى علامة للغيرة والحسد . وتأخر هو مرحلة عنه إلى الوراء . كان لالا باشا كذلك أكبر عسكرى فى عهده ، لكن عثمان باشا كان يتمتع بدهاء عسكرى منقطع النظير . ولو كان صوقوللو أو سنان مكانه لقضيا فى الحال على جنرال يظلل شهرتهم . سرت إستانبول سرورا كبيرا بفتح شيراون وذلك لكونها بلادا غالبية أهلها سنيون ويتكلمون التركية . بقى لالا باشا فى إرش Eres مركز القطر اعتبارا من ١٢ أيلول حتى ٨ ت ١ . شيد

قلعة عظيمة وضع فيها ١٠٠ مدفع . عين والى (برتبة لواء) صاروخان قيتاس بك ، أول وال (فريق أول) على شيروان (منجمباشى ، ٣ ، ٥٤١) .

كان القطاع الغربى من شيروان قد تم فتحه ، والقطاع الشرقى أى سواحل الخزر لايزال لدى الصفويين . كان شعب هذا القطاع سنيا ، وعند اقتراب العثمانية ثار ضد الصفويين الذين عانوا من ظلمهم وطردوهم . دخل لالا مصطفى باشا وأوزدمير أوغلو عثمان باشا إلى شيروان الشرقية بسهولة وأمعنا النظر فى المياه الخضراء لبحر الخزر بسرور .والآن كان الأمر يقتضى ذهابهم إما إلى داغستان فى الشمال ، أو إلى آذربيجان الجنوبية التى مركزها تبريز فى الجنوب . كلاهما كانا قطرين تركيين . رُجح الذهاب إلى داغستان لكونها سنية لإنقاذ شعبها من سيطرة الشيعة .

أمر لالا بإجراء تعداد فى شيروان . تم تثبيت ضريبة القطر السنوية بـ ٢٥ مليون آقجه ؛ مليون آقجه من هذا المبلغ كان ضريبة تؤخذ من نفط (بترول) باكو . قام بهذا التعداد المؤرخ الشاعر دالى محمد جلبى الذى عين واليا بعد ذلك . عين آمر كتيبة آفلونيا واليا (لواء) على باكو بعد ترفيعه . كلف لالا باشا أولاً فريق أول (والى) دياربكر درويش باشا ومن ثم فريق أول (والى) حلب محمد باشا أن يكونا واليين على شيروان ووعدهما إن وفقا فى واجبهما فسيرفعان خلال عدة سنوات إلى رتبة وزير (مشير) . اعتذر كلاهما رغم هذا الوعد . إذ كان واضحا أن الجيش الصفوى ويحتمل الشاه بالذات سيدخل الإيالة فور انسحاب القائد . طلب أوزدمير أوغلو عثمان باشا هذه الولاية التى لم يرغب فيها أحد . أثنى لالا باشا كثيرا على تضحية صديقه هذه . تشكلت داغستان كإيالة مستقلة . أعطيت إدارة كلا الإيالتين اللتين تفصل بينهما جبال القفقاس إلى أوزدمير أوغلو ، ويمكنه إدارة الإيالتين بواسطة واليين منفصلين يكون هو آمرا لهما . إن هذا الاستعداد لدى أوزدمير أوغلو لتحمل المسئولية سوف يفتح أمامه باب رتبة الوزارة العظمى . رفع القائد قبيل مغادرته رتبة عثمان باشا إلى وزير (مشير) .

حصلت الإمبراطورية خلال الفترة آب – ت٢ من سنة ١٥٧٨ على ٤ إيالات جديدة . كانت أهمها شيروان .

انسحب عثمان باشا الذى كان يتسلم ٢ مليون آقجه كمخصصات،إلى دمير قابو مركز داغستان فى الشمال . أعطى إدارة أرش Eres إلى قيتاس باشا أى ولاه على

شيروان بمخصصات قدرها ٧٠٠٠٠٠ آقجه . قسمت شيروان إلى ١٦ لواء وداغستان إلى ٦ ألوية . خصص لأوزدمير أوغلو ٣٠٠٠ إنكشارى و ١١٠٠٠ سباهى ، ٦٦ مدفعا و ١٨٠ صندوق عتاد . وأعطيت وجدان أخرى لأمراء الألوية . سدد القائد لالا مصطفى باشا رواتب ٦ أشهر مقدما لأفراد الجيش الذين سيبقون فى القفقاس وانسحب فى شهر ت ١ إلى أرضروم لقضاء فصل الشتاء وكانت دغستان التى تشكل كامل جنوب القفقاس والقطاع الشرقى من شمال القفقاس التى تبلغ مساحتها ١٧٤٠٠٠ كم² الغنية ذات الكثافة السكانية والتى يشكل أكثريتها السنيون ، وقد فتحها الصفويون خلال شهرين (٨ آب ــ ٨ ت ١) . وكانت روان ، أران ، قره باغ وناهجوان لا تزال لدى الصفويين . كان أوزدمير أوغلو عثمان باشا بانتصاره فى معركتين ميدانيتين بفاصل زمنى مدته ٣١ يوما قد أضاف كذلك إلى فتوحاته فى الحبشة واليمن لقب « فاتح قفقاسيا » .

كان الصفويون عازمين على استرداد القفقاس من العثمانية . فى الوقت الذى غادر فيه لالا باشا أرش إلى أرضروم (٨ت١) ، كان أوزدمير أوغلو قد نصب مقره العسكرى فى شمهى Samahi (شماهى Semahi) بين باكووارش Eres . اعلن اميرى الكرج Imerethi فى كوتايس و Guria فى بوتى تابعيتهما للعثمانية (١١ ت٢) . أسس لالا باشا فى هذه المنطقة إيالة جلدر ودعى إليها مصطفى باشا . كانت تشمل بعض أراضى كرجستان وقسما من أراضى لواء قارص الحالى .

كان على الصفويين أن يجتازوا نهر كور Kür (Kura) ليتمكنوا من الدخول إلى شيروان . كان عثمان باشا قد شيد ٥ سفن حربية نهرية للحيلولة دون اجتيازهم النهر . اجتاز الجيش الصفوى المكون من ٢٥٠٠٠ شخص النهر ودخل البلاد بقيادة والى شيروان السابق أوروس خان . وجاء جيش الفرسان التركمانى الذى اجتاز النهر من ساليان وصعد نحو الشمال – الغربى أمام شماهى والتقى بجيش عثمان باشا المكون من ١٤٠٠٠ . جندى . سار جيش صفوى آخر مكون من ١٥٠٠٠ فارس إلى قايتاس باشا الذى كان لديه حينذاك ٣٠٠ جندى فى أرش . عزم الفريق الأول الشاب قايتاس باشا ، بدلا من أن ينسحب ويحصل على الإمداد ، على الدفاع ، استشهد هو مع وحدته ، أسر عبد الرحمن بك أحد الضباط برتبة لواء . دخل الصفويون أرش وذبحوا أهاليها السنيين .

أرسل الديوان الهمايونى الذى كان ينتظر هجوما صفويا كهذا فرسان قرم الذين

اعتادوا على مناورات الشتاء إلى قفقاسيا . دخل عادل كيراى ولى عهد (كالغاى) قرم القفقاس مع ١٥٠٠٠ جندى . كان يرافقه ٣٠٠ انكشارى و ١٠ مدافع ووالى آزاك (روستوف) محمد بك . « تفضل وأمر » الديوان رؤساء القبائل السنية فى قفقاسيا بالذهاب لنجدة عثمان باشا . ولكن قبل أن تصل كل هذه الإمدادات أفنى عثمان باشا جيش أوروس خان عن بكرة أبيه بعد أن دمره وأتلفه بصورة تامة بواسطة الـ ٦٦ مدفعا الموجودة لديه . تمكن عدة آلاف من الجرحى والجنود المشتتين من الجيش الصفوى الذى خسر ١٥٠٠٠ قتيل ، نحو ١٠٠٠٠ أسير من النجاة بشكل غير نظامى (حرب شماهى الميدانية الأولى ١٥٧٨/١١/١١) . أسر القائد العام أوروس خان وابنه ده ده خان واثنان من أمراء التركمان وقطعت رؤوسهم لإعطائهم أمر مذبحة أرش الجماعية . عين عثمان باشا ، بيالة بك أحد الضباط برتبة لواء واليا على شيروان مع ترقيته لرتبة الباشوية بدلا من قايتاس الذى استشهد . وأمر عادل كيراى الذى وصل آنذاك بأن يبيد الوحدات الصفوية التى يلاقيها فى شمال نهر كور Kür وألا يحاول اجتياز النهر نحو الجنوب . علم لالا مصطفى باشا بخبر انتصار شماهى الأول فى أرضروم (٢١ ت٢) التى استغرق قدومه إليها من أرش ٤٤ يوما .

سار ولى عهد الإمبراطورية الصفوية حمزة ميرزا إلى عثمان باشا الذى انتصر فى ثلاث حروب ميدانية بفترات زمنية قصيرة جدا ، على أساس أنه لايمكن القضاء عليه إلا بخروج ولى عهد صفوى يقود الحملة الموجهة إليه . ولكن لكونه صغير السن فى ١٢/٥ مِن عمره ، كان الهدف من وجوده رفع الروح المعنوية لجيشه فقط . وكانت القيادة الأصلية لدى سلمان خان . سار الصفويون على شكل ٤ فيالق . كان الجيش الصفوى البالغ ١٠٠٠٠٠ شخص يحتوى على أكثر من ٥٠ فريق أول (بكلربك) الذى يسمى « خان » ولواء (سنجق بك) الذى يسمى « سلطان » . كانت قوات أوزدمير أوغلو ١٤٠٠٠ جندى عثمانى و ٢٥٠٠٠ جندى قرامى و٧٦ مدفعا . كان الباشا داخل قلعة شماهى وأما القراميون فكانوا خارج القلعة ؛ حيث إن القلعة ، لم تكن تستوعب هذا العدد من الجند . وقع عادل كيراى فى كمين فى اللحظة التى هاجم فيها وحسب أنه انتصر ، وأسر مع بيالة وسيق إلى سراى قزوين . عرض الشاه هناك على ولى عهد قرم اعتناقه المذهب الشيعى . وعدا أن عادل كيراى رفض ذلك،عشقته زوجة الشاه وكذلك أخت الشاه وأوقع الخلاف بينهما لتنازعهما عليه . أمر الشاه الذى علم بخبر هذه الفضيحة ، بقتل الأمير . كان

عادل كيراى محاربا ممتازا إلى درجة أنه قتل ٧ من أفراد الحرس الصفوى الخاص الذين حملوا عليه ثم سقط « شهيداً للعشق » .

من ناحية أخرى ، لم يكن عثمان باشا قد خضع للصفويين رغم أنه فقد ١٠٠٠٠ من جنده وكبد الصفويين ٢٠٠٠٠ قتيل . لم تسفر حرب شماهى الميدانية الثانية (١٥٧٨/١١/٢٧) عن نتيجة حاسمة . لكن عثمان باشا الذى قل عدد جيشه ، ترك شيروان للصفويين وانسحب إلى دمير قابو (بالفارسية : دربند ، بالعربية : باب الأبواب) فى داغستان (٧ ك٢) . وفى ١٢ ك ٢ ، جاء إلى دمير قابو . أما بيالة باشا الذى وقع فى اسر الصفويين مع عادل كيراى فقد نجح فى الفرار من قزوين إلى سمرقند . استقبل هناك بحفاوة بالغة وأكرمه خاقان تركستان عبد الله خان ، وعاد إلى إستانبول بصحبة سفيره .

حاول الصفويون الذين استرجعوا شيروان أخذ تفليس مفتاح كرجستان قبل حلول الربيع وقدوم لالا بباشا . بدأ حصار تفليس (١٥٧٩/٣/٣٠) . أما لالا باشا ، فلم يتمكن من التحرك قبل ١١ تموز (١٥٧٩) بسبب انتظاره قدوم الجند من الإيالات . سار من أرضروم بـ ١٠٠٠٠٠ جندى .

١٧) حركـات عـام ١٥٧٩

يعتبر دفاع محمد باشا عن تفليس بـ ١٨٠٠ من جنوده تجاه ١٥٠٠٠ من جنود إمام قولوخان ، من أكبر حروب الدفاع فى التاريخ .

بدأ الحصار الشديد فى ٣٠ آذار ، لم يبق من جند فرهاد باشا - زاده محمد باشا فى نهاية تموز سوى ٧٠٠ جندى . أكلت جميع الحمير والقطط والكلاب بعد الخيل الموجودة فى القلعة وأصبح سعر الكلب الواحد داخل القلعة سعرا خياليا مثل ٢٠٠٠ آقجه . وخلال هذه الأيام ، جاء قائد القوات البحرية وناظرها قيليج على باشا إلى Poti (بالتركية : فاش) وشيد فيها قلعة وأسطولا نهريا رفيعا . أما القائد العام لالا باشا ، فقد جاء فى ٢٦ تموز إلى قارص وأمر بإنشاء قلعة محصنة جدا . وبينما الباشا يقترب رفع امام قولو الحصار المدهش الذى دام ١٢٤ يوما (١ آب) . والمشهور

عنه أنه عندما سمع عزف الموسيقى العسكرية (مهترخانة) لم شعثه فى الحال وهرب . وكان والى (فريق أول) دلقادر مصطفى باشا فى المقدمة يقود الوحدة الطليعية . فتح محمد باشا مع ٧٠٠ من جنده الذين أشرفوا على الموت من الجوع ، باب القلعة وحضن مصطفى باشا باكيا . كان قد صرف ثروته البالغة ٥٠٠٠٠ قطعة ذهب التى ورثها عن أبيه للدفاع عن تفليس .

أنجز خلال ٢٧ يوماً بناء قلعة قارص فى ٢٣ آب ، ويعتبر ذلك من ألمع الأعمال والإنجازات فى التاريخ العسكرى التركى . كان مجموع طول الأسوار والحصن ، والخنادق ٥٠٠ / ٣٠ م . فى ٢٧آب ، جاء والى (برتبة لواء) آزاك محمد بك مع ١٠ آلاف جندى إلى دميرقابو (داغستان) والتقى بقوات أوزدمير أوغلو وأعلمه باقتراب خان قرم محمد كيراى . أسس أوزدمير أوغلو أسطول الخزر على أن تكون القاعدة دمير قابو (دربند) كان الديوان قد أرسل ٢٠ قائد سفينة (قبطان) ، جنود بحرية ، مدفعيين ، مهندسين ، معماريين ، أخشاب ، قطران ، مجادف ، مدافع بحرية وأنواع أخرى من المهمات . عين لقيادة أسطول الخزر والى آزاك محمد بك . رفعه أوزدمير أوغلو إلى رتبة فريق أول . كان أسطول الخزر تابعا للديوان مباشرة ، كأسطول الهند (السويس) وألطونة ، وليس تابعا إلى القائد العام ناظر البحرية .

كان لالا باشا فى قارص . أنشأ مدينة بعد إنشائه القلعة . كان العثمانيون قد تسلموا قارص كما تسلموا أرضروم خالية خربة وغير مسكونة . شيد لالا باشا فيها ٥ مساجد ، وجسرين ، وسراى للوالى ومدرسة (التحصيل المتوسط والعلوم الدينية) ، ومكتبا (التعليم الابتدائى) ، ثكنة ، حمامات ومساكن وافتتح المدينة فى ٢٢ أيلول . وطلب قدوم الأهالى من المناطق المجاورة وسكناهم فيها . تم تحصين تفليس . أسر العثمانيون الذين دخلوا روان فى ٦ ت ١ ، ٢٠٠٠٠ صفوى . وجاء محمد كيراى خان إلى دربند فى ٧ ت١ والتقى بأوزدمير أوغلو . كان الخان يبغى الانتقام لأخيه وولى عهده عادل كيراى . وكان قد سار من قرم فى ٢٦ تموز بـ ٨٠٠٠٠ فارس . وفى ١١ ت١ ، سار أوزدمير أوغلو مع الخان من دربند . دخل باكو . قتل فريق أول (والى) شيروان الصفوى محمد خان الذى حاول الدفاع عن شيروان مع ١٥٠٠٠ من جنوده . لم يدم الاحتلال الصفوى فى شيروان سوى

عشرة أشهر ونصف . وقع فى هذه الأيام حادث امتد صداه وشمل العالم بأسره ؛ فقد اغتيل فى إستانبول الوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا ، واحتل مكانه الوزير ٢ أحمد باشا . وبذلك ارتقى لالا مصطفى باشا من رتبة الوزارة ٣ إلى الوزارة ٢ ، وأصبح سنان باشا وزيرا ٣ . وفى ٢٢ ت١ انسحب لالا باشا مع جنوده وعددهم ١٠٠ ٠٠٠ إلى أرضروم لقضاء الشتاء . انتهى موسم هذه الحملة بفتح روان واسترداد شيروان وهماشمالي آذربيجان وأرمنستان الحالية . لكن تحقيق لالا باشا هذه الانجازات بواسطة قواده التابعين له وانشغاله هو فى قارص بإنشاء المدينة مدة شهرين ، ٢٧ يوما وعدم تقدمه ، أفاد كثيرا أعداءه فى الديوان . ورغم أن أوزدمير أوغلو كان قد اقترح على القائد العام لالا باشا بأن هناك ٨٠ ٠٠٠ جندى قرامى وأنه بالإمكان الدخول إلى قزوين والقضاء على إيران بقيادة لالا باشا ، إلا أنه لم يتمكن من الحصول على موافقته . إذ إن مسألة إيران بالنسبة إلى لالا باشا هبطت إلى الدرجة الثانية . كان كل همه وتفكيره فى تبديل السلطة فى إستانبول . كان مقتنعا بأن أحمد باشا شخصية ضعيفة وأن باب الصدارة قد انفتح له ، وسيمكنه ترأس مقام الإجراء فى الدولة العالمية الذى حاول اقتناصه قبل ١٣ سنة . أما خان قرم فإنه ودع أوزدمير أوغلو فى ٧ ت٢ وذهب إلى قرم . ترك لأوزدمير أوغلو وحدة عسكرية بقيادة أخيه غازى كيراى .

(١٨) حركـــات عـــام ١٥٨٠

كان بقاء الباشا القائد عاطلا فى الوقت الذى كان فيه القضاء على إيران ممكنا خطأ عسكريا وسياسيا كبيرا . ولكن كان الشائع أنه لم يكن يرغب فى إكساب أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذى ذاع صيته وفاقه شهرة لقب فاتح إيران . نقل الديوان وزيره ٢ من القيادة العامة لحملة إيران (١٥٨٠/١/٧) ، وعين مكانه الوزير ٣ قوجا سنان باشا الذى كان سيىء السجايا وعديم الأخلاق ، ولا قيمة له من الناحية العسكرية . ومن غير الممكن أن يستعاض به عن لالا باشا ، ويصبح وهو عدو لأوزدمير أوغلو قائدا له . لكن سنان باشا وعد فى الديوان بأنه إذا ماأعطيت القيادة العامة له فإنه سيكبل الشاه بالسلاسل ويقتاده إلى إستانبول ، وقد صدق الديوان هذه الثرثرة . جاء كل من لالا باشا إلى إستانبول ليحتل مكانه كوزير ٢ فى الديوان ، وسنان باشا إلى أرضروم . وبوفاة أحمد باشا بعد عدة أسابيع ، أصبح لالا مصطفى

باشا وزيرا أعظم بعنوان « وكيل السلطنة » (١٥٨٠/٤/٢٨) وكان يستعد للقضاء على سنان باشا ، لكنه مات بعد ٣ أشهر و ٩ أيام من الحياة السياسية والعسكرية الصاخبة . وعندما علم سنان باشا العاطل بدون عمل بوفاة غريمه الأكبر ، أقام احتفالا فى الجيش عندما كان بجوار تفليس وعاد إلى إستانبول بصفة وزير أعظم . وهكذا قضى سنان باشا الذى لم تكن له أبداً نية إرسال جنود إلى أوزدمير أوغلو ، ولا الالتئام به ، سنة ١٥٨٠ دون حركة وبلا مكسب . وأعطى مجالا لإيران لكى تلم شعثها . كان يعلم - رغم كونه قائدا عاما - أنه لو اشترك فى حركات عسكرية فإن النصر سيعود لعثمان باشا وليس له . حيث إن الشعب لم يكن غبيا . كان الكل يعلم أن سنان باشا عسكرى متملق . وعثمان باشا رجل حرب داهية .

١٩) حركـــات عـــام ١٥٨١

هكذا توفى صوقوللو - زاده داماد قره لالا مصطفى باشا (١٥١١ - ١٥٨٠) ، فاتح قبرص وأحد أكبر العسكريين فى القرن ١٦ بعد صدارة دامت ٣ اشهر و ٩ أيام وعمره ٦٩ سنة . أخواه الوزير ٢ دلى خسرو باشا (وفاته ١٥٤٤) وفريق أول (والى) إيالة روملى محمود باشا (وفاته ١٥٨٠) . وقد خلف مؤسسات خيرية كبيرة جدا . تزوج أولا بفاطمة خاتون حفيدة سيباى نائب السلطنة المملوكية فى الشام المولودة من ابنته والسلطان قانصو غورى ، وتزوج بعدها هما سلطان ابنة الشهزاده محمد ابن القانونى . تزوج أحد أبنائه الوزير جعفر باشا (وفاته ١٥٨٧) بصفية خانم سلطان ابنة صوقوللو محمد باشا المولودة من ابنة سليم الثانى .

إن حاجى قوجا سنان باشا عدو لالا باشا مدى الحياة والذى يعتبر من الشخصيات النموذجية لبداية عهد الانحطاط العثمانى - ألبانى (١٥٠٦ - ١٥٩٦) . أخوه الكبير هو الوزير إياز باشا (١٥٠٠ - ١٥٦٠) . كان سنان باشا الذى يكبر لالا باشا سنا ويأتى بعده مباشرة فى القدم متزوجا بأميرة هى (خانم سلطان) ابنة السلطان ياوز سليم . وقد ترك هو كذلك أعمالا خيرية تحير العقل .

انقضت سنة ١٥٨١ بجمود بسبب عجز سنان باشا وطلب إيران الصلح . كان أوزدمير أوغلو قد نقل قاعدته إلى باكو ، واهتم بتحسين إنتاج آبار نفط باكو

وإصلاح قلعة باكو ، كما عنى بتعزيز أسطول الخزر وكان ينتظر قدوم الجند ، لكنه لم يتمكن من الحصول من قرم على أكثر من ٥٠٠٠ جندى فقط . دُمر جيش سلمان خان أثناء محاولته اجتياز نهر كور Kur لاستعادة شيروان على يد غازى كيراى الذى أرسله أوزدمير أوغلو لصده . تمكن ٣٠٠ جندى فقط من النجاة من بين ١٨٠٠٠ من جنود الصفويين (ك١٥٨١/٢) . ثم حاصر سلمان خان آخر وهو صدر أعظم إيرانى باكو لكنه انسحب منهزما . هنأ مراد الثالث عثمان باشا وغازى كيراى . أما الوزير الأعظم سنان باشا ، فإنه لم يكتف بعدم مساعدة عثمان باشا الذى صاحب لالا مصطفى باشا مدى الحياة ، بل إنه كان يبحث عن الوسائل التى تمكنه من القضاء عليه . لكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك بسبب شهرة الباشا العسكرية الفائقة . استمرت قيادة سنان باشا الذى عاد إلى استانبول فى ٢٢ تموز (١٥٨١) مدة سنة و ٦ أشهر و ١٥ يوما . وكان قد قضى ٥ أشهر و ٥ أيام من هذه المدة فى أرضروم فى توزيع الإيالات والألوية على مؤيديه .

٢٠) حركـــات عـــام ١٥٨٢

جاء السفير الصفوى إبراهيم خان توركمن فى ١٥٨٢/٣/٢٩ حاملا مقترحات الصلح . وأفاد بأن الشاه موافق على الصلح مع بقاء كرجستان وداغستان لدى العثمانية شريطة إعادة شيروان . لكن شيروان كانت بحوزة العثمانية ، وكان ترك العثمانية شيروان السنية التى حصلت عليها بسكب الدماء معارضا لمبادئها . كانت إيران فى هذه الأثناء تحارب الخاقان التركستانى جنكيز أوغلو عبد الله خان شيبانى. لم يفكر سنان باشا حتى من الاستفادة من هذا الوضع . عزل مراد الثالث ، الذى غضب على طلب السفير الإيرانى استعادة شيروان، سنان باشا من الوزارة العظمى ، كان الشاه فى خراسان فى حملة ضد الخاقان التركستانى . كان وضع إيران حرجا . لكن جبهة إيران ، كانت بعهدة أوزدمير أوغلو مع جيش غير كاف أبدا . ترك الجيش الموجود معظمه فى أرضروم عثمان باشا لحاله فى ضفاف الخزر ، لعدم تسلمه أمراً من إستانبول .

دخل بيكر خان مع ١٥٠٠٠ جندى صفوى إلى شيروان . انتصر على غازى كيراى الذى حمل عليه بـ ٣٠٠٠ فارس قرامى وأسره كما كان قد أسر أخاه الكبير

عادل كيراى . غازى كيراى عسكرى فائق ، يجيد لغات عديدة ، عالم ، شاعر متميز باللغة التركية وملحن قدير جدا . بهر ولى عهد الإمبراطورية الإيرانية حمزة ميرزا بهذا الأمير القرمى الذى يجمع كل هذه الصفات ، وأكرمه كثيرا . عرض عليه أنه يمكنه أن يطلب مايريد فى حالة اعتناقه المذهب الشيعى وحاول معه كثيرا فى هذا الصدد . وعلى أثر معارضة غازى كيراى ، حبسه فى قلعة قهقهة (آلاموت) . بقى الأمير القرامى حفيد جنكيز فى البطن ١٦ وعمره ٢٨ سنة فى الزنزانة عدة سنين لكنه لم يترك اعتقاده السنى . أسر بعد مدة أمير اللواء دال محمد بك (باشا) وسيق إلى حجرة غازى كيراى . كان هو كذلك شاعرا ومؤرخا . بدأ الأميران قضاء الوقت فى الأحاديث وقراءة الأشعار والنظم .

حرر أوزدمير أوغلو عثمان باشا رسالة إلى مراد الثالث . ذكر فيها أنه أصبح ألعوبة بأيدى الرجال عديمى الكفاءة فى إيران ، وأنه ظل منذ سنوات فى الجبهة الإيرانية وأن فرصا كبيرة قد ضاعت ، وأنه فى حالة عدم إصلاحه هذا الوضع فسوف يصاب شرف الدولة بالشوائب . جن الوزير الأعظم والديوان الهمايونى . كيف يمكن لهذا الوزير أن يتجاوزهم ويراجع البادشاه مباشرة ؟ لكن البادشاه لم يعط أذنا مصغية للأقوال الصادرة عن الديوان ، وأرسل جيشا من إستانبول إلى كفة فى قرم . اجتاز الجيش الذى توحد تحت قيادة جعفر باشا فريق أول (والى) كفة جبال القفقاس الهائلة وجاء من كفة إلى دمير قابو خلال ٨٠ يوما (١٥٨٢/١١/٢٤) . حصل عثمان باشا على الجنود الذين كان فى انتظارهم منذ سنين . وتخلص من حرج الوضع .

٢١) حركات عام ١٥٨٣ ، انتصار مشعلة لر (١٥٨٣/٥/١١) ، فتح روان (١٥٨٣/٨/١٥)

منح فرهاد باشا رتبة الوزارة (مارشال) وعين قائدا عاما على الجبهة الإيرانية (١٥٨٣/٣/٢٨) . تحرك القائد فى ١٠ نيسان من إستانبول مع ٦٠/٤٠٠ جندى و ١٠٠٠٠ عامل بناء و ٣٠٠ مدفع للحاق بالجيش فى أرضروم . سار أمام قولو خان الذى علم بخبر قدوم جيش كبير ، بـ ٥٠٠٠٠ جندى قاصدا القضاء على عثمان باشا قبل قدوم هذا المدد . اقترب حتى الضفة الجنوبية من نهر سامور Samur الذى

يفصل شيروان عن داغستان . وجاء إلى سهل بيلاسا Bilasa قرب مدينة كوبا . تقابل الجيشان التركيان مرة أخرى للنزاع على شيروان . ورغم أن الحرب الميدانية بدأت فى ٨ أيار لم يتمكن عثمان باشا من تحقيق نتيجة حاسمة إلا بعد ٣ أيام . كان والى كفه الفريق الأول جعفر باشا فى الجناح الأيسر ، ووالى سيواس الفريق الأول جركس حسن باشا فى الجناح الأيمن . كان القائد العام (السردار) عثمان باشا قد قطر ٣٠ مدفعا أمام جيشه . وفى ليلة ٩ - ١٠ أيار ، اقتتل الطرفان على ضوء المشاعل ليرى كل منهم خصمه ويحسن قتله . تفكك الصفويون فى وقت مبكر من الصباح .

كان الفرسان التركمانيون الصفويون الأبطال الذين خسروا ١١٠٠٠ قتيل و ٣٠٠٠ أسيراً وعشرات الألوف من الجرحى يتساقطون على الأرض الواحد تلو الآخر بمدافع العثمانية . بدءوا فى التراجع . ورغم أن امام فولو خان توركمن تقدم جيشه المنهزم مناديا باللهجة التركمانية : « ياهذا ، إلى اين تذهبون ؟ هل تحرمون عليكم خبزة الشاه ؟ » ، لكنهم اكتسحوه معهم وذهبوا به . انتصر عثمان باشا على الصفويين انتصاره ٤ والأكبر (حرب مشعله لر (المشاعل) الميدانية ١٥٨٣/٥/١١) .

وفى ٣ حزيران دخل أوزدمير أوغلو شماهى للمرة الخامسة . كانت شيروان قد أنقذت وبقيت روان (أرمنستان الحالية) مفتوحة وبدون مدافع أمام العثمانية . أمر عثمان باشا بإنشاء قلعة كبيرة فى شماهى ، أنجزت خلال ٤٤ يوما (٢٠ تموز) ، حفر حولها خندق ملأه من ماء نهر Pirsagat . عين والى (برتبة لواء) آماسيا مصطفى بك واليا (برتبة فريق أول) على شماهى (شيروان) بعد ترقيته إلى رتبة الباشوية وإعطائه مدافع ثقيلة .

أما فرهاد باشا فقد جاء إلى قارص فى ١٢ تموز مع ١٠٠٠٠٠ جندى . وعندما علم بانتصار مشعله لر دخل روان بسهولة (الأيام الأولى من شهر آب) . جاء عثمان باشا إلى باكو فى ١٦ أيلول ، بعد أن مكث فى شماهى ٣ شهر و ١٣ يوما . شيد فرهاد باشا فى روان قلعة كبيرة (٩/٤ - ١٥٨٣/١٠/١٨) . وضع على القلعة التى تحتوى على ٥١ برجاً ، ٥٣ مدفعا . وأصبح خضر باشا واليا على روان . ترك لخضر باشا ٥٦٠١ جندى، ولجغال أوغلو سنان باشا الذى رفع إلى مرتبة الوزارة بصفته قائدا لروان - والذى هو بالأصل أميرال - ٨٠٠٠ جندى ، وانسحب لقضاء

الشتاء . كانت المصروفات السنوية لهذه الوحدات ٥١٤٤٠٠٣٤ آقجه ، ويبين هذا الرقم ماتتكبده العثمانية بسبب الحروب الإيرانية . وعين والى مورا اللواء على بك قائدا لحامية قلعة خوى فى جنوب آذربيجان وخصص له ٨٠٠٠ جندى و ٢٠٠ مدفع . أرسل صوقوللو - زاده حسن باشا مع ٨٠٠٠ جندى إلى باطوم . عين الفريق الأول دلقادر أوغلو ميرزا - على باشا واليا على تفليس . وبعد إنجاز فرهاد باشا هذه التدابير انسحب إلى أرضروم .

غادر أوزدمير أوغلو عثمان باشا دمير قابو (١٥٨٣/١٠/٢١) متجها إلى إستانبول وسوف تستغرق هذه السفرة ٨ أشهر و ٨ أيام . وترك فريق أول (والى) كفة جعفر باشا فى دمير قابو وكيلا لقائد الجبهة . اجتاز نهر Terek فى شهر ت٢ . اجتاز السفوح الشمالية لجبال القفقاس اعتبارا من الشرق إلى الغرب . اجتاز نهر كوبان المنجمد وعبر مضيق كرج ، وبدخوله مدينة كرج وطئت قدماه أرض قرم . جاء إلى مركز الإيالة العثمانية كفة .

٢٢) حركـــات عــام ١٥٨٤

كانت سن محمد كيراى خلال هذه الفترة ٥٠ سنة ، وخانا على قرم منذ ٧ سنوات . ولعدم رغبة سميز محمد كيراى كبير أبناء دولت كيراى الـ ١٨ الذى اعتلى العرش الدخول تحت إمرة وزير عثمانى ، لم يذهب إلى عثمان باشا فى داغستان مختلقا أعذارا واهية ، رغم أمر الديوان ، وأرسل وحدات بقيادة الأمراء القرامیين . قرأ عثمان باشا عند وصوله إلى كفة أمر الديوان بعزل محمد كيراى من الإمارة . وصل قائد القوات البحرية وناظرها قيليج على باشا إلى كفة مع ٣٥ سفينة حرب محملة بـ ١٠٠٠٠ جندى . كان قد استصحب إسلام كيراى البالغ عمره ٢٤ سنة الذى كان مقيما فى قونيه منذ ١٠ سنوات ، قرأ الخط السلطانى (الفرمان) بتنصيبه أميرا (خان) . كان إسلام كيراى شقيقا لمحمد كيراى . أعدم (١٥٨٣/٤/٢٤) محمد كيراى الذى أبى أن يخضع لأخيه الذى عمره بقدر عمر ابنه بعد مقاومته . كان حاكما وعسكريا ممتازا . ولو لم يكن مصابا بالشعور بنقص عدم تسلمه الأوامر من الوزراء العثمانيين كبنى جنكيز وتعاون مع عثمان باشا بصورة صادقة ، لكان

بالإمكان الحصول على نتائج مهمة من إيران (بجوى ، ٢ ، ٩٠ - ١ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٥٣ ؛ صولاق - زاده ، ٦٠٧) .

ركب أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذى رفع إلى مرتبة الوزارة ٢ على ظهر سفينة الأميرالية لقيليج على باشا المطلية بماء الذهب والمفروشة بالأطلس وجاء بواسطتها من كفة إلى إستانبول (١٥٨٤/٦/٢٨) . كانت قد مضت ٦ سنوات منذ انضمامه إلى الجيش فى مقر أرضروم فى ١ تموز ١٥٧٨ . وفى غضون هذه المدة كان قد انتصر فى ٤ حروب ميدانية تحت أقسى الظروف ، وفتح من إيران التى تعتبر الدولة الكبرى الثانية فى العالم ، أقطارا مهمة جدا تبلغ مساحتها ٣٠٠٠٠٠ كم٢ . استقبله شعب استانبول بمظاهرات كبيرة جدا . كان أبوه أوزدمير باشا ، صديقا شخصيا وكاتم سر معتمدا للسلطان سليمان القانونى جد مراد الثالث . استقبل مراد الثالث عثمان باشا بصورة خاصة فى قصر يالى كشك (القصر المطل على البحر) الواقع على المضيق واجتمع به مدة ٤ ساعات بصورة انفرادية (١٥٨٤/٧/٥) . خلع السيف المرصع المعلق فى خاصرته ، وخنجره المرصع ، وشارة رأسه المكونة من أنواع الماسات النادرة وأهداها إلى عثمان باشا . ويسجل مؤرخو ذلك العهد الثقات أن السلاطين لم يكرموا أحدا أو يحتفوا به بمثل ماأكرم مراد الثالث عثمان باشا .

لايمكن لاحد أن يضع عائقا أمام بطل وطنى يحمل هذه الصفات ، ولايمكن لأية قوة أن تحرمه من السلطة . عزل سياوش باشا وعين أوزدمير أوغلو عثمان باشا وزيرا أعظم (١٥٨٤/٧/٢٥) . كانت قد مضت ٢٤ سنة على وفاة والده أوزدمير باشا وتعيينه مكان أبيه واليا (فريق أول) على إيالة الحبشة ، و ٦ سنوات على حصوله مرتبة الوزارة . بقى فى إستانبول مدة ٣ أشهر و ١٧ يوما . غادر إستانبول فى ١٥ ت١ (بجوى ، ٢ ، ٩١ - ٥ ؛ صولاق - زاده ، ٦٠٧ - ٨ ؛ منجمباشى ، ٢ ، ٥٥٤ ، ٥) . وكل نيابة عنه الوزير ٢ مسيح باشا كوكيل لرئيس الوزارة (صدارت قائمقامى) . لم يكن هناك نظير للزحام والمظاهرات التى جرت له عند مغادرته إستانبول . يصف حريمى جاووش إستانبول يوم مغادرة أوزدمير أوغلو ببيت من الشعر معناه : « هكذا امتلأت الشوارع بالعوام والخواص - لو رميت إبرة ماسقطت على الأرض من كثرة الأشخاص » .

جاء الوزير الأعظم والقائد الأعلى إلى قسطمونى فى ١٨ ك١ . كان قيليج على

باشا فى سينوب منذ ٢٤ ت١ ، أمر عثمان باشا بقدوم ١٢ فريق أول ، ومن روملى ١٧ لواء ومن إستانبول ٤٠٠ مدفع وتجمعوا فى سيواس ، ونزل خان قرم إلى قفقاسيا . لكن ساءت صحته ، لقد سبب بقاؤه فى قفقاسيا ٦ سنوات بعد أن قضى سنوات طويلة فى حر السودان واليمن الجهنمى وفى الصحراء فى البصرة والأحساء، إصابته بالبرد . لم يتمكن من الركوب على الحصان ، وكان يتقدم بواسطة المحفة .

٢٣) حركات عام ١٥٨٥ ، فتح تبريز (١٥٨٥/٩/٢٢)

وجد أوزدمير أوغلو ، عند مجيئه إلى سيواس ، ٢٠٠٠٠٠ جندى بصورة مجتمعة . استكثر هذا العدد وأعاد ٤٠٠٠٠ منهم إلى أماكنهم . وبقدر ضخامة عدد الجيش ، كانت تتعاظم أمور الإقامة والتموين . وفى ١ آب خيم مع ١٦٠٠٠٠ جندى خارج أرضروم . كان سبب مجيئه من قسطمونى إلى أرضروم خلال مدة ٣ أشهر و ٢٣ يوماً ، هو بقاؤه ٢٢ يوما فى آماسيا و ٢٠ يوما فى سيواس وانشغاله بأمور الدولة والجيش . التقى فى طوقات بالقائد العام السابق الوزير فرهاد باشا (وزير أعظم فى المستقبل) الذى غادر أرضروم فى طريق عودته إلى إستانبول وتحادث معه . سر عثمان باشا عند مشاهدته فى أرضروم غازى كيراى ودال محمد بك (باشا) الذين كانا أسيرين لدى الصفويين وسجينين فى سجن قلعة آلاموت بعد فرارهما من السجن . كان كلاهما صديقيه الشخصيين . كانا قد تمكنا من الفرار من قلعة تدهش العقل كآلاموت وإضافة إلى ذلك كانا منفصلين عن بعضهما ، ولايمكن لأحدهما استقصاء أخبار الآخر . أخبر الباشا غازى كيراى بأنه سيعينه خانا على قرم بدلا من أخيه الصغير إسلام كيراى ٢ فى أقرب فرصة . كان غازى كيراى قد فر من أقرب الطرق عن طريق آلاموت – تبريز – وان . ولم يكن دال محمد محظوظا مثله واضطر إلى اختيار طريق آلاموت – أصفهان – شيراز – بصرة – بغداد – دياربكر ، عانى مصاعب لايمكن وصفها فى الأراضى الإيرانية حتى وطئت قدماه أرض البصره ، واضطر إلى التسول حافى القدمين ليستمر فى سفره .

بقى الجيش الهمايونى ١٠ أيام فى أرضروم ، ثم تحرك فى ١١ آب . اشتد مرض

القائد الأعلى . كان سابقا يمتطى جواده العربى الأسود المشهور جدا المسمى قره قايتاس (وتعنى الحوت الأسود) منذ مايقرب من ٣٠ سنة ، كان كل أفراد الجيش يتعرفون على هذا الجواد . كان كثير من أفراد الجيش يعتقد أن الباشا إنما حصل على فتوحاته الفريدة لكون هذا الجواد مسحورا . كان الاعتقاد السائد أن صهيل الجواد إشارة للنصر . تشاءم الجيش عندما لم يشاهد القائد الأعلى على ظهر هذا الجواد . وصل الجيش فى ٧ أيلول إلى صحراء جالدران الذى حصل فيه ياوز على انتصار كبير . كان عثمان باشا يعتقد بأنه سوف يتقابل مع الشاه . تأثر عثمان باشا عندما علم بأن الشاه فر من تبريز فى ٢٧ آب .

شوهدت تبريز فى ٢١ أيلول . أصبح فتح هذه البلدة لدى الباشا الذى كان يتمتم كل يوم « أين أنت ياتبريز ؟» فكرة ثابتة وعقيدة لايحيد عنها . ظهر الجيش التركمانى الكبير لحمزة ميرزا ابن الشاه فى ضواحى آبوار ، لكنه لم يتمكن من صيانة تبريز . وهذه هى المرة ٤ التى يفتح فيها العثمانيون تبريز . وهكذا تأسست إيالة تبريز التى سوف تستمر ١٨ سنة و ٢٨ يوما .

دخل عثمان باشا المدينة فى ٢٥ أيلول ، وفى ٢٦ منه تقبل تبريكات عيد الفطر . وفى ٢٧ منه استمع فى جامع حسن باشا (أوزون حسن) لخطبة الجمعة على الأصول السنية وكان ياوز قد صلى صلاة الجمعة فى ذات الجامع قبل ٧١ سنة و ٩ أيام (بجوى ، ٢ ، ٩٨ - ١٠٠ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٥٧ ؛ حريمى ، غونجه باغ مراد ؛ دال محمد بك ، شجاعتنامه) . وفى ٢٩ منه شرع فى بناء قلعة عظيمة على أن تتم خلال شهر . خصص لها ٨٠٠٠ جندى . وعندما ازدادت صحة عثمان باشا سوءا عين سنان باشا وكيلا للقائد العام ، وهو القائد الوحيد فى الجيش برتبة وزير ، وعين والى طرابلس الشام الفريق الأول جعفر باشا واليا على تبريز . وعد جعفر باشا بأنه إذا احتفظ بتبريز مدة ٣ سنوات وأدى خدمات جيدة ، سيمنحه مرتبة وزير ويعطيه إدارة بودين (المجر) . ركز عدة مئات من المدافع فى تبريز . سدد رواتب الجنود الموجودين فى تبريز من دراهمه الخاصة مدة طويلة وبلغت ١٠ ملايين آقجه وعين فريقا أول (والى) حلب محمد باشا معاونا لجعفر باشا لتوفير راتب شخص برتبة فريق أول فى تبريز ، ليكون بديلا عن جعفر باشا فيما إذا أصيب بحادث من قبل حمزة ميرزا الذى يتجول فى المنطقة . خرج من تبريز ، وفى ٢٨ ت١ ، جاء على

رأس جيشه إلى ضاحية شنب غزان . كان حمزة ميرزا قد حصل على معلومات خاطئة تفيد وفاة الباشا . وقام بهجوم ليلى مفاجىء . هجم على مؤخرة العثمانية بـ ٣٠٠٠٠ فارس تركمانى . لكنه هزم وتراجع . كان هذا آخر انتصار سمعه عثمان باشا . وبينا يعسكر الجيش فى ساحل آجى صو توفى ليلة ٢٩ - ٣٠ نحو منتصف الليل (١٥٨٥) . إن عينيه اللتين أغلقتا كانتا تنظران فى اتجاه تبريز . كان قد ولد فى القاهرة . ودع الحياة وعمره يتجاوز ٥٨ سنة بعدة أشهر ، فى جانب آخر من الدولة العثمانية العالمية قرب تبريز - نقل جثمانه حسب وصيته إلى مدينة دياربكر ودفن فى قبره الموجود فيها . كان عباسيا من جهة الأم ، أى أن والدته كانت أبنة أحد خلفاء العباسية . حقق فتوحات عظيمة فى مناطق تختلف أقاليمها عن بعضها تمام الاختلاف . كان أكبر عسكرى عثمانى فى القرن ١٦ ، عدا القواد من الحكام . ولم تجد العصور التالية بعسكرى على هذا القدر . وحين وفاته ، كانت أمه وزوجته وابنته على قيد الحياة فى إستانبول . أحدثت وفاته حزنا كبيرا فى إستانبول . وضع النعش على ظهر حصانه الذى كان يمتطيه منذ ٣٠ سنة المسمى قره قايتاس مع وضع السرج على المقلوب - حسب الطريقة التركية القديمة - وجىء به إلى عامد (دياربكر) عن طريق وان . قامت المدينة كلها واشتركت فى مراسم تشييع الجثمان .

أصبح الوزير ٢ مسيح باشا وزيرا أعظم بصورة تلقائية وسنان باشا قائدا عاما بالأصالة . لكن عين بعدها الوزير ٣ فرهاد باشا قائدا عاما (١٥٨٦/١/١٤) ، تحرك من إستانبول إلى الشرق لتسلم القيادة من سنان باشا . وفى أثناء ذلك كان ولى العهد الإيرانى حمزة ميرزا وعمره ١٩ سنة قد جاء أمام تبريز ، وبدأ فى حصار المدينة (١٥٨٥/١١/١٣) .

٢٤) حركات عام ١٥٨٦

دام حصار تبريز ٥/٩ أشهر حتى ١٥٨٦/٨/٣٠ . كان عثمان باشا يدافع بجنوده البالغ عددهم ٨٠٠٠ تجاه جيش جرار للعدو . لكن كانت لديه مدافع كثيرة والمدافع الصفوية غير كافية . كان حمزة ميرزا يتوقع نفاذ عتاد ومؤن العثمانية واستسلامها بعد تكبدها خسائر كبيرة . أخرج الشعب الشيعى من القلعة توفيرا لاستهلاك

الأطعمة . بقى الشعب السنى فقط فى القلعة . كانت حربا قذرة . سار فرهاد باشا من أرضروم إلى تبريز بجيش عدده ٨٠٠٠٠ جندى . وفى الوقت الذى اعتقد فيه مدافعو القلعة بأن نهايتهم قد دنت إذا بهم يشاهدون أفراد الجيش الصفوى الكبير يمتطون جيادهم وينسحبون بسرعة . أدركوا الوضع بعد فترة قصيرة عند سماعهم صوت الموسيقى العسكرية (مهترخانة) . لم يبق فرهاد باشا فى تبريز مدة طويلة . لكنه أعطى جعفر باشا ٢٠٠٠٠ جندى ودراهم تقدر بـ ٢٢ مليون آقجه . وأطعمة مقدارها حمولة ١٠٠٠ جمل . كان أوزدمير أوغلو قد كدس فى القلعة كمية كبيرة من العتاد ، ورغم الحصار الذى دام ٩/٥ أشهر كان لايزال هناك عتادا يكفى لمدة سنه . تم ترميم القلعة . انسحب القائد العام والجيش الهمايونى إلى أرضروم لقضاء شتاء عام ١٥٨٦ - ٨٧ . هنأ الديوان جعفر باشا لدفاعه عن تبريز ومنحه رتبة وزير (مارشال ، مشير) (شباط ١٥٨٦) . قتل خلال ذلك ولى العهد الإيرانى حمزة ميرزا وعمره ٢٠ سنة فى حادث اغتيال (١٩٨٦/١٢/٥) . ومات الشاه خدابنده وعمره ٥٥ سنة ، بعد عدة أشهر (أيار ١٥٨٧) . صار عباس ميرزا البالغ عمره ٣٠ سنة شاها . دامت ولاية جعفر باشا لتبريز مدة ٨ سنوات ثم عين واليا على إيالة وان .

تشمل الحرب الإيرانية جبهة العراق الجنوبية كذلك . لكن حروب هذه الجبهة لم تصل فى أى وقت من الأوقات إلى درجة عظمة حروب الجبهة الشمالية أى جبهة قفقاسيا . بدأت الحرب فى هذه الجبهة باحتلال دينور على يد والى (فريق أول) شهر زور إسفنديار أوغلو محمد باشا فى ربيع عام ١٥٧٨ . عرض أمير الحويزة الذى يسيطر على المدن كالمحمرة فى القطاع الجنوبى من خوزستان شستر ديزفول تابعيته للعثمانية . وهكذا انتقلت سواحل خليج البصرة الشمالية لحوزة العثمانية . أسست إيالة جديدة فى بلنكان وعين والى (برتبة لواء) أربيل أحمد بك واليا (برتبة فريق أول) عليها . هزم فريق أول (والى) بغداد الورد - زاده (آل الورد) على باشا ، أحد أمراء آقويونلو الصفويين فى حرب ديزفول الميدانية (١٥٨٣/١١/٧) . جاء شعب قبائل وأمراء المناطق التى تعتنق المذهب الشافعى فى غرب إيران إلى العثمانية وأعلنوا خضوعهم وطاعتهم فردا فردا . وهكذا انتقلت الإيالات من الجنوب إلى الشمال خوزستان ، لورستان ، كرمنشاه ، أردلان (كردستان) لحوزة العثمانية . وكانت إيالة آذربيجان فى الشمال قد فتحت كذلك . بقيت إيالات همدان وخمسة

مفتوحة لاحتلال العثمانية . عين جغالوغلو سنان باشا قائدا عاما على الجبهة الجنوبية ، ووضع تحت إمرته كل من ولاة بغداد ، موصل ، شهرزور (كركوك) ، بصرة ، بلنكان . جعل من دينور مركزا لإيالة جديدة وعين لها والى درنتك سنان بك . جاء جغالوغلو إلى ديزفول ، ومنها إلى نهاوند . جعل هذه المدينة مركزا للإيالة وعين لها معاونه محمد بك واليا برتبة فريق أول . سار فريق أول (والى) همدان الصفوى قورقماز خان إلى القائد العام . فقد الصفويون فى الحرب الميدانية (١٥٨٧/١٠/٣٠) التى وقعت على مقربة من نهير جاماساب ، ٩٠٠٠ قتيلاً وأسير ، كان الخان بين الأسرى . كان اليوم التالى عيد الأضحى . استمر الوزير ٤ جغالوغلو سنان باشا على قيادة الجبهة الجنوبية حتى تعيينه قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية بدلا من أولوج حسن باشا الذى توفى فى ١٥٩١/٧/١٢ .

٢٥) حركـــات عـــام ١٥٨٧

خرج فرهاد باشا من أرضروم (١٥٨٧/٧/٣٠) . جاء إلى Gori مركز الإيالة العثمانية (١١ أيلول) . شيد قلعة خلال ٢٧ يوما ، وسماها (حسن آباد) . جعل تومانيس مركزا لإحدى الإيالات . وظلت تفليس ، بين إيالتى غورى وتومانيس . وفى الجنوب كانت تمتد بكلربك (إمارة الأمراء) روان . وفى جنوب نهر آراس ، كانت تبدأ أراضى إيالة تبريز . أنشئت هذه الإيالات الصغيرة لتقوية الأسلوب الدفاعى تجاه الصفويين . عاد فرهاد باشا فى ٣٠ ت١ إلى أرضروم لقضاء فصل الشتاء لعام ١٥٨٧ – ٨٨ .

٢٦) حركـات عــام ١٥٨٨

غادر فرهاد باشا أرضروم فى ١٥٨٨/٧/٢١ . استغرقت حملته فى العام الماضى مدة ٣ أشهر ، ويوم . واستغرقت حملته أرضروم – كنجة فى هذا العام مدة ٣ أشهر و ١٩ يوما . لم تكن هنالك أية صعوبة فى الاستيلاء على قزوين . لكن فرهاد باشا كان عسكريا من النوع الذى يهتم فى الدرجة الأولى بتأمين الحفاظ على

مابحوزته ، ولم يكن فاتحا مثل أوزدمير أوغلو . كان الشاه عباس فى خراسان فى معركة بقاء أو فناء تجاه جنكيز أوغلو عبد الله خان شيبانى . حاصر عبد الله خان الثانى المسمى « الكبير » مشهد ، المدينة الشيعية المقدسة ، بجيش مؤلف من ١٠٠ ٠٠٠ جندى . بادرشاه عباس الذى سيطلق عليه اسم « الكبير » للدفاع عنها . وعلى الرغم من أنه كانت هنالك روابط متينة بين إستانبول وسمرقند إلا أنه لم يتسن تحقيق خطة مشتركة للقتال (هامر ، ٧ ، ١٩٦) .

كانت خاقانية تركستان تعيش أواخر سنين عظمتها ، وبعد مدة سوف تفقد قدرتها على مجابهة إيران وتنقسم إلى خانات صغيرة .

أما العثمانية فكانت منتشرة فى منطقة واسعة جدا ، وكان همها الحفاظ على ماتملكه ، وكانت قد بدأت تفقد دهاءها وقدرتها على الانطلاق نحو تحقيق مامن شأنه أن يغير سير التاريخ ؛ لقد كان القائد فرهاد باشا شديد الخوف من أن يؤدى فشله إلى فقدان مركز الصدارة الذى سوف يستحقه عن قريب أمر الخاقان قائده الأعلى تحريريا بالبحث عن الشاه والانتصار عليه فى معركة حاسمة ، وإن لم يجده ، فالاستيلاء على أقطاره الخالية من جيش العدو ، وأن هذا الاستيلاء فى مقدور أى ضابط . قرر القائد وبحذر شديد فتح كنجة . كان نجاحا مهما ، لكنه لايمكن أن يكون حركة استراتيجية من شأنها هزيمة الصفويين .

كنجة ، شمال آراس هى أهم الأماكن المعدودة التى بقيت بيد الصفويين . البلدة التركية التاريخية الكبيرة ، وطن « نظامى » أكبر شاعر مثنوى (حكاية منظومة) تركى الأصل .

قدم الجيش إلى قارص فى ٢٥ تموز . أرسل السلطان رسالة همايونية (سلطانية) يخبر فيها بتواجد الشاه فى خرسان ، وخلاء قزوين من الجيش وأمر بالاستيلاء عليها .

تظاهر الإنكشارية الذين جرأهم – أغلب الظن – فرهاد باشا ، وهتفوا « لي‍أت سيادة السلطان شخصيا ، ونذهب سوياً ، إن شاء الله نذهب إلى قزوين فى السنة القادمة ! » تأخر الباشا ١٦ يوما فى قارص ، تحرك فى ١٠ آب ووصل كنجة مركز إيالة قره باغ مجتازا تفليس . مجيئه من أرضروم إلى هنا فى ٤٢ يوما . ذهب الصفويون الذين تيقنوا من عدم إمكانهم الدفاع وانسحبوا . دخل الباشا كنجة وأخذ فى تشييد

قلعة كبيرة . تم إنشاء القلعة التى أحيطت بسور له برج و ٧ أبواب حديدية وبارتفاع ٢٠ ذراعا وعرض ٣ أذرع ، محيطه ٣٨٠٠ ذراع . عين حيدر باشا لإدارة بكلر بكية كنجه . وضع تحت إمرته ٣٠٠٠ جندى . هجم جعفر باشا بكلربك (أمير الأمراء - فريق) شيروان ، بحملة مؤلفة من ٣٠٠٠٠ جندى على زياد أوغلو محمد خان ، بكلربك الصفويين فى كنجة وأفنى نصف الجيش الإيرانى (١٥٨٨/٩/٢٩) . قاد جعفر باشا الجيش وهو فى حالة مرض . مات بعد فترة قصيرة (٢ ت١) . وصار حسن باشا بكلربك حلب ، بكلربك لشيروان برتبة وزير . غادر فرهاد باشا الذى بقى ٤٤ يوما فى كنجة وشيد قلعة خلال ٣٧ يوما ، يوم ١٥ ت١ ، ووصل معسكره فى أرضروم يوم ٨ ت ٢ .

تعنى أذربيجان (تبريز) بالنسبة للصفويين مثل مايعنيه لواء أرطغرل (بيلة جك) ، أو لواء خداوندكار (بورصة) بالنسبة للعثمانيين ؛ فهى موطن الصفويين ؛ وشريان الحياة بالنسبة لإيران . وقد أجبر عدم التمكن من استردادها الشاه عباس على الصلح والانتظار لفترة استعداد طويلة المدى . إن سقوط كامل خراسان فى الشرق (التى تبلغ ٤٥٠٠٠٠ كم^2) بأيدى الأوزبك الأتراك الشرقيين ، واستيلائهم على مشهد المدينة المقدسة أعجز إيران . كانت علاقة بنى تيمور الهند التابعة لإيران ، سيئة كذلك مع أكبر شاه ، وكانوا على خلاف دائم مع الأفغان . كانت الدولة الصفوية التركية الشيعية المحاطة بثلاث إمبراطوريات تركية سنية - حنفية ؛ فى موقف الكفاح من أجل البقاء أو الفناء .

٢٧) معاهدة إستانبول (١٥٩٠/٣/٢١)

كان دحر جعفر باشا بكلربك تبريز بجيشه البالغ ١٥٠٠٠ شخص الجيش الصفوى الذى أغار عليه قد قطع أمل الشاه فى استرجاع تبريز بالمرة .

طلب الصلح . ترأس وفد السفارة الإيرانية بصورة فخرية حيدر ميرزا ابن حمزة ميرزا ولى عهد إيران المقتول . قابل فرهاد باشا الوفد فى مقره الكائن فى حسن قلعة يوم ١٥٨٩/١٠/١٤ . قبل الوزير الثانى فرهاد باشا يد ولى العهد الطفل . أطلقت المدافع فى مقر القيادة العامة العثمانية على شرف حفيد حفيد الشاه إسماعيل . وفى

عيد الأضحى (٢٠ ت١) ، رتب فرهاد باشا وليمة على شرف البكوات الأتراك الصفويين ، وكان على رأسهم مهدى قولو خان أسطة جالو ، والى أردبيل . جاء إلى إستانبول كل من فرهاد باشا الذى رفعت عنه صفة القيادة بانتهاء الحرب فى ١٥٩٠/١٠/١٤ ، وحيدر باشا ومعه معيته الكبيرة العدد فى ٢٨ ك٢ . عين المؤرخ الشهير مصطفى أفندى السلانيكى دليلا لميرزا . خصص قصر برتو باشا الكائن فى وفاء ميدانى لإقامة ولى العهد الصفوى . هب شعب إستانبول ، رجالا ونساء لرؤية ولى العهد الذى استقبله فى أسكدار ، الأميرال الكبير (مشير البحر) أولوج حسن باشا . ولشدة الزحام أخذ الوفد يسير ببطء إلى درجة أنه لم يتمكن من الوصول إلى قصر برتو باشا إلا وقت العشاء . أخلد ولى العهد إلى الراحة فورا . واستعد الديوان بميزانية ضخمة لمصروفات الوفد (يوميا ١٠٠٠٠٠ آقجة و ١٠٠ رأس غنم و ١٠٠ كلة (قطعة كبيرة) سكر و ١٠٠ كيلة شمع ومايناسب العدد من الخضر والفاكهة ، الخ .) . وفى اليوم التالى (١٥ ك٢) ، قدم مهدى قولوخان توركمن أوراق اعتماده إلى الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) قوجا سنان باشا .

استقبل مراد الثالث صدر ميرزا فى ٢٩ ك٢ فى احتفال عمد فيه إلى أن يكون رائعا ليبهر عيون الإيرانيين . يعتبر إرسال ولى عهد الدولة الوحيدة على وجه الأرض ، التى تعتبرها العثمانية معادلة لها إلى إستانبول إشارة إلى أن إيران ، لم تعد تعتبر دولة على قدم المساواة مع الدولة العثمانية . وبعد وليمة الغداء التى قدمها الوزير الأعظم سنان باشا بالصحون الذهبية جلس السلطان مراد على التخت الموجود حاليا فى سراى طوب قابو ، المرصع والمذهب الذى صنع حديثا ، وسمح لولى العهد بتقبيل يده . وبعد إجلاس ولى العهد الطفل على كرسى إلى جانب السلطان أخبر سنان باشا مهدى قولوخان بالإذن له فى الحديث . بدأ المرخص الأول الصفوى بإلقاء خطاب طويل باللغة التركية (طبعا) . استمع السلطان بإنصات . ذكر فى خطابه أن الشاه يعترف بكافة الفتوحات العثمانية ، ويطلب الصلح على أساس مبدأ الـ Statu quo = (الوضع الراهن) أى الاعتراف بالوضع الراهن وبقاء الأماكن الكائنة لدى الدولتين حاليا ، بصورة فعلية ، على حالها ، وأن الشاه هو من جملة الحكام الذين يجرون سلطناتهم تحت سيادة السلطان . يعتبر هذا الحادث ذروة الشوكة فى التاريخ العثمانى إنه يعنى أن الشاه قد قبل أن يكون السلطان هو الحاكم الأعلى . ولم يكن الشاه

إسماعيل قد صرح إلى ياوز ، ولابنه تحمسب القانونى بمثل هذا التصريح . قدمت الهدايا التى أرسلها الشاه إلى السلطان ، والموجود أكثرها حاليا فى متحف طوب قابو سراى . يستنتج من كل هذا أن الشاه عباس قد طلب الصلح بشكل قطعى . وأنه قد أيقن أنه سوف لن يتمكن من العثمانيين مالم يلم شعثه بصورة جيدة .

وقعت معاهدة إستانبول بتاريخ ٢١ آذار ١٥٩٠ . وانتهت حرب من أقسى حروب التاريخ العثمانى التى استمرت منذ ١٢ عاما تنقصها ١٤ يوما . حرر المعاهدة الشيخ سعد الدين أفندى (المتن . منشآت السلاطين ، ٢ ، ٢٤٩ – ٥٢) انضمت إلى الدولة العثمانية الأراضى التى فتح أكثرها أوزدمير أوغلو عثمان باشا والبالغة ٥٩٠٠٠ كم٢ ، وأمتدت حدود الدولة بشكل قطعى حتى غربى سواحل بحر الخزر (قفقاسيا الشمالية ، داغستان ، روان ، كرجستان ، شيروان ، آذربيجان ، آردلان ، كرمنشاه ، لورستان ، خوزستان) . وبالاضافة إلى قبول إيران احترام حرية المذاهب السنية فإنها وافقت على عدم سب شخصيات السنة العظام . وتنص المعاهدة على مبادلة الأسرى وعلى رأسهم ٣ بكلربك صفويين لدى العثمانية و ٢ بكلربك عثمانى لدى الصفويين .

زادت هذه المعاهدة من اعتبار العثمانية فى تركستان كذلك . وأساساً ومنذ عهد القانونى فإن تركمان ياكا الذين كانوا يحتلون قسما من تركستان الحالية كانوا يعتبرون العثمانية متبوعة . والوزير الأعظم فرهاد باشا الذى كان يخاطب خاقان تركستان بوصفه بالخاقان المعظم والخاقان الأعظم « عبد الله خان » كان يملى عليه أوامر سلطانه بشكل جلى ضمن هذه الألفاظ التوقيرية الرقيقة (منشآت السلاطين ، ٢ ، ٢٣٩ ومابعده) . وعدا ذلك فإن معاهدة إستانبول أمنت حماية المذهب السنى لمسلمى القفقاس إلى يومنا هذا . ولو استمر الحكم الصفوى لمدة أطول لأصبح أهل السنة القاطنون فى هذه الأقطار شيعة . ولغرض حل مشكلة كيلان ارتأى الديوان إعطاءها إلى الصفويين كتعويض . وكانت سلالة كاركيائى السنية – الشافعية ، تعترف بولاية العثمانية ، على أن يكون مركزها فى رشت – كيلان . والثانى عشر من هذه السلالة أحمد خان الذى استمرت سلطنته أكثر من نصف قرن ، هو من السلاطين الذين نظموا الشعر وكتبوا النثر باللغتين التركية والفارسية ولحنوه ، وفى الأيام الأولى لعام ١٥٩٣ جاء إلى إستانبول ومات فيها ١٦٠٠ .

أقيم لولى العهد حيدر ميرزا ، فى قصر صوقوللو فى ميناء قدرغة فى إستانبول مراسم ختان فخمة (١٥٩٣/٥/١٧) . واشترك فى هذا الحفل الوزير الأعظم قوجا سنان باشا ، وكافة الوزراء وجميع شعب استانبول . وفى جو كهذا بدأت حرب ألمانيا الكبرى . إيران كانت تسعى لإزالة آثار ضعفها . وقد وسع أكبر شاه فى الهند ، سلطنة بنى تيمور . ولو ملكت الإمبراطوريتان التركية فى إيران ، والتركية فى الهند ، الأسطول فى هذا العهد كما ملكه العثمانيون لتغير سير التاريخ العالمى ، ولما تمكن الأوربيون من التدخل فى شئون آسيا .

٢٨) المرحلة الأولى للحروب التركية - الألمانية الكبرى (١٥٩٢ - ١٥٩٥)

ساءت العلاقات التركية - الألمانية ، بالغارات المتوالية التى أجراها تلى حسن باشا بكلربك بوسنة على الأراضى الألمانية ، وخاصة الغارات الأخيرة فى صيف عام ١٥٩٢ . أعلم الإمبراطور رودلف الثانى الديوان بواسطة سفيره فى إستانبول بأن الأراضى الألمانية اخترقت على العمق ، وقتل ٢٠٠٠ جندى ألمانى وجرح الآلاف ، وأسر حسن باشا ١٠٠٠ جندى ألمانى وأرسلهم إلى إستانبول مع ١٢ مدفعاً و ٧ رايات ألمانية ، وبناء على ذلك فإنه بعد الآن سوف يمتنع عن دفع الضريبة السنوية ، وفى العام التالى أغار الألمان إغارة انتقامية على ضفاف نهر كولبا الذى يشكل القسم الشمالى من حدود بوسنة ، إيالة حسن باشا وباغتوه أثناء تواجده فيها مع ١٠٠٠٠ جندى . وأحرز الجيش الألمانى البالغ ٤٠٠٠٠ شخص نصرا حاسما (١٥٩٣/٦/٢٠) قرب قصبة سيساك (Sissek بالتركية شيشكا) (فى الجنوب - الشرق من زغرب) . واستشهد ٧٠٠٠ جندى عثمانى من بينهم حسن باشا ، وشابان مشهوران جدا من العائلة السلطانية هما الأخوان محمد بك ومصطفى بك وهما ابنا بنت بنت القانونى بكوات برتبة لواء لفرق الصاعقة ، أى أنهما ابنا أخ السلطان مراد الثالث (بجوى ، ٢ ، ١٢٨ - ٩ ؛ نعيما ، ١ ، ٨١ - ٣) . وفور وصول هذا الخبر إلى إستانبول أعلن الديوان السلطانى بعد جلسة صاخبة الحرب على ألمانيا (١٥٩٣/٧/٤) .

كانت الامبراطوريتان:التركية والألمانية فى حالة صلح منذ ٢٥ عاما و ٤ أشهر و١٦ يوما . وخلال هذه الفترة جرت حوادث كثيرة جدا على الحدود بصورة

متقابلة ، أكثر هذه الحوادث قام بها الطرف العثمانى . إلا أن هذه الحوادث اعتبرت مناوشات عادية بين الولاة العسكريين فى حدود كلا الطرفين ، ولم يذهب الأمر إلى حد تصعيد تلك المناوشات إلى حروب . ألمانيا كانت تدفع ضريبتها . وفى الحقيقة كان حادث هزيمة Kulpa ضربة قاسية ولكنه كان رداً على غارة حسن باشا فى العام الماضى . لكن استشهاد الشابين الجنرالين حفيدى السلاطين والذين كانت لهما مكانة مرموقة ولدت هياجا كبيرا . كان من رأى الشيخ سعد الدين أفندى ذى النفوذ القوى مساندة إنجلترا وفرنسا وهولندا ، تجاه أعداء الدولة الرئيسيين إسبانيا ، ألمانيا وإيران . وكان سائرا على سياسته هذه بنجاح . ورغم أنه كان عدوا للألمان إلا أنه عارض بشدة إعلان الحرب على ألمانيا ، وتراشق بالألفاظ الشديدة ، مع قوجا سنان باشا الذى يترأس الديوان . وأفاد سنان باشا بأنه سوف يكبل « ملك بج (فينا) » إى إمبراطور ألمانيا بالسلاسل ويحضره إلى إستانبول . كانت هذه الأكذوبة تعادل أكذوبته التى قالها قبل مدة وهى أنه سوف يقوم بأسر الشاه . أفاد سعد الدين أفندى بصراحة أن دعوى سنان باشا هذا كذب وتلفيق . إلا أن الوزراء أيدوا رئيس الوزراء خشية منه وصوتوا فى صالح الحرب (بجوى ، ٢ ، ١٣٣ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٦٥) ، واندلعت حرب كرامة طويلة الأمد ، لا تستند إلى سبب حياتى أو استراتيجى .

أخذ وظيفة السردار الأكرم (القائد الأعلى) على عاتقه الوزير الأعظم قوجا سنان باشا ، خرج فى حملته ضد ألمانيا (١٥٩٣/٧/٢٩ - ١٥٩٤/١/١٠) . وبعد استيلائه على قلعة أو قلعتين لا أهمية لهما انسحب إلى المشتى فى بلغراد (١٥٩٤/١/١٠ - ١٥٩٤/٥/٥) . وخلال انسحابه إلى المشتى شرع الجيش الألمانى فى محاصرة أستولنى - بلغراد . وهزم صوقوللو حسن باشا بكلربك (بودين) (ابن صوقوللو محمد باشا) الذى هرع مع قوته البالغة (٢٠٠٠٠ جندى)وهى أقل بكثر من قوات العدو لفك الحصار عن أستولنى - بلغراد ، واستشهد ٦٠٠٠ ، واستولى الألمان على ٤٤ مدفعا . تمكن ترياكى حسن باشا العسكرى بدهائه من تخليص أستولنى-بلغراد . وهكذا انتهت السنة الأولى للقتال بحصول العثمانيين على قلعتين صغيرتين من الألمان ، وحصول الألمان على ١٠ قلاع صغيرة من العثمانية .

وبعد أن مكث سنان البالغ ٨٠ عاما فى بلغراد مدة ٣ أشهر و ٢٦ يوما تحرك فى ٥ أيار ، واجتاز الحدود الألمانية ووصل يانق قلعة فى ٧ آب (١٥٩٤) . كان فى الجيش الخاقانى ٧ بكلربك . والمدينة التى يسميها الأتراك « يانق قلعة » والتى حوصروا فيها تسمى بالألمانية : Raab وباللغة المجرية ، Györ) ، وتقع على مسافة ١١٠ كم على الشمال – الغربى من بودابست وعلى مسافة ١٠٠ كم من الجنوب – الشرق من فينا و ٦٠ كم على الجنوب – الشرق كذلك من Bratislava . وهى قلعة محكمة جدا تعتبر منفذا لفينا . وكان قد فتحها القانونى من قبل ، وتعذر الحفاظ عليها . استمر الحصار ٥١ يوما . كان الكونت هاردك يحمى القلعة ومعه ١٠٠٠٠ جندى و ٢٩٠ مدفعا . وكان جيش الإمبراطورية الألمانية البالغ ١٠٠٠٠٠ شخص بقيادة الأرشيدوق ماتياس Matthias (الذى صار بعدها إمبراطورا) يراقب الحصار من الساحل الشمالى لنهر الدونة ، ولكنه لم يكن راغبا فى اجتياز النهر ومجابهة الجيش العثمانى الذى يفوقه قوة بكثير والاشتباك معه فى حرب ميدانية كبرى . نصب الجيش العثمانى الجسور على الدونة واجتازها وشتت الجيش الألمانى الذى يضم كتائب الميليشيات الإسبانية ، الفرنسية ، البابوية ، البولونية والروسية ، واستولى الأتراك على ٤٠٠ مدفع ، ١٠ سفن صغيرة و ٦٠٠ زورق على نهر الدونة ومات الآلاف من الألمان . واستسلمت يانق قلعة . ونظرا إلى أن الكونت هاردك استسلم من تلقاء نفسه ودون مقاومة أخذ جيشه البالغ ١٠٠٠٠ جندى وانسحب . لكن الـ ٢٩٠ مدفعا وكافة المهمات الموجودة فى القلعة انتقلت إلى يد العثمانية . ذهب الكونت هاردك وقواده الجنرالات إلى فينا . وضعهم الإمبراطور فى مخزن وبنى فوقهم جدارا . أصبحت يانق قلعة مركزا للإيالة وعين بها عثمان باشا بكلربك (فريق) الذى كان أمير لواء شكودرا .

يعود الفضل فى الدرجة الأولى فى فتح « يانق قلعة » إلى غازى كيراى الثانى خان قرم الذى جاء فى ١١ آب مع ٤٠٠٠٠ خيال أمام القلعة ، وعسكرى كبير آخر ، صار فيما بعد وزيرا أعظم ، هو صوقوللو – زاده لاله محمد أغا (الذى كان رئيسا « أغا » للانكشاريين) . وبفضل التكتيك العسكرى الذكى الذى استخدماه ، أمكن فتح القلعة المهمة ، بالإضافة إلى شريط كبير يمتد بين بودين وفينا كما تمكنا من تشتيت الجيش الإمبراطورى والانتصار عليه فى معركة ميدانية . لكن سنان باشا أرجع الفضل

فى هذه الانتصارات إلى شخصه – كما هى عادته – وأصبح أنفه فى السماء (بجوى ، ٢ ، ١٤٦ – ٥٤ ؛ صولاق – زاده ، ٦٢٠ ؛ هامر ، ٧ ، ٢٧٢) .

وفى ٣ ت٢ (١٥٩٤) ، غادر سنان باشا بودين ، عائدا إلى بلغراد لقضاء فصل الشتاء فيها . وتم تثبيت الحدود العثمانية – الألمانية ، على مسافة ٧٥ كم من فينا (Lavisse - Rambaud ، ٥ ، ٨٠٩) . لكن فويفودات (أمراء) كل من أردل (ترانسلفانيا) أفلاق (رومانيا) وبغدان (مولدافيا) أعلنوا عصيانهم على الدولة العثمانية ، وانضموا فى الحرب إلى جانب ألمانيا .

ويعتبر خريف عام ١٥٩٤ ذروة الدولة العثمانية العالمية . حيث وصلت إلى الحد الأعلى فى التوسع الجغرافى ، واعتبارا من الخريف يبدأ السقوط من الذروة .

وفى ٥ ت٢/١٥٩٤ ، أعلن البابا اتفاقا مقدسا جديدا ضد العثمانية وأعلن أن هذا الاتفاق مفتوح للدول الإسلامية فيما عدا العثمانية . استجاب لهذه الدعوة فورا فويفودا (إمارة) مجرية وأخريان رومانيتان من الإمارات المرتبطة بالدولة العثمانية بروابط التبعية المتينة . لم يكن ذلك أمرا سهلاً ، إذ إن هذه الإمارات كانت منسجمة تمام الانسجام مع النظام العثمانى ، ذلك بالإضافة إلى أن أردل فقط كانت كاثوليكية والأخريان كانتا أرثوذكس . لكن فويفودة بغدان عندما أوضح سبب عصيانه تلفظ بهذه الجملة التاريخية : « إن الأتراك الحاليين هم ليسوا أتراك الأنسال الماضية الذين يفتحون الأقطار بعدالتهم ودون قتال » . ويقتضى أن نشير هنا إلى حادث إجبار سنان باشا هذه الإمارات الثلاث على دفع الجزية بالمقادير الفاحشة لأغراضه الشخصية والتى لم تكن موجودة فى النظام العثمانى إلى ذلك الحين . وهذه الفويفودات (الإمارات) أخذت فى إعدام البويار (الأشراف الذين يرفضون العصيان . وفى أردل أعدم ٧ أمراء من ذوى النسب الرفيع لموالاتهم العثمانية (مكائى **Histoire de Transylvanie Makkai** ، ١٩١) . وأرسلت ألمانيا معونة عسكرية كبيرة لكل من الأمراء الثلاثة (هامر ، ٧ ، ٢٧٦) .

بدأ العصيان فعلا فى الإمارات (١٥٩٥/١١/١٣) أثناء السبات الشتائى فى بلغراد لسنان باشا البالغ سنه ٨٠ عاما . ذبحت معظم الأقلية التركية والرومية الموجودة فى الإمارات بالسيف . قتل ٤٠٠٠ تركى من الساكنين فى بخارست والمشتغلين بالتجارة . أغار بغتة على القلعة التركية المسماة يركوى (بالرومانية :

Giurgiu) وقتل الـ ٤٠٠٠ تركي الموجودين فيها . حرق Mihai Viteazul فويفودا الأفلاق الذى كان يعيش بخيال تأسيس ملكية رومانية كبرى ، قلعة إبرائيل الكائنة فى دلتا ألطونة ، وقصف سلسترة الكائنة مقابل ألطونة وحرقها (٦ ك٢) . وبعد حادث سلسترة بـ ١٠ أيام ، توفى مراد الثالث وانتقلت الحرب الألمانية إلى عهد سلفه محمد الثالث (نعيما ، ١ ، ١٠٣ – ٦ ؛ بجوى ، ٢ ، ١٥٦ – ٦٢ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٨٢ – ٤ ؛ صولاق – زاده ، ٦٢٢ – ٣) .

٢٩) بعض المسائل الداخلية لعهد مراد الثالث (١٥٧٤ – ١٥٩٥)

توفى داماد بيالة باشا فى بداية سلطنة مراد الثالث على رتبة وزير ثان (١٥٧٨/١/٢١) . ولو قدر له أن يعيش سنتين أخريين لأصبح وزيرا أعظم (رئيسا للوزراء) محل صوقوللو . قبطان دريا (مشير بحرى) لمدة ١٤ عاما ، بعدها وزير ثالث وثان لمدة ١٠ سنوات تقريبا ، حقق خلالها حملات بحرية بالأسطول الهمايونى كل عام تقريبا وانتصر فى جميعها ، وفى انتصار « جربة » سجل اسمه ضمن أميرالات التاريخ الخالدين . بعد ٤ أيام توفيت السلطانة مهرماه ، عمة السلطانه جوهران وزوجة بيالة باشا ، كأغنى امرأة فى العالم . كانت الأبنة الوحيدة للقانونى .

زادت المعارضة داخل الديوان الهمايونى وخارجه ضد صوقوللو محمد باشا الوزير الأعظم الأخير للقانونى ، والوحيد لسليم الثانى ، والأول لمراد الثالث . لم يفكر فى تلطيف حكمه الدكتاتورى ، كما لم يفكر فى التنحي عن الحكم كذلك . ولم يكن إعدام ابن عمه صوقوللو ـــ زاده مصطفى باشا ، الإدارى الفائق القدرة دون ماسبب تقريبا (١٥٧٨/١٠/١٠) كافيا لتنبيه صوقوللو .. أدار مصطفى باشا إيالة بودين (المجر) مدة ١٢ سنة و٣ أشهر و٧ أيام بدراية فائقة . أخذ مراد الثالث ، ينفر من زوج أخته صوقوللو . وأخيرا طعن أحد الدراويش الوزير الدكتاتور بطعنة خنجر ، أثناء خروجه من إحدى جلساته فى الديوان ، قيل عن الدرويش : إنه مجنون (١٥٧٩/١٠/١٢) . من المؤكد تقريبا أن حادث الاغتيال كان بتدبير السلطان . لم يتمكن من عزله بصورة رسمية ، خوفا من حدوث ثورة ، وذلك لاعتماده على تشكيلات الانكشارية . قضى صوقوللو الذى ترك عددا لا يحصى من المؤسسات

الخيرية مدة ١٤ سنة و٣ أشهر و١٥ يوما فى وظيفة وزير أعظم . ويأتى تسلسله التاسع فى طول مدة بقائه فى رئاسة الوزراء فى تاريخ تركية . لم يخرج بنفسه خلال رئاسته للوزارة لأية غزوة ، وأرسل قادة ، ولم يرض بخروج كل من سليم الثانى ومراد الثالث لأية حملة ، وتجاوز تقاليد عصر القانونى .

خلف صوقوللو فى رئاسة الوزارة – بصورة أوتوماتيكية دون تعيين – أحمد باشا ، بسبب كونه وزيرا ثانيا وكان من معارضى صوقوللو . كان متزوجا بالسلطانة مهرماه وعائشة خانم – سلطانة ابنة رستم باشا . توفى بعد ٦ أشهر و١٦ يوما (١٥٨٠/٤/٢٨) . جاء بعده لمنصب الرئاسة بصورة أوتوماتيكية وبدون تعيين الوزير الثانى لاله مصطفى باشا ، وبعد بقائه فى منصبه هو كذلك مدة ٣ أشهر ، و٩ يوم (٧ /١٥٨٠/٨) جاء بعده رئيسا للوزارة بصورة أوتوماتيكية الوزير ٢ قوجا سنان باشا . عزل من منصبه بعد ٢ سنة و٤ أشهر (١٥٨٢/١٢/٦) جرى حفل الختان الذى أقيم للشهزادة (الأمير) ولى العهد محمد (الثالث) (٢٩ آيار – ٢٤ تموز ١٥٨٢) . فى عهد صدارته ، ويعتبر هذا الاحتفال أكبر احتفال جرى فى العهد العثمانى . كان معرضا باهرا لبيان عظمة دولة عالمية .

أخذ مكان سنان باشا بعد عزله الوزير ٢ ، داماد سياووش باشا الذى عزل بعد سنة و٧ أشهر و٢٠ يوما (١٥٨٤/٧/٢٥) . جرى على عهده حادث وفاة نور بانو ، السلطانة الوالدة « والدة سلطان » (١٥٨٣/١٢/٧) وإرسال شهزاده – ولى العهد محمد إلى مانيسا لجلوسه على عرش ساروهان (١٥٨٣/١٢/١٧) . خلفه أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذى توفى فى جبهة القتال (١٥٨٥/١٠/٣٠) ، مدة صدارته سنة و٣ أشهر و٦ أيام . وخلال ذلك توفيت السلطانة أسمهان زوجة صوقوللو وابنة سليم الثانى الكبرى (١٥٨٥/٨/٧) . تم صنع العرش الذهبى للسلطان مراد الثالث وتسليمه له ٢٣ أيلول ١٥٨٥ وهو العرش الذى جلس فيه بنو عثمان فى الأيام الخاصة كاحتفالات الجلوس والأعياد حتى عام ١٩٢٤ .

خلف أوزدمير أوغلو بعد وفاته الوزير ٢ نصوح باشا . كان عمره ينوف على الـ ٨٠ . استقال بعد ٥ أشهر و١٤ يوما (١٥٨٦/٤/١٤) . أصبح سياووش باشا وزيرا أعظم مرة أخرى . وسقط بعد سنتين و١١ شهراً و١٨ يوما فى الثورة التى تسمى واقعة بكلربكى (١٥٨٩/٤/٢) . وخلال ذلك توفى قيليج على باشا فى سن الـ ٨٠ ، وهو الذى كان قبطان دريا (مشير البحرية) منذ أكثر من ١٥ عاما

(١٥٨٧/٦/٢١) . خلف مؤسسات خيرية عديدة ، ورثته ماتوا قبله . ثروته البالغة ٥٦٠ ٠٠٠ سكة ذهبية انتقلت إلى الخزينة . بعد عدة أشهر توفى المعمار سنان عن عمر يناهز ٩٨ عاما (١٥٨٨/٤/٩) . أخذت سلسلة الدهاة الذين أخذهم القانونى تحت حمايته ورفعهم إلى منزلتهم هذه ، أخذت تتقطع ، وتنقرض ، وتفنى .

وفى الحقيقة فإن واقعة بكلربكى (١٥٨٩/٤/٢) ، أثبتت أن الإمبراطورية ، أخذت تسير نحو الأزمات فى الداخل . إن الدراهم المتداولة لدى العثمانية هى المسكوكات الفضية المسماة « آقجه » ، والمسكوكات الذهبية كانت تستعمل فى المبايعات الكبيرة . كان يدفع القسم الأعظم من الرواتب بالـ « آقجه » . وخلال ١٥٨٤ – ٨٩ ، شرع فى تصغير حجم الآقجه تدريجيا حتى بلغت ٥٠٪ من حجمها السابق . أى أن المسكوك الذى نقص بمقدار النصف من الفضة صار العملة الرئيسية للدولة . كان هذا الوضع يقتضى أن تزيد الدولة الرواتب بمقدار الضعفين . بقيت الرواتب كما كانت فى السابق من ناحية عدد الـ « آقجه » مع العلم بأنها فى الحقيقة فقدت قيمتها بمقدار النصف . ومنذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا (١٩٨٥) أخذت الرواتب فى تركية فى الهبوط بصورة مستمرة . العلاوات التى أضيفت على الرواتب لم تكن فى أية فترة من الفترات كافية لمواجهة تضخم العملة ، وكانت قوتها الشرائية تحت معدل التضخم باستمرار ، الأمر الذى سبب ثورة الإنكشارية . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى يطلب من السلطان قطع الرءوس . لم يتمكن السلطان من إخماد العصيان . فقد وزيرا المالية (باش دفتردار) محمود أفندى ودوغانجى محمد باشا حياتهما . نجا الوزير الأعظم سياووش باشا ، المسئول الحقيقى عن الأزمة المالية من الموت بعزله . وهكذا يبدأ عصر قيام الإنكشارية بتشكيل عصبة لهم ، تسعى وراء مطاليب سياسية ، وتعصى عند عدم تحقيق مطالبهم التى سوف تستمر ٢/٥ عصر . وقد كان ذلك من أهم أسباب إضعاف الدولة .

صار ، قوجا سنان باشا ، وزيرا أعظم للمرة الثانية ، عزل بعد سنتين ، و٣ أشهر و٢٩ يوما (١٥٩١/٨/١) . وكما منع صوقوللو فتح قناة السويس وقناة الدونة – فولغا كذلك منع مؤيده سنان باشا فتح قناة مرمرة – صقاريا ، الذى استغرق تصميمها الجهد والوقت الطويل (١٥٩١/٤) . الوزير ٢ فرهاد باشا أخذ مكان سنان باشا . عزل بعد ٨ أشهر و٤ أيام بفضل مؤامرات سنان باشا

(١٥٩٢/٤/٤) . احتل سياووش باشا مجلس الصدارة للمرة الثالثة ، وعزل بعد ٩ أشهر و٢٤ يوما (١٥٩٣/١/٢٨) . عزل من صدارته الأولى بسبب عصيان الإنكشارية ، أما عزله عن صدارته هذه فكان بسبب عصيان السباهية (صنف من الخيالة) . كان عصيان السباهيين أيضا بسبب قضية تخفيض سعر الـ « آقجه » إلى النصف . بدأت فترة الصدارة الثالثة لقوجا سنان باشا الذى فتح فيها بلية الحرب الألمانية (١٥٩٣/١/٢٨) وعزله عن صدارته هذه محمد الثالث بعد ٣١ يوما من وفاة مراد الثالث . استمرت صدارته هذه سنتين و١٩ يوما (١٥٩٥/٢/١٦) .

توفى السلطان مراد خان الثالث بسبب مرض المثانة ، عن عمر يتجاوز الـ ٤٨ عاما بـ ٦ أشهر و ١٣ يوما . دامت سلطنته ٢٠ سنة ، وشهرا ، ويومين . وعندما كان شهزاده (أميرا) ، أصبح صنجق بك (أمير لواء) ، أولا لأقشهر ٣ سنوات ، ثم لصاروهان (مانيسا) لمدة ١٣ سنة و٨ أشهر و٢٧ يوما . ولد فى مرتفع بوزدوغان قرب مانيسا ، وتوفى فى سراى طوب قابو فى إستانبول ، دفن فى ضريحه الكائن فى رواق أياصوفيا . خطاط ، مؤلف كتاب عن التصوف ، شاعر له ديوانان باللغة التركية وديوان فى كل من اللغتين العربية والفارسية . أساتذته فى الدرجة الأولى شيخ الإسلام خواجة سلطانى محمد سعد الدين أفندى (١٥٣٦ - ١٥٩٩) ، بقائى أفندى (وفاة ١٥٩٥) ، الشيخ شجاع أفندى ، إبراهيم أفندى (وفاة ١٥٧٣) ، مربوه ترياكى حسن باشا المشهور ، فروخ بك ، إسفنديار أوغلو سلطان زاده شمسى أحمد باشا .

أكثر من له أولاد من بين السلاطين أجمعهم هو مراد الثالث . صار له ١٠٢ شهزاده (أمير) ، أكثرهم ماتوا وهم فى المهد ، وأطول من عاش من بين هؤلاء الأمراء وصل سن ١٧ ، عدا ابنه الكبير محمد الثالث الذى خلفه فى العرش . أما بناته اللواتى بلغن سن الزواج فهى السلطانة عائشة التى تزوجت ٣ زيجات (١٥٧٠ - ١٦٠٥/٥/١٥) السلطانة فاطمة التى تزوجت ٤ زيجات (١٥٨٠ - ١٦٢٠) ، السلطانة فخرية التى تزوجت زيجتين (١٥٩٤ - ١٦٥٦) ، أما اللواتى تزوجن مرة واحدة فهن السلطانة مهرماه (١٥٩٢؟ - ؟) ، السلطانة خديجة ، السلطانة رقية ، السلطانة مهربان .

زوجة (خاصكى سلطان) مراد الثالث هى السلطانة الوالدة صفية المشهورة

(البندقية ١٥٥٠؟ - إستانبول ، ١٦٠٥/١١/١٠) . وخلال سلطنة ابنها محمد الثالث أصبحت والدة - سلطان (السلطانة - الوالدة) مدة ٩ سنوات وأصبح لها نفوذ كبير . كانت ابنة والى كورفو من عائلة بافو العريقة النسب فى البندقية .

ومع أن الدولة خلال عهد مراد الثالث أعلم رجال بنى عثمان وأكثرهم ثقافة قد وصلت إلى ذروة قدرتها وحدودها وعظمتها إلا أن آثار الانحطاط بدأت تظهر بصورة واضحة ، خلال السنة أو السنتين الأخيرتين،التضخم المالى ، عصيان صنف قابو قولو فى المركز وتشكيلهم عصبة ، انشغال نساء السراى بالسياسة ، انتشار الرشوة ، تفشى الفخفخة ، الإسراف ، الحرص على المظاهر والعظمة ، إمكان حصول الأشخاص الذين لاقيمة لهم على المناصب الحساسة ، تناسى الفتوحات وإعلاء كلمة الله ، ظهور وزراء يتسمون بالدكتاتورية ، إمكان عزل شيوخ الإسلام كالموظفين ، طروء الفساد على زمرة العلماء ، ظهور زمرة الأشقياء فى الأناضول باسم « جلالى » . كل ذلك بدأ فى الظهور فى هذه الدورة أو بعدها بقليل . رجال الدولة،الفن والعلوم ، الدهاة الذين عاصروا القانونى يتوفون الواحد تلو الآخر ويظل مكانهم شاغرا ، خاصة فى المجالات العسكرية ، البحرية ، الإدارية والسياسية وغيرها ويقل شأن الدولة ، ومن ثم تقع مقدرات الدولة فى أيدى الكوادر الضعيفة ، وهؤلاء بدورهم يبدون اهتمامهم الزائد بانتقاء كوادر أضعف منهم . مع كل هذا فإن أسس الدولة كانت قائمة على درجة من المتانة لايمكن تصديقها ، وكان يجرى بطبيعة الحال بين الحين والآخر حركات إصلاح ، وتمر فترات لامعة ، وهذا هو الذى سبب إطالة حياة وحيوية الدولة والنظام .

ويجب ألا ننسى أن العصر ١٦ هو « عصر الأتراك » . أما العصر ١٧ الذى نحن على أبوابه فيمكننا أن نقول إنه العصر الثانى الأفضل فى تاريخ تركية بأجمعه بعد العصر ١٦ . ومن ناحية أخرى ، فإن أوروبا لم تكن قد وصلت بعد إلى الحد الذى يمكنها معه ابتلاع الشرق ، والإسلام ، والأتراك . ولكى تصل إلى ذلك الحد ، احتاجت إلى عدة عصور . كان كيان المجتمع ، ونظام الدولة ومستوى الرفاهية ، سواء فى العثمانية أو فى العالم الإسلامى وحتى فى آسيا كلها ، متقدما على أوروبا بشكل بارز .

وفى ١٥٩٠ ، حتى شيخ مومباسا الواقعة بين كينيا وتانجانيكا دخلت تحت الحكم

العثمانى (A.Warner, Mombasa, IA,410 a) . كانت الأساطيل التركية فى المحيط الأطلسى والمحيط الهندى . ولو أن البحث عن الانحطاط فى مثل هذا العصر يتراءى كأنه مبالغة إلا أنه حقيقة . وفون هامر يكتب مايلى (٧ ، ٢٩٠) : « عند وفاة مراد الثالث ، كانت الإمبراطورية تمتد من المحيط الأطلسى إلى قفقاسيا ، من الحبشة إلى الدونة وتحوى أراضى ٢٠ دولة ملكية بالضبط . وصل الأتراك إلى فينا وهى منتصف طريق إستانبول – باريس تقريبا. بولونيا كانت دولة يعين البادشاه ملكها وتدفع ضريبة سنوية إلى إستانبول وكذلك تدفع إلى قرم التى هى من أتباع إستانبول الاعتياديين . وكان وضع الدول الأوروبية الأخرى تجاه العثمانية يشابه هذا الوضع » . كان هنالك رجال دولة ، تجار وأصحاب سفن .. دخلهم يفوق دخل ملوك أوروبا . مثلا كان دخل صوقوللو السنوى يفوق مليون سكة ذهبية .

إن الدولة التى خلفها القانونى فى ١٥٦٦ ، كانت تقريبا ١,٩٩٨,٠٠٣ كم٢ فى أوروبا + ٤,١٦٩,١٧٧ كم٢ فى آسيا + ٨,٧٢٥,٧٢٠ كم٢ فى إفريقية = ١٤,٨٩٢,٩٠٠ كم٢ . وفى أواخر سلطنة مراد الثالث كانت : ٢,٨٤٨,٩٤٠ كم٢ اوروبا + ٤,٨١٥,٨٣٢ كم٢ آسيا + ١٢,٢٣٧,٤١٩ كم٢ أفريقية = ١٩,٩٠٢,١٩١ كم٢ . هذا الرقم يبين أوسع ما ملكته العثمانية من الحدود فى آن واحد . وهنالك أقطار أخرى دخلت تحت حكم الأتراك خارج هذه الحدود المذكورة ، وهى واسعة كذلك إلى درجة كبيرة ؛ إن مجموع مادخل فى حكم العثمانية من الأراضى فى التواريخ المختلفة يبلغ ٢٣ مليون كم٢ : ٣,٥٤٣,٦٦٢ كم٢ فى أوروبا + ٥,٧٢٩,٢٨٥ كم٢ فى آسيا ١٣,٧٢٧,٤٦٤ كم٢ فى إفريقية = ٢٢,٩٩١,٤١١ كم٢ . ولا يدخل فى هذا الحساب كافة الأقطار التى وصلتها كتائب الصاعقة والقراصنة وتمكنوا من الاستيلاء عليها ، والتى دخلت ضمن السيطرة العليا ونفوذ العثمانية .

وضمن حدود عام ١٥٩٢ ، احتسبت بولونيا (٦٩٦,٧٣٧ كم٢) فى أوروبا ، فاس وأقطار الزنوج التابعة لها (٣٠٥١٦٩٩ كم٢) فى إفريقية . وألحقت قبرص شمال تونس فى زمن سليم الثانى ، وفى آجه (أندونيسيا) أسس نظام الحماية . وفى عهد مراد الثالث تم ضم أراض تبلغ مساحتها ٥٩٠,٠٠٠ كم٢ من شمال وجنوب

القفقاس مع غرب إيران . وأدخلت أماكن كثيرة فى إفريقية الشرقية ، أفريقية الوسطى . تحت الحماية .

ويقدر عدد سكان كافة الأقطار العثمانية هذه ، فى ١٥٩٢ ؛ ١٠٠ مليون نسمة . ٧ ملايين منها تشكلها بولونيا – لتوانيا و ٩ ملايين تشكلها الأقطار المرتبطة بفاس . بلغ تعداد إستانبول مع الضواحي ١٢٠٠,٠٠٠ وتعداد القاهرة ٧٥٠,٠٠٠ نسمة . أما الإمبراطوريات التركية الأخرى فتقدر هكذا فى نفس التاريخ كما يلى : ٠٠٠ ٦٢١ ١ كم٢ و ١٥ مليون نسمة صفويين إيران ، ٠٠٠ ٦٧٤ ٣ كم٢ و ١٢٠ مليون نسمة بنى تيمور فى الهند ، ٠٠٠ ٥١٣ ٥ كم٢ و ١٢ مليون نسمة بنى جنكيز فى تركستان ، ٠٠٠ ٤٥٣ كم٢ و ٢٢ مليون نسمة بنى عادل شاه فى الهند الجنوبية . وكانت الإمبراطورية الصينية فى هذا التاريخ تقريبا ٠٠٠ ٢٦٨ ١٢ كم٢ والسكان ٨٠ مليون نسمة .

أما فى الدول الأوروبية فكان تعداد النفوس حينئذ قليلا جدا (وضمنها كافة المستعمرات) : ملكية إسبانيا ٠٠٠ ٥٧٥ ٢٤ كم٢ والنفوس ٣٣ مليون ، إمبراطورية ألمانيا ٠٠٠ ٦٥٩ كم٢ والنفوس ١٧/٥ مليون نسمة ، ملكية فرنسا ٠٠٠ ١٤٢ ١ كم٢ والنفوس ١٥ مليون . ملكية إنكلترا ٠٠٠ ٣٤٧ كم٢ والنفوس ٥/٩ مليون ، جمهورية البندقية ٠٠٠ ٥٥ كم٢ والنفوس ٣/٨ مليون ، إمبراطورية روسيا ٠٠٠ ٠٠٠ ٥ كم٢ والنفوس ٧ ملايين .

نماذج من الدول العالمية الأخرى التى لاتعتبر دولا كبرى : ملكية السويد ١٠٥٨٠٠٠ كم٢ والنفوس ٢/٦ مليون ؛ ملكية الدانمارك ٥٥٩٠٠٠ كم٢ والنفوس ١/٦ مليون ؛ البابوية ٤٥٠٠٠ كم٢ والنفوس ١/٩ مليون ؛ إمبراطورية اليابان ٠٠٠ ٣٧٤ كم٢ والنفوس ١٤ مليون ؛ القطب شاه (أتراك الهند الجنوبية) ٢٩٥٠٠٠ كم٢ والنفوس ١٠ ملايين .

وفى ١٦٠٠ تقريبا كان تعداد العالم حوالى ٥٤٨ مليون نسمه . وتوزيعه على القارات كما يلى : آسيا ٣٥٠ ، أوروبا ١٢٢ ، إفريقية ٦٠ ، أمريكا الشمالية ٩/٥ أمريكا الجنوبية ٥ ، المحيطات ٢ مليون .

٣١) جلوس محمد الثالث (١٥٩٥/١/٢٧) والحوادث الداخلية

جاء محمد الثالث من مانيسا وجلس على العرش فى إستانبول . كان فى سن ٢٧/٥ . كان سنجق بك (أمير لواء) لساروهان فى مانيسا منذ ١١ عاما . عزل قوجا سنان باشا (١٥٩٥/٢/١٦) وعين فرهاد باشا وزيرا أعظم للمرة الثانية . استمرت الصدارة الثالثة هذه سنة و ١١ شهرا و ١٩ يوما . خرج فرهاد باشا لحملة ألمانيا ، وعلم فى روسجك بعزله نتيجة مؤامرات سنان باشا . دامت صدارته هذه ٤ أشهر و١٩ يوماً ، ومجموع الصدارتين سنة و٢٢ يوما . كان عسكريا قديرا . عمل سنان باشا كل ماوسعه لإزاحته باعتباره أكبر منافس له فى الحياة ، وفى النهاية أعدم فرهاد باشا (١٥٩٥/١٠/٩) . إن صدارة سنان باشا الرابعة (١٥٩٥/٧/٧) ، عبارة عن ٤ أشهر و١٣ يوما . صار لاله محمد باشا وزير أعظم ، مات بعد ٩ أيام . اعتلى سنان باشا منصب الصدارة للمرة الـ ٥ (١٥٩٥/١١/٢٨ - ١٥٩٦/٤/٣) . صدارته هذه دامت ٤ أشهر ، و٥ أيام ومجموع صداراته الخمس ٧ سنوات و٤ أشهر و٥ أيام . خلف سنان باشا الجبان بقدر ماهو خائن ، والعاجز جنسيا بقدر ماهو عديم الأخلاق ، خلف ثروة كبيرة لايتصورها العقل ، والقسم الكبير من هذه الثروة حصيلة النهب والرشوة . نظم الشعراء قصائد الفرح عند موته فى صدارته الخامسة .

خلفه الوزير ٢ داماد إبراهيم باشا ، ورؤساء الوزارة على التوالى جغال أوغلو سنان باشا (١٥٩٦/١٠/٢٧) ، إبراهيم باشا للمرة الثانية (١٥٩٦/١٢/٥) ، الوزير الـ ١٣ حسن باشا (١٥٩٧/١١/٣) ، وبعد ٥ أشهر و٦ أيام الوزير الـ ٢ داماد جراح محمد باشا (١٥٨٩) ، وبعد ٨ شهر و٢٧ يوما إبراهيم باشا للمرة ٣ (١٥٩٩/١/٦ - ١٦٠١/٧/١٠) . دامت صدارة إبراهيم باشا الأخيرة سنتين ، و٦ أشهر و٥ أيام ومجموع صداراته الثلاثة ٤ سنوات إلا يومين . توفى خلال ذلك شيخ الإسلام حاجه سلطانى خوجا سعد الدين أفندى وسنه ٦٣ (١٥٩٩/١٠/٢) . كان رجل دولة كبيرا فى عصره وسياسيا ومؤرخا . هو الشخص الذى قال عنه هامر : « هو من أكبر الدهاة الذين شرفوا الأدب العثمانى » (٧ ، ٣٧٣) . هو جد العائلة العلمية المشهورة التى تسمى بالنسبة إليه خوجا

– زاده لر ، وبالنسبة لأبيه حسن خان – زاده لر ، وابنين من أبنائه شغلا منصب شيخ الإسلام . وبعد ذلك بقليل توفى « باقى » الشاعر الأكبر الذى ترك الحياة السياسية عندما كان قاضى عسكر (قاضى عسكرى) لقضاء رومة لى ، قبل أن يتمكن من نيل مقام « شيخ الإسلام » (١٦٠٠/٤/٧) . باقى الذى كان صديقا لسعد الدين أفندى ومنافسه ، والذى يكبره بـ ٩ سنين كان شاعر السلطان سليمان المفضل . وهكذا انتقل آخر دهاة عصر القانونى إلى الماضى .

دامت صدارة داماد يمشجى حسن باشا سنتين وشهرين و٢٥ يوماً (١٦٠١/٧/١٠ – ١٦٠٣/١٠/٤) . كان رجل دولة وعسكريا لاقيمة له . جىء به محل داماد إبراهيم باشا على أثر وفاته . وكان مالقوج أوغلو ياووز على باشا ، الوزير الأعظم الأخير لمحمد الثالث واليا على مصر ، واستدعى من القاهرة إلى إستانبول .

كثرت الاضطرابات فى الأناضول فى عهد سلطنة محمد الثالث . أخذ العصيان يتلو الآخر باسم « ثورة الجلالى » ضد الولاة الذين أرسلتهم إستانبول . وانتقل العصيان إلى إستانبول كذلك (١٦٠٣/١/٦) .

وفى الوقت الذى تعالج فيه العثمانية ، الحرب الألمانية فى الخارج ، وثورة الجلالى ، فى الداخل ؛ كانت إيران تلم شعثها . توفى عبد الله خان٢ ، خاقان تركستان الذى يسمى « الكبير » ، قبل وصول سفيره – الذى سيطلب النجدة لمواجهة إيران – إلى إستانبول بشهر واحد (ك٢/١٥٩٨) . انقسمت تركستان إلى خانلق (مقاطعات يحكمها الخان) لم تعد من بين الدول الكبرى ، ودخلت فى فترة عجز اقتصادى كبير . لأن طرق التجارة تغيرت . استرجع الشاه عباس من تركستان إيالة خراسان العظيمة التى تشتمل على هرات ومشهد . وفى ١٥١٧ قدم إلى إستانبول سفير تيمور أوغلو أكبر شاه سلطان الهند لاستلفات نظر الديوان ضد الخطر الإيرانى .

عكر حادث إعدام الشهزادة الأعظم محمود فى سن ١٦ نتيجة لمؤامرة فى القصر (١٦٠٣/٦/٧) صفو الأيام الأخيرة لمحمد الثالث وفتح طريق العرش للسلطان أحمد بشكل غير متوقع أبدا .

٣٢) حرب ألمانيا : حركات عام ١٥٩٥

تحرك الوزير الأعظم فرهاد باشا إلى جبهة ألمانيا بصفة سردار أكرم (قائد أعلى) (١٥٩٥/٤/٢٧) . وعزل نتيجة مؤامرات سنان باشا ، قبيل اجتيازه الدونة فى رسجك (١٥٩٥/٧/٧) . صار سنان باشا رئيسا للوزارة وقائدا أعلى ، وظل داماد ابراهيم باشا برتبة وزير ٢ كقائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) فى إستانبول كذلك .

خلال هذه الأيام بدأ الجيش الإمبراطورى الألمانى المؤلف من ٥٠٠٠٠ مشاة و ٢٠٠٠٠ خيال بقيادة الأمير مانسفلد بمحاصرة Estergon (١ تموز) . ولحين قدوم الوزير الأعظم أعطيت قيادة الجبهة إلى ابن قوجا سنان باشا الوزير محمد باشا الذى يفوق أباه فى النذالة ، لايفقه من العسكرية شيئا ، جبان وعديم الشرف ، وكان يلقب بـ « المخنث » . أراد مجابهة الجيش الألمانى بالجيش الموجود تحت قيادته . غلب نتيجة عدم استماعه إلى الجنرالات المقتدرين الموجودين تحت إمرته . وبعد حرب شديدة خارج استركون . استولى الأمير Mansfeld على ١٥٠٠ خيمة تركية و٢٧ راية و٣٩ مدفعاً .

أما سنان باشا فقد دخل الأفلاق لغرض إخماد العصيان (١١ آب) . عبر الدونة فى رسجك وانتقل إلى رومانيا . دخل بخارست فى ٢٨ آب . مركز فويفودة (إمارة) أفلاق فى ذلك العهد لم يكن بخارست وكان فى Tragoviste على بعد ٧٥ كم فى الشمال – الغربى منها . دخلتها الصاعقة أيضا ، ولكن لم يتم العثور على الأمير Mihai والتخلص منه .

قاومت أستركون الحصار مدة شهرين ويومين بعد قصف مدافع الحصار الألمانية الـ ٤٢ التى كانت تقصف بمعدل ٢٠٠٠ قذيفة يوميا . رضى غزاة الأتراك بالتسليم ، بعد أن ظلوا عدة أيام يلعقون المرمر لإزالة عطشهم ، بعد أن قطع الألمان مجارى المياه الواردة إلى القلعة . وافق الأرشيدوق الذى حضر أمام القلعة على انسحاب الأتراك وذهابهم مع مايمكنهم حمله من الحاجيات . ترك بكلربك الأناضول القلعة باكيا وهو يقسم على استعادتها (١٥٩٥/٩/٢) . أستركون ، بلدة الغزاة التى تقع

على طريق بودابست – فينا ، كل حجر من أحجارها مسقى بدم وعرق ودموع العثمانيين والتى كان قد فتحها السلطان سليمان القانونى قبل ٥٢ سنة و ١٣ يوما . وهكذا بدأ الاحتلال الألمانى لإستركون الذى استمر ١٠ سنوات ، وشهرا ، ويوما . وسقطت قلعة فيشغراد بعد ٦ أيام . « عندما احتل الأتراك ، إستركون فى عهد القانونى احترموا كافة الآثار القديمة فى المدينة ، وحافظوا بعناية على القصور وعلى ماتحويه من قطع التماثيل . ولكن الألمان نهبوا كافة الآثار التاريخية وخربوها عند دخولهم المدينة » (فون هامر ، ٧ ، ٣٠٨) .

وأثناء حدوث هذه الكوارث مكث سنان باشا ١٦ يوما فى بخارست ، وعين ساطرجى محمد باشا بكلربك لأفلاق وتركه مع ٢٠٠٠ جندى فى بخارست ، وجاء هو مع ١٠٠٠٠٠ جندى ، إلى خلال ٥ أيام (١٨ أيلول) . وكان الفويفودا Mihai قد أخلى أفلاق وفر إلى أردل . وبذكائه تمكن من تشخيص عدم لياقة سنان باشا ، وكان ينتظر الفرصة للبطش به . لم يمر أكثر من جيل واحد على الزمن الذى كان ينتصر فيه أمراء اللواء على الأباطرة ، والآن يرتجف الصدر الأعظم أمام الفويفودات العصاة .

سنان باشا ، الذى شيد قلعة فى كل من بخارست وتاركوفيشتة (لم تكن هنالك أية قلعة فى الأفلاق وبغدان بموجب النظام العثمانى) ، غادر المدينة فى ١٧ ت١ ، بعد أن أبقى فى تاركوفيشته حيدر باشا – زاده على باشا بكلربك طرابزون . كان الفويفودا ميخائى يتعقب الجيش الهمايونى على مدار الـ ٢٤ ساعة . وفى ١٩ ت١ ، دخل ميخائى إلى تاركوفيشته . أجلس ٣٥٠٠ تركيا على الأوتاد . شوى على النار الخفيفة على باشا وكبار الضباط الأتراك « وأكلهم بكامل الشهية » مع معيته فى طعام العشاء . وأثناء حدوث هذه الوحشية التى لايتقبلها المنطق أمر سنان باشا بالانسحاب ، خوفا من الهجوم المفاجىء . وصل يركوى التى تقع على الدونة ، وعلى الضفة الثانية تقع أمامها مدينة رسجك . بدأ الجيش فى اجتياز الدونة الكبير . حل الخريف ، الدونة هائج بأمواجه المتلاطمة .

فى مثل هذه الحركات العسكرية لايعبر صنف الصاعقة (الكوماندو) الجسر إلا بعد أن يعبره الجيش بكامله ، لحماية مؤخرة الجيش من العدو . حصل الجيش وخاصة الصاعقة على غنائم كبيرة . وينص القانون ، وكذلك الدين على أن يكون خمس الغنائم

من حق الخزينة . كان سنان باشا طماعا لايشبع من المال . عين حرسا على رأس الجسر ، وبدأ بحصر الغنائم والاستيلاء على خمسها . استمر هذا العمل أثناء اقتراب العدو من الجسر . وبسبب ذلك استغرق عبور الجيش ومهماته الجسر مدة ٣ ليال . بقى صنف الصاعقة في الضفة الثانية . وأثناء وجود جيش الصاعقة فوق الجسر ، أدركهم ميخائى بجيشه (المكون من جنود الأفلاق - بغدان - أردل - ألمان) ، الذى يقال إنه يبلغ ٧٠٠٠٠ وهدم الجسر بنار مدفعيته . حدثت كارثة كبيرة ، سقط خيرة كتائب الصاعقة فى الدونة وغرقوا . تكبدت الصاعقة التى كانت القوة الضاربة الرئيسية فى الفتوحات العثمانية خسائر كبيرة . ولم يتيسر تعويض هذه الخسارة فى المستقبل . ولهذا أصبح الجيش العثمانى بحاجة إلى خيالة قرم لتعويض ذلك . ولأن هؤلاء لم يكونوا منظمين بنفس درجة كتائب الصاعقة فقد سببوا للدولة كوارث عديدة .

لم يظهر سنان باشا تأثرا كبيرا على كارثة الصاعقة ، والتى تتضاءل أمام خياناته السابقة ، ولم يقلق على شىء ، كما قلق على منصبه والتخطيط لرشوة الأشخاص الذين لهم تأثير على بقائه فى منصبه فى إستانبول من الغنائم التى استولى عليها على أنها حق قيادته . دخل ميخائى قلعة يركوى وقتل المسلمين بمن فيهم النساء والأطفال بالسيف وحول المدافع التركية نحو مدينة رسجك الواقعة فى الساحل المقابل وأحدث تخريبات غير قليلة فى هذه المدينة التركية المهمة .

انتشر الجيش هنا وهناك بحجة التشتى ، دون طلب الإذن من الوزير الأعظم (نعيما ، ١ ، ١٦٩ - ٧٢ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٨٢ - ٤ ؛ صولاق - زاده ، ٦٢٢ ومابعده ؛ هامر ، ٧ ، ٣٠٣ - ٦) . عزل سنان باشا بعد ١١ يوما من عودته من رسجك .

سقطت عدة قلاع فى أردل ، واتسعت حدود أردل حتى بلغت أسوار تامشوار Tamesvar إحدى الإيالات التركية .

وهكذا انتهى عام ١٥٩٥ على هذا الوضع المشئوم جدا .

٣٣) حملة أكرى Eğri الهمايونية (١٥٩٦/٦/٢٠ - ١٥٩٦/١٢/٢٢)

تجددت إزاء وضع كهذا ضرورة خروج السلطان للحملة . لم يخرج سلطانان إلى الجبهة منذ وفاة القانونى أى قبل ٣٠ سنة . كما يعبر الكتاب العثمانيون « فطس gebermis » سنان باشا ، ابراهيم باشا ، وصار وزيرا أعظم . دعى السير إدوارد بورتون Sir Edward Burton) سفير اليزابث الذى تحميه العثمانية للاشتراك فى الحملة . خرج محمد الثالث إلى الجبهة ، تاركا فى خزينة السلطان فى إستانبول ٢٢ مليون سكة ذهبية وأخذ معه ١٨/٥ مليون قطعة ذهبية (خزينة السلطان ليست هى خزينة الدولة) .

استقبل الشعب محمد الثالث فى بلغراد ، بحفاوة منقطعة النظير ، جرت مراسم استعراض للجيش . بقى ١١ يوما ثم تحرك (٢١ آب) جاء إلى Segedin (٧ أيلول) . وصل قلعة أكرى . بدأ الحصار (٢٤ أيلول - ١٢ ت١) . كانت أكرى (بالألمانية : Erlau ، بالمجرية : Eger) قلعة مهمة جدا فى المجر الشمالية ، فى حوزة الألمان . لم يتمكن عسكرى مقتدر كالوزير الأعظم قره أحمد باشا فى عهد القانونى من فتحها ، رغم محاصرته لها ٣٩ مرة . يعتبر فتح قلعة كهذه خلال ١٨ يوما ؛ توفيقا كبيرا . قتل ١١٠٠٠ جندى ألمانى . أقيمت صلاة الجمعة فى أكرى يوم ١٨ ت ١ ، وتلا الخطبة سعد الدين أفندى . جعلت مركزا للإيالة وعين لها بكلربك أرضروم ، صوفو سنان باشا (فتح نامة أكرى ، منشئات السلاطين ، ٢ ، ١٠١ - ٢ ؛ بجوى ، ٢ ، ١٩٣ ومابعده ؛ نعيما ، ١ ، ١٤٤ - ٥٣ ؛ صولاق - زاده ، ٦٣٠ ومابعده ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٨٧ ، ٩ ؛ هامر ، ٧ ، ٣١٩ - ٢٤) .

فى حرب هاجوفا الأولى Haçova (٢٢ ت١) انتصر الجيش الألمانى على مقدمة الجيش العثمانى ، سقط ١١٠٠ جندى عثمانى شهيدا وفقد ٤٢ مدفعا ، إن معركة هاجوفا الكبرى الأصلية بدأت بعد ٤ أيام (١٥٩٦/١٠/٢٦) .

كان مع الأرشيدوق Maximilian أخو الإمبراطور ، ٣٠٠٠٠٠ جندى وأفراد مساعدون و ١٠٠ مدفع فى الصحراء التى يسميها الأتراك هاجوفا (بالمجرية : Keresztes-mezoe) التى تقع على الضفة الغربية من نهر Tisa .

كان قوام الجيش الهمايونى ١٤٠٠٠٠ جندى (٦٠٠٠٠سباهى (تمارلى سباهى) خيال و٥٥٠٠٠ من صنف قابوقولو و٢٥٠٠٠ قرمى) كان فتح كيراى أخى غازى كيراى ٢ يقود خيالة قرم .

بدأت الحرب بهجوم الألمان واختراقهم مراكز العثمانية فى العمق ووصولهم بالقرب من المخيم السلطانى .

ترجل محمد الثالث عن حصانه ، دخل خيمته ، على كتفيه بردةالرسول ﷺ الشريفة ، وممسك بيده رمح الرسول ﷺ ، كان يصلى ويدعو الله .

دخل الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى السرادق ، وقطع الدعاء مخبرا السلطان بأن انسحابه أصبح من الضرورات العسكرية ، ومن المؤكد أنه كان يخشى وقوع السلطان فى الأسر ، فيصيب الدولة مكروه لايمكن إصلاحه ، لأنه كان طيبا وعسكريا شجاعا . استمع محمد الثالث للتوصية ، وحالما امتطى جواده أمسك خوجة سعد الدين أفندى رئيس أساتذته وأساتذة أبيه بعنان الجواد قائلا : إن الجيش الذى لايرى السلطان فى مكانه يتشتت ، وإن الحرب مستمرة وليس هناك هزيمة ، وإن روح الرسول تنظر إليهم . بدأ أفراد الصاعقة الذين شاهدوا البادشاه علي صهوة جواده وأستاذه ممسك بالأعنة بهجوم مدهش .

هزم الجيش الألمانى . قتل ٥٠٠٠٠ من أفراد العدو فى ساحة القتال و٢٠٠٠٠ فى المستنقعات التى سيقوا إليها ، واغتنم ١٠٠ مدفع . كانت خسائر العثمانية عبارة عن عدة آلاف من الشهداء . كانت جثث قتلى العدو مكدسة فى ساحة القتال الواحد فوق الآخر . وتعقب كل من فتح كيراى وجغال أوغلو سنان باشا العدو المغلوب ، وأسرا قسما منه .

كانت هاجوفا Haçova من أكبر إنتصارات العثمانيين . ولكنه انتصار لم يقيم استراتيجيا . عادوا إلى الخلف بعد إفناء جيش العدو . ولو ذهبوا بالبادشاه إلى الأمام لفتحوا بالتأكيد أقطارا عديدة . ولكن العثمانية كانت قد بدأت تأخذ بفكرة الحفاظ فقط على ماتملكه . فقد العثمانيون روح الفتوحات وطاقة التحرك . حملة أكرى ، هى الحملة الهمايونية الوحيدة خلال الـ ٥٥ عاما من ١٥٦٦ إلى ١٦٢١ (كاتب جلبى ، الفذلكة ، ١ ، ٩٠ ومابعده ، بجوى ، ٢ ، ١٩٥ - ٢٠٣ ؛ صولاق -

زاده ، ٦٣٤ ومابعده ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٩٠ ومابعده ؛ نعيما ، ١ ، ١٥٥ – ٦٨ ؛ هامر ، ٧ ، ٣٢٨ ومابعده) .

فى السنة التالية ، عين الوزير الشاب ساطرجى محمد باشا قائدا عاما للجبهة الألمانية (١٥٩٧/٦/٩ – ١٥٩٩/١/٦) . لم يكن الوزير الشاب هو الشخص الذى يمكنه القيام بمثل هذا الواجب العسكرى . جاء إلى بلغراد فى ١٣ آب ، وقضى فيها مدة ٢٣ يوما . أثناء اقتراب القائد من بودين ، كان الألمان يحاصرون يانق قلعة . وفى ٢ ت١ خسروا ٢٠٠٠ قتيل ثم انسحبوا . استولى صاطرجى باشا على Tata وأبعد الألمان عن شمال بودين وخلص Yanik و Tamesvar ، إلا أن يانق قلعة انتقلت إلى يد الألمان بشكل غير متوقع (١٥٩٨/٣/٢٩) . كان الألمان يتجسسون من فينا على القلعة التى تبعد عنها ٩٠ كم . كانت الأرزاق تصل إلى القلعة عن طريق أستولنى – بلغراد .

جاءت ليلا قافلة تتكلم التركية وأفادت بأنها تحمل الأرزاق . فتح الحرس الذين كانوا سكارى باب القلعة . اجتاز الألمان الذين كانوا فى كمين الجسر ، ودخلوا القلعة . أشعل بكلربكى محمود باشا مخزن البارود مع ٣٠٠ جندى ، وقتلوا كلهم مع مئات الألمان نتيجة الانفجار . كانت حامية القلعة تتألف من ٤٠٠٠ جندى ، إلا أنهم كانوا منتشرين فى النواحى المجاورة ، ولايتوقعون هجوما شتويا ، بقى فى القلعة ٣٠٠ جندى فقط تحت قيادة ضابط انكشارى سكران اسمه يحيى أغا . لم يستمر الحكم الثانى للعثمانية فى يانق قلعة إلا ٣ سنوات و٦ أشهر ويومان . وكأنما تعادل النصر الذى حصلت عليه العثمانية فى فتح أكرى مع هذه الخسارة .

عند حُلول الصيف تفقد الباشا مع غازى كيراى ٢ الجبهة . استولى القائد على جاناد (Csanad) وآراد ، وفى ٢ ت ١ شرع فى حصار فارات ، وفى ٣ ت٢ رفع الحصار ، وخلال هذه الأيام شرع الأرشيدوق Matthias فى محاصرة بودين بقوته البالغة ٨٠٠٠٠ جندى (٢٨ أيلول) ، لكنه انسحب فى ٢ت٢ . احترق ٨٠٠٠ بيت فى بودين نتيجة قصف مدفعية العدو . كانت خسائر الطرفين كبيرة . استشهد ٢ بكلربكى ، جرح ترياقى حسن باشا . عزل صاطرجى محمد باشا عن القيادة بعد عودته إلى بلغراد بـ ٢٩ يوما . وفى نفس اليوم عزل فى إستانبول عن الصدارة جراح محمد باشا . صار داماد إبراهيم باشا وزيراً أعظم وقائداً أعلى (١٥٩٩/١/٦) .

دامت قيادة صاطرجى سنة و ٦ أشهر و ٢٧ يوما (نعيما ، ١ ، ٢٠٤ ؛ منشآت السلاطين ، ٢ ، ١١٨ - ٩) .

٣٤) حملتا أويفار Uyvar (٥/١٥ - ١٥٩٩/١١/٢٦) وقانيجة Kanije (٨/١٤ - ١٦٠٠/١١/٣٠ لداماد إبراهيم باشا

خرج إبراهيم باشا من إستانبول إلى الجبهة بعد ترأسه الوزارة بـ ٤ أشهر و ١٠ أيام (١٥٩٩/٥/١٥) . انضم غازى كيراى ٢ إلى الجيش . استولى إبراهيم باشا على أويفار (بالسلوفاكية : Nové Zamky) القلعة الألمانية المهمة (حاليا فى جيكوسلوفاكيا) . طلبت ألمانيا الصلح ، جزع الفويفودا Mihai من ذلك ، وعرض عبوديته واسترحم الديوان الهمايونى كى يقبله . عين للمفاوضات بكلربك دياربكر قويوجى مراد باشا ، وهو صهر قاضى - زاده على باشا بكلربك بودين . لكن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة . قضى ، الوزير الأعظم والقائد الأعلى داماد إبراهيم باشا الشتاء فى بلغراد (١٥٩٩/١١/٢٦ - ١٦٠٠/٨/١٤) . حاصر قانيجة (١٢ أيلول) وفتحها (١٦٠٠/١٠/٢٢) . انتقلت قلعة مهمة تقع بين بحيرة Balaton ونهر Dtava (بالمجرية : Nagy - Kanisza) ليد الألمان بعد أن كانت فى السابق لدى العثمانية . ورغم أن Philippe Emmanuel دوق Lothringen (Lorraine) هرع لنجدة قانيجة بـ ٤٠٠٠٠ جندى ؛ إلا أنه هزم وانسحب . جعلت قانيجة مركزا لإيالة وخصص لها ٥٠٠٠ جندى .

قضى إبراهيم باشا فى بلغراد شتاء آخر (١٦٠٠/١١/٣٠ - ١٦٠١/٧/١) . تحرك بحملة جديدة على ألمانيا ، توفى فى الطريق (١٠ تموز) . ختم حياته العسكرية والسياسية بشكل لامع . أدار دفة الحرب لصالح العثمانية باستيلائه على قلعتين مهمتين جدا كأويفار وقانيجة وقلاع كثيرة فى الدرجة الثانية من الأهمية . لم يكن خلفه الوزير الأعظم والقائد الأعلى يمشجى حسن باشا جديرا بهذا المنصب . تحرك من إستانبول (١٦٠١/٨/٩) . وفى هذه الأيام ، قتل ميهاى ، وعندما استولى محمود باشا على الأفلاق بكاملها عرضت بغدان وأردل طاعتهما . سيبدأ يمشجى حسن باشا مرحلة تثبت عجزه وتخريبه للمخطط العسكرى الموفق الذى ورثه عن سلفه إبراهيم

باشا ، شاهد الألمان تجوال القائد الأعلى فى الحدود دون جدوى ، جاءوا فى الخريف أمام قانيجة .

٣٥) محاصرة قانيجة (١٦٠١/٩/٩) والانتصار (١٦٠١/١١/١٨)

جاء الأرشيدوق Ferdinand الإمبراطور فى المستقبل بقوته البالغة ١٠٠ ٠٠٠ جندى و ٤٧ مدفع حصار أمام قانيجة . سيقوم بالدفاع عن القلعة تجاه الأرشيدوق البالغ سنه ٢٣ بكلربك ترياكى حسن باشا البالغ سنه ٨٠ ، والذى قضى حياته على الحدود ، كان ذكيا ، بقدر ماهو حاضر الحيلة ، وداهية عسكريا ، شهد الحرب والضرب فى عصر القانونى . كانت قواته ٩٠٠٠ جندى و١٠٠ مدفع دفاع . كان ١٠ ٠٠٠ جندى من بين جيش الأرشيدوق أرسلهم البابا ، وكانت هنالك وحدات إيطالية ، مالطية ، ووحدات متطوعة مجرية وفرنسية . وخلال نفس الأيام بدأ جيش ألمانى أصغر منه بمحاصرة أستولنى – بلغراد .

بدأ حصار قانيجة ، وكان يطلق عليها يوميا من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قذيفة . وبالرغم من أن حسن باشا كان موجوداً على مقربة من القلعة الا أنه لم يجسر على المجىء لنجدتها « أودع كانيجة لأمان الله » وانسحب إلى مشتاه . أذهل حسن باشا العدو بحيله البارعة .

رفضت الوحدات المجرية فى الجيش الألمانى القتال مع الأتراك ، كما سرى التشاؤم من موت ابن أخى البابا برصاصة أطلقت من القلعة من بندقية تركية وحالات شبيهة .. كل ذلك أدى إلى تضعضع الألمان . نصب الألمان الأكواخ فوق الثلوج واستمروا فى الحصار . قلت ذخيرة ترياكى حسن باشا ، ولم يبق الا القليل . وبحيلة عسكرية تمكن من إيهام الألمان بهجوم ليلى ، على أساس أن قوات بمشجى حسن باشا على وشك الوصول . كانت ليلة ١٧ – ١٨ ت٢ – وهو اليوم ٦٩ من الحصار – استولى الرعب الشديد على الألمان ، ظنا منهم أن الجيش الهمايونى أغار عليهم بغتة وأخذوا فى التراجع .

ترك الألمان الذين خسروا ٨٠ ٠٠٠ جندى كافة مهماتهم . انتقل ليد الأتراك ،

٤٧ مدفع حصار بحجم هائل و١٤٠٠٠ بندقية و٦٠٠٠٠ خيمة و١٤٠٠٠ معول ومسحاة ، آلاف العربات المليئة بالطعام والملابس والأدوية والبارود والأسلحة ، وسرادق الأرشيدوق وخزينته . تمكن الأرشيدوق من امتطاء جواده بملابس النوم والهروب . تعقب ترياكى حسن باشا العدو بواسطة ٣٠٠٠ من خيالته حتى داخل الأراضى النمساوية . انتقلت ٣٠٠٠ قرية ألمانية إلى سيادة الأتراك . ولد إفناء الجيش الألمانى بشكل غير متوقع السرور العظيم فى إستانبول . منح محمد الثالث رتبة الوزارة (الماريشالية ، مشير) إلى ترياكى حسن باشا ، وسيفا مرصعا وباركه بكتاب همايونى (نعيما ، ١ ، ٢٥٤ – ٨١ ؛ هامر ، ٨ ، ٩ – ١٤) .

استرجع يمشجى حسن باشا ، الذى تحرك من بلغراد ، أستولنى – بلغراد ، التى انتقلت إلى يد الألمان ، خلال هذه الأيام (١٢ تموز – ٦ آب ١٦٠٢) . حاصر الألمان بودين بـ ٨٠٠٠٠ جندى . إلا أنهم هزموا بخروج لاله محمد باشا (١٦٠٢/١١/١٨) ، لاله باشا أصبح وزيراً ٣ وقائداً أعلى . خرج إلى الجبهة فى ١٦٠٣ (١١ أيار – ٢١ أيلول) ، جرت معارك عنيفة قرب بودين ، انسحب إلى بلغراد لقضاء الشتاء . توفى محمد الثالث فى هذه الأثناء (١٦٠٣/١٢/٢١) .

٣٦) وفاة محمد الثالث ، جلوس أحمد الأول (١٦٠٣/١٢/٢١)

عاش محمد الثالث ٣٧/٥ عاما ، دامت سلطنته ٩ سنوات إلا ٢٥ يوما ويعرف بـ « فاتح أكرى » ، وكان مثقفا ثقافة عالية وله ديوان شعر . أساتذته الرئيسيون شيخ الإسلام سعد الدين أفندى (وفاة ١٥٩٩) قاضى عسكر عزمى أفندى (وفاة ١٥٨٢) ، نوالى أفندى (وفاة ١٥٩٥) ، جعفر أفندى (وفاة ١٥٧٤) ، حيدر أفندى (وفاة ١٥٨٠) ، مربيه الوزير الأعظم مانيسالى لاله محمد باشا (وفاة ١٥٩٥) (هو ليس الوزير الأعظم صوقوللو – زاده لاله محمد باشا العسكرى الكبير) رمضان أفندى ، مصطفى باشا – زاده قورد بك ، لاله على باشا الذى استشهد عندما كان بكلربك لتبريز (وفاة ١٦٠٤) . سماه القانونى وهو ابن الحفيد الأول له . عند وفاة القانونى كان عمره ٣ أشهر و١٢ يوما .

جده سليم الثانى وأبوه مراد الثالث ، كانا سلطانين بمعنى الكلمة ، لهما حظهما

من الدهاء لترعرعهما على عهد القانونى . كان محمد الثالث شخصية ضعيفة ، وقد كان السبب فى إحياء سلطنة النساء فى الدولة وإظهار كافة مساوئها بسبب ضعفه الشديد تجاه والدته وبقائه تحت تأثيرها . أبناؤه أولو شهزاده (١٥٩٥ - ٩٧) سليم (١٥٨٠ - ١٥٩٧/٤/٢٠) ، شهزاده جهانكير (١٥٨١ - ١٥٩٦) ، أولو شهزاده (١٥٩٧ - ١٦٠٢) محمود (١٥٨٧ - ١٦٠٣/٦/٧) ، أحمد الأول ، (الذى خلفه) . له ١٠ بنات وصلن سن الزواج . أصغر أولاده مصطفى الأول .

ولد أحمد الأول فى قصر مانيسا (١٥٩٠/٤/١٨) . ولد أبوه محمد الثالث وجده مراد الثالث فى مانيسا كذلك . جلس أحمد الأول على العرش بعد ولاية عهد دامت ١/٥ سنة ، وكان عمره يجاوز سن ١٣ بـ ٨ أشهر ، لم يكن قد تم تختينه ، فجرى ختانه فورا . لم يرسل إلى مانيسا بسبب صغر سنه ، ولهذا فقد كان أول سلطان اعتلى العرش دون أن يوفى وظيفة سنجق بك (أمير لواء).. استمرت الحرب الألمانية خلال السنوات الـ ٣ الأولى من سلطنته وأسفرت عن نتائج .

٣٧) الصفحة الأخيرة للحرب الألمانية (١٦٠٤ - ١٦٠٦) ، معاهدة Sitvatorok (١٦٠٦/١١/١١)

جاء من القاهرة إلى إستانبول ، مالقوج أوغلو ياووز على باشا بكلربك مصر ، الذى صار وزيرا أعظم بدلاً من يمشجى حسن باشا (١٦٠٣/١٢/٢٩) . كان السلطان أحمد الثالث حينذاك سلطانا منذ ٣ أيام . أخذ القيادة العامة فى ٢ شباط (١٦٠٤) ، من صوقوللو - زاده لاله محمد باشا على عاتقه . تحرك من إستانبول (١٦٠٤/٦/٣) . لكنه توفى عند وصوله إلى بلغراد (١٦٠٤/٧/٢٦) . صار صوقوللو زاده لاله محمد باشا وزيراً أعظم وقائداً أعلى . تحرك من بلغراد (٥ آب) ، وصل بودين فى ٢٥ أيلول ، حاصر Estergon ٣١ يوما ، لم يتمكن من فتحها . نقل المبادرة فى الحرب إلى الطرف العثمانى بشكل قطعى . وبعد بقائه فى بلغراد عدة أشهر قدم إلى إستانبول فى ٩ شباط (١٦٠٥) ، تحرك فى ١٦ أيار . وفى ٢٩ آب (١٦٠٥) كان أمام أسترْكون . دام الحصار ٣٥ يوما ، كان الحصار شديدا جدا .

فتحت أستركون التى أكملت حديثا السنة الـ ١٠ من سنين بقائها تحت الاستيلاء الألمانى ، فى (١٦٠٥/١٠/٣) . وكذلك تم استرداد قلاع عديدة كفيشغراد ، تبة ده لن ، جكرده لن (حاليا فى جيكوسلوفاكيا) ، Vespirem , Palota . وخلال نفس الشهر استرجع سرخوش إبراهيم باشا ابن أخى لاله باشا أويفار Uyvar وصار بكلربك لها . كانت أويفار ، حاليا فى جيكوسلوفاكيا ، قلعة مهمة ، تقع على بعد ٥٠ كم فى الشمال - الغربى من أستركون . وخلال ت ١ / ١٦٠٥ ، فتح سخوش إبراهيم باشا مع ٢٠٠٠٠ من جنود الصاعقة akinci على الحدود النمساوية واجتاح كل من النمسا الشرقية ، Karinthia , Karniol , Stirya . وصل لاله باشا إلى أقصى الشمال الشرق من المجر . وفى صحراء راكوش (حاليا أوكرانيا ، أقصى الشرق من الجمهورية السوفيتية) ، منح أمير أردل Istvan Bocskay لقب « ملك » وألبسه التاج (١٦٠٥/١١/٢٠) . ركع الأمير أمامالقائد الأعلى وقبل يده ثلاث مرات . عاد لاله باشا إلى إستنابول (٣/١٦ / ١٦٠٦) . كان قد أدار دفة الحرب لصالح العثمانية دون جدال . توفى صوقوللو زاده لاله محمد باشا بعد أن عين الوزير ترياكى حسن باشا وكيلا للقائد الأعلى فى بلغراد ، أثناء استعداده للخروج لحملة جديدة ، ولم يشهد المصالحة (نعيما ، ١ ، ٤١٢ ، ٢٥ ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٠١ - ٨ ؛ صولاق زاده ، ٦٩٠ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٦٢٢ ، ٣ ؛ هامر ، ٨ ، ٨١ ومابعده) .

أدركت ألمانيا خسارتها فى الحرب فكانت تريد الصلح . وكانت العثمانية من أجل التفرغ لإيران وخروج لاله باشا لحملة إيران ، تطلب الصلح كذلك . أزيح العدو من المجر وفتحت سلوفاكية الجنوبية . قام بالمفاوضات التمهدية والمدنة مع الألمان قويوجو مراد باشا ، أما المعاهدة الأصلية فأجراها أبو زوجته قاضى زاده على باشا بكلربك بودين . جرت المفاوضات فى بودين (بودابست) . وفى النهاية تم الاتفاق على المعاهدة الشهيرة المسماة Sitvatorok (١٦٠٦/١١/١١) .

انتهت بلية الحرب العثمانية - الألمانية الكبرى التى زج فيها قوجا سنان باشا الدولة دون سبب والتى استمرت ١٣ سنة و٤ أشهر و٨ أيام . كانت هذه المعاهدة طويلة الأمد ؛ استمرت ٥٦ سنة و٥ أشهر ، ويوما حتى إعلان تركية الحرب مجددا على ألمانيا فى ١٦٦٣/٤/١٢ .

تتألف المعاهدة التى اتفق الأطراف على استمرارها ٢٠ عاما قابلة للتجديد والتى أبرمت نتيجة المؤتمر الذى استمر ٢٢ يوما فى موقع سيتفاتورروك (Zsitvatorok)

وهى قصبة تركية تقع بين أستركون و Komarno على مقربة من الشمال الغربى لبودين – من ١٧ مادة . وأهم شروطها :

تسدد ألمانيا إلى العثمانية غرامة حرب قدرها ٦٧٠٠٠ سكة ذهبية . إلغاء الضريبة التي يسددها الإمبراطور للبادشاه ، ويستعاض عنها بهدية عينية يقدمها للبادشاه كل ٣ سنين ، على ألا تقل عن قيمة معينة . يعامل البادشاه الإمبراطور « بشفقة مثل معاملته لابنه » . تثبيت الحدود على أساس الأراضى الموجودة لدى الطرفين فى تاريخ عقد المؤتمر ، وليس هنالك مبادلة فى الأراضى . تمتنع الدولة العثمانية بعد الآن عن مخاطبة ومكاتبة الإمبراطور الألمانى بصفة « ملك » ، وتعترف بصفته إمبراطورا وتستعمل هذه الصفة فى كافة الوثائق الدبلوماسية . (كانت هذه هى أهم مواد الاتفاقية) . يوضح هذا أن العثمانية تركت ماسبق وأن دافع عنه الديوان بشدة ، وطلب كل من الفاتح والقانونى رعايته بإصرار ، وهو أن إمبراطور روما الفرد فى أوروبا هو الخاقان العثمانى . إن الصفة الرسمية لإمبراطور ألمانيا هو « إمبراطور روما الغربية » ولم يكن تعبير « إمبراطور ألمانيا » رسميا . ولكنه استعمل بكثرة فى ذلك العصر ، كما يستعمل فى يومنا هذا ؛ وعلى هذا فإن قبول الديوان الهمايونى للقب إمبراطور روما الغربية لحاكم ألمانيا يعنى ضمنا موافقة البادشاه على أنه ليس هو إمبراطور روما الوحيد ، وأنه تقبل كونه إمبراطورا لروما الشرقية (البيزنط) فقط . ولكن ، يظهر من معاهدة سيتفاتوروك التى تنص على أن يكون البادشاه أبا والإمبراطور ابنا أنه حصلت الموافقة على أن البادشاه هو الإمبراطور الأكبر . وهذه القاعدة ، مطابقة للقاعدة التى كانت معتبرة فى وقت ما فى روما . حيث كان فى روما إمبراطوران حتى عام ٣٩٥ م ، ولكن كان أحدهما يعتبر أرفع شأنا من الآخر . ويستخلص من ذلك ، أن المعاهدة تحافظ على علو منزلة الدولة العثمانية والخاقان الذى يمثلها . من ناحية أخرى :تقوم ألمانيا بتخلصها من عبء دفع الضريبة السنوية (التى تقلل شأن دافعها) بدفعها كل ٣ سنين ، أو بحصولها على موافقة أقوى دولة فى العالم ، على قبول اللقب الحقيقى لحاكمها ، تكون قد حصلت على مكسب منهم بالقياس إلى ماسبق ، وعلى أقل تقدير من ناحية صيانة كرامتها ، إذ إنه لم يتمكن حتى أقوى الأباطرة قدرة مثل Charles-Quint ولا أخوه F erdinand من الحصول على ذلك .

وتنص إحدى فقرات معاهدة سيتفاتوروك ، على أن شروط هذه المعاهدة مفتوحة بالنسبة لإسبانيا كذلك ، إلا أنه من الناحية العملية لم يكن معقولاً أن يوقع الديوان على صلح مع إسبانيا ، حيث كانت هذه الأعوام تصادف الفترة التى قضت فيها أسبانيا على البقية المتبقية من المسلمين :

وفى أيلول ١٦٠٩ صدر مرسوم ملكى باسم فيليب الثالث ابن وخلف فيليب الثانى ينذر كافة المسلمين الموجودين فى إسبانيا بتركهم الأراضى الملكية خلال ٧٢ ساعة ، وإذا عرفنا أنه ليس بالإمكان فى ذلك العهد السفر بين أقرب مدينتين خلال ٧٢ ساعة فإن القصد يكون واضحاً جدا ؛ وهو إفناء آخر من بقى من المسلمين ، وقد استمر هذا الافناء ١٠ أشهر ، وتم فى تموز عام ١٦١٠ .

كان قد بقى فى البلاد فى هذا التاريخ ، ٦٠٠٠٠٠ عربى ، وقد سهل قتلهم انتشارهم على نطاق واسع فى إيالات بلنسية ، الأندلس ، مرسية ، قشتالة ، أرغون وقاتلونيا . كان هذا هو عدد البقية المتبقية من ملايين المسلمين . البقية قتلوا ، نصروا ، هربوا إلى إفريقية الشمالية . كان هنالك مهاجرون أندلسيون مستوطنون فى الأناضول ، وأيضا فى إستانبول . القسم الأعظم من الإسبان اليوم فى إسبانيا الجنوبية ، هم عرب برابرة من جهة الدم . قتل ٤٠٠٠٠ مسلم وهم الذين قاوموا بالسلاح فى جبال بلنسية . ويقدر المؤرخون أن ١٥٠٠٠٠ عربى نقلوا بالسفن العثمانية إلى الجزائر و٥٠٠٠٠ وهبت لهم حياتهم لقاء عبوديتهم وتنصرهم ، و ٤٠٠٠٠٠ منهم قتلوا خلال ١٠ أشهر (Pirenne ، ٢ ، ٥٦١ ؛ Lavisse - Rambaud ، ٥ ، ٦٥٢) .

كان العرب فى طليعة سكان القطر تقدما فى الفنون اليدوية والصناعة والزراعة . ولم يتمكن الإسبان من ملء الفراغ الذى أحدثه العرب لجهل الأسبان وتخلفهم بالقياس إلى العرب .

فقدت البلاد قدرا كبيرا من رفاهيتها . وفى نفس عام ١٦٠٩ ، انفصلت هولندا عن إسبانيا ، بعد صراع دموى استمر ربع قرن ، وصارت دولة مستقلة ، أخذت مكانها بسرعة كبيرة بين الدول الكبرى فى الشئون البحرية والمصرفية . أما بلجيكا الكاثوليكية فظلت مع إسبانيا . أما هولندا ، التى أسرعت فى الدخول فى مجال

الاستعمار فقد دخلت جاوا فى ١٦١٠ ، وأخذت مكان البرتغاليين فى المحيط الهندى . ملأت هولندا الفراغ الذى أحدثه انضمام البرتغال إلى إسبانيا خلال هذه الأعوام . وهكذا يكون القرن ١٦ قد مر بسيطرة البرتغال البحرية فى المحيط الهندى ، والقرن ١٧ بسيطرة هولندا ، والقرن ١٨ بسيطرة إنكلترا .

٣٨) الحرب التركية - الإيرانية (١٦٠٣ - ١٦١٨)

بدأت الحرب بين تركية العثمانية وإيران الصفوية بهجوم الصفويين على تبريز ، بعد صلح دام ١٣ سنة و ٦ أشهر و ٦ أيام (١٦٠٣/٩/٢٦) . كانت هذه هى السنين الأخيرة لحكم محمد الثالث . بدأ شاه عباس الكبير بتطبيق سياسة الاسترداد بالقوة العسكرية . كان عازما قدر الإمكان على استعادة الأقطار التى لم يتمكن من الحفاظ عليها ، واستولت عليها العثمانية .

افتتح الشاه دورة القتال تجاه العثمانية واستعد دبلوماسيا بعد مراسلات طويلة مع البابا والإمبراطور وملك إسبانيا . وعدا هذه الدول التي هى فى حالة حرب مع العثمانية أرسل سفراء إلى الأقطار الأخرى كإنكلترا ، أسكوجيا ، فرنسا ، روسيا ، بولونيا ، هولندا ، وهى الدول التى يستبعد احتمال دخولها فى حرب مع العثمانية طالبا الاتحاد معها . وحاول الاتفاق مع بنى تيمور الهند الذين يكرهون الصفويين (Hammetr,VIII,38; Lavisse-Rambauel, 871: Grenard,93) كان الشاه مقتنعاً بأنه أجرى صلحا مهدراً لكرامته مع العثمانية ، وأنه اعترف رسميا بأن البادشاه حاكم أعلى ، لذا كان يريد أن ينتقم . وبهجوم مفاجىء أسقط تبريز خلال ٢٢ يوما . انتهى فى تبريز آخر حكم عثمانى كان قد استمر ١٨ سنة و ٢٨ يوما . وباستيلائه بعدها بصورة سريعة على القسم الأكبر من أذربيجان الجنوبية ؛ أزاح فعلا الإيالة العثمانية من الوجود . انتقل إلى شمال آراس . استولى كذلك على إيالة ناهجوان (١٦٠٣/١٠/٢٦) . وبعد حصار شديد دام ٦ أشهر و ٢٣ يوما ، استولى على مركز إيالة عثمانية أخرى وهو روان (١٦٠٤/٦/٨) حاليا أرمنستان السوفيتية التى كانت حينذاك قطرا تركيا صرفا .

صار جغال أوغلو سنان باشا الوزير الأعظم السابق قائدا أعلى على الجبهة الإيرانية وتحرك من إستانبول (١٦٠٤/٦/١٥) . لم يتمكن من اجتياز قارص وأغلق موسم الحملة (١٦٠٤/١١/٨) . وفى آب أغار على تبريز آملا استعادة أذربيجان . وغلب فى معركة أورمية الكبرى أمام الجيش التركمانى الصفوى المؤلف من ٥٠ . ٠٠٠ شخص ، بقيادة الشاه شخصيا (١٦٠٥/٩/٩) ، انسحب إلى دياربكر وتوفى فيها متأثرا بهزيمته (١٦٠٥/١٢/٢) . عين مكانه سردار (قائد) ، دلى فرهاد ، أحد الوزراء وتحرك من إستانبول (١٦٠٦/٦/٢٥) . أما الصفويون فقد استولوا على كنجة (١٦٠٦/٧/٦) وشماه (١٦٠٧/٦/٢٧) واجتازوا نهر كور ، واستولوا على القسم الأكبر من شيروان . لم يتمكن الشاه من التقدم أكثر من ذلك . ودخلت الحرب فى دور الركود .

عين الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) قويوجو مراد باشا سردار أكرم (قائدا أعلى) على الجبهة الإيرانية (١٦١٠/٤/٢٩ - ١٦١١/٨/٥) ، تحرك من إستانبول . تقابل فى أرضروم مع سفراء الشاه . طلب الشاه الذى أرسل هدايا ثمينة جدا الصلح على أساس معاهدة أماسيا التى عقدت فى عهد القانونى . جاء قويوجو باشا إلى تبريز التى يتواجد فيها الشاه . حاول الشاه إفناء الجيش العثمانى خارج تبريز مدة ٥ أيام و ٥ ليال ولكن ، لم يتمكن كلا الطرفين من إحراز نصر حاسم على الآخر . كرر الشاه طلب الصلح (١٦١٠/١١/١٦) . انسحب الباشا الذى لم يرض عن قضاء الشتاء فى تبريز إلى (عامد) فى دياربكر ، توفى هناك (١٦١١/٨/٥) . عين مكانه الوزير نصوح باشا بكلربك دياربكر وزيراً أعظم وسرداراً أكرم (قائدا أعلى) . قدم إلى إستانبول (١٦١٢/٩/٢٧) ووقع على معاهدة إستانبول مع إيران (١٦١٢/١١/٢٠) . انتهت الحرب التى دامت ٩ سنوات وشهرا و٢٤ يوما . فى هذه المعاهدة اتفق على حدود معاهدة أماسيا التى تختلف قليلا عن حدود إيران العراقية والتركية الحالية . أعيد بموجب هذه المعاهدة مايقارب ٤٠٠ . ٠٠٠ كم^2 من مجموع الأراضى البالغة ٥٧٠ . ٠٠٠ كم^2 التى حصلت عليها العثمانية قبل ربع قرن . انتقلت إلى الصفويين المناطق المحيطة ببحيرتى أورمية وكوكجة ، شرقى مجرى نهرى أراس وكور ، وبعبارة أوضح ، روان ، نهجوان ، قرة باغ (عران) أذربيجان (شيروان) الشمالية والجنوبية ، وفى مقابل ذلك يبقى القسم الأكبر من كرجستان وداغستان وقفقاسيا الشمالية لدى العثمانية .

لم يدم الصلح أكثر من سنتين و ٦ أشهر و ٣ أيام . أعلنت الحرب على إيران . صار الوزير الأعظم داماد أوكوز قرة محمد باشا ، سرداراً أكرم (١٦١٥/٥/٢٢) ، غادر فى ١١ حزيران ووصل حلب فى أيلول . ظل فيها ٧ أشهر ، ثم تحرك (١٦١٦/٤/١٨) بجيشه البالـــغ ١٠٠٠٠٠ شخص ووصل روان (١٦١٦/٩/١١) حاصرها مدة ٥٤ يوما ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . كان الشاه موجودا فى نهجوان التى تبعد ١١٥ كم فى الجنوب – الشرق . لم يتمكن من الحملة على الجيش العثمانى . انسحب العثمانيون عند حلول فصل الشتاء . صار السردار الأكرم الوزير الأعظم الجديد خليل باشا (١٦١٧/٦/١٥) . قضى شتاء عام ١٦١٧ – ١٨ فى دياربكر . وجاء جانى بك كيراى ، خان قرم مع ٤٠٠٠٠ خيال من قفقاسيا الشمالية وقلب إيالات كنجة ونهجوان رأسا على عقب ، وبقضاء فصل الشتاء مع الوزير الأعظم جاء هو كذلك إلى دياربكر . تحرك الوزير الأعظم مع الخان من هنا فى ١٦١٨/٥/١٦ . كان قالغاى (ولى عهد قرم) شاهين كيراى فى المقدمة ، وقع أسيرا فى يد الشاه ، أطلق الشاه سراح قالغاى ، دليلا على طلبه الصلح . دخل الجيش الهمايونى أذربيجان الجنوبية . ووصل قرب أردبيل ، المدينة المقدسة للصفويين . وفى الحرب الميدانية المسماة بول شكسته (قيريق كوبرى) (١٦١٨/٩/١٠) خسر العثمانيون ١٥٠٠٠ مابين شهيد وجريح و ٥٠٠ أسير ، واستشهد ٣ بكلربك (فزيق) ، ووقع اثنان منهم فى الأسر ، لكن خليل باشا تمكن من لم شعث الجيش وأثناه عن التراجع . كرر الشاه طلب الصلح . وقعت أمام أسوار أردبيل معاهدة أردبيل (١٦١٨/٩/٢٦) ، وهى تختلف عن معاهدة إستانبول فى أنها خفضت الـ ٢٠٠ حمل من الحرير الذى تقدمه إيران كخراج سنوى إلى العثمانية ؛ إلى ١٠٠ حمل . ذام الصلح ٥ سنوات . وبعد ٥ سنوات استولى الصفويون على بغداد ، توسعت الحرب العثمانية – الصفوية بدرجة لم يشهد لها مثيل .

٣٩) المسائل الداخلية لعهد أحمد الأول (١٦٠٣ – ١٦١٧)

على أثر وفاة الوزير الأعظم والسردار الأكرم مالقوج أوغلو ياووز على باشا فى بلغراد أخذ صوقولوزاده لاله محمد باشا على عاتقه كلا الوظيفتين وحافظ على زمام

السلطة بيده حتى وفاته مدة سنة و١٠ أشهر و٢٦ يوما ، محرزا انتصارات لامعة (١٦٠٤/٧/٢٦ - ١٦٠٦/٦/٢١) . مدة سلطة سلفه ياووز على باشا ، الصدر الأعظم الأخير لمحمد الثالث والأول لأحمد الأول . عبارة عن ٩ أشهر و١١ يوما . خدم لاله باشا فى بلغراد كما خدم كذلك فى الجيش .

صار درويش محمد باشا وزيرا أعظم وولى فرهاد باشا سردارا (قائدا) على إيران . على أثر إعدام درويش باشا ، حل مكانه قويوجو مراد باشا ، الصدر الأعظم القوى السلطة ، ذو الشخصية الكبيرة فى عهد أحمد الأول . دامت سلطته حتى وفاته ٤ سنوات ، و٧ أشهر و٢٧ يوما (١٦١٦/١٢/٩ - ١٦١١/٨/٥) . وهى أطول مدة صدارة ، منذ وفاة صوقولو قبل ٢٧ سنة .

كان مراد باشا سياسيا صبورا ، ماهراً ، صلبا جدا ، قائداً جيداً ، كبير السن ، رجل دولة مجربا . وكان صهرا لقاضى زاده على باشا الذى قام بإدارة المجر فترة طويلة وبلياقة تامة بلقب بكلربك . سقط من على ظهر جواده ، أثناء مصادمته مع الصفويين ، سقط فى البئر قبل ٢١ عاما (١٥٨٥) عندما كان بكلربك فى معية أوزدمير أوغلو ، قام الصفويون بانتشاله من البئر وسجن فى **Alamaut** ثم عاد من إيران . أطلق عليه لقب « قويوجو » نسبة إلى « البئر » . ولقب « قوجا » (الكبير) لكبر سنه .

كان يقصد مراد باشا الذى غادر إستانبول فى ١٦٠٧/٧/٢ تخليص الدولة من الجلاليين الذين أصبحوا دولة داخل الدولة ، وكان يتعاون معهم كثيرون من البكلربكى (فريق) وسنجق بكى (أمير لواء) . اختل الأمن فى الأناضول ، وتدهور الوضع الاقتصادى الممتاز الذى كانت عليه البلاد فى العصر ١٦ .

كان يرافق مراد باشا الوزير ترياكى حسن باشا بكلربك روملى البالغ عمره ٨٠ عاما ، وفى الطريق قتل وسفك دماء كثيرة من الجلاليين ، حتى وصل حلب فى ٩ ت ٢ (١٦٠٧) .. حيث قضى الشتاء فيها واستمر فى تنظيف الدولة من الجلاليين فى السنة التالية . عاد إلى إستانبول فى ١٦٠٨/١٢/١٨ . وهكذا تكون حركة تنظيف الجلاليين قد استمرت سنة و٥ أشهر و١٧ يوما . تم إخماد الجلاليين ، ولكن لم يقض عليهم ؛ لأنهم كانوا يمثلون قسما من شعب الأناضول . لم يخرج

مراد باشا للجبهة فى ١٦٠٩ . ظل يؤدى واجبه فى استانبول مدة سنة و٥ أشهر و٧ أيام . غادر إستانبول فى ١٦١٠/٥/٢٤ ، وجاء إلى تبريز ثم عاد إلى دياربكر ومات هناك . وهكذا توفى آخر من أدرك عهد القانونى من رجال الدولة . صار فى ١٥٦٠ معاون بكلربك اليمن ، وفى ١٥٦٥ سنجق بك لمصر ، وفى ١٥٧٦ بكلربك لكل من اليمن ، ثم قره مان ، دياربكر روملى .

بدأت صدارة داماد نصوح باشا التى استمرت ٣ سنوات و شهرين و ١٣ يوما (١٦١١/٨/٥ - ١٦١٤/١٠/١٧) . كان فى مدينة دياربكر مع مراد باشا . وعين مكانه . مكث فى جبهة إيران سنة وشهرا و٢٣ يوما . وفى ٢٧ أيلول جاء إلى إستانبول ووقع مع إيران معاهدة صلح . ارتاح الشعب لعقد صلح مع إيران ، بعد ألمانيا وحل مشكلة الجلاليين فى الأناضول - ولو بصورة مؤقتة .

وخلال هذه الأيام ترعرع السلطان أحمد وأجتاز مرحلة الشباب وأصبح خاقانا ناضجا ، عاقلا وحذرا . تفقده تراقيا الغربية ، وذهابه إلى غاليبولى مع ٤ ضباط فقط فتح قلب الشعب وملأه سرورا . ذهب إلى بولاير وزار قبر الغازى سليمان باشا ، فاتح روملى ، وغطى قبره بوشاح فخم ملىء بشغل الذهب الكثيف . أخذ مسجد السلطان أحمد الملىء بالظرافة والذوق الرفيع والفن الذى يلقى فى القلب البهجة والسرور فى الارتفاع مقابل أياصوفيا . سمى الشعب هذا الميدان (الساحة) ، وقد كان يسمى منذ عصور « آط ميدان » باسم « سلطان أحمد ميدانى » دامت سياحته لتراقيا ، ٤ أشهر و١٤ يوما . سكن فى إستانبول ٦ أشهر و٢٠ يوما فقط . ثم ذهب إلى أدرنة مرة أخرى . قضى فصل الشتاء وعاد فى ربيع عام ١٦١٣ إلى إستانبول .

أعدم الوزير الأعظم نصوح باشا . ترك ثروة عظمى . صار داماد قره إبراهيم باشا وزيرا أعظم مدة سنتين و شهرا و يوما (١٦١٤/١٠/١٧ - ١٦١٦/١١/١٧) . كان رجل دولة قديرا . جاء سفراء فاس وألمانيا (١٦١٦/٩/٤) وعرضوا ضرائبهم وهداياهم وتابعيتهم وإجلالهم للبادشاه باسم حكامهم (فون هامر ، ٨ ، ٢٢٦ - ٣٣) . عزل محمد باشا الذى لم يتمكن من الاستيلاء على روان وعقد صلح مع إيران . وأخذ مكانه خليل باشا . وفى عهد صدارته ، افتتح جامع السلطان أحمد للصلاة (١٦١٧/٦/٩) . استمر الإنشاء مدة

٧ سنوات و٥ أشهر و٦ أيام ، وهو المسجد الوحيد فى العالم الإسلامى ذو المآذن الست من آثار قوجا محمد أغا المبدع .

أهم حملة بحرية فى هذه المرحلة هى حملة البحر الأبيض (٥/١٣ - ١٦١٤/١١/٢٨) . التى حققها « قبودان دريا » (مشير البحر) داماد خليل باشا ، الذى صار بعد ذلك وزيراً أعظم . استشهد مراد رئيس ، آخر من بقى من نسل البحارة القدامى ، فى سن متقدمة جدا ، عندما كان سنجق بك (أمير لواء) مورا بعد إفنائه أسطولا مالطيا (١٦٠٩) ، وكان فى سن ٨٠ . كانت حالة الحرب مستمرة مع مالطة ، البابوية وإسبانيا ، كانت الإيالات البحرية الجزائر ، تونس وطرابلس الغرب ، التى تملك القطع البحرية تلعب دورا مهما فى مثل هذه الحروب ، إلا أن سفر دابى ، وكيل بكلربك فى طرابلس ، ماطل فى تنفيذ الأوامر . أنزل خليل باشا الجنود إلى مالطة ، بواسطة ٤٥ سفينة من الأسطول الهمايونى وخربها ، ثم جاء إلى طرابلس ، وأعدم سفر دابى الذى كان يظلم الشعب ، أمام داره . سعى فى شئون السكان المهاجرين فى أماكن كأدرنة ، طرسوس ، طرابلس الشام ، وغلطة فى إستانبول (Mühimme, LXXV111,441) .

بعد ٨٩٩ عاما من فتح المسلمين لإسبانيا والبرتغال ، وبعد ١١٨ عاما من سقوط آخر دولة إسلامية فى إسبانيا لم يبق مسلم واحد فى إسبانيا والبرتغال ؛ كانت طائفة من الذين تنصروا لايزالون يصلون سراً فى مساكنهم ويذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد . كانوا يقدمون المعلومات عن الأسطول الإسبانى ، موانئه وقواته العسكرية إلى بكلربك الجزائر بواسطة رسائل سرية . وبعد مدة انتهت أيضا هذه الأعمال . قوضت كافة بدائع الهندسة المعمارية الإسلامية . وفى أواسط القرن ١٧ أصبح من الممكن أن نقول : إنه لم يكن هنالك فى أى وقت من الأوقات حكم إسلامى فى شبه جزيرة إيبريا ، وأن هذا القطر كان كاثوليكيا منذ الأزل . لكن المشاهد الذى يدقق عن كثب ، الهندسة المعمارية الإسبانية ، الموسيقى ، الرقص ، العرف والعادات يمكنه أن يلمس استمرار التراث العربى الذى لانفاذ ولانهاية له .

أرسل الديوان فى ١٦١٠ ، الحاج إبراهيم أغا إلى لندن سفيرا فوق العادة ، ولقد كان الغرض الحقيقى من ذهابه إلى أوروبا الغربية هو جمع الأندلسيين الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى شمال إفريقية ، ولجئوا إلى غرب أوروبا والذين كان أكثرهم فى عداد

العبيد . جمع العائلات التى تمكن من العثور عليها ونقلها إلى الأراضى العثمانية ، ويعتبر هذا نموذجا مريرا لسياسة الشفقة الإسلامية للدولة العثمانية . وفى ١٦٠٦ ، أعلن مصطفى باشا ، الذى قدم من الجزائر ، مولاى زيدان ، سلطانا . ولكن الباشا قتل فى فاس فى تموز عام ١٦٠٩ . أستمر أكثرية الذين جلسوا على عرش فاس فى استلام المعونة العثمانية والاعتراف بالبادشاه – خليفة متبوعا (August Cour, Etablissement des Chérifs du Moroc Les Tures, Paris 1904, ص ١٤٩ ومابعده) .

٤٠) وفاة السلطان أحمد خان الأول (١٦١٧/١١/٢٢)

توفى السلطان أحمد على حداثة سنه ، بعد مرض أصابه فى بطنه يصاحبه حمى ، دام عدة أسابيع . كان قد تجاوز سن ٢٧ بـ ٧ أشهر و ٤ أيام . وحتى ذلك التاريخ ، لم يتوف أى خاقان فى مثل هذا السن عدا موسى جلبى . سببت وفاته فى هذا السن جلوس بادشاهات أطفال وحديثى السن على العرش لمدة طويلة . وكانت هذه من بين العوامل التى أدت إلى تعرض الإمبراطورية لاضطرابات داخلية . نضج السلطان أحمد مبكرا وأظهر فى سن طفولته قدرات حكام عظام ، وسوف تظهر هذه القدرات بشكل أبرز فى أبنائه عثمان الثانى ومراد الرابع . لأول مرة منذ عهد القانونى ، يسعى سلطان فى أمور الدولة ، بشكل جاد ولايترك كل شيء لوزرائه . كان معتدلا فى ذوقه وأنسه ، لايشرب المسكرات ، متدينا جدا ، ملبسه بسيط ، عدوا لسيطرة النساء فى السراى ، مولويا كأجداده ، شاعرا فى اللغتين التركية والفارسية ، مصارعا بارعا فارسا ، راميا ويستعمل السلاح بمهارة . رمى الـ « ششبر » (آلة حربية – كرة ذات ٦ رءوس) من برج علوه ٣٠ مترا وأصاب هدفا على بعد ٥٠٠ متر . وشيد فى مكان سقوط (الششبر) مسلة (نشان طاش) وهو نصب تذكارى حجرى ليكون ذكرى أبدية لهذه الرمية القياسية (رفعت عثمان ، أدرنة سرايى ، ٢٨) .

ولد فى مانيسا وجاء إلى إستانبول مع أبيه البادشاه وعمره ٥ سنوات . ولصغر سنه ، لم يرسل إلى مانيسا لتعلم إدارة الألوية . لم يخرج للجبهات . خرج للأماكن القريبة مثل أدرنة ، بورصة ، جناق قلعة . لم يمض سنين سلطنته فى السفر إلى الأقطار

والقارات والحروب كبقية السلاطين . لكنه عمل مابوسعه لحماية مصالح الدولة العليا ، إلا أن عمره لم يمهله كى يعيش أكثر من ذلك ومات فى مقتبل عمره . تمكن فى سن طفولته من تحجيم النفوذ السيئ لجدته (والدة أبيه) السلطانة - الوالدة صفية وتدخلها فى السياسة فى عهد أبيه ، وفور جلوسه على العرش ، أخرجها من سراى طرب قابو ونفاها إلى السراى القديم . توفيت السلطانه صفية التى لم تتمكن من العيش بدون سياسة بعد عدة أشهر وهى فى حالة حزن شديد . أما خانداں ، والدة السلطان أحمد ، السلطانة - الوالدة (١٥٧٤؟ - ١٦٠٥/١١/٢٦) فقد توفيت فى شبابها فى نهاية السنة الثانية من سلطنة ابنها . لم يكن من الممكن للسلطان أحمد المعارض لسيطرة النساء إلى هذه الدرجة أن يتنبأ بأن إحدى زوجاته كوسم ماه بيكر ستكون أكثر النساء تدخلا فى السياسة فى تاريخ تركيا كلها وتظهر على المسرح بأدوار منحوسة للغاية . ورغم أنه كان مولويا فقد كان شيخه عزيز محمود خدائى المتصوف الكبير جدا (وفاة ١٦٢٨) ، شيخا للطريقة الجلوتية التابعة البايرامية . ورئيس أساتذته هو حاجة سلطانى آيدنلى مصطفى أفندى (وفاة ١٦٠٧) وهو والد شيخ الإسلام مسعود أفندى (وفاة ١٦٥٦) .

جلس أبناء السلطان أحمد الأول الثلاثة على العرش ، ومجموع مدد مكوثهم على العرش ١٩ سنة و شهرا و ١٩ يوما . تسلسل أبنائه كما يلى : عثمان الثانى (١٦٠٤/١١/١٣ - ١٦٢٢/٥/٢٠) ، ولى عهد - شهزاده (أمير) (١٦١٨ - ١٦٢١) محمد (١٦٠٥/٣/٨ - ١٦٢١/١/١٢) ، مراد الرابع (١٦١٢/٢/٢٧ - ١٦٤٠/٢/٨) ، ولى عهد - شهزاده (١٦٢٣ - ١٦٣٥) بيازيد (١٦١٢/١٢ - ١٦٣٥/٧/٢٧) ، ولى عهد - شهزاده (١٦٣٥ - ١٦٣٨) قاسم (١٦١٤ - ١٦٣٨/٢/١٧) ، شهزاده سليمان (١٦١٥ - ١٦٣٥/٧/٢٧) . والشهزادات (الأمراء) الـ ٥ الآخرون لم يعيشوا أكثر من ٤ سنوات .

بناته - عدا بناته الـ ٤ اللواتى توفين وهن صغيرات جدا - السلطانة عائشة (١٦٠٥ - ١٦٥٧/٥) التى تزوجت ٨ مرات (٤ منهم وزير أعظم) ، السلطانة فاطمة (١٦٠٦ - ١٦٧٠) التى تزوجت ٦ مرات (واحد منهم وزير أعظم) ، السلطانة جوهران (١٦٠٨ - ١٦٦٠) التى تزوجت بـ ٢ وزير أعظم ،

السلطانة خانزاده (١٦٠٩ - ١٦٥٠/٩/٢١) التى تزوجت مرتين (أحدهم وزير أعظم) ، السلطانة برناز عاتكة (١٦١٤ - ١٦٧٤) التى تزوجت ٣ مرات ، السلطانة عابدة (١٦١٨ - ١٦٤٨) التى تزوجت مرة واحدة .

لم يستمر نسل بنى عثمان من أى من هؤلاء وإنما استمر من السلطان إبراهيم ، أصغر أبناء السلطان أحمد (١٦١٥/١١/٥ - ١٦٤٨/٨/١٨) . احتل مكان السلطان أحمد أخوه مصطفى الأول وصار سلطانا لمدة ٣ أشهر ، ثم جلس على العرش بعده عثمان الثانى ، الابن الكبير للسلطان أحمد .

٤١) الحرب البولونية ، حملة خوتين الهمايونية (١٦٢١ - ٢٢)

كان الوزير غازى إسكندر باشا المختص بشئون بولونيا هو الذى يتولى قضايا الحدود مع بولونيا خلال هذه السنوات . وهو من الأشخاص الذين دربهم غازى ترياكى حسن باشا . خرج إسكندر باشا بحملة ضد بولونيا ، على أثر تدخلها فى شئون بغدان (Moldavya) واجتيازها Dnyestr (بالتركية : Turla) التى تشكل الحدود . كان جانى بك كيراى خان قرم يقود المقدمة . وفى الحرب الميدانية المسماة « ياش » (١٦٢٠/٩/٢٠) خسر البولونيون ١٠٠٠٠ قتيل . تعقب الباشا العدو . وفى الحرب الميدانية Dnyestr (Turla) (٧/ ١٦٢٠/١٠) التى جرت بعد ١٨ يوما ، أفنى كامل جيش بولونيا تقريبا ، البالغ عدده ٦٠٠٠٠ ومن بينهم القائد العام Zolkiewsky ، تمكن ٤٠٠ جندى بولونى فقط من الفرار ، اغتنم الجيش العثمانى ١٢٠ مدفعاً ومئات من عربات المهمات (هامر ، ٨ ، ٢٦٠) . كان الجيش العثمانى ، ٤٢٠٠٠ شخص ؛ ٣٠٠٠٠ منهم من قرم . أسر مئات من الجنرالات البولونيين وذوى النسب العريق ، وتم سوقهم إلى إستانبول . وبعد عدة أشهر فى أوائل عام ١٦٢١ توفى إسكندر باشا .

افرحت هذه الحملة روسيا ! قضت بولونيا الشتاء وهى فى حالة حذر خشية عودة الأتراك فى صيف عام ١٦٢١ . وفى الحقيقة كان السلطان عثمان الثانى قد قرر الخروج إلى الحملة بنفسه . كان قد مضى على الحملة الهمايونية لجده محمد الثالث على أكرى - خاجوه ، مدة ٢٥ عاما . انتقل الخاقان الشاب ، فى ٨ آذار إلى مقر

الجيش ، وفى ٢١ أيار (١٦٢١) تحرك من إستانبول . كان فى مقدمة الجيش مهترخانة همايون (موسيقى الجيش الهمايونية) وأمامها الفيلة الـ ٤ هدية الشاه عباس وكل منها يحمل طبلا (كوس) . كان عدد الجيش العثمانى ١٠٠٠٠٠ جندى . وفى أيلول ، جاءوا أمام قلعة خوتين (Hotin) الواقعة على خط العرض ٤٨ ، ٣٠ ، فى الساحل الجنوبى لـ Dnyestr وهى المدخل إلى Podolya وحتى غاليجية ، كانت قلعة بولونية مهمة . جاء جانى بك كيراى فى اليوم الثانى ، وقبل يد الخاقان . وفى اليوم الأول من حصار خوتين فى ٣ أيلول والذى سيستمر ٣٣ يوما ؛ استشهد بكلربك بوسنة . وفى الأيام التالية استشهد كل من قرة قاش محمد باشا بكلربك بودين (المجر) ودوغانجى على باشا بكلربك قرة مان . وبالرغم من تحقيق ٦ غارات عامة وتقديم آلاف الشهداء وقيام جيش الصاعقة بضرب بولونيا فى العمق وجلبهم ١٠٠٠٠٠ أسير فقد قاومت القلعة . لكن بولونيا طلبت الصلح . وبناء على ذلك ، أبرمت معاهدة صلح خوتين (١٦٢١/١٠/٦) : التى نصت على : اعتبار أحكام المعاهدة التى أبرمت مع بولونيا فى زمن القانونى سارية المفعول ، وكذلك الحدود التى تقرها تلك المعاهدة ، يهدم البولونيون جميع القلاع التى شيدوها على حدود العثمانية منذ ذلك العهد ، تستمر بولونيا فى دفع الضريبة السنوية إلى قرم ، تترك خوتين إلى العثمانية . يمكن للعثمانية نقل جنودها من أوروبا الشرقية إلى المجر فى أى وقت تشاء بإخطار مسبق شرط عدم إحداث أية تخريبات مهما كانت صغيرة .

تعتبر شروط هذه المعاهدة شديدة بالنسبة لبولونيا ، وأعتقد أنها تشكل الصفحة الأولى من خروج عثمان الثانى إلى البلطيق ، ولأن هذه المعاهدة جعلت دولة شديدة العداء لروسيا فى وضع حرج فإنها فى الحقيقة لم تكن تحقق النفع للعثمانية فى المستقبل ، ولكنها تشكل بالنسبة لروسيا نموذجا فى كيفية ضرب بولونيا كبرى . استمرت الحملة الهمايونية ٨ أشهر و ٥ أيام . عاد البادشاه إلى إستانبول فى منتصف الشتاء (١٦٢٢/١/٢٥) شاهد كافة نقاط الضعف بعينه وعن قرب نفر - محقا كان أم غير محق - من جيش هذا وضعه . عاد الجيش وهو ناقم على حاكم يخفى عدم رضائه الشديد منه .

٤٢) السلطان مصطفى والسلطان عثمان

عند وفاة السلطان أحمد الأول كان المفروض أن يجلس على العرش ابنه الكبير وولى عهده السلطان عثمان . إلا أن طبع هذا الطفل ، الذى دخل حديثا سن الشباب والذى يفوق طبع أبيه شدة – أخاف الكثيرين . وخاصة أن زوجة أحمد الأول المفضلة ماه بيكر خاصة كى التى تسمى « كوسم » أنفقت كل ثروتها وجندت ذكاءها الشيطانى لمنع حدوث هذا حيث كان من المحتمل أن يضر بأبنائها . خرقت القوانين ، وتم إجلاس السلطان مصطفى ابن السلطان أحمد الأول الصغير المريض على العرش .

ولكن اتضح بعد مدة أن السلطان مصطفى مجنون . كان من الواضح أن سلطنته ستكون قصيرة الأمد . ليس من الممكن – لا من الناحية الشرعية ، ولامن حيث العرف العثمانى – أن يكون بادشاه خليفة شخصا مجنونا . وخلال هذه الفترة القصيرة كانت مهبيكر خاصكى تأمل أن تتخلص من الأميرين وليي العهد الأولين للسلطان أحمد ، السلطان عثمان والسلطان محمد ؛ بواسطة السلطانة – الوالدة ، والدة مصطفى الأول ، التى كانت حذرة وغادرة ، بقدر ماكان ابنها متخلفا عقليا . وشهزادات (الأمراء أولاد السلطان أحمد الأول) الذين يأتون بعد ذلك هم مراد ، قاسم ، إبراهيم والسلطانة عائشة وفاطمة وقد ولدوا كلهم من كوسم مهبيكر . كانت كوسم فى هذه الأثناء ، أرملة فى الـ ٢٩ من عمرها .

صار مصطفى الأول ، الذى ولد فى مانيسا عام ١٥٩٢ ، ولى عهد لمدة ١٠ أشهر ، لحين ولادة الابن الأول لأخيه الكبير أحمد الأول (١٦٠٣/١٢/٢١ – ١٦٠٤/١١/٣) . كان عمره عند جلوسه ٢٥ عاما . خلع بعد ٣ أشهر و ٤ أيام . جلس السلطان عثمان على العرش . كان رد فعله شديدا على الذين استهتروا بالحق وخالفوا القوانين بشكل يهدد نظام الدولة وأجلسوا عمه المجنون على العرش . كان سنه يزيد على ١٣ سنة بـ ٣ أشهر و٢٤ يوما . لكنه سبق أباه فى النضوج والكمال . كان يؤمن بحاجة الدولة إلى تبديل نظامها فى كافة المجالات بإصلاحات جذرية . جلس الخاقان على العرش ، على صغر سنه هذا ، آخذا الصلاحيات التى تمكنه من تحقيق إصلاحات من البارى عز وجل . شيد قبرا لأبيه فى رواق مسجده المشهور .

أمه خديجة مهفيروزة السلطانة – الوالدة (١٥٩٠ – ١٦٢١) باش خاصكى (زوجة السلطان) لأحمد الأول منذ ك ٢ / ١٦٠٤ ، وأصبحت الآن السلطانة – الوالدة ، لكنها توفيت بعد ٣ سنين . السلطانة – الوالدة هذه هى التى ولدت كلا من الشهزادة (أمير) بيازيد ، الشهزادة سليمان ، الشهزادة حسين ، ويحتمل أن تكون قد ولدت سلطانتين (أميرتين) أو أكثر ولو أنها تظهر كأنما هى والدة للشهزادة محمد كذلك ، الذى هو ولى عهد الآن ، إلا أن اليوم الذى ذكر تاريخاً لميلاده يضعف هذا الاحتمال .

عزل عثمان الثانى خليل باشا الذى ظل فى مقامه منذ سنتين و٣ أشهر ويومين ، وعين مكانه داماد أوكوز قره محمد باشا وزيراً أعظم لمرتين (١٦١٩/١/١٨) . عزله بعد ١١ شهرا و٦ أيام (١٦١٩/١٢/٢٣) . ومجموع صدارتى محمد باشا ٣ سنوات و٧ أيام . صار سنجق بك لبحرية دمياط (مصر) ، بكلربك يمن ، وزير قبه ، قبطان دريا . وعلى عهده أمر السلطان عثمان بخنق أخيه الشهزادة سلطان محمد الذى كان حينذاك ولى عهد (١٦٢١/١/١٢) . تسبب مقتل الابن الثانى للسلطان أحمد الشاب هذا عن عمر يزيد على الـ ١٥ سنة بـ ١٠ شهر و٥ أيام ، المفجع والذى لاداعى له – فى بث الكراهية ضد البادشاه . كان الشهزادة قد نشأ نشأة حسنة ، إن دعاءه أثناء موته على أخيه بأن تصيبه نفس العاقبة – مشهور . والذى يليه من إخوة السلطان عثمان هو السلطان مراد (الرابع) الذى صار وليا للعهد .

تجمد المضيق بشكل لم يسبق له مثيل منذ عهد البيزنطيين ، سبب عبور الناس مشيا على الأقدام من أسكدار إلى إستانبول (١٦٢١/٢/٩) ، وارتفاع أسعار المواد الغذائية بسبب البرد غير الطبيعى ، زيادة التذمر لدى الشعب . وخلال هذه الأيام ، توفى كوزلجة جلبى على باشا (١٦٢١/٣/٩) . دامت صدارته سنة ، وشهرين و١٧ يوما . جاء الصدارة أوهريلى حسين باشا ، ولعدم مساعدته منافسه محمد باشا بكلربك بودين أثناء حصار خوتين وخيانته فى الحركات العسكرية عزل من منصبه أثناء استمرار الحصار (١٦٢١/٩/٧) . استمرت صدارته ٦ أشهر ، و٩ أيام . لم يكن الوزير ديلاور باشا بكلربك دياربكر الذى عين مكانه بأليق منه . استمرت صدارته حتى ١٦٢٢/٥/١٩ مدة ٨ أشهر ، ويومين ، قتل على يد الإنكشارية . لم يتمكن عثمان الثانى من انتقاء الشخصيات الجديرة بسبب قلة تجربته ،

وإضافة إلى ذلك فقد قلت بشكل بارز فى كافة القطاعات الإدارية للدولة الشخصيات الفذة التى كانت موجودة فى العهود السابقة .

جرت الحملة البحرية على إيطاليا (صيف عام ١٦٢٠) ، التى حققها داماد خليل باشا ، خلال إشغاله منصب قبطان – دريا للمرة الثالثة ، فى عهد السلطان عثمان . قصفت السواحل الإدرياتيكية لإيطاليا . بدأت فى أوروبا خلال هذه الأيام حروب الثلاثين سنة المفجعة (١٦١٨ – ١٦٤٨) . بدأت كحرب كاثوليكية – بروتستانتية ، خلال هذه الأيام أيضا (تموز ١٦١٨) تم إعلان سلطان فاس تابعيته ، وإظهار الشاه عباس رغبته فى استمرار الصلح بإرساله هدايا ثمينة جدا .. كل هذا من جملة التطورات الإيجابية الأخرى .

٤٣) المائلة العثمانية (هائلة عثمانية) (١٨ ، ١٩ ، ٢٠ أيار ١٦٢٢)

فكر عثمان الثانى فى إصلاحات عامة فى كافة القطاعات ، بدأ بتطبيق بعضها .

الموضوع الذى يستحق الاهتمام هو إلغاء التشكيل العسكرى الذى يسمى (قابو قولو) وتنظيم جيش مركزى جديد . شرع فى محاولاته الجدية بهذا الشأن وأرسل تعليمات سرية إلى العديد من البكلر بك (فريق) . وطبعا سمع الناس بمحاولات البادشاه هذه . وبسبب تقليصه – غير العادى – لصلاحيات العلماء ، حدثت مواجهة معهم ، وحتى مع أبى زوجته شيخ الإسلام خوجه أسعد أفندى ، وهو ابن شيخ الإسلام خوجه سعد الدين أفندى ولأخوشيخ الإسلام محمد أفندى .

كانت فكرة إصلاح الجيش وخاصة صنف قابو قولو وصنف الإنكشارية ، من بنات أفكار الخوجه سعد الدين أفندى . تشير التحريات الأولية إلى أن ذلك يرجع إلى عام ١٥٩٦ ، ثم ورث هذه الفكرة بعد ذلك حاجه سلطانى (أستاذ السلطان) عمر أفندى وهو أستاذ عثمان الثانى ، وهو الذى لقن البادشاه الشاب فكرة كثير من الإصلاحات . بعبارة أخرى نريد أن نقول: إن فكرة إصلاح بعض المؤسسات فى الإمبراطورية لم تكن من بنات أفكار عثمان الثانى . لكن السلطان عثمان أخذ يجرى هذا العمل باستعجال شديد دون مراعاة شعور الناس ، مما سبب تخوفهم . هذا فضلا

عن أن نجاح الإصلاحات يحتاج إلى إعداد كوادر جديدة ؛ ولم يكن هنالك أثر لهذه الكوادر . كان البادشاه يعتقد أن كل ماينطق به .. قانون . كان هذا الاعتقاد مضرا ، لأنه كان حبرا على ورق .

صبر تشكيل قابو قولو بما فيه الكفاية على البادشاه الذى حقرهم بصورة علنية . لكن إعلان البادشاه عزمه على مغادرة إستانبول بحجة ذهابه إلى الحج ورفضه بفظاظة كافة المحاولات لإثنائه عن عزمه ، ونصبه سرادقه وفتحه البيارق فى ضحية يوم ١٨ أيار فى صحراء أسكدار - سبب عصيان تشكيلات قابو قوله ، وبالأصح تشكيل الإنكشارية الذى صادف عصيانهم نفس ساعات خروج البادشاه . والمعروف أن خاقانات العثمانية اعتبارا من ياووز لايذهبون إلى الحج ، رغم أنهم خلفاء ، لأن أداء مناسك الحج يستغرق وقتا طويلا ، الأمر الذى يؤدى إلى ابتعاد البادشاه عن أعمال الدولة مدة طويلة . وهنالك فتاوى لشيوخ الإسلام تفيد بأن اشتغال الخاقان بأمور الدولة والشعب عبادة تفوق عبادة الحج .

كان عصيان الإنكشارية وإجتماعهم فى جامع السليمانية ، بعد ساعتين ونصف فقط من ركز البيارق فى أسكدار دليلا كافيا على مبلغ تيقظهم واستعدادهم . جاء الإنكشاريون إلى ساحة سلطان أحمد ، أى أمام سراى طوب قابو الذى يتواجد فيه البادشاه ، حاملين بأيديهم الفتوى التى حصلوا عليها من شيخ الإسلام خوجه - زاده أسعد أفندى والتى تقول « لالزوم لحج البادشاهات ، البقاء فى مكانهم والعدل أولى لهم . حتى لا تكون هناك فتنة » .

كان من الواضح تأييد العلماء للإنكشارية . إن أى عصيان عسكرى فى التاريخ العثمانى لايؤيده العلماء كان يخمده الخاقان ، ولم يحدث أن استطاع أى خاقان إخماد عصيان عسكرى أيده العلماء .

كانت الإنكشارية تريد ألا يغادر البادشاه إستانبول . ولما مزق السلطان الفتوى وألقاها فى وجوههم وأصر على الذهاب إلى الحج انقلب الوضع إلى ثورة ؛ إذ إنه أصبح من المعروف أن البادشاه اتخذ بورصة عاصمة مؤقتة ، وأنه سيأتى إلى إستانبول مع الجنود الذين جمعهم من الأناضول ويلغى جنود القابو قولو ، وأنه أعطى الأوامر بهذا الشأن إلى الأسطول . وعند اقتراب مساء يوم ١٨ أيار ، اشتد تأزم الوضع .

ورغم إعلان السلطان عثمان عدم تركه إستانبول وقف الثوار أمام حاكم البلاد بطلبات جديدة ، لقد أيقنوا أنه لاخلاص لهم من شر هذا الخاقان وأنه سيبطش بهم فى أول فرصة .

وفى اليوم التالى (١٩ أيار) من هذه الثورة التى سميت فى تاريخ تركية « الماثلة العثمانية » والتى ليس لها شبيه توترت أعصاب كلا الطرفين . صلى الثوار صلاة الصبح ، مع جماعة كبيرة فى جامع فاتح . هدد الإنكشارية أصناف الكابوكولو الآخرين والعلماء الذين لا يساندوهم بالموت وقدموا إلى ساحة سلطان أحمد . وطلبوا من السلطان رءوس ٦ أشخاص ، أولهم حاجه سلطانى (أستاذ السلطان) عمر أفندى الذى يعتقدون أنه هو صاحب الفكرة الحقيقية للإصلاح ، وكان حينئذ تسلسله فى بروتوكول العلماء الثانى بعد شيخ الإسلام . وعد بيان البادشاه – رغم إصرار المحيطين به – بأنه لن يعدم أحدا من الـ ٦ الذين يطلبون إعدامهم فإنه أخذ فى تهديد الثوار علنا . فتح الثوار باب السراى التى تركت مفتوحة دون دفاع نتيجة للخيانة ، وتجمعوا فى الرواق الأول . كان وراء الثوار السلطانة – الوالدة ، والدة السلطان مصطفى ، وكوسم مهبيكر خاصكى والوالدة ولى عهد شهزادة مراد . وكانتا قد سخرتا الكثيرين من رجال السراى . ولما لم تكن فكرة احتمال إجلاس عمه المجنون السلطان مصطفى على العرش مرة ثانية ، قد خطرت على بال السلطان عثمان كما لم يخطر على باله أيضا احتمال إجلاس أخيه مراد الذى لم يكمل سن العاشرة ، فانه لم يمسسهما بسوء ، وقتل فقط كبير إخوته الصغار الشهزاده محمد .

وعند اقتراب المساء قتل الوزير الأعظم دولار باشا ، الذى لم يتخذ أى تدبير ضد الثورة . صدارته دامت ٨ أشهر و يومين . كان العلماء يعتقدون بإمكان ارتداع البادشاه وإجباره على الطريق الصواب ، فلم يطلبوا خلعه بشكل قطعى . لكن الإنكشارية شهروا السيوف . إن محاولة إجلاس البادشاه المجنون السلطان مصطفى وصرف النظر عن ولى العهد – شهزادة مراد الشرعى ، وخاصة عدم معرفة ماهية المؤامرة التى جرت بشكل لايخطر على البال – أخافت العلماء ، واتضح أن الثورة قد فقدت منطقها . ومن المحتمل أن تدبير الإنكشارية لهذه المؤامرة وهم يعلمون جيدا بأن شخصا مجنونا لايمكن بقاؤه على العرش إنما كان بغرض الحصول على إكرامية الجلوس عند جلوس السلطان مصطفى ، ثم الحصول على إكرامية أخرى

عند خلعه جبرا وجلوس السلطان مراد . وقد ظهر نتيجة الحوادث الأخيرة ، أنهم ارتشوا وحصلوا على وعود كبيرة من السلطانة – الوالدة ، والدة السلطان مصطفى المرأة الغبية ، ومن السلطانة أخت السلطان مصطفى ومن زوجها الوزير داود باشا .

بعد ظهر ١٩ أيار بايع العلماء السلطان مصطفى تحت ظل السيوف . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى منذ الجلوس الأخير للسلطان محمد الفاتح فى ١٤٥١ يجرى جلوس بادشاه قديم مجددا ، سوف لايتكرر بعد ذلك مثل هذا الحادث . دامت سلطنة السلطان عثمان ٤ سنوات و شهرين و ٢١ يوما . وهو أحد البادشاهات النوادر الذين ولدوا وهم أولياء عهد . ظل ولى عهد لمدة ١٣ عاما و ٣ أشهر و ٢٣ يوما ، وفى هذا السن جلس على العرش . وبعد مقتل دولار باشا على يد العصاة عين أوهريلى حسين باشا وزيراً أعظم للمرة الثانية ، لكن حسين باشا قتله العصاة كذلك فى اليوم التالى . فر السلطان عثمان فى بداية الأمر إلى بورصة وأراد المقاومة ، ولكنه عندما شاهد قطع العصاة للطرق ، لجأ إلى باب الآغا ، مقر الإنكشارية والمحل الذى يتواجد فيه رئيس (آغا) الإنكشارية الكائن فى السليمانية وقضى تلك الليلة هناك .

وفى صبيحة اليوم الثالث والأخير لـ « هائلة عثمانية » ٢٠ أيار ١٦٢٢ خطب السلطان عثمان فى جماعة العصاة الإنكشاريين . قطع خطابه بين الحين والآخر ولم يحصل على نتيجة ، وقيل فى ذلك اليوم إن السلطان مصطفى وداماد قره مصطفى باشا الذى انتخبته الإنكشارية فى الحقيقة وزيرا أعظم قد تلقيا أمرا من أم زوجته السلطانة – الوالدة بالقضاء على السلطان عثمان . ولأن السلطان كان مجنونا ومصيره الخلع فإن خوف عثمان كان كبيرا جدا . كان رأى جنرالات الإنكشارية المحافظة على حياة عثمان ، إلا أنه بالرغم من النقاش الشديد لم يستطيعوا إملاء رأيهم هذا على تابعيهم من الإنكشارية . أخذ العصاة عثمان الثانى من أورطة جامع فى السليمانية وتوجهوا به إلى يدى كولة . وهناك حمل عليه ١٠ جلادين . ورغم أنه كان أعزل قتل ٣ منهم ثم قتل خنقا بخيط من حرير . وذلك مساء يوم ٢٢ أيار .

كان عثمان الثانى شخصية فذة جدا ، بأفكاره الابتكارية عن الإمبراطورية خلال إدارته لها . كان قد تجاوز سن ١٧ بـ ٦ أشهر و ١٧ يوما . كان متزوجا بعائشة خاتون ابنة المرحوم برتو باشا ، الوزير ٢ وبعقيلة خاتن ، ابنة شيخ الإسلام أسعد

أفندى . خلف ٢ شهزادة (أمير) وسلطانة (أميرة) واحدة ، توفوا فى المهد . منح بصورة إستثنائية رئيس أساتذته خاجه سلطانى آماسيالى عمر أفندى (إستانبول ١٥٥٥ - مكة ، شباط ١٦٣٠) مرتبة المشيخة التى يحملها شيوخ الإسلام ، وهو أول من منحت له هذه المرتبة فى التاريخ العثمانى من بين منتسبى فئة العلماء الثلاثة الذين نالوا هذه الرتبة قبل أن يصيروا شيوخ إسلام فعلا . كان شيخه عزيز محمود خدائى أفندى وأحد أساتذته شيخ قره باشا عبد الرحمن أفندى ، ومستشاره الرئيسى فى دار السعادة أغاسى مصطفى أغا . وتحصيله العلمى ممتاز جدا ، قرأ كتبا أوروبية وأصبحت لديه فكرة عن أوروبا . كتب أشعارا جيدة . كان قوى الجسم جدا . مصارعا ماهرا ويستعمل السلاح بدراية . يسمى بأسماء كنج (شاب) ، غازى وشهيد ، ويسميه الشعب « كنج عثمان » . قلد السيف من قبل أسعد أفندى أحد أساتذته . أقام صلاته الشاعر الأعظم شيخ الإسلام يحيى أفندى .

٤٤) السلطنة الثانية لمصطفى الأول (١٦٢٢/٥/١٩ - ١٦٢٣/٩/١٠)

طالت مدة سلطنة السلطان مصطفى الثانية بشكل غير متوقع أبدا سنة ، و٣ أشهر و٢١ يوما . أمه السلطانة - الوالدة ، كانت نائبة السلطنة ، وزوج ابنها الوزير الأعظم قره داود باشا كان فى الظاهر رأس الثورة . كانت السلطة فى الحقيقة بيد جماعة الإنكشارية . مضت مدة سلطنة السلطان مصطفى كلها ، بردود فعل حادثة « هائلة عثمانية » وانتشار الثورة فى كافة أنحاء الإمبراطورية . فى صبيحة ٢٢ أيار وزع على جماعة القابو كولو ، مبلغ مليون ونصف سكة ذهبية ، إكرامية الجلوس .

بدأ شعب الإمبراطورية الذى لم يشعر بالمحبة تجاه البادشاه فى حياته ، يذرف الدموع الغزيرة على استشهاد السلطان عثمان بشكل مفجع. إن الثورة المنفرة التى تعتبر كربلاء التاريخ العثمانى صارت وجها لوجه أمام ثورة معادية وضربة مضادة . انتهز الفرصة داود باشا أحد أنذل من شهده التاريخ العثمانى ، ونهب سراى طوب قابو ، وسرق حتى السيوف والخيول والحاجيات الأثرية الخاصة بالسلطان عثمان (بستان - زاده يحيى أفندى ، واقعة سلطان عثمان) ثم أراد قتل شهزادات السلطان أحمد ، ابتداء من ولى عهد - شهزاده مراد (نفس الأثر) ولما كان السلطان مصطفى

لايقرب النساء فإن أحداً لم يكن يعلم كيف يفكر فى إستمرار السلالة . انتقلت الدولة إلى أيدى أشخاص لايشعرون بالمسئولية على أى وجه ، وأنما يفكرون فقط فى قضاء يومهم . عين داود باشا أحد رجاله (آغا) للباب الهمايونى ووعده برتبة الوزارة وإيالة مصر إذا تمكن من القضاء على ولى العهد . تقدم نحو ولى العهد شاهرا السيف ، لكن أحد حراس ولى العهد الرماة رماه بالششبر (كرة ذات ٦ رءوس) فأصابه فى رأسه فسقط على الأرض ، توالى عليه الحراس ضربا بالسيوف والخناجر وتمزق شر ممزق . وفى اليوم التالى صلب على شجرة فى ميدان سلطان أحمد (نفس الأثر ، ٤٩ ب) . اقشعر الشعب مرة أخرى دهشة ونفورا . الشهزادة الذى أريد قتله عمره ١٠ سنين . تكونت شخصيته وسط هذه الحوادث . لايستطيع أحد آنذاك أن يتنبأ بأن ١٠ سنوات فقط ستكون كافية لسفك دماء هؤلاء الثوار وإفنائهم عن بكرة أبيهم .

لم يستطع داود باشا الحفاظ على وظيفته أكثر من ٢٤ يوما وساءت سمعته وأصبح يلقب بـ « قاتل البادشاه » (نعيما ، ٢ ، ٢٣٦) جىء بدلا منه بـ قرة حسين باشا ، وهو من الوزراء المعزولين من بكلربك مصر والموجودين فى إستانبول (١٦٢٢/٦/١٣) وقد كان أحد أجهل وأعجز وزراء العثمانية . عرنووطى (ألبانى) كان طباخا للقائد الوزير صاطرجى محمد باشا ، يتكلم التركية بصعوبة . كان قد لختلس ٣٠٠٠٠٠ سكة ذهبية فى مصر أثناء الاضطرابات فى فترة الثورات (من المؤسف أن يتولى السلطة أمثال هؤلاء) . وفى اليوم الـ ٨ من صدارته ٢١ حزيران صعد أحد ضباط السباهيين الشباب على إحدى شرفات مآذن جامع السلطان أحمد وقتل رميا بالنبل ٨٠ جنديا هجموا عليه ، وهكذا ظهر أول طالبى دم السلطان عثمان . هيج هذا الحادث الشعب ، وقوبل بالرضا من جميع أفراده . لم يتمكن قرة حسين من البقاء فى السلطة أكثر من ٢٥ يوما . وأعطى المهر الهمايونى (الختم السلطانى) إلى لفكة لى مصطفى باشا (١٦٢٢/٧/٨) زوج مربية السلطان مصطفى . صار صدراً أعظم عندما كان بدرجة وزير ٤ . لم ترض الإنكشارية بهذا الصدر الأعظم الذى يبدى ليناتجاه معارضى الثورة . عزلته السلطانة - الوالدة (١٦٢٢/٩/٢١) . ظل فى السلطة شهرين و ١٤ يوما . جاء مكانه كرجى محمد باشا .

اضطربت فى هذه الأثناء الأناضول بكاملها ، انتشر التذمر حتى وصل إلى سورية والعراق ، وفى كل إيالة ظهر من يطالب بدم السلطان عثمان ، كثيرون من البكلربك والسنجق بك (أمراء الألوية) القضاة ، والشعب بالذات ، وأخذوا يقتلون الإنكشارية الذين يشاهدونهم فى الخارج ، وإن لم يستطيعوا ذلك كانوا يحقرونهم .

دبر أول ثورة مضادة بكلربك أرضروم آبازا محمد باشا ، وجمع حوله عددا آخر من البكلربك (أمير الأمراء) وقتل من وجدهم من الإنكشارية بالسيف . لم يكن هذا البكلربك يبلغ الـ ٣٥ من عمره ، ومن المعروف أنه كان من ولاة الإيالات التى اتفقت مع السلطان عثمان مسبقا وبصورة سرية على الإصلاح العسكرى ، وبينما كان الشعب يندب السلطان عثمان وينظم ويلحن المرثيات فيه ثار فى إستانبول صنف السباهى . مرة ثانية (١٦٢٢/١٢/٣١) ، وطلبوا قتل المسئولين عن مقتل السلطان ، وأعلنوا أن شرفهم العسكرى قد ضاع (نعيما ، ٢ ، ٢٤٧) . أعلن فروخ جلبى (مشيخته ١٥٩١ - ١٦٣٠) رئيس طريقة المولوية الساكن فى قونية أنه سوف يساند آبازا محمد باشا فى المطالبة بدم السلطان عثمان . قام السباهيون فى اليومين الأولين لعام ١٦٢٣ فى ١ و ٢ك٢ فى إستانبول بترتيب مظاهرات للمرتين: الثالثة والرابعة .

ساندت أكثرية الإنكشارية السباهيين ، وأعلنوا أنهم لاعلاقة لهم بمقتل البادشاه ، وأن هذا الجرم قد ارتكبه بعض الخونة من بينهم وأنهم يؤيدون معاقبتهم . الديوان الهمايونى الواقع تحت تأثير نائبة السلطنة التى هى فى نفس الوقت السلطانة - الوالدة ، انتابه القلق . العلماء يطالبون بمعاقبة القتلة وخلع البادشاه . صمم الديوان فى صبيحة يوم ٧ ك٢ ، على قتل داود باشا . أعدم داود باشا وعدة أشخاص من القتلة فى اليوم التالى ، وخلال ذلك أعدم دلاويش باشا بكلربك بودين ، عزلت السلطانة - الوالدة التى أيقنت أن عاقبة ابنها قد اقتربت كرجى محمد باشا الذى يقارب عمره الـ ٨٠ عاما بعد ٤ أشهر و ١٤ يوما ، وعينت مكانه للمرة الثانية قرة حسين باشا (١٦٢٣/٢/٥) .

خلال مدة ٦ أشهر ٢٣ يوما ظلم قره حسين باشا واختلس الكثير فى سبيل إطالة سلطنة السلطان مصطفى (وفى الحقيقة سلطنة السلطانة - الوالدة) . جمع شيخ الإسلام يحيى أفندى العلماء فى جامع فاتح وأقنعهم بعزل هذا الشخص الجاهل .

صار الوزير ٤ إسبارطة لى كمانكش قره على باشا صدرا أعظم (١٦٢٣/٨/٣٠) . كان قد عين بوظيفة وزير قبة بعد تواجده فى إيالات دياربكر وبغداد . ضغط خليل وكرجى محمد باشا من رؤساء الوزراء السابقين على على باشا لخلع السلطان مصطفى . كان على باشا بالذات يتفق معهما . كان قد اتفق مع كوسم مهبيكر خاصكى والدة ولى عهد - شهزادة مراد وأخذ منها مبلغا كبيرا من الدراهم لتوزيعها على الجهات اللازمة . وزع الدراهم على الجهات اللازمة كل من الوزير بابور محمد باشا بكلربك مصر الذى قدم إلى إستانبول ، وأخيه قاضى إستانبول حسن أفندى . وتمكن الصدر الأعظم الجديد على باشا من الحصول على فتوى الخلع ، بعد هذه المساعى التى استمرت ١١ يوما أيدت جماعة القبو قولو ذلك ، لأنهم سيمنحون إكرامية الجلوس كما أنهم كانوا يفكرون فى ضرورة إزالة آثار عدم رضا الرأى العام .

خلع السلطان مصطفى للمرة الثانية فى ١٠ أيلول ١٦٢٣ . وفى الحقيقة فإنه لم يكن له علم لابسلطنته ولابعزله عنها . وزع فى هذه المرة ٢ مليون سكة ذهبية لإكرامية الجلوس . وإكراميات الجلوس لاتسدد من خزينة الدولة ، بل من خزينة البادشاه المنفصلة عنها . ولعدم وجود هذا القدر فى خزينة السلطان جمعت أوانى وأطباق السراى وسكت منها عملات ذهبية . كان رصيد خزينة السلطان أحمد من المسكوكات الذهبية فقط ٥٠ مليون قطعة . وكان هذا المبلغ هو أكبر مبلغ يملكه حاكم من حكام العالم كله (Pirenne ، ٢ ، ٥٢٥) . لكن هذا المبلغ تم تبديده وإهداره خلال السنة والنصف التى استمرت فيها الثورة بشكل لايقره العقل والشرع . أرسلت أم السلطان مصطفى إلى شقتها فى السراى القديم . وحجر السلطان مصطفى ، فى شقته الموجودة فى سراى طوب قابو . ومجموع سلطنتيه سنة و ٦ أشهر و ٢٥ يوما . عاش بعدها أكثر من ١٥ سنة . مات بأجله وعمره ٤٧ (١٦٣٩/١/٢٠) . وهو مدفون فى ضريحه الكائن فى أياصوفيا . كان ابن أخيه عثمان الثانى قد دفن فى مقبرة سلطان أحمد بجوار أبيه .

تم إجلاس ولى عهد - شهزادة مراد على العرش بلقب « مراد الرابع » . كان سنه يزيد على ١١ سنة بـ شهر و ١٥ يوما . أمه كوسم مهبيكر ، السلطانة - الوالدة ، صارت نائبة السلطنة . كانت فى سن ٣٤ عاما . وصار الشهزاده بيازيد الذى يصغره بـ ٥ أشهر فقط ولى عهد (نعيما ، ٢ ، ٢٠٨ - ٦٣ ؛ فذلكة ،

٢ ، ٤ ومابعده ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٨٠ - ٩٨ ؛ صولاق - زاده ، ٧٠٣ - ٣٦ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٦٥٠ - ٧ روضة الأبرار ، ٥٣٥ - ٥٥ صولاق - زاده نوعى ، سبب خلاص سلطان مصطفى ، يحيى أفندى ، واقعة سلطان عثمان خان ، Madame de Gomez, Histoire d'Osman مجلدين باريس ١٧٣٤ ، هامر ، ٨ ، ٢٨٤ - ٣٧٦ ؛ Lorga ، ٣ ، ٤٤٨ ومابعده ؛ دانشمند ، ٣ ، ٢٩٠ - ٣٢٤) .

٤٥) الدورة الأولى لسلطنة مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٣٢)

كان إسبارطة لى على باشا مغرورا بسبب إجلاسه ولى العهد المشروع السلطان مراد . أراد التخلص من الصدرين الأعظمين الأسبقين داماد خليل باشا وكرجى محمد باشا ، لاعتباره إياهما منافسين له ، واتهامهما بمناصرة الثورة المضادة . لم يحتمل ذلك لاكوسم والدة ولاتشكيلات القابوقولو التى تساندها ، قطع رأس على باشا بعد ٧ أشهر و٤ أيام (١٦٢٤/٤/٣) . كان من الممكن أن ينجو بعزله ، لكنه ارتكب جرم الكذب على البادشاه الذى يعتبر ذنبا عظيما فى النظام العثمانى . وضع السلطان موضع الطفل ولم يذكر الصدق وإنما تأول فى موضوع سقوط بغداد .

أعطت كوسم والدة الختم الهمايونى لابنها إلى جركس محمد باشا الشخص المسن والمجرب الذى صار وزير قبة بعد أن كان بكلربك على الشام ، ولغرض إخماد عصيان الأناضول واسترداد بغداد من الصفويين صار سردارا أكرم وغادر إستانبول (١٦٢٤/٦/١٧) . صار الصدر الأعظم السابق كرجى محمد باشا وكيل الصدارة . كان القسم الأعظم من الأناضول يتلقى أوامره من أباضه محمد باشا وليس من الديوان ، وكان لأباضه مؤيدون كثيرون بين رجال الدولة فى إستانبول . كانت خزينة السلطان التى سلبت فى واقعة السلطان عثمان وصرف منها ٤ إكراميات جلوس خلال ٦ سنوات فارغة تماما (هامر ، ٩ ، ٣ ، ٢٣) . تجاسر أباضه محمد باشا إلى حد محاصرة مدينة بورصة . استمرت حملة جركس باشا للأناضول حتى ٢٨ك ١٦٢٥/٢ ، لكنه اتفق مع أباضه محمد باشا ثم عاد . توفى الصدر الأعظم ، أثناء قضائه فصل الشتاء فى طوقات (١٦٢٥/١/٢٨) . كان يستعد للحملة على بغداد

فى الربيع ، أصبح الوزير داماد حافظ أحمد باشا بكلربك الذى كان حاضرا مع الجيش فى طوقات صدراً أعظم وسرداراً أكرم . تزوج من السلطانة عائشة الابنة الكبيرة للسلطانة كوسم . عاش أياما عصيبة أمام بغداد . كان رجل دولة جيدا وشريفا ، لكنه لم يكن قائدا قديرا . وعندما لم يتمكن من استرداد بغداد عزل بعد سنة و ١٠ أشهر و٢١ يوما (١٦٢٦/١٢/١) . صار داماد خليل باشا ، صدراً أعظم للمرة الثانية . غادر إستانبول فى ٤ كانون ٢ (١٦٢٦) لحل مشكلة الأباضة . ظل فى حلب ٣ أشهر و١١ يوما ، وفى ٧ آب (١٦٢٧) جاء إلى عامد (دياربكر) . حاصر أرضروم مدة ٤١ يوما ، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها . ولأنه لم يستطع حل قضية الإباضة عزل بعد عودته لقضاء فصل الشتاء فى طوقات ومكوثه فيها مدة ٣ أشهر و٢٧ يوما (١٦٢٨/٤/٦) . دامت صدارته سنة و٤ أشهر و٥ أيام ومجموع صدارتيه ثلاث سنوات و٧ أشهر و٧ أيام .

صادف مجيء تيمور أوغلو باى سنغر ميرزا إلى إستانبول فى سنة ١٦٢٨ هذه جلوس ابن عمه شاه جهان على عرش الهند وقتله ٣ من إخوته . لجأ إلى تركية . أحسن السلطان مراد استقباله وإكرامه بشكل منقطع النظير ، لكنه لم يحصل على المعونة العسكرية التى طلبها (هامر ، ٩ ، ٩٨) . وعاد إلى الهند .

صار داماد خسرو باشا ، الذى ارتقى من رتبة أغا للإنكشاريين إلى وزير قبة قبل سنة و ٤ أشهر فقط صدراً أعظم . كان متزوجا من السلطانه عائشة ، إحدى بنات محمد الثالث وهو ابن أحد بكلربك المسمى خضر باشا . كان ذكيا ، ماكرا ، قوى الشكيمة ، ظالما للغاية ، طموحا ، متآمرا أنانيا ، قائدا جيدا . جاء إلى طوقات بعد تعيينه واستلامه الصدارة بـ شهر و٢٤ يوما . وتحرك بعد شهر و٢١ يوما ، ووصل أرضروم بعد شهر و ٩ أيام وبدأ فى الحصار بعد ٧ أيام ، وخلال ١٤ يوما أجبر أباظة محمد باشا على التسليم (١٦٢٨/٩/٢٢) . أغلقت مسألة أباظة التى استمرت ٦ سنوات ، سيق إلى إستانبول . تحرك خسرو باشا الذى ظل ٢٢ يوما أخر فى أرضروم ووصل إستانبول خلال شهر و ٢٦ يوما (١٦٢٨/١٢/٩) . سرح الجيش الذى كان فى حالة تأهب فى الأناضول منذ ٤/٥ سنة . قابل مراد باشا ، أباظة محمد باشا عند حضوره ، وبعد توبيخه بشكل صورى أرسله إلى بوسنة برتبة بكلربكى . والحقيقة أن مقاومة الباشا مدة ٦ سنوات للمطالبة بدم أخيه الكبير عثمان كانت قد أسرته .

مكث خسرو باشا فى إستانبول ٧ أشهر و يوما . تحرك لحملة إيران (١٦٢٩/٦/١٠) . قاد الحروب الإيرانية الشديدة خلال ١٦٢٩ - ٣١ ، لكنه لم يستطع الاستيلاء على بغداد . عزل عندما كان فى طوقات (١٦٣١/١٠/٢٥) . دامت صدارته ثلاث سنوات و ٦ أشهر و ١٩ يوما . جاء حافظ أحمد باشا إلى الصدارة مرة أخرى .

ظلم خسرو باشا الكثيرين وأعدم وبطش . تقمص شخصية الوزير الدكتاتور بكل مافى الكلمة من معنى . كان يستند على جماعة الإنكشارية فى إستانبول . كان يوجه تلك الجماعة فى إستانبول بواسطة داماد رجب باشا . كان هذان الوزيران رغم أنهما يقومان بأعمال من شأنها إخافة السلطان مراد ، الذى أخذ يكبر كلما تقدم الوقت ، فإن وضعهما يدل على أنهما كانا على استعداد لإجراء حركات أكبر من ذلك . كانا يريدان سلطانا مطيعا لهما فاقد العزيمة . أنتج عزل خسرو باشا ونقل السلطة إلى حافظ أحمد باشا أحد رجال السراى الموالين للبادشاه ؛ أخافة هذه الزمرة . أحدث رجب باشا عصيانا فى جماعتى الإنكشارية وسباهية قابوقولو وأضاف إليهما زمرة العاطلين عن العمل فى إستانبول وأحدث ثورة ١٩ رجب (١٦٣٢/٢/١٠) . وتعتبر هذه الثورة التى حدثت فى فصل الشتاء « هائلة عثمانية » على نطاق صغير . كان الهدف منها إسقاط حافظ أحمد باشا وتهديد البادشاه . استشهد حافظ أحمد باشا أمام أنظار البادشاه بشكل مفجع . استمرت الصدارة الثانية ٣ أشهر و١٦ يوما فقط ، تحملتها طغمة الاشقياء بصعوبة . مجموع صدارتيه سنتين ، وشهرين و ١٨ يوما . وبضغط الجماعة وإرادة نائبة السلطانة التى تتحرك بمؤازرة الجماعة صار داماد رجب باشا الذى يسميه مراد الرابع « رئيس الأشقياء » صدراً أعظم .

لكن السلطان مراد كان يعلم أن خسرو باشا المعزول الموجود فى طوقات والأذكى منه والأكثر طموحا يقف وراءه ويسانده . أمر السلطان مرتضى باشا بالقبض على خسرو باشا . جاء مرتضى باشا إلى طوقات وعرض الخط الهمايونى للبادشاه . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى يعترض وزير على فرمان (أمر سلطانى) الخاقان المقدس ولايسلم نفسه . قصف مرتضى باشا قصر خسرو باشا بالمدفع وقطع رأسه . شهر السلطان مراد الرأس المقطوع على شعب إستانبول بعد شهر بالضبط ، يوم ١١ آذار (١٦٣٢) . وفى اليوم التالى حدثت الثورة الثانية . وهذه ثورة ٢٠ شعبان .

وبتحريض من رجب باشا جمعت العصبة القابو قولو وجميع شذاذ الآفاق الموجودين فى إستانبول وكدستهم أمام باب السراى . ولإفزاع البادشاه طلبت رءوس أقرب الناس إلى البادشاه . خرج مراد الرابع للمواجهة العلنية التى تسمى (آياق ديوانى) . حدثت حوادث قتل ونهب . طرحت فكرة إجلاس ولى عهد - شهزادة بيازيد على العرش ، لكن نائبة السلطنة كوسم مهبيكر السلطانة - الوالدة عارضت ذلك ، لأنها لم تكن هى والدة السلطان بيازيد . فشل التمرد فى إخضاع السلطان مراد فى هذه المرة كذلك . أمر بإعدام زوج أخته داماد رجب باشا فى ١٨ أيار (١٦٣٢) . مدة صدارة طوبال رجب باشا كانت عبارة عن ٣ أشهر و٧ أيام . تجمع المتآمرون فى ساحة سلطان أحمد فى ٨ حزيران . دعا السلطان مراد ، الديوان والعلماء لعقد اجتماع . ألقى خطابا طويلا ذكر فيه أن الفوضى تغلغلت فى كيان الدولة ، وأن الجيش أصبح لايحارب ، وأن الجندى أصبح لايؤدى واجبه بسبب تدخله فى السياسة وأنه غير مستعد لأن يقدم الدولة لقمة سائغة للأشقياء واللصوص ، وأنه سوف لايتردد فى البطش بمن لايطيعه مهما كان ذلك الشخص . أحدثت الخطبة أثرها فى الشعب فأخذوا يهتفون مؤيدين البادشاه ، ذلك أن تحكم الأشقياء كان قد أضر بالكثيرين من أفراد الشعب ورجال الدولة . مضى على « المائلة العثمانية » ١٠ سنين و ١٩ يوما بالضبط . كانت واقعة كنج عثمان سببا فى فتح الباب أمام فترة فوضى دامت هذا القدر الطويل من الزمن . انتهت فترة نيابة السلطانة كوسم التى دامت ٨ سنوات و٨ أشهر و١٣ يوماً . سحبت السلطانة - الوالدة البالغ سنها ٤٣ عاما يدها من السياسة وهى رهينة الحزن والتأثر .

افتتحت الدورة الثانية لسلطنة السلطان مراد التى ستكون إرادته فقط هى الحاكمة فى هذه الدورة ، ولن يسمح لأية قوة بالتدخل فى إرادته .

٤٦) الدورة الثانية لسلطنة مراد الرابع (١٦٣٢ - ١٦٤٠)

دامت هذه الدورة حتى وفاة البادشاه ٧ سنوات و٨ أشهر ويوما . ألغى فصيل « أورطة » الذى ينتسب إليه الإنكشارية الـ ١٠ قتلة عثمان . وكان الإنكشارية بالذات يلعنون هذا الفصيل بمراسم عسكرية كبيرة يرتبونها كل ٣ أشهر ، دامت لحين إلغاء صنف الإنكشارية فى ١٨٢٦ .

هدد السلطان مراد الرابع والدته الحريصة جدا على السياسة ومنعها من التدخل فى شئون الدولة . بحث عن كل شخص له علاقة قريبة أو بعيدة بمقتل كنج عثمان وأمر بقتله . ثم انتقل إلى الأناضول وأمر بإعدام كل من ارتكب الشقاوة فى المنطقة أو تظاهر بها أو سرق أموال الدولة أو ظلم الشعب . منع استعمال التبغ فى ١٦ أيلول ١٦٣٣ . كانت القهوة تشرب فى إستانبول منذ عام ١٥٥٥ مدة ٧٨ سنة والتبغ يدخن منذ ١٦٠٥ مدة ٢٨ سنة . لم يكن التدخين متفشيا بكثرة فى حينه ، كان العلماء يناقشون شرعيته من عدمها (وفى النهاية قرروا أنه مضر ولكنه ليس حراما وسمح باستعماله) . هدمت كافة المقاهى لأنها كانت مركزا لتجمع أفراد الجيش والمداولة فى السياسة بدلا من قيامهم بالتدريب العسكرى فى ثكناتهم . الراغب بشرب القهوة فى داره . لكن التبغ كان ممنوعا تدخينه حتى فى الدار (رفع هذا الحظر فى عام ١٦٤٠) ؛ لأن حريق إستانبول الكبير فى ١٦٣٣/٩/٢ ، حدث بسبب النار التى ولدها تدخين التبغ واحترق ٢٠٠٠٠ مسكن . كان ذلك فى الحقيقة مجرد وسيلة ، أما غرض السلطان الحقيقى ، فقد كان إحاطة الدولة بجو إرهابى بحجة تدخين التبغ . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى يعدم شيخ الإسلام أخو زاده حسين أفندى (١٦٣٤/١/٧) . لايقر النظام العثمانى إعدام أى فرد من أفراد طائفة العلماء ، حتى ولو كان فى أدنى المراتب ، ويمكن فقط عزله أو نفيه . والآن يقطع رأس الشخص الذى هو فى ذروة هذه الطائفة . كان السلطان مراد يريد أن يثبت بذلك أن ليس هنالك امتياز لأى صنف من الأصناف أمام سلطة الدولة . كان ذلك إخطارا للعلماء الذين أصبحوا آلات عمياء مسخرة فى أيدى الأشقياء فى واقعة « هائلة عثمانية » . وفى ١٦٣٤/٨/٥ منع شرب المشروبات الكحولية . أغلقت كافة أماكن الشرب ، حظر الشرب على المسلمين ، حتى فى بيوتهم ، لأن الشريعة منعت تعاطى الخمر . كان حظر المشروبات الكحولية قد صدر قبل نصف قرن ولكن لم يكن مطبقا ، والآن أعدم فى محل الارتكاب كل من شرب الخمر أو دخن التبغ رغم المنع . كان البادشاه يعطى شعبه درسا فى إطاعة أوامر الدولة ، لكنه كان هو نفسه يتعاطى المشروب فى السراى .

وفى جو كهذا ، كادت تحدث حرب بولونية . البادشاه الذى قرر حملة همايونية بعد ١٣ سنة من حملة أخيه الكبير على بولونيا التى امتنعت عن دفع الضريبة وهدم

قلاع الحدود ، جاء فى ٢٧ نيسان إلى أدرنة (١٦٣٤) . لكنه اتفق مع بولونيا وتحرك عائدا إلى إستانبول فى ٢٧ تموز .

عندما كان مراد الرابع فى حملة إيران الأولى أرسل أمرا إلى إستانبول أعدم بموجبه ولى عهد - شهزاده بيازيد الذى كان فى ٢٣ من عمره وشهزاده سليمان فى ٢٠ من عمره بحبل حريرى . ولم يمس الشهزادة قاسم الذى كان سنه متوسطا بين هذين السنين بسوء لكونه شقيقه من السلطانة كوسم ، وصار ولى عهد . الشهزادتين (الأميرين) المقتولين دفنا فى مقبرة أبيهما السلطان أحمد . الشهزادة بيازيد ، كان أميرا مقتدرا جدا ، وكان ولى عهد أخيه الكبير مراد الرابع منذ جلوسه قبل ١١ سنة و ١٠ أشهر و ١٧ يوما . بدأت الألسن فى آسيا وإفريقية تلوك هذا الحادث بشكل كبير . تعالج هذا الموضوع (مأساة) Racine ذات الـ ٥ فصول والتى تسمى تراجيديا Bajazet (١٦٧٢) وعندما كان البادشاه فى حملة إيران الثانية أرسل أمرا إلى إستانبول بموجبه قتل خنقا أخوه قاسم المولود من نفس الأم البالغ سنه ٢٤ عاما والذى كان ولى عهد منذ سنتين و٦ أشهر و٢١ يوما . دفن الشهزاد فى مقبرة مراد الثالث الكائنة فى أياصوفيا . أصغر إخوة البادشاه إبراهيم المولود من السلطانة كوسم من أم وأب واحد صار ولى عهد ، كان سنه ٢٢ عاما ، ولم يبق عداه من بنى عثمان على قيد الحياة . شهزادات السلطان مراد كانوا يموتون بعد ولادتهم بعدة أشهر .

عندما تسلم السلطان مراد زمام السلطة بيده وأعدم رجب باشا عين طابانى ياصى محمد باشا صدراً أعظم . ساعد هذا الصدر الأعظم البادشاه متطوعا ، وعمل مابوسعه لإعادة سلطنة الدولة مجددا . عزل بعد ٤ سنوات و ٨ أشهر و ١٥ يوما (١٦٣٧/٢/٢) . كان موجودا عند عزله فى مقر الجيش فى عامد (ديار بكر) ، أرسل إلى بودين (المجر) وصار بكلربك لها . عين مكانه صدر أعظم ووزير مقتدر مثله وهو داماد بايرام باشا . كان متزوجا بالسلطانة خان - زاده الأخت الكبيرة للبادشاه منذ ١٥ عاما . كان قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) فى إستانبول أثناء السنوات التى كان فيها طابانى ياصى محمد باشا فى الجبهة الإيرانية ، ونائب السلطنة عندما كان السلطان مراد فى حملة إيران الأولى . صار بايرام باشا كذلك سردارا أكرم مثل محمد باشا .

حولت الفوضى التى استمرت ١٠ سنين كافة الأنظار إلى حوادث العصبة (Junto) فى إستانبول ، حدث شغب كبير فى الإيالات . ضعف نفوذ بكلربك الإيالات البحرية ، الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب ، وزاد نفوذ جنرالات الإنكشارية الذين يسمون « دايى » . كان أيدن باشا يحافظ بصعوبة على أراضى الحبشة الواسعة ، وفى اليمن لم يتمكن قانصو باشا ، من الوقوف أمام الإمام الزيدى ، وانسحب تاركا له كافة الأقسام الجبلية للقطر ، عدا الساحل (١٦ - ٣٣) . وحتى قوزاق أوكرانيا استولوا على قلعة آزاك (Rostov) (١٦٣٧/٧/٥) .

توفى الصدر الأعظم بايرام باشا ، عندما كان مع البادشاه قرب بيرة جك مع الجيش الهمايونى (١٦٣٨/٨/٢٦) . دامت صدارته سنة و ٦ أشهر و ٢٢ يوما . حل مكانه وزير مقتدر آخر هو طيار محمد باشا الذى كان - من قبيل الصدف - مثل بايرام باشا من أهالى لادك أيضا (بين صمصون وآماسيا) . كان الوزير موسى باشا فى إستانبول يقوم بوظيفة محافظ العرش (نائب السلطنة) وفى نفس الوقت قائمقام الصدارة . لكن طيار محمد باشا سقط شهيدا أمام أسوار بغداد بعد ٣ أشهر ، ٢٨ يوما (١٦٣٨/١٢/٢٣) ، وبعد يومين فتحت بغداد . كان أبوه أوجار مصطفى باشا قد استشهد كذلك على يد الصفويين عندما كان بكلربك لبغداد . دفن محمد باشا فى الأعظمية خارج بغداد وشيد له قبر فيها . صار « كمانكش » مصطفى باشا صدراً أعظم ، ولقب بهذا اللقب لأنه كان من أشهر رماة السهام فى عصره ، ومنذ شبابه يلقب « كمانكش » كان قبطان دريا برتبة وزير .

وبعد حملة إيران الثانية تفادت العثمانية بصعوبة نشوب حرب مع البندقية Venedik . ونشأ الخلاف من الوضع المتقابل للقلعة العثمانية فى دالماجيا وقلعة البندقية تم تفادى الحرب أو على الأصح أجلت لمدة ٦ سنوات بمعاهدة إستانبول (١٦٣٩/٧/١٦) . سددت البندقية غرامات قدرها ٢٥٠٠٠٠ سكة ذهبية . ومع ذلك أمر السلطان مراد بتأهب الأسطول تجاه البندقية ، لكنه توفى قبل إعلانه حربا مع البندقية ، بعد أن ترك فكرته هذه ميراثا لأخيه السلطان إبراهيم .

ضعف نفوذ البكلربك الذين أرسلتهم إستانبول إلى الجزائر ، وأصبحوا يمثلون فى البروتوكول فقط . وسيطر جنرالات الإنكشارية فى الجزائر الذين يسمون « دايى » على الإيالات فعلا . اكتسب أسطول الجزائر قوة كبيرة ، إلا أن اهتمام أميرالات

الأسطول بشئون إدارة الدولة أصبح أقل مما كان عليه فى السابق ، واتخذوا من الأسطول أداة للقرصنة . كانوا يقومون بتحركات معلومة عند تسلمهم الأوامر من إستانبول ، وبعدها كانوا ينضمون إلى الأسطول الهمايونى ، ويخرجون للقرصنة فى فراغهم . كان مجالهم وسط وغرب البحر الأبيض والأطلسى . وكان الأسطول الجزائرى المكون من ٢١٠ قطعة ، وكل قطعة مجهزة بـ ٢٥ - ٤٠ مدفعا أكبر قوة بحرية فى العالم بعد الأسطول الهمايونى . ولد ضعف الأسطول والقدرة العسكرية الإسبانية فرصا كبيرة . جرت عدة حملات وغارات بحرية فى هذه الفترة وهى (ستعالج الأحداث فى الميحط الأطلسى فى الصفحات التالية) : الاستيلاء على ٩٣٦ سفينة خلال ٨ أعوام وجلبت إلى الجزائر السفن التى نهبت فى عرض البحر وأغرقت ، خارج هذا العدد . شرع بعد ذلك فى التعرض للسفن الفرنسية، ترك الديوان سياسة حماية فرنسا بمناسبة ضعف إسبانيا . وخلال ١٦٢٩ - ٣٤ تم فى الأطلسى الاستيلاء على ٥٢ ، وفى البحر الأبيض على ٢٨ سفينة فرنسية وجلبت إلى الجزائر . كان الهدف هو السفن الإسبانية والإيطالية التابعة لإسبانيا لأن أمر الديوان كان ينص على ضربها أينما وجدت . كانت حالة الحرب مستمرة بين العثمانية وإسبانيا . وفى ١٦٣٦ أغار الأسطول الجزائرى على ميناءى **Reggio** و **Messina** . تم تحقيق إنزال على كورسيكا ، وفى ربيع العام التالى ١٦٣٧ جرى إنزال على **Sardunya** . وفى الخريف تم إنزال الجيش فى **Gaeta** بين نابولى وروما . وفى ١٦٣٩ عاد على رئيس من سواحل صقلية وكالابريا بغنائم كبيرة . كانت القطع البحرية لتونس وطرابلس أصغر . وكانوا يقلدون الجزائر ويحذون حذوها قدر طاقتهم . أسس آخر من نفى من العرب من الأندلس عام ١٦١٠ نوعا من الجمهورية فى الأس البحرى **Sale** الكائن على المحيط الأطلسى فى فاس على مقربة من شمال الرباط ، متخذين تشكيلات الأسطول التركى نموذجا لهم . كبدوا السفن الإسبانية فى المحيط الأطلسى أضراراً فادحة ، ساندتهم الجزائر وتسلموا أوامر منها .

٤٧) الصفحة الأولى للحرب التركية -الإيرانية الجديدة (١٦٢٤ - ١٦٣٥)

استولى الصفويون على بغداد بعد حصار دام ٣ أشهر (ليلة ١١ - ١٦٢٤/١/١٢) . فتح الباب للشاه ليلا - بصورة سرية - درويش محمد بك ،

ابن بكر باشا بكلربك بغداد ، الذى كانت علاقته متوترة مع أبيه . منحه الشاه رتبة بكلربك بلقب « خان » عذب الشاه عباس بكر باشا الذى رفض أن يكون شيعيا ، مدة ٧ أيام ثم أركب فى زورق ملىء بالنفط ، وأشعل فيه النار . قتل كل من قاضى بغداد عمر نورى أفندى خطيب أولو جامع محمد أفندى ومئات من ضباط وموظفى العثمانية ، أشراف السنة بنفس الطريقة . سيقت زوجاتهم وبناتهم إلى دور الزنى العامة فى إيران . تصادف هذه الفترة تماما فترة حروب الثلاثين سنة المدهشة التى ذبح فيها الكاثوليك والبروتستانت بعضهم البعض وهدم فيها أحدهم مدن وقرى الآخر وسحقها وجعلها مزارع . افتتحت سلطنة مراد الرابع بمثل هذه الفاجعة .

أصبح صافى قولو خان تركمن بكلربك بغداد للصفويين . بدأت دورة حكم الصفويين فى بغداد – لمدة ١٥ سنة – (التى قد فتحها من قبل السلطان سليمان القانونى جيث تسلمها من الشاه طحمسب قبل ٨٩ سنة وشهر و٤ أيام) . حاصر بغداد الصدر الأعظم والسردار الأكرم حافظ أحمد باشا (١٦٢٥/١١/١٣ – ١٦٢٦/٧/٣) . حضر الشاه فورا ، لكنه لم يجرؤ على مواجهة حرب ميدانية مع العثمانية ، وإن كان مجيئه قد ثبط عزم العثمانية على استرداد بغداد . عاد حافظ باشا . أهدر الحصار الذى دام ٧ أشهر و٢٠ يوما دماء الكثير من الطرفين . انتقلت المدن المقدسة ككربلاء والنجف ليد إيران . لم تتمكن السياسة العثمانية فى هذه المرة كذلك من تشكيل استراتيجية موحدة مع الهند وتركستان ، اللتين هما فى حالة حرب وخلاف دائمين تقريبا مع إيران ؛ الأمر الذى يقتضى أن يكونا حلفاءها الطبيعيين . توالى ذهاب ومجىء السفراء من تركستان ومن الهند ، ولكن لم يسفر ذلك عن اتفاق جدى .

أحس الشاه عباس بأنه على وشك إكمال سلطنته التى قضاها بالسطوة والقوة . كان أمله الوحيد هو إجبار العثمانية على الموافقة على بقاء العراق الوسطى لديها ، لكنه لم يتمكن من تأمين ذلك ، لأنه كان على درجة من بعد النظر ، بحيث يستطيع التنبؤ بأن العثمانية سوف تسترد بغداد بعده بصورة أكيدة . مات فى سن ٧١ وهو أعظم حاكم فى العالم بعد مراد الرابع (١٦٢٨/١/٢٧) . دامت سلطنته ٤٠ سنة و ٨ أشهر ، كان معاصرا لـ ٥ بادشاهات عثمانيين . كان قد أمر بقتل ابنه ولى العهد صافى ميرزا . جاء مكانه ابن صافى ميرزا هذا ، ولقب « الشاه صافى الأول » وجلس على عرش جده ، ولكن البون كان شاسعا بين قدراته وقدرات جده . وخلال هذه

السنوات اكتسب بنو تيمور فى الهند مقدرة كبيرة جدا وازدهروا وصاروا أقوى دولة فى العالم بعد العثمانية ودفعوا إيران الصفوية من الدرجة الثانية التى حافظت عليها مدة أكثر من ١٢٠ سنة إلى الدرجة الثالثة . ظل الشاه صافى على العرش حتى عام ١٦٤٢ أى أكثر من ١٤ عاما .

تحرك الصدر الأعظم والسردار الأكرم الجديد دماد خسرو باشا من إستانبول (١٦٢٩/٧/١٠) للاستيلاء على بغداد التى لم يستطع حافظ باشا الاستيلاء عليها . لكنه بدلا من أن يتجه إلى بغداد قضى الشتاء فى كركوك . انتقل ٣٩ سنجق (لواء) كردى وتركمانى مع أكثر من ٢٠ عشيرة كردية - الذين كانوا فى السابق تابعين للعثمانية - من الحكم الصفوى إلى الحكم العثمانى مرة أخرى . وجاء بكواتهم فردا فردا إلى السردار الأكرم وأعلنوا طاعتهم . استرجع بارمقسز مصطفى باشا بكلربك طرابلس الشام ، الحلة ، كربلاء ، النجف ، الكوفة وضواحيها من الإيرانيين . تراجع الصفويون إلى داخل أسوار بغداد . أعدم الشاه خان خانان (الصدر الأعظم) زينل خان بسبب هزيمته مع جيشه البالغ ٤٠٠٠٠ شخص ، أمام العثمانية فى المعركة الميدانية المسماة « مهربان » .

اجتاز خسرو باشا الأراضى التى يسكنها الأكراد ، ودخل الأراضى الإيرانية التى يسكنها الأتراك فتح همدان (١٦٣٠/٦/٩) ومع أنها كانت قد فتحت فى عهد القانونى الا أن ذلك كان نصرا مهما ، حيث كانت مركزا للعراق العجمى ومدينة العرش لسلاجقة العراق (على مسافة ٤٠٠ كم (مسافة مستقيمة) عن شمال شرق بغداد ، و ٢٥٠ كم على الجنوب الغربى من طهران) . جاء الجيش الهمايونى إلى دركوزين على طريق همدان - قزوين فى ١٨ حزيران . وتمكن من إفناء حسين خان بكلربك لورستان مع جيشه البالغ ٨٠٠٠ خيالة و ٤٠٠٠ مشاة حاملى البنادق . وعلى هذا تكون كافة إيران الغربية (العراق العجمى) ، وبتعبير أوضح إيالات كرمنشاه ، كردستان (أردلان) ، لورستان وخوزستان قد انتقلت إلى الحكم العثمانى . إلا أن الديوان الهمايونى اتهم خسرو باشا بمخالفة الأوامر وعدم استيلائه على بغداد وسوقه الجيش إلى داخل إيران على خلاف ماهو مخطط . وفى ٥ ت١ حاصر بغداد راميا ٥٠٠ قذيفة مدفع يوميا (هامر ، ٩ ، ١٥١) رفع الحصار بعد ٣٩ يوما (١٦٠٣/١١/١٤) . كانت الأعظمية بيد العثمانية . استشهد الوزير

مرتضى باشا.رابط خليل باشا بكلربك دياربكر فى الحلة مع ١٠٠٠٠ جندى . ولما انسحب خسرو باشا ، جاء الشاه صافى بنفسه واستولى على الحلة وكركوك . مكث خسرو باشا ٤١ يوما فى الموصل و٤ أشهر فى ماردين . وجاء إلى دياربكر ، وهنا انضم ٣٠٠٠٠ خيال قرمى إلى الجيش الهمايونى . لكن خسرو باشا علم بعزله خلال تواجده فى هذه المدينة . انسحب إلى طوقات . كان الجيش متعبا ، كما أنه تحمل خسائر كبيرة فى حملة إيران ، ولم يسترح منذ مدة طويلة .

خرج الصدر الأعظم والسردار الأكرم طابانى ياصى محمد باشا من إستانبول إلى الجبهة (١٦٣٣/١٠/٢٢) . رافقه مراد الرابع لغاية أزميت . قضى الصدر الأعظم شتاء عام ١٦٣٣ – ٣٤ فى حلب . ثم انتقل إلى دياربكر وانتظر قدوم البادشاه .

٤٨) الحملة الهمايونية الإيرانية (روان) الأولى (١٦٣٥/٣/٢٨ – ١٦٣٥/١٢/٢٧)

أثناء مغادرة مراد الرابع إستانبول ، لحملة إيران (٢٨ آذار) ، تحرك جيش آخر بقيادة طابانى ياصى محمد باشا من دياربكر (٦ نيسان) ووصل أرضروم (٥ حزيران) . سار البادشاه رويدا ، كان النظام والسكون المطلق مستتبين فى الجيش إلى درجة لم يشاهد عليها أبدا منذ عهد القانونى . قبض على العصاة وأعدموا فى كل مكان يمر به الجيش . صعد الخاقان إلى حضور مولانا جلال الدين (قدس الله سره) المعنوى فى قونية . وفى ١٧ حزيران التقى فى بايبورت البادشاه مع الصدر الأعظم . وفى طريق إستانبول – بايبورت أمر السلطان مراد بإعدام وزير (مارشال) و٣ بكلربك (فريق) ، سنجق بك (أمير لواء) قضاة قونية ، قيصرى ، ازمير ، قره أغاج وكثيرين من موظفى الدولة الأصغر رتبة وعدد كبير من الشعب الذين يهددون الناس . ظل ٩ أيام فى أرضروم وتحرك فى ١١ تموز . ترك ٥٠٠٠٠ جندى فى أرضروم . ولتسهيل إمداد المؤن تحرك مع ٢٠٠٠٠٠ جندى و ١٣٠ مدفعا ثقيلا فقط روضة الأبرار ، ٥٨٥ – ٦) . وفى الاستعراض الذى نظمه خارج أرضروم ، أثبت وجود ضبط ونظام لامثيل لهما فى الجيش الهمايونى . يسجل ذلك كاتب جلبى عالم عصره الكبير الموجود آنذاك فى الجيش

فى الـ ٢٥ من عمره ، فيقول إنه لم يجتمع – فى أى وقت من الأوقات – جيش ضخم كهذا .

بدأت محاصرة روان فى ٢٧ تموز . كان يدافع عن القلعة طهمسب قولوخان ابن أمير كونة خان بكلربك الإيالة . وعندما علم بأن الهدف هو روان أدخل الشاه فى آخر لحظة إلى القلعة ١٢٠٠٠ من المشاة حاملى بندقية ، وعزز دفاعه . ورغم وجود الجيش الإيرانى الإمبراطورى بقيادة رستم خان فى مكان قريب لم يفكر فى حرب ميدانية مع العثمانيين . استسلمت روان بعد ١١ يوما (١٦٣٥/٨/٨) . وهكذا استرجعت القلعة التى بقيت لدى العثمانية خلال ١٥٨٣ – ١٦٠٤ بعد ٣١ سنة و شهرين . ولد فتح روان التى لم يقدر القانونى على فتحها فى وقت قصير كهذا صدى كبيراً . أقام شيخ الإسلام يحيى أفندى صلاة الجمعة فى ١٠ آب . تعقب السلطان مراد الذى ظل ١٢ يوما الجيش الصفوى وواصل النزول إلى الجنوب الشرق على امتداد نهر آراس ؛ لكنه لم يتمكن من التوصل إلى العدو . لم يسر الصفويون دخول الجيش العثمانى إلى روان بنظام لامثيل له ودون سفك قطرة دم بل بالعكس ، أصابتهم الدهشة . وأثناء اقتراب البادشاه إلى مدينة بيازيد رأى غرابا على مئذنة الجامع مضى بحصانة المسمى « نوكاى الجيسى » مسرعا ومن مسافة مرمى السهم ، رمى الجريدة وأصاب الغراب . وضع نصبا تذكاريا من المرمر فى مكان سقوط الغراب كتب عليه السلطان مراد الذى دخل خوى فى ١ أيلول دخل تبريز فى ١١ أيلول . هذا هو سادس فتح لتبريز على يد العثمانية . ويدون المؤرخون أن تعداد هذه المدينة كان فى ذلك الحين ٥٥٠٠٠٠ نسمة (Chardin ، ٢ ، ٣٢٨) بينما كانت مدينتان فقط من مدن المسيحيين هما لندن وباريس يبلغ تعدادهما هذا الرقم .

انتقلت تبريز مرة أخرى من العثمانيين إلى الصفويين قبل مايقارب ٣٢ سنة . ظل البادشاه ٤ أيام ثم تحرك . ولمرضه عدل عن خطة ذهابه إلى أصفهان . مكث فى دياربكر وقدم الكثيرين من موظفى الدولة والمشبوهين فى كسبهم إلى الجلاد . عاد إلى إستانبول بعد ٩ أشهر بالضبط . كانت سنه ٢٣/٥ عاما . وفور انسحاب العثمانيين جاء الصفويون إلى روان وعلى رأسهم الشاه صافى . وبعد حصار دام ٣ أشهر و ٧ أيام فى وسط الشتاء واستشهاد الوزير مرتضى باشا استسلمت روان . استمر الحكم العثمانى فى هذه المرة ٧ أشهر و٢٤ يوما . واسترجع الصفويون تبريز

والقسم الأكبر من أذربيجان . ثم نزل الشاه إلى الجنوب . وفى معركة مهران الميدانية (١٦٣٦/٩/٢) قاوم الوزير كوجوك أحمد باشا بكلربك الشام ، رغم مرضه ، لكنه غلب واستشهد . أعاد الشاه - الذى أعجب ببطولة هذا الباشا - جسده إلى العثمانيين . عاد الصدر الأعظم والسردار الأكرم طابانى ياصى محمد باشا الذى كان قد ذهب خلال الشتاء من دياربكر إلى قارص ولم يتمكن من إمداد الجيش فى كلا المنطقتين . غضب عليه مراد الثالث وعزله ، لم يعدمه على خلاف عادته نظرا لخدماته الكثيرة وعينه بكلربك على بودين .

٤٩) الحملة الهمايونية الإيرانية (بغداد) الثانية (١٦٣٨/٥/٨ - ١٦٣٩/٦/١٢)

غادر السلطان مراد إستانبول لحملة إيران الثانية مستصحبا معه شيخ الإسلام الشاعر الكبير يحيى أفندى الذى كان يكن له محبة كبيرة ويدعوه « بابا » البالغ سنه ٨٥/٥ سنة . طريق بغداد - إستانبول وهو مقسم إلى ١١٠ منازل وقد أنشئ فى كل منزل ، مراكز لتموين الجيش . وفى ١٧ حزيران صعد الخاقان إلى حضور مولانا جلال الدين المعنوى فى قونية . ووصل فى ٢٢ تموز حلب التى هى نصف مسافة طريق إستانبول - بغداد تماما . التقى فى بيرة جك مع جيش الصدر الأعظم داماد بايرام باشا . لكن بايرام باشا توفى قرب أورفة فى ٢٦ آب . صار طيار محمد باشا صدراً أعظم . جاء الخاقان الذى بقى ١٠ أيام فى دياربكر إلى الموصل فى ٧ ت١ وافق على دخول رسل تيمور أوغلو شاه جهان إلى حضرته . قطع طريق إستانبول - بغداد خلال ٥ أشهر و ٨ أيام وشرع فى محاصرة بغداد فور وصوله ليلة ١٥ ت ٢ .

كانت فى المدينة حامية قوية جدا مؤلفة من ٤٠٠٠٠ جندى تحت قيادة بكتاش خان تركمن . كان الشاه صافى فى قصر شيرين مع جيشه السيار ، تابع الحصار العثمانى يوما بيوم ، لكنه كان لايستطيع الاقتراب من الجيش العثمانى . ورغم دخول السلطان مع ١٢٠٠٠ سباهى داخل إيران وسحقه منطقة شهربان لم يستطع إجبار الشاه على الدخول فى معركة ميدانية . كان الشاه يعتمد على جيشه المرابط فى بغداد وعلى أبراج قلعته الـ ١٢ ومئآت مدافعه . كان يؤمل انسحاب السلطان مراد بعد

أن ييئس من الحصار . ولما وصلت المدافع الثقيلة إلى العثمانيين عن طريق دجلة اشتد الحصار . نصبت خيام الجرجى حول سرادق البادشاه . كان السلطان مراد يزور الخيام كل يوم ويقدم لكل غاز ٥٠ آقجة . كان شيخ الإسلام فى المقدمة وفى أسفل السور يقوم بتشجيع الغزاة . بدأ قتال شديد بين كلا الجيشين التركيين . كان أحد الأطراف ينادى « شاه » والطرف الآخر ينادى « بادشاه » . وفى ٢٣ ك ١ استشهد طيار محمد باشا برصاصة أصابته فى جبينه ، وكان أبوه أوجار مصطفى باشا قد استشهد أيضا برصاصة صفوية فى بغداد سابقا .

طيار محمد باشا هو رابع صدر أعظم يسقط شهيدا فى ساحة الحرب فى التاريخ العثمانى . لكنه كان قد استولى على عدة أبراج . وقبل مضى ٤٨ ساعة استسلمت بغداد (١٦٣٨/١٢/٢٤) . دام الحصار ٣٩ يوما . خلال هذه المدة استشهد ٥٠٠٠ جندى عثمانى وجرح مايقارب ١٠٠٠٠ . وقتل مايقارب ١٠٠٠٠ جندى صفوى . تم تخليص المدينة التى بقيت تحت الاحتلال الصفوى ١٤ سنة و ١١ شهراً ، ١٣ يوما . بقيت بغداد فى الإدارة العثمانية بعد فتح القانونى لها مدة ٨٩ سنة و شهرا و ٤ أيام . أما بعد أن فتحها مراد الرابع فقد ظلت ٢٧٨ سنة ، ٣ أشهر ، ويومين فى الإدارة العثمانية . مجموع المدتين ٣٦٧ سنة و ٣ أشهر و ٦ أيام . بعد فتح بغداد صار يدعى السلطان مراد باسم « فاتح بغداد » .

أمكن استعادة بغداد بعد أدمى وأكبر حروب تركية - إيرانية استمرت ١٥ عاما . قدم الطرفان خسائر كبيرة . استشهد فى هذا السبيل الكثيرون من ذوى الرتب العالية آلاى بك ، سنجق بك ، بكلربك بمن فيهم الوزراء وصدرور أعظم عثمانيون . يكفى أن نتذكر أن رئيس الكتاب (وزير الخارجية) إسماعيل أفندى استشهد مع طيار محمد باشا فى نفس اليوم . كان هنالك شاب أكرمه السلطان مراد شخصيا ، استشهد أبوه وعمه واثنان من أخوته وعدة أشخاص من أقربائه فى هذه الحرب . كانت حربا وحشية إلى حد بعيد . ومما زاد فى وحشية الحرب إصرار ٢٠٠٠٠ جندى صفوى بقوا فى القلعة الداخلية - على المقاومة ، وقد قتل جميعهم عدا ٣٠٠ بالسيوف . وقع عدة خانات للصفويين (بكلربك) وكثير من سلاطين (سنجق بك) أسرى بيد العثمانيين وسيقوا إلى إستانبول . ولم تنته الفاجعة عند هذا الحد . قام قسم من الأهالى الشيعة بتفجير مخزن البارود ، وتسبب ذلك فى قتل

٨٠٠ جندى عثمانى . تم سجن وقتل ١٤٠٠ شيعى . أرسل أهالى المدينة الشيعة كلهم إلى أماكن مختلفة فى وسط العراق وأسكنوا هناك . منع لمدة طويلة إقامة غير أهل السنة فى المدينة . آلاف الأجساد تكدست فى شوارع المدينة ، ثم ألقى بهم فى نهر دجلة لعدم إمكان دفنهم . ولكون الموسم شتاء لم تحدث أمراض . جىء بعشرات الألوف من الأتراك من الأناضول وأسكنوا بغداد وضواحيها . إن الذين لايزالون يتكلمون اللغة التركية فى خانقين،بعقوبة،مندلى هم من نسل هؤلاء ، أما الذين فى بغداد فإنهم نسوا التركية فى النصف الأخير من القرن . إن مجرد قراءة الفذلكة لكتاب جلبى أكبر علماء عصره الذى اشترك فى الفتح والحصار تكفى لمعرفة مبلغ شدة هذه الحروب الدموية .

وأثناء ذهاب السلطان مراد ، لم يعرج على الأعظمية قائلا « ليس لدى اللياقة للصعود إلى حضور الإمام الأعظم ! » ولكنه زاره عند عودته . تم إصلاح وبناء قبر أبى حنيفة ووضعت فيه حاجيات ثمينة جدا . عين كوجوك حسين باشا بكلربك (أمير الأمراء) لبغداد ووضع تحت إمرته ١٢٠٠٠ جندى ؛ ٨٠٠٠ منهم إنكشارية . وعندما شاهد الخاقان خلال عودته عدم كفاية هذه الحامية أرسل وحدات جديدة إلى المدينة ، تم إصلاح كافة الأسوار والقلعة ، وجددت المدافع . أصبحت المدينة فى وضع لايمكن الصفويين من اقتحامها . مكث البادشاه فى بلدة الخلفاء ٢١ يوما وتحرك يوم ١٤ ك٢ (١٦٣٩) . صلى الجمعة فى الأعظمية . أبقى الصدر الأعظم والسردار الأكرم قرة مصطفى باشا فى بغداد ، لإجراء مفاوضات الصلح . وفى ١٨ ك٢ ، علمت إستانبول خبر فتح بغداد ، كان اليوم ١٣ رمضان . قام شعب إستانبول الذى لاتفوته مثل هذه الفرص خاصة وأنه ضاق كثيرا بإجراءات الإدارة العرفية للسلطان مراد التى لم يشاهد مثلها حتى ذلك التاريخ - بترتيب الأفراح ورفهوا عن أنفسهم مدة ٢٠ يوما حتى العيد بحجة الاحتفال بفتح بغداد .

تحرك البادشاه والجيش من الأعظمية فى ١٧ ك٢ ، ومن الموصل فى ٢٨ ك ٢ . أراد السلطان مراد أن يقضى الشتاء فى دياربكر ويحمل فى السنة القادمة على أصفهان ، إلا أن المرض اشتد عليه وأصابه ألم شديد . ويعتقد أنه كان يشكو من مرض « دمله » (بالفرنسية : Goutte) وسيروز (تشمع الكبد) . المرض الأول وراثى لدى بنى عثمان . اضطر إلى مغادرة الموصل والتوجه إلى دياربكر خلال ٨

أيام . بقى هناك طريح الفراش مدة ٧٠ يوما . وهو على الفراش كان يصدر أوامره ويرسل أفراد الصاعقة إلى إيران ، كما أملى تعليمات شروط الصلح وعالج أمور الدولة الأخرى والتعيينات . تحرك قرة مصطفى باشا نحو إيران فى ٢٣ آذار بعد أن ترك فى بغداد ٢٠٠٠٠ جندى . وأثناء تقدمه نحو الشمال الشرق فى قزلرباط جاء رسل الشاه وطلبوا الصلح . قال الصدر الأعظم ، إن لديه تعليمات بالدخول إلى أصفهان فى حالة عدم عقد الصلح فورا . ومن الناحية الأخرى تحسنت صحة السلطان مراد نسبيا وتمكن من المجيء من دياربكر إلى أنقرة خلال ٣٤ يوما (١٦٣٩/٥/٢٠) . وكان يرافق ركب القادمين مع البادشاه إلى إستانبول ٢٢ بكلربك صفوى يحملون لقب « خان » فى إيران ، مئات - أكثرهم تقريبا من أصل تركى - من رجال الصفويين فيهم علماء ، فنانون ، موسيقيون . كان شيخ الإسلام يحيى أفندى البالغ سنه ٨٦/٥ الذى يرافق البادشاه ، - أبوه زكريا أفندى صار شيخ الإسلام كذلك - ينتسب إلى إحدى عائلات أنقرة ، الشهيرة استضاف البادشاه فى داره الواسعة داخل مزرعة كروم الكائنة فى أنقرة والتى ورثها عن أبيه . والطباخ الذى أعجب السلطان بأكلته المشهورة « أورمان كباب » عاش حتى عام ١٦٩٤ وافتخر بهذه الحادثة أكثر من نصف قرن (نعيما ، ٣ ، ٤١ ، ٤١٩) .

وقبل أن يستقبل شعب أنقرة بكامله السلطان مراد خارج المدينة وقع الصدر الأعظم مع إيران على معاهدة قصر شيرين (١٦٣٩/٥/١٧) . قصر شيرين التى عقدت فيه المعاهدة يقع على الجنوب - الشرق من كركوك ، على الحدود العراقية - الإيرانية ، وقع المعاهدة صارى خان توركمن نيابة عن الشاه ، ثم تبودلت وصدق عليها الشاه والبادشاه . وهكذا انتهت الحرب التركية - الإيرانية التى استمرت ١٥ سنة و ٤ أشهر و ٧ أيام . المعاهدة التى وقع عليها على أساس بقاء الوضع على ماهو عليه تحدد تقريبا الحدود التركية - الإيرانية والتركية - العراقية الحالية . حتى إنها تحدد حدود تركية - جمهورية أرمنستان السوفيتية كذلك . وبعد ذلك وبين الحين والآخر قدم العثمانيون هذه الحدود داخل الأراضى الإيرانية نحو أقصى الشرق ، ولكن فى النهاية ظلت حدود معاهدة قصر شيرين معتبرة حتى هذا اليوم . كان الشاه يخشى من استيلاء عثمانى ولذلك فقد صدق على المعاهدة بعد ٣ أيام من التوقيع عليها .

عاد السلطان مراد إلى إستانبول يوم ١٢ حزيران ١٦٣٩ من هذه الحملة الهمايونية

التى استغرقت سنة و شهرا و ٤ أيام . سحب السلطان من الأسطول الهمايونى فى أزميت ٥٨ قادرغة (قطعة بحرية) أرسلت إلى إستانبول . جرت مراسم استقبال عظيمة . أعلنت الأفراح فى كافة الإمبراطورية مدة أسبوع . عاش السلطان مدة ٨ أشهر و ٢٦ يوما بعد عودته إلى إستانبول . وفى هذه المرة صرف النظر عن الحملة التى كان يريد توجيهها إلى أوروبا . أمر بإنشاء كشك روان الظريف لإحياء ذكرى حملة روان . ثم أمر المعمار قاسم أغا بإنشاء كشك بغداد الذى يعتبر من بدائع الهندسة المعمارية التركية فى ١٦٤٠/١/٥ ، أى قبل وفاة البادشاه بـ ٣٤ يوما ؛ ولقى من السلطان مراد تقديرا وبقى تأثير هذا التقدير ساريا بعد سنين طويلة من وفاة السلطان مراد ، لم يبدل خلفه وأخاه السلطان إبراهيم ، هذا الصدر الأعظم .

٥٠) وفاة السلطان مراد خان الرابع (١٦٤٠/٢/٨) وشخصيته

مراد خان الذى أصبح طريح الفراش فى اليوم الثانى من عيد الأضحى توفى بعد أسبوعين فى ٨ شباط ١٦٤٠ الساعة ٢٠ . كانت سنه قد تجاوزت الـ ٢٧ عاما بـ ٦ أشهر و ١٢ يوما . أغمض عينيه فى غرفة منام أخيه من أمه وأبيه أولو شهزاده — سلطان قاسم . دامت سلطنته ١٦ سنة و ٤ أشهر و ٢٨ يوما ، وكان قبلها ولى عهد لمدة سنتين و ٧ أشهر ، ٢٩ يوما . أطلق عليه « فاتح بغداد ، غازى ، صاحب قران » . مولوى ، شاعر ، خطاط ، ملحن كبير . كان مرتبطا معنويا بالشيخ عزيز محمود خدائى أفندى . ظل ٩ سنوات تحت نيابة والدته وهى سنين الفوضى ، ومارس السلطنة شخصيا مايقارب ٨ سنوات . كان شيخه فى المولوية أبا بكر جلبى (١٥٥٨ — ١٦٤٢ ، مشيخته ١٦٣١ — ٤٢) . مجموع مدة حملتيه الهمايونيتين ١ سنة و ١١ شهراً و ٣ أيام . وعدا ذلك فله سفرات سياحية إلى أدرنة ، بورصة أزميت . فى أوروبا لم يتعد أكثر من أدرنة . مستشاروه السريون كوجى بك وروزنامه جى إبراهيم أفندى . سكن مدة طويلة فى سراى إسكدار . ولد له ١١ أبنا و ٤ بنات توفوا فى المهد وأكثرهم بعد الولادة مباشرة . بناته الآتية أسماؤهن ، وصلن سن الزواج : السلطانة رقية التى تزوجت مرتين (١٦٤٠ —ك١٦٩٠/٢) ، السلطانة قايا أسمهان التى تزوجت الصدر الأعظم

غازى ملك أحمد باشا (١٦٣٣ - ١٦٥٩/٢/٢٨) السلطانة خان - زاده (١٦٣١ - بعد ١٦٧٥) ، السلطانة كوهر - خان (الولادة شباط ١٦٣٠) والسلطانة صفية التى استمر نسلها حتى هذا الوقت . وبناء على ذلك فإن السلالة العثمانية استمرت إلى زمننا هذا من السلطان إبراهيم أصغر أبناء السلطان أحمد المقتدرين .

ومراد الرابع هو أكبر مستبد فى تاريخ تركية كلها . وفى الحقيقة فإن استبداده استمر ٨ سنوات . لكن اسمه حفظ النظام وأرجف القلوب لمدة طويلة حتى بعد موته . جلس على العرش كسلطان والدولة فى حالة فوضى ، لم يشهد التاريخ العثمانى مثيلا له.تعرض للاغتيالات وهو فى سن الطفولة . كان طفلا تربى على يد أم لاتتردد فى عمل أى شىء فى سبيل السياسة والسلطة . كانت تلك الأم أداة شر بيد جنرالات العصبة الذين يطلق عليهم اسم تشكيلات الأغوات (أوجاق أغالرى) وكانت تتقاسم مصالح الدولة معهم بشكل غير مشروع . مات فى سن مبكرة من الشباب تاركا سلطة قوية مستقرة للدولة ، ونظاما وطاعة فى الجيش لم يشاهد مثلها منذ عهد القانونى ، شهرة واسما كبيرين على سطح الكرة الأرضية .

تأثر الشعب كثيرا لوفاة السلطان مراد - الذى يقال إنه لتأمين النظام فى الدولة أمر بقتل ٢٠٠٠٠ شخص خلال فترة مابين ٧ - ٨ سنين . جرت لمراد الرابع مراسم تشييع الجثمان على الطراز الذى كان يجـرى لخاقانات الأتراك قبل الإسلام بشكل لايكاد ينسجم مع الأعراف الإسلامية . وضعت السروج على العكس على ٣ من خيله التى ركبها فى غزواته ، وسيرت أمام الجثمان . وفى تشييع جثمان السلاطين الذين تلوه تركت هذه العادة القديمة . دفن السلطان مراد فى رواق جامع السلطان أحمد فى القبر المتواضع جنب أبيه أحمد الأول وأخيه الكبير عثمان الثانى . لأن العرف العثمانى على عكس الدول الأخرى ينظر إلى صنع القبور الفخمة على أنها خطيئة . إن مراد الرابع أكبر سلاطين العثمانية خلال ٢٤٢ سنة من وفاة السلطان سليمان القانونى (١٥٦٦) حتى جلوس محمود الثانى (١٨٠٨) وبالنسبة إلى هامر ، أطال حياة الدولة وعظمتها مدة نصف قرن ، ولو لم يأت هو لما بدأ الانحطاط فى ١٦٨٣ ، ولبدأ قبل نصف قرن . « كان رجلا جميلا حسن المنظر . كان أمهر وأقدر محارب فى إمبراطوريته . كان طويل القامة متناسب البدن . تنبع من وجهه آثار العظمة

والمهابة . وكانت له عينان زرقاوتان لماعتان ذواتا تأثير » (Abrégé des Vies des Empereurs Turcs ، أمستردام ، ١٦٦٥ ، ص ١٨٨). « داهية مثقف ، لكنه ظالم جدا (M.d'Ohsson ، ١ ، ٤١٢) .

إن نعيما الذى حرر تاريخ هذه الفترة يخصص ١/٥ مجلد من مصنفه المكون من ٦ مجلدات للسلطان مراد (٢ ، ٢٦٣ - ٤٥١ ؛ ٣ ، ٢ - ٤٣٥) . ويسرد مايلى : من ناحية الصفة والقدرة يشبه السلطان ياووز سليم جده فى البطن السادس . أجرى مثله حملتين فى أسيا . لكنه عند جلوسه لم يجد نظام الدولة الذى وجده ياووز عند جلوسه . كان الجيش يفتقد الضبط ، والنظام مختل ، والمالية فى حالة يرثى لها . جلس على العرش وهو طفل ولم يجلس فى سن الكمال كما جلس ياووز (فى سن ٤٢) . كان فى الوقت الذى يثقف فيه علميا يتعلم كيفية إدارة الدولة . لذلك لم يقدر له أن يكون جهانكير (فاتح عالمى) . لكنه أحرز توفيقا كبيراً فى المجالات العسكرية وإدارة الدولة . كان قائدا عظيما . أبدى صلابة إلى حد الظلم . لكنه لم يكن يبالى بقول الحق ، كان يستفيد من الآراء القيمة . ويمكن إيراد أمثلة كثيرة فى هذا المجال . ولو عاش لكان أهلا لتحقيق نجاحات أعظم ، لأنه كان قد أسس سلطة تمكنه من تحقيق ماينطق به أو مايفكر فيه . كان يميل جدا إلى الهزل ، النكتة ، الطرب ومع الأسف إلى السفاهة ، لم تكن مثل هذه النقائص ، لدى جده ياووز . لم يكن رجال الدولة المحيطون به ذوى قيمة بدرجة رجال الماضى . ولو كان رجال الدولة القدامى على عهده لكان من المحتمل أن يسبق كافة سلاطين العثمانية الذين أتوا قبله . هذه هى خلاصة آراء المؤرخ العثمانى الكلاسيكى الذى عالج هذا الدور بشكل موسع جدا .

فتن الجيش ، دهاؤه ، ذكاؤه المفرط ، بعده تماما عن الشعور بالخوف ، احتماله جميع أنواع المشقات ، ولادته وهو عسكرى . ملأ الخزينة التى وجدها فارغة تمام الفراغ حتى نهايتها وسلمها إلى خلفه على هذا الوضع . إن السهم الذى يسحب قوسه يقع أبعد من مرمى البندقية ، ولاتوجد مادة لايمكن ثقبها بالجريدة التى يرميها (هامر ، ٩ ، ٣٨٥) . كان باستطاعته رفع الكرز (كرة حديدية تزن ٢٠٠ أقة . كان يستعمل كافة الأسلحة بنفس الدرجة من المهارة . تعلم رمى السهام سنين طويلة عن رماة عصره الكبار حسام - زاده عبد الرحمن أفندى وحاجى سليمان أغا

وصارى صولاق أغا (أولياء جلبى ، ١ ، ٢٥٧) . تعلم الفروسية على يد أمير آخور جندى خليل باشا (بجوى ، ٢ ، ٤٤٢) وصار أمهر فرسان جيشه . كان ترسه من جلد الكركدان الذى جلبه ظريف بك سفير شاه جهان من بادشاه الهند على أساس أنه « لاتمضى فيه الرصاصة ولا السيف » ، ثقبه أمام أعين السفير ثقبين الأول بالحربة والثانى بالسهم . حفظ الترس للذكرى بين الحاجيات الأثرية (نعيما ، ٣ ، ٣٣٨) . إن الجريدة التى رماها من السراى القديم (البناء المركزى لجامعة إستانبول) ، أصابت هدفا موضوعا فى أسفل معذنة جامع بيازيد . والرمح الذى رماه من قلعة حلب أصاب الهدف الموضوع فى ميدان سراجخانة فى المدينة ، وفى أوق ميدانى أصاب هدفا على بعد ١٠٧٠/٥ ذراع وحصل على رقم قياسى وشيد نصبا تذكاريا فى محل سقوط السهم (أولياء ، ١ ، ٢٥٧ ؛ كانى ، تلخيص رسائل الرماة) . الـ ١٢ ترسا التى ثقبها بالجريدة علقت للذكرى على باب بج (فينا) لبودابست ، والـ ١٢ درعا التى ثقبها بالسهم علقت على قلعة القاهرة (تاريخ غلمانى ، ١٧) . كان يحب الخيل إلى درجة مرضية . كانت الخيول المسماة « طيار » ، داغلر دليسى ، جلالى باغيزى ، نوكاى الجيسى وخاصة آغا آلاجاسى .. خيولاً ليس لها مثيل على وجه الأرض (بجوى ، ٢ ، ٤٤٢) .

خلف نظاما واستقراراً فى الداخل، دولة تهاب شوكتها كل الدول ، وجيشا جعله أكبر قوة ضاربة فى العالم ، ومالية منتظمة . أصلح أجهزة المخابرات الموجودة فى أوروبا مجددا وجعلها كما كانت عليه فى عهد القانونى . وعند وفاته كانت خزينة البادشاه تحتوى على ١٥ مليون سكة ذهبية ، ونفس القدر من الدراهم الفضية التى تسمى (آقجة) والماس المنقطع النظير (Sagredo ، ٤ ، ٤٢١) . وعلى أيامه خاصة أمر بإجراء غارات مهمة على أوروبا ودرأ الخطر القادم من تلك الجهة . اجتاح جيش الصاعقة شبه جزيرة Stirya بكاملها واجتازوا النمسا ،ودخلوا بافيرا وحرقوا عاصمتها ريجنسبورغ (Ratisbon) . لم تحدث غارة كهذه منذ عهد القانونى . وينبغى ألا ننسى أن ريجنسبورغ تقع على بعد ٣٢٠ كم (مسافة مستقيمة) على الشمال – الغربى من فينا . وبالنسبة إلى Sagredo (١١ ، ١٣٨)، قرأ ماكيافلى واستلهم عنه . باليوز (سفير) البندقية الذى قابله وهو لايتجاوز الـ ١٧ عاما خشى من ذكائه وصلابته ، وأخبر مجلس الأعيان الجمهورى بأنه على وشك تحقيق أعمال

كبيرة (هامر ، ٩ ، ١٠٢ ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٩٩ ؛ أولياء جلبى ، ١ ، ٢٢٢) . كان تأثيره كبيرا فى أوروبا ، رغم أنه لم يجر أية معركة مهمة . الأناضول مليئة بذكرياته . كان قد شيد فى الجنوب الشرقى من الأناضول الخانات (المنازل) ومحطات الاستراحة الكبيرة ، وطرقا وجسورا كبيرة . وأحد روافد الفرات لايزال يحمل اسمه .

٥١) عهد السلطان إبراهيم (١٦٤٠ - ١٦٤٨)

جلس السلطان إبراهيم على عرش أخيه ، وكان الوحيد من بنى عثمان الذين بقوا على قيد الحياة ، ولم يسبق للسلالة أن تكون فى وضع كهذا فى أى وقت . ولو مات السلطان لانقطع النسل من جهة الرجال . مرت الأشهر الأولى للسلطان الجديد وهو فى هذا الوضع المقلق . كان الأمر يقتضى للعرش ورثة جددا .

كان سن إبراهيم خان عند وفاة أبيه السلطان أحمد سنتين . قضى فترة إمارته (شهزاده) طيلة عهد أخويه المخيفين عثمان الثانى ومراد الرابع فى أحد شقق سراى طوب قابو . شاهد إعدام إخوته الكبار الأربعة الآخرين الذين كانوا كالأبطال والذين آخرهم الأمير قاسم المولود معه من نفس الأم بأمر أخويه السالف ذكرهما . وبالسلطان إبراهيم يجلس أول شخص على العرش دون أن يكمل تحصيله العلمى أو العسكرى ، جلس وهو يفتقر إلى كل هذا . وعلاوة على ذلك كان قد أمرضه الخوف المستمر من الجلادين ، ويعتقد أنه مصاب بالشقيقة . وبسبب ذلك كان عصبيا ومضطربا لايقر على شىء . عند جلوسه حاول أن يقلد أخاه الكبير مراد الرابع ويسير على نهجه . ولكن لم تكن له صفات أخيه .. عين للرئاسة قرة مصطفى باشا ، وعندما شاهد هذا ضعف السلطان بعد قوة السلطان مراد ؛ زاد استبداده . كانت كوسم مهبيكر السلطانة - الوالدة هى والدة السلطان إبراهيم كما كانت والدة السلطان مراد الرابع . حافظت على عرش السلطانة - الوالدة (مقام السلطانة - الوالدة يأتى بعد الخاقان ، وفى البروتوكول العثمانى يعتبر المقام الثانى ، إن مكانها هذا ، لم يتبدل فى أى وقت ، ويأتى تسلسل ولى عهد - أمير بموجب البروتوكول ، الثالث بعد السلطانة - الوالدة ، إلا أنه فى حالة عدم وجود السلطانة الوالدة ، أى إذا كانت متوفاة مسبقا يكون الثانى) .

كان السلطان إبراهيم ولى عهد منذ إعدام أخيه الكبير قاسم سنتين (إلا ١٠ أيام) . أراد السلطان مراد قتل إبراهيم أيضا . لكن والدته السلطانة كوسم التى سألته عما إذا كان يريد انقراض سلالته منعته من ذلك بصعوبة . كان السلطان مراد ينتظر أن يكبر أولاده الشهزادات (الأمراء) ويصلون إلى سن معينة ، ليقتل أخاه الذى لايعيره أية أهمية ، ولكن لم يعش أى أمير من أمرائه (أولاده) . وكان السلطان إبراهيم مريضا ، ولكنه لم يكن أحمق . كان يعلم حرص أمه على السياسة . ولذا أخذت علاقته تتأزم مع والدته ، وفى النهاية اضطر إلى تهديدها بإبعادها من سراى طوب قابو ، فى حالة تدخلها فى شئون الدولة وإرسالها إلى قبرص . هذا هو وضع السلطان الذى جلس على العرش عن عمر يتجاوز الـ ٢٤ سنة بـ ٣ أشهر .

وفى ٢ك١٦٤٢/٢ ولد ولى عهد – شهزاده (أمير) محمد وبعده عدة أمراء ، وانتهى بذلك كابوس احتمال انقراض السلالة العثمانية الذى استمر سنتين . إن وحدة وقدرة الإمبراطورية تستند على بنى عثمان . والكل يعلم دون تردد ، بأنه فى حالة عدم وجود بنى عثمان فإنها تنقسم وتتفرق . أبعد السلطان إبراهيم ندماء أخيه الكبير الذين سببوا انحرافه إلى حياة اللهو . لكنه انخرط هو بالتدريج فى نفس تلك الحياة . أفسدت أخلاقه المداواة التى جرت له لكى يحصل على ابن ، وتقديم جاريات عديدات . كانت الكتابات التى صدرت بشأنه عبارة عن مبالغات من تلفيقات المؤرخين الذين لايلتزمون ، وأكثر ماكتبوه بعيد عن الحقيقة . لم يكن لمرضه علاقة بالجنون أبدا . أما عهده الذى استمر ٨ سنوات فقد سمى بـ « صامور دورى » ، وصامور نوع من الفرواى « دور الفرو » وهذا التعبير كناية عن الفخفخة ، واللهو والسفاهة .

عين الوزير سميز محمد باشا قائدا عاما (١٦٤٢/٢/٣) وأرسل لاسترداد آزاك (Rostov) التى انتقلت ليد الروس فى ١٦٣٧/٧/٥ محمد باشا كان كبير السن نوعاً ما . هدم الروس القلعة وانسحبوا . شيد الباشا القلعة مجددا . فى صيف ١٦٤١ جرت غارة جديدة وكبيرة على Bavyera (هامر ، ١٠ ، ١٠) . وفى صيف عام ١٦٤٢ أحرق قبطان دريا (مشير البحر – أكبر رتبة بحرية) كوجوك بيالة باشا ، سواحل كالابريا Kalabriya الإيطالية التابعة لإسبانيا (هامر ، ٣٣/١٠) . وفى ١٦٤٢/٥/١٤ توفى الشاه صافى الأول بعد سلطنة دامت ١٤ سنة و٣ أشهر و ١٨

يوما كثالث حاكم ذى قدرة فى العالم بعد بنى عثمان وبنى تيمور . وجلس بعد الشاه الصفوى الـ ٧ لمدة ٢٥ سنة ابنه البالغ ٩ سنين الشاه عباس الثانى . إن دور التوقف الذى بدأ بالشاه صافى الذى توفى فى سن ٣٤ ، وظهر بشكل واضح فى دور الشاه عباس الذى يكتب الشعر بالتركية والفارسية سبب تحول السياسة العثمانية نحو أوروبا .

أعدم كانكش قره مصطفى باشا بالذى استمرت صدارته فى عهد السلطانين ، مدة ٥ سنوات و شهرا و ٨ أيام ولم تطل صدارة أى شخص منذ وفاة صوقوللو عام ١٥٨٩ كما طالت صدارته (١٦٤٤/١/٣١) . وأعطى السلطان قليل التجربة السلطة لوزراء لاقيمة لهم . وفى البداية صار محمد باشا الذى يسمى « سلطان - زاده ، جوان قابوجى باشى ، سمين » صدرا أعظم ، وهذا ابن بنت بنت سليمان القانونى . كان شديد التملق . وهو أحد الذين رغبوا إليه حياة السفاهة . وبوفاة شيخ الإسلام يحيى أفندى بعد سقوط قره مصطفى باشا بـ ٢٧ يوما (١٦٤٤/٢/٢٧) فقدت الدولة عنصرا آخر من عناصر التوازن الكبيرة . وأخذ يشغل فى بعض الأوقات مقام المشيخة (الوظيفة المهمة الثانية للدولة) أشخاص غير لائقين . كان يحيى أفندى عند وفاته فى سن ٩١ عاما وشهر ، شغل مقام المشيخة ٣ مرات لمدة ١٨ سنة ، وشهرين و ٢٤ يوما (وهو الخامس بين كافة شيوخ الإسلام فى طول مدة بقائه فى الوظيفة) . كان رجل دولة مثقفا سمحا ، مفرط الذكاء . من أكبر شعراء الغزل فى الشعر التركى . مئات الألوف اشتركوا فى تشييع جثمانه . أقيمت صلاته فى مسجد فاتح بزحام كبير ملأ الشوارع .

وفى ١٦٤٥ ، أرسل Aleksiy الأول من عائلة رومانوف ، البالغ سنه ١٥ عاما إلى السلطان هدايا بالغة القيمة ، وأبلغه أنه جلس على العرش بلقب القيصر الثانى . هنأه البادشاه قائلا: بأنه يعترف به على أساس أنه « ملك موسكو Mosku » وأخطره فى الكتاب الهمايونى « أرسلوا الضرائب التى كانت ترسل فى القديم إلى خان قرم كالمعتاد وفى موعدها » وتحرك جيش قرمى ووصل إلى مكان قريب من جنوب روسيا ، لإخطار القيصر الجديد (هامر ، ١٠ ، ١٣٠) .

عزل سمين أحمد باشا ، ذليلاً بعد سنة و ١٠ أشهر و ١٧ يوما (١٦٤٥/١٢/١٧) . وصار الباش دفتردار (وزير المالية) صالح باشا ، صدراً

أعظم . وبعد بقائه فى وظيفته مدة سنة و ٩ أشهر أعدم (١٦٤٧/٩/١٦) . صار صدراً أعظم لمدة ٥ أيام فقط ، الوزير موسى باشا من مارشالية البحر السابقين ثم عين مكانه هزار بارة أحمد باشا الذى صار وزيرا ثانيا قبل ٥ أيام (١٦٤٧/٩/٢١) . وهو شاب ، مُراء ، متملق .

٥٢) حربا البندقية وكريت (١٦٤٥ - ١٦٤٨)

إنه مما يدعو إلى الدهشة أن ترضى دولة عالمية ، لها أسطول دائم فى المحيط الأطلسى الذى يمتد إلى إندونيسيا بأن تكون جزيرة كريت التى تقع فى متناول يدها لدى دولة مثل البندقية ، تبلغ مساحة كريت قدر قبرص ، لكنها جبلية أكثر منها بكثير ، مما يجعلها ملائمة جدا للدفاع ، معظم سكانها يتجمعون فى القسم الشمالى منها . الجزر تعزل بحر (إيجة) عن البحر الأبيض ، ومن الجنوب تسد بحر جزر الأرخبيل . تقترب حافتها الشمالية - الشرقية من الأناضول بمسافة ١٨٠ كم تقريبا . وتبعد عن مورا ٩٥ كم . فتحها المسلمون العرب وأسسوا فيها إمارة عربية دامت ١/٥ قرن ، وفى عام ٩٦١ استرجعها البيزنط من المسلمين . ولاختلاط الدم العربى ، فإن الشعب المحلى يختلف عن بقية اليونانيين . وفى ١٢٠٢ انفصلت عن البيزنط وأصبحت مستعمرة للبندقية . عامل البندقيون وهم كاثوليك إيطاليون الشعب الروم الأرثوذكس « معاملة الكلاب » . وأصبح الرهبان الأرثوذكس فى وضع لايتمكنون معه من القيام بشعائر مذهبهم ، فرضت ضرائب باهظة على الشعب ، كانت تطبق عليهم معاملة استعمارية ظالمة (Hippolyle Noiret, Documents Inédits Pour Servir à l'Histoive de la Domination Venitienne en Créte, Paris 1892, S.V, vl; Perrot, L'Ilede Créte . Paris 1867, S. 151)

ثار الروم فى الجزيرة ٢٠ مرة خلال الـ ١٥٠ سنة الأخيرة . كانت كل ثوراتهم تسفر عن مذابح جماعية . كانت البندقية تُبقى فى الجزيرة فى الأوقات الاعتيادية ٢٠٠٠٠ جندى وأسطولا كافيا وتعزز قواتها هذه عندما تكون فى حالة حرب مع العثمانية . كان آيدن أوغلو عمر بك قد قصف كريت فى حملته البحرية عام ١٣٤١ .

أما أول غارة للأسطول العثمانى فكانت فى ١٤٢٧ . واعتبارا من ١٤٥٣ أخذت البندقية فى تحصين الجزيرة تجاه الخطر العثمانى ، وسعت لأن تجعل من كاندية Kandiye ، خاصة قلعة لايمكن إسقاطها . وكان بربروس خير الدين باشا قد حقق فى السنتين المتعاقبتين ١٥٣٧ و ١٥٣٨ إنزالين كبيرين على الجزيرة وقصف كاندية ، وصعد إلى سواحل Resmo ودخل Suda وخرب خانيا Hanya . وفى ١٥٦٧ نفذ إنزالاً جديداً . كان السلطان مراد عازما على حل هذه المشكلة . وعند نشوب الحرب العثمانية — البندقية الجديدة كانت كريت (بالعربية اقريتش ، باليونانية : كريتى Kriti) قد بقيت تحت الحكم البندقى مدة ٤٤١ عاما .

قرر الديوان فتح كريت على أثر استيلاء قراصنة مالطيين على سفينة تركية فى تموز عام ١٦٤٤ خارج جزيرة كارباتوس Kerpe فى طريق إستانبول – إسكندرية وبيع قسم من الغنيمة – خلافا للمعاهدات المرعية – فى ميناء خانيا فى كريت ، وتحصيل البندقية ضريبة عن هذا البيع ، وإذاعتها هذا الخبر على أوروبا . أذاعت العثمانية بأن الحملة تقصد فتح مالطة . كانت جزيرة كريت هى الأراضى الوحيدة لجمهورية البندقية فى البحار المفتوحة . ورغم تصديق البندقية هذه الرواية إلى حد ما ، أرسلت ٢٣ سفينة مليئة بالجنود والمهمات لتقوية الجزيرة .

كان السلطان إبراهيم يذهب يوميا إلى الترسخانة (ميناء صنع السفن) ويشرف على الاستعدادات . وفى ١٦٤٥/٤/١٩ أعلن بصورة رسمية بأن الحملة ستكون على مالطة ، أعطيت القيادة العليا لمشير البحر (قبطان دريا) الوزير يوسف باشا ، ووزيرين مساعدين له . تحرك يوسف باشا من إستانبول فى ٣٠ نيسان (١٦٤٥) مع ١٠٦ (قدرغة) سفينة و ٣٠٠ ناقة جنود و ٧١٠٠٠ جندى و ٥٠ مدفع حصار و ٣٠٠٠٠ فورس . مكث ٣١ يوما فى نافارين منتظرا أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب . وفى ٢١ حزيران جمع الأميرالات على ظهر سفينة القائد وفتح كيس القذيفة المختوم وقرأ الخط الهمايونى للبادشاه ، عندها علم الأميرالات بأن الحملة التى كانوا يظنون أنها ستكون على مالطة ستتجه إلى كريت .

وخلال ٣ أيام وصلوا إلى كريت من نافارين وشرعوا فورا فى نثر الجنود على البر . استمر حصار خانيا ٥٥ يوما من ٢٧ حزيران إلى ٢٢ آب (١٦٤٥) . كان يحمى المدينة ٣٧٥ مدفعا (هامر ، ١٠ ، ٩٧ ، ١٠٠) . كانت الأسوار على

-رجة من السمك بحيث يمكن لـ ٥ خيالة من المسير عليها جنبا إلى جنب بكل راحة . أما فى المنحدر الواقع خلف الأسوار فبإمكان ٢٠ خيالا المسير جنبا إلى جنب فوقها . عمق الخندق الملىء بالماء الذى يحيط بالقلعة ١٨ مترا وعرضه ٨٦ مترا . ذخائر القلعة محفوظة فى مخزن محاط بالرصاص (هامر ، ١٠ ، ١٠٠) . كان يدافع عن خانيا الجنرال نافاكيرو Navagiero .. ومع كل هذا استسلمت هذه القلعة أركب كافة البندقيين مع نسائهم وأطفالهم وحاجياتهم التى يمكنهم حملها على ظهر ٥ سفن تركية وأرسلوا إلى كاندية مخترقين الجيش التركى . ولأن الروم المحليين ، وبقية اليونانيين أجمعهم من التبعة العثمانية ؛ فقد استقبلوا الأتراك بسرور حقيقى كبير ، انتقلت كافة مدافع البندقيين ليد العثمانية . تم الاستيلاء على أهم قلعة ومدينة فى الجزيرة بعد كاندية . لكن يوسف باشا كرر الخطأ الذى وقع فيه سفنديار أوغلو فى محاصرة مالطة عام ١٥٦٥ ، فبدلا من ذهابه إلى القلعة الأولى للجزيرة أغار على القلعة الثانية . وكانت فكرته أنه فى حالة سقوط هذه القلعة تضعف القوة المعنوية لكاندية مركز الجزيرة ، وقد كان هذا حسابا خاطئا أدى إلى إطالة الحرب إلى ربع قرن .

تلقت أوروبا إنزال كريت بالدهشة . قدمت دول كثيرة مساعدات عسكرية إلى البندقية ، وأخذت المساعدات فى الازدياد كلما مضى الوقت . كان Girolamo Morosini ، ينتظر فى عرض البحر مع الأسطول البندق مراعيا أن يكون بعيدا عن الأسطول الهمايونى ، وكان يستعد للإنزال على الجزيرة ، فى حالة انسحاب الأتراك ، وفى ٢١ ت١ ، غادر الأسطول الهمايونى كريت التى ظل فيها مدة ٤ أشهر إلا ٤ أيام . وأبقى كوجوك حسن باشا بكلربك روملى مع ١٢٠٠٠ جندى للمحافظة على خانيا ، عادت أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس إلى أسسها . لم يتمكن يوسف باشا من الاستيلاء على الأسطول البندق الذى تسانده أساطيل الحلفاء ؛ رغم تتبعه له حتى Cerigo (بالتركية جوها) ، ولو أمكن إفناء أسطول العدو لانتهت الحرب ولاستكمل فتح كريت . جاء يوسف باشا إلى إستانبول بعد شهر ١٦٤٥/١١/٢٠ . إلا أنه أعدم بعد ٦٣ يوما نتيجة المؤامرات التى دبرها رجال الدولة الذين يحسدونه (١٦٤٦/١/٢٢) .

صار الوزير الثانى حسين باشا محافظا لخانيا (١٦٤٦/٢/٢) ومن ثم قائدا أعلى على كريت (١٦٤٦/٨/١٢) وهو أكبر عسكرى فى هذا العصر من الذين كونهم

السلطان مراد الرابع . صار قائدا أعلى ، على أثر وفاة الصدر الأعظم السابق سمين محمد باشا الذى توفى نتيجة عدم تحمله ويلات الحرب فى الجزيرة . وبسبب بدء الفوضى فى إدارة الدولة فى إستانبول .

لم يعد الجيش العثمانى الموجود فى كريت يتسلم من المعونات إلا القليل . أما البندقيون فقد انهالت عليهم المساعدات من كافة أوروبا . وأصبحت كريت ساحة حرب بين شعوب أوروبا والعثمانية . فتحت Resmo المدينة الثالثة للجزيرة (١٦٤٦/١١/١٥) .

وفى السنة التالية بدأ حصار كاندية (١٦٤٧/٧/٧) . جاء المشير البحرى (قبطان دريا) فضلى باشا وحصل على إمدادات (١٦٤٧/٩/٢٨) ، وانتصر المشير البحرى الآخر عمار - زاده محمد باشا على الفينيقيين فى المعركة البحرية أيسارا Ipsara (١٦٤٨/٣/٩) غرقت ستة وعشرون سفينة (قدرغة) ومات الأميرال الكبير Grimavy (هامر ، ١٠ ، ١٤١) لكن كاندية لم تسقط ، كما لم يتمكنوا من إزاحة الأسطول البندق من بحر الأرخبيل ، بل إنه تجرأ على القدوم إلى مدخل مضيق جناق قلعة . أغلقت مرحلة حرب كريت التى جرت فى عهد السلطان إبراهيم . فتحت أواسط وغرب الجزيرة بإراقة دماء عثمانية غزيرة . كان القسم الشرق لايزال بيد البندقيين .

٥٣) خلع السلطان إبراهيم (١٦٤٨/٨/٨)

بدأ أغوات التشكيلات فى التكتل ، وتشكيل عصبة مجددا ونهب الدولة حاول السلطان إبراهيم التخلص من الأغوات ، ولكنهم علموا بمقصده . حدثت ثورة . اضطر إلى عزل الصدر الأعظم هزار - بارة أحمد باشا (١٦٤٨/٨/٧) الذى مزقه العصاة إلى قطع . وصار الوزير الصوفى المولوى غير المناسب قليل العقل الظالم المسمى قوجا محمد باشا الكبير السن والمتآمر مع العصبة .. صدراً أعظم . دامت صدارة أحمد باشا ١٠ أشهر و ١٦ يوما . كانت تقف وراء الثورة السلطانة كوسم ، التى ترغب فى أن تكون نائبة السلطنة . خُلع السلطان إبراهيم ، وسقط حاكم غير قدير إلى حد كبير ، لكن وجوده كان سيمنع - على الأقل - الكثير من

سوء التصرف ، أصبحت الدولة عرضة لكل سوء تصرف وفوضى ؛ لجلوس طفل على العرش . « لم يكن السلطان إبراهيم ظالما كالسلطان مراد الرابع ولاأحمق كالسلطان مصطفى الأول . ولإظهار قدرته الجنسية أنجب أكثر من ١٠٠ ولد كالسلطان مراد الثالث . كتب المؤرخون كثيرا عن سفاهته وفضائحه ، ولم يكن هذا صحيحا تماما ؛ فسفاهته كانت مقصورة على شخصه ، أما الدولة فلم تتأثر كثيرا بذلك ، كما أن الدولة لم تتعرض على أيامه إلى أى تأثير خطر .. لكن وقوعه تحت سيطرة النساء والخليلات وحياة السفه .. أدى إلى وصف معاصريه له بالسوء » (فون هامر ، ١٠ ، ٢) .

كان عمر السلطان إبراهيم الذى قتل بعد ١٠ أيام من خلعه يتجاوز الـ ٣٢ بـ ٩ أشهر و ١٣ يوماً . دفن فى قبره الكائن فى رواق جامع أياصوفيا ، إلى جانب عمه مصطفى الأول . ٣ من أولاده جلسوا على العرش الواحد تلو الآخر ، بمجموع سلطنتهم ٤٦ سنة و ٥ أشهر و ٢٩ يوما : محمد الرابع (١٦٤٢/١/٢ - ١٦٩٣/١/٦) ، سليمان الثالث (١٦٤٢/٤/١٥ - ١٦٩١/٦/٢٢) وأحمد الثانى (١٦٤٣/٢/٢٥ - ١٦٩٥/٢/٦) ابنه الآخر الشهزاده سليم توفى بأجله وعمره ٢٥/٥ سنة . وتوفى له من ناحية أخرى ٨ أبناء و٣ بنات عند بلوغهم سنة وسنتين . بناته البالغات هن : السلطانة أم كلثوم التى تزوجت بوزير واحد (ك١٦٤٢/٢ - ١٦٥٥) ، السلطانة فاطمة التى تزوجت بـ ٣ وزراء مختلفين (أيلول ١٦٤٢ - ١٦٨٢؟) ، السلطانة عاتكة التى تزوجت بوزيرين (١٦٤٦ - ١٦٨٦) ، السلطانة جوهر - خان التى تزوجت بـ ٣ وزراء (١٦٤٢ - ١٦٩٤/١٠/٢٧) ، السلطانة بكخان التى ولدت مع محمد الرابع من نفس الأم وتزوجت بـ ٣ وزراء اثنان منهم شغلوا وظيفة صدر أعظم (١٦٤٥ - ١٧٠١/٣/٤) ، السلطانة قاية التى تزوجت بوزير واحد (١٦٤٢؟) ، السلطانة عائشة التى لم تتزوج أبدا (١٦٤٢ - بعد ١٦٧٥) .

٥٤) سلطنة الأغوات (١٦٤٨/٨/٨ - ١٦٥١/٩/٣)

أجلس على العرش الابن الكبير للسلطان إبراهيم وولى عهده الذى تجاوز عمره الـ ٦ سنوات بـ ٧ أشهر و٨ أيام ؛ السلطان محمد خان الرابع . أصبحت نائبة

السلطنة السلطانة – الجدة كوسم مهبيكر ولم تصبح والدته الشابة السلطانة – الوالدة خديجة تارخان . وتسمى فترة نيابتها للسلطنة التى استمرت ٣ سنوات و ٢٦ يوما – وهى الدورة الأولى لعهد سلطنة محمد الرابع – « سلطنة الأغوات » فقد سيطر أغوات الإنكشارية وجنرالات العصبة junto على زمام الحكم كله متجاوزين بذلك الحكومة ومخالفين أحكام الدولة . كانت غايتهم أن يكونوا أغنياء بجمع المال ، أما غاية السلطانة كوسم فكانت بث سيطرتها وإعطاء الأوامر وإدارة الدولة . كانت تعشق السلطة والسياسة وأسيرة لهما ، ولم تكتف بخلع ابنها من العرش ، بل سلمته بعد ١٠ أيام إلى الجلاد وقتله (١٦٨٤/٨/١٨) لأنه كان متهما بتهديدها بإبعادها عن السياسة ونفيها إلى رودس Rodos فى حالة استمرارها فى التدخل فى شئون الدولة (نعيما ، ٤ ، ٣١٧ ؛ هامر ، ١٠ ، ١٦٥ ، ١٧٧) . دبرت هذا الحادث بمهارة فائقة وسرية تامة ووجهت تشكيلات (أوجاق) الكابوكولو ، العلماء ، الوزراء بدراية منقطعة النظير ، إلى حد أن الشعب أشفق عليها – مخدوعا – لما تعرضت له من مصائب بخلع ابنها وقتله . ولد خنق السلطان ابراهيم عنوة بحبل حريرى ، شعور المحبة الفائقة تجاهه . ظهر المطالبون بدم السلطان إبراهيم ، وتضعضعت مكانة العصبة وخاصة تشكيلات القابو قولو ؛ فقد ولد قتل سلطان ثان بعد مضى ٢٦ عاماً على قتل أخيه الكبير السلطان عثمان الشاب – النفور . ثار السباهيون ودحرتهم الإنكشارية بشكل دموى . تقاتل صنفا الجيش الهمايونى الذى كان قدوة للعالم فى نظامه فى حرب ميدانية وفى ساحة السلطان أحمد وأمام سراى البادشاه وقد مات مئات القتلى .

عزل صوفى محمد باشا الذى يناهز عمره الـ ٨٠ عاما ، بعد ٩ أشهر و ١٥ يوما (١٦٤٩/٥/٢١) وخنق بعد عدة أيام . عُيّن أحد أغوات الإنكشارية ، قره مراد أغا ، رغم أنه برتبة بكلربك (فريق) ولم يحصل على رتبة وزير (مشير) صدراً أعظم خلافا للأصول المتبعة . كان هذا هو أقدر أفراد العصبة ، أشرفهم ، عسكريا جيدا ورجل دولة ذكيا . قدم الاستقالة إلى نائبة السلطنة فور تهديده بالقتل ، عند إصراره على عدم تحقيق رغبات أصدقائه غير المشروعة (١٦٥٠/٨/٥) . استمرت صدارته سنة و شهرين و ١٥ يوما . صار الصدر الأعظم داماد ملك أحمد باشا أحد الوزراء والذى نشأ على يد مراد الرابع وكان صهرا له . لم يتمكن أحمد باشا اللين

بعد مراد باشا الصلب من الوقوف أمام الفوضى . وبعد هذا ثار الشعب الذى نهبته العصبة . استقال ملك باشا بعد صدارة دامت سنة و ١٧ يوما (١٦٥١/٨/٢١) . صار أباضة سياوش باشا وزيراً أعظم . لم ينجح هذا التدبير المسكن فى إطالة سلطة الأغوات والسلطانة كوسم أكثر من ١٣ يوما ؛ لأن ثورة الشعب لم تكن ضد ملك باشا ، بل كانت ضد جنرالات العصبة الذين لم تكن السلطانة كوسم تستطيع سحبهم من مسرح السياسة ، لأنها لاتملك القدرة على ذلك ، ولأن ذلك لم يكن يلائمها ، لأن سلطتها هى كذلك ستنتهى ، فهى شريكة مع العصبة فى جرائم عديدة ؛ ولأنه كانت وراء الثورة السلطانة - الوالدة خديجة تارخان أم البادشاه الطفل . فإن السلطانة كوسم (التى تعلم ذلك) أرادت لكى تكسر شوكة سلطة زوجة ابنها وتعزلها من عرش السلطانة - الوالدة (والدة سلطان) - قتل حفيدها محمد الرابع الذى لم يكمل بعد سن الـ ١٠ سنوات ، وإجلاس ولى عهد - أمير سليمان الذى هو من أم أخرى . كشفت هذه الخطة القذرة . خنق رجال السلطان والسلطانة - الوالدة السلطانة كوسم ، حيث اقتحموا منزلها ليلة ٣/٢ أيلول (١٦٥١) .

كانت السلطانة - الوالدة الكبيرة (الجدة) كوسم مهبيكر أشهر نساء التاريخ العثمانى بأجمعه ، فى الـ ٦٢ من عمرها . دفنت فى مقبرة السلطان أحمد ، إلى جانب زوجها أحمد الأول وابنها مراد الرابع . كان قد مضى ٤٧ عاما بالضبط على زواجها بأحمد الأول عام ١٦٠٤ . كانت السلطانة - الوالدة (والدة سلطان) خلال مدة سلطنة ابنيها مراد الرابع وإبراهيم خان مدة ١٧ سنة و ٦ أشهر و ١٢ يوما و ٨ سنوات و ٥ أشهر و ٢٨ يوما = جمعا ٢٤ سنة و ١٠ شهر و ٢٨ يوما + ونائبة السلطنة خلال فترة سلطنة حفيدها محمد الرابع مدة ٣ سنوات و ٢٦ يوما . ولما كانت نائبة السلطنة كذلك خلال فترة طفولة ابنها مراد الرابع مدة ٨ سنوات ، ٨ أشهر و ٨ أيام ، فيكون مجموع رئاستها الدولة العالمية بصورة رسمية وبصفة نائبة ١١ سنة و ٩ أشهر و ٤ أيام . كانت ذكية إلى درجة استثنائية . ماكرة مراوغة ، أستاذة فى صنع خطط سياسية ومؤامرات متعددة الوجوه ، مؤثرة ومقنعة فى كلامها . كانت تعنى بإرضاء الشعب ، لذا فقد تركت مؤسسات خيرية كثيرة العدد إلى درجة لايستوعبها العقل . انتقلت ثروتها العظمى إلى الخزينة .

كانت المعونات إلى كريت بدرجة غير كافية خلال فترة سوء التصرف فى شئون

إدارة الدولة بسبب الثورة الداخلية فى إستانبول . القتال الدموى مستمر فى الجزيرة .. ولأول مرة منذ سنتين أخذ دلى حسين باشا معونة من قبطان دريا وزير داماد فوينوك أحمد باشا . لكن القبودان دريا (مشير البحر) استشهد عندما كان يقصف قلعة Suda من البحر (١٦٤٩/٧/٢٨) . شدد حسين باشا الضغط على كاندية . قتل الكونت Colloredo والى كريت العام القائد العام أثناء خروجه من القلعة (١٦٤٩/٨/٣٠) . حصل حسين باشا ، على شهرة واسعة فى أوروبا . صنع الرسامون له ولحصانه المسمى قايتاس صورا كبيرة طبعت ثم بيعت . أصيب برصاصتين الأولى ثقبت واخترقت فمه وخرجت ، والأخرى بقيت فى فمه . ربط فمه بالمنديل واستمر فى القتال .

٥٥) سنوات نيابة السلطانة – الوالدة تارخان (١٦٥١/٩/٣ – ١٦٥٦/٩/١٥)

كان سن نائبة السلطنة الجديدة السلطانة – الوالدة خديجة تارخان ٢٤ عاما ، كانت جارية ، عنيت بتربيتها وتثقيفها أخت زوجها السلطانة عاتكة ، إحدى بنات أحمد الأول وقدمتها إلى أخيها إبراهيم . كانت من أصل أوكرانى مثل السلطانة خرم « طويلة القامة ، لطيفة القوام ، زرقاء العينين ، ذهبية الشعر ، بيضاء صافية اللون » (Petit de la Croix ، ١ ، ٥٥٦) وبولادتها مولودها الأول السلطان محمد نجت السلالة من الانقراض . لم يترك الشعب ميدان سلطان أحمد خاليا منذ ليلة فقدان السلطانة كوسم حياتها . كانوا يطالبون برءوس أغوات العصبة . الذين اختفى كل واحد منهم فى مكان . كان يقبض كل يوم على واحد أو اثنين منهم ويعدمان . أعدم ٣٨ منهم وانتقلت ثرواتهم غير المشروعة إلى الخزينة (Ricaut ، ١ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٧٢) وجدوا لدى أحد جنرالات الإنكشارية الذى يسمى قول كاهيه سى ، من الدراهم النقدية فقط خمسة ملايين سكة ذهبية وفضية ، ويبين هذا مبلغ مانهب من الإمبراطورية خلال ٣ سنين .

انتهت سلطة الأغوات ، لكن نظام الدولة خرج عن طوره . كانت النائبة الشابة مهتمة بالبحث عن الصدر الأعظم الذى يمكن أن تعتمد الدولة عليه ، لكنها لم تجد

ضالتها . أعدم سياوش باشا بعد ٩ أشهر . وأخرج درويش محمد باشا (١٦٥٣/٣/٢١) بعد سنة و ٧ أشهر و ٨ أيام بسبب إصابته بالفالج ، وعلى أثر ذلك جاء داماد أبشير باشا (١٦٥٣/١٠/٢٨) الذى أعدم بعد ستة أشهر و١٤ يوما ثم جيء للمرة الثانية بقرة مصطفى باشا (١٦٥٥/٥/١١) وباستقالته بعد ٣ أشهر ، ٩ أيام (مجموع صدارتيه ١ سنة و ٥ أشهر و ٢٤ يوما) جيء بداماد سليمان باشا (١٦٥٥/٨/١٩) وباستقالته بعد ٦ أشهر و ١٠ أيام جاء للصدارة الوزير الثانى القائد الأعلى دلى حسين باشا (١٦٥٦/٢/٢٨) ، وبعد ٦ أيام ، وقبل مجيئه من كريت إلى إستانبول وللضرورة ؛ أعطيت الصدارة إلى مصطفى باشا (١٦٥٦/٣/٥) . وبعد صدارته التى استمرت ٦ ساعات وهى أقصر مدة صدارة فى التاريخ العثمانى ، تصدر سياوش باشا للمرة الثانية وعلى أثر وفاته بعد شهر و ٢٢ يوما (مجموع صدارتية شهران و ٢٩ يوما) ، تصدر جانكلى (من صمصون) بوينو أكرى (مجروح الرقبة) محمد باشا (١٦٥٦/٤/٢٦) ، كل هؤلاء أخذ نصيبه من السلطنة ، ولكن لم يستطع واحد منهم تأمين النظام الذى كانت تنشده نائبة السلطنة . عزل بوينو أكرى محمد باشا البالغ عمره ٨٠ عاما بعد ٤ أشهر و ١٩ يوما لعدم تمكنه من إبعاد الأسطول البندق من باب مضيق جناقلعة .

كانت حرب كريت مستمرة . اشتبك الأسطول الهمايونى الذى يقوده قبودان دريا الصدر الأعظم الأسبق مراد باشا مع الأسطول البندق فى فتحة مضيق جناقلعة . وكانت قطع الأساطيل التى أرسلت من كل من الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب ؛ منضمة إلى الأسطول الهمايونى . دام القتال مدة ٦ ساعات . غلب البندقيون الذين خسروا سفينة الأميرالية الكبيرة وسفينة الأميرالية الثانية ، و ٤ سفن أخرى و ٣٠٠٠ وبضع مئات من الجرحى . تعقب الأسطول العثمانى البندقيين إلى جزر Kikland . أرسلت قطع أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس الموجودة فى كريت إلى أقطارها . حمل الأسطول الهمايونى الذى قدم إلى إستانبول معه ٢٥٠٠ أسير بندق . جرى القتال البحرى فى فتحة جناقلعة بتاريخ ١٦٥٤/٥/١٦ (هامر ، ١٠ ، ٢٤٠ – ١ ، ٣٤٢) . لكن الأسطول البندق تمكن من لم شعثه ، وبعد سنتين فى ١٦٥٦/٦/٢٦ جاء مرة أخرى إلى فتحة مضيق جناقلعة . تمكن البندقيون من إنزال جنود فى جزر بوزجه آدا ، لمنى وسمندبرك واحتلوها عندما تعرض الأسطول الهمايونى بقيادة قبطان

دريا (مشير البحر) داماد كنعان باشا لعاصفة جعلته يتفرق . كانت الخسارة البحرية هذه واستيلاء الجزر من الأسباب التى صاحبت سلطة كوبرولو والتى ولدت هياجا كبيرا .

تمكن نور الدين قرم (ولى العهد الثانى) عادل كيراى من الوصول إلى ضواحى موسكو . سدد القيصر الروسى ١٠٠ ٠٠٠ سكة ذهبية وعقد صلحا مع قرم . زادت بولونيا ضريبتها السنوية إلى قرم إلى ٢٤٠ ٠٠٠ سكة ذهبية (حليم كيراى ، قرم تاريخى ، ص ١٠) .

كانت الوالدة تارخان فى محاولة للبحث عن مخرج للدولة ، مع مستشاريها السريين أمثال سرمعمار قوجا قاسم آغا فوجى بك ، صولا قزاده ، شامى زاده محمد أفندى ، وكان قاسم أغا البالغ عمره ٨٠ عاما يلقن الوالدة ويوصيها بإصرار بالوزير المسن وغير المشهور كوبرولو محمد باشا منذ مدة طويلة . وفى النهاية رضيت نائبة السلطنة بمقابلة كوبرولو باشا بتأثير مستشاريها الذين يفوقون قاسم أغا علما وفنا . قابلته بشكل سرى وخاص . دهشت عندما وضع الوزير الكهل شروطا عديدة لقبوله الصدارة . لم يسبق فى النظام العثمانى أن يسرد الوزير شروطا لقبوله الصدارة . تمكن الوزير الكهل من إقناع نائبة السلطنة بأنه سوف لن يتمكن من أداء الخدمات المنتظرة للدولة إذا ماتصدر دون أن يعطى الصلاحيات المطلقة التى طلبها (١٦٥٦/٩/١٥) . بدأ دور كوبرولو (عائلة كوبرولو) الذى سيستمر مدة ٢٧ عاما حتى ١٦٨٣ . أعلن رشد محمد الرابع عند تجاوز سنه الـ ١٤ بـ ٨ أشهر و ١٦ يوما ، وانتهت فترة نيابة جدته (أم أبيه) وأمه التى استمرت ٨ سنين و شهرا ، ٨ أيام .

كانت نيابة الوالدة تارخان قد استمرت ٥ سنوات و ١٢ يوما . وعندما تركت السلطة كانت فى الـ ٢٩ من عمرها . أما صفتها السلطانة - الوالدة فقد استمرت مدة ٣٤ سنة و ١٠ أشهر و ٢٨ يوما لغاية وفاتها وبلوغها الـ ٥٦ من عمرها فى ١٦٨٣/٧/٥ . وهو أطول مدة لصفة السلطانة - الوالدة فى التاريخ العثمانى . تركت مؤسسات خيرية عظيمة جدا . لكن الخدمة التى أدتها إلى الدولة العثمانية قد سبقت بكثير حتى الآثار الخيرية التى تركتها . لم يكن لديها أى حرص شخصى . كانت تملك الشخصية والذكاء وحب الوطن ، والتضحية والشجاعة التى تؤهلها لحماية

هذه المصلحة بكفاءة . أعطت السلطة إلى كوبرولو . ولم تتدخل بعدها فى السياسة ، ولكنها استمرت فى تلقين دروس التضحية وحب الوطن إلى ابنها بصورة سرية حتى وفاتها . خلصت الدولة من فوضى مدهشة وفتحت دور « الكوبرولو » . أعدت لأبنها سلطنة ذات شوكة ، تشابه تلك التى فى عهد القانونى . على درجة من الذكاء تماثل ذكاء أم زوجها السلطانة كوسم ، لكنها لم تصرف ذكاءها مثلها إلى الشر وإلى الأمور الشخصية ، بل صرفتها إلى الخير وإلى صالح الدولة . شخصت ماهية الأضرار التى تكبدتها الدولة بسبب تدخل أم زوجها فى السياسة . عملت بكل مافى إمكانها لمنع تدخل نساء السراى فى السياسة ، ولم يكن ذلك سهلا أبدا ، بسبب كونها هى امرأة ، وعلى رأس جماعة النساء . وقد وفقت فى هذا إلى الدرجة التى أغلقت نهائيا الدور المسمى فى التاريخ العثمانى « سلطنة النساء » ، والذى كان يظهر بين

الفترة والأخرى خلال الفترة الزمنية المنحصرة بين عهد السلطانة خرم وعام ١٦٥٦ وهو تاريخ انسحابها من النيابة . لم يشاهد فى التاريخ العثمانى بعد ذلك أية امرأة والدة أو زوجة سلطان تتدخل فى شئون الدولة . اهتمت بتربية زوجة ابنها أمة الله كلنوش - التى ستكون السلطانة الوالدة لسلطانين - وربتها على هذه النشأة وزوجتها بابنها . علمتها ولقنتها واجبات الخاصكى (زوجة السلطان) السلطانة - الوالدة فى الدولة العثمانية العالمية بدقة ، وليس من بين هذه الواجبات ماهو ذو علاقة بالسياسة . لم يهتم المؤرخون بذكر هذه الخدمة بالذات للسلطانة تارخان . ومن آثارها التى تتذكرها الأجيال بالخير الجامع الفخم وسوق مصر المسمى « مصر جارشيسى » الذى شيده المعمار مصطفى أغا . دفنت فى أحد زوايا هذا الجامع الذى هو عبارة عن كلية عظمى .

٥٦) صدارة كوبرولو محمد باشا (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٦١/١٠/٣٠)

أعطيت لكوبرولو القيادة العليا (سردار أكرم) . كانت الشخصية التى اقتدى بها كوبرولو ، هى شخصية مراد الرابع . لكنه لم يكن لديه الثقافة العالية التى كانت لدى مراد الرابع . تمكن فقط من تطبيق سياسة الشدة التى اشتهر بها مراد الرابع . اتخذ سياسة الترهيب وإراقة الدم (دون مبرر مرات كثيرة) لتأمين سلطة الدولة .

ومع ذلك فقد كان داهية حقا ، حيث أنقذ الدولة من شفا هاوية ، وأدخلها فى الدور الذى يسمى فى التاريخ بدور « كوبرولولر » الذى يشبهه بعض المؤرخين بدور القانونى . جاء إلى جناقلعة وفتش كلا ضفتى المضيق . كان الأسطول البندق مقتربا جدا من المضيق . هدف شاب من جنود المدفعية على مخزن البارود فى سفينة الأميرالية الكبرى فأصابها بقذيفة مدفعية . انفجرت سفينة الأميرالية الكبرى وتناثرت فى الجو ، ونسف الأميرال الكبير Mocenigo الذى يسميه الأتراك « القبطان الأعور » . أكرم الصدر الأعظم ، المدفعى الشاب من الذهب ملء الحضن . انسحب أسطول العدو من أمام المضيق . اعتبر افتتاح دور سلطة الصدر الأعظم بمثل هذا الحادث فأل خير . تم فى ١ أيلول تخليص جزيرة بوزجة إدا وفى ١٥ ت٢ لمنى من الاستيلاء البندق .

كان أكبر ظلم وجور ارتكبه كوبرولو هو إعدامه الغازى حسين باشا . الوزير الأعظم السابق ، الوزير ٢ ، القائد الأعلى لكريت منذ سنوات عديدة ، البطل الوطنى . دعاه كبير عساكر دوره إلى إستانبول بحجة تكليفه الصدارة (١٦٥٨/١٢/٢٩) . سبب هذا الحادث حزن الشعب العميق . وصار لكوبرولو صيت مفزع . تولى القيادة العليا وأخذ على عاتقه حل مسألة أردل (Transilvanya) (١٦٥٨/٦/٢٣) .

استولى أمير أردل György Rakoczi الثانى (١٦٤٨ - ١٦٦٠) (الولادة ١٦٢٠) ، فى آذار ١٦٥٧ - على Krakovi العاصمة السابقة التى أخذتها بولونيا من وارشو ، وفى أيار أخذ Brest-Litovsk (Brezese) الواقعة شرق وارشو . كان الديوان يرى أن هذه الانتصارات فى صالح الدولة . لكن بعد مقابلة كوبرولو لسفير بولونيا الذى جاء يشكو له من أمير أردل أمر الأمير بإيقافه حركات بولونيا ، وإخلائه الأراضى البولونية ، وقطع علاقته مع السويد . أرسل Györqy الثانى رسله إلى إستانبول مستفسرا عن سبب تكديره ، فى الوقت الذى وسعت فيه العثمانية حدودها . غضب كوبرولو لهذا الاستفسار وأصر على تنفيذ أمره فورا ، أمر محمد كيراى خان قرم بدخول أردل . تمكن محمد كيراى من العثور قرب سواحل Vistül على جيش أردل المجرى المغرور بفوزه المتعاقب على بولونيا ، وأفناه (١٦٥٨/٧/٣١) . إلا أن هذا الحادث بدلا من أن يسبب إطاعة جيورجى الثانى سبب عصيانه السافر للدولة العثمانية .

كان حساب جيورجى الثانى هو سقوط كوبرولو كأسلافه من الصدور خلال مدة قصيرة والاتفاق مع الصدر الأعظم الجديد . ولم يفكر قط فى بقاء كوبرولو . دخل كوبرولو إلى أردل مستصحبا معه أمراء أفلاق وبغدان . وجاء خان قرم كذلك . أعلم ملك بولونيا الصدر الأعظم بأنه صادق وممتن للبادشاه وطلب حماية دولته من الأردليين . أخذ كوبرولو أردل الغربية بكاملها من الإمارة وألحقها بإيالة بودين yanova, Arad, Sebes, Lugos) ظل كامل الإمارة تحت السيطرة العثمانية ، مدة سنين . لجأ جيورجى الثانى إلى ألمانيا ، وفى ١٦٦٠/٥/٢٢ مات (Makkai, Histoire de Tiansilvanie ، ص ٢٤١ - ٥) عين القبطان دريا (مشير البحر) الوزير كوسه على باشا سردار وصهر كوبرولو ، الوزير سيدى أحمد باشا ، مساعدين له وتمكنا من الاستيلاء على قلعة Varat (بالألمانية : Grosswardein بالرومانية : Dradea Mare بالمجرية : Varad) المهمة جدا والتى كانت تحت السيطرة الألمانية ، خلال حصار دام ٤٥ يوما (١٦٦٠/٨/٢٧) . تم اغتنام ٧٠٠ مدفع فى القلعة . وجعلت القلعة مركزا لإيالة جديدة ، ومن أجل مراقبة الأفلاق بشكل أدق طلب كوبرولو أن يسكن الفويفودا فى بخارست ، وليس فى عاصمة الإمارة Tarqoviste ، وهكذا أصبحت بخارست عاصمة لرومانيا (١٦٥٩/١١/١٢) . قلص كوبرولو الذى جعل من يانوفا (بالمجرية : Jeno) إيالة إمارة أردل ودفعها ضمن حدود ضيقة جدا . أخذ البروتستانت الموجودين فى الإمارة تحت حمايته ، كان هؤلاء البروتستانت من أصل كومان - قيبجاق الذين تنصروا سابقا ، أى أنهم من أصل تركى . توترت علاقات الباب العالى مع ألمانيا التى تساند عصيان أردل (نعيما ، ٦ ، ٣٠٢ - ٥٩) ؛ سلاحدار ، ١، ١٩٣ - ٢٢٠ ؛ أولياء ، ٦ ، ١٧ ؛ Iorqa ، ٤ ، ٩٢ - ١٠٢ ؛ Makkai ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ - ٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣) .

وفى هذه المرة أصبح كوبرولو « سردارا أكرم » فى مواجهة الجلاليين (١٦٥٨/١١/١٣) . اتفق العديد من البكلربك والسنجق بك فى الأناضول ، الذين يخشون كوبرولو وقرروا إسقاط الصدر الأعظم . طلب ١٥ بكلربك و ٥٠ سنجق بك من السلطان عزل هذا الصدر الأعظم الظالم ؛ فصلوا فى عريضتهم المظالم التى ارتكبها كوبرولو بالتسلسل واحدة بعد أخرى ، وأفادوا بأن غايته الوحيدة هى التخلص منهم وعدم إبقاء رجال دولة فى الدولة . ورشحوا للصدارة الوزير أحمد

باشا ، ابن طيار محمد باشا الصدر الأعظم لمراد الرابع الذى استشهد أمام أسوار بغداد . أعطى محمد الرابع هذه العريضة التى أرسلها الولاة العسكريون الذين يحكمون تقريبا كامل الأناضول وسورية ، إلى كوبرولو محمد باشا دون أن يبدى أية ملاحظة . تجمع العديد من البكلربك (فريق) والسنجق بك (أمير لواء) فى حلب . أعلن كوبرولو أن كافةالولاة الذين تركوا مراكز عملهم دون أخذ موافقة إستانبول وذهبوا إلى حلب .. عصاة . دعا الوزير مرتضى باشا ٣١ باشا إلى قصره فى حلب (القصر الحكومى) بحجة التفاهم فى مسألة كوبرولو خلال وليمة العشاء ، وقطع رءوسهم جميعا وسط الوليمة .

خشى كوبرولو ، من رد فعل إعدام ٣١ باشا مرة واحدة . أرسل الوزير بوشناق إسماعيل باشا بوظيفة « مفتش الأناضول » . ويروى أن إسماعيل باشا أمر بقتل ١٠٠٠٠ شخص بتهمة الجلالية . ويمكننا أن نقول إن عهد الجلالية قد أغلق بعد هذا التاريخ .

بسبب تدخل روسيا المتزايد فى شئون أوكرانيا ، ولكون القسم الأكبر منها أراضى عثمانية تأزمت علاقة الدولتين . سار محمد كيراى بجيش قرمى - عثمانى . تمكن من العثور على الجيش الروسى فى Konotop فى نقطة عرض ٥٢° التى تتصل فيها حدود أوكرانيا - روسيا البيضاء - روسيا شرق مستنقعات Pripet ، على مسافة ١٥٠ كم غرب جرنيكوف . كان الروس الذين يقودهم الأمير Trubeckoy ، ٣٥٠٠٠٠ جندى ، هزم هذا الجيش الذى لم يدرب أى تدريب عسكرى جدى ، بسهولة ، قتل ١٢٠٠٠٠ روسى وأسر ٥٠٠٠٠ ، وكان القائد بين القتلى . قطع هذا النصر على روسيا طريق أوكرانيا لمدة نصف قرن (نعيما ، ٦ ، ٤٠٦ ومابعده ؛ هامر ، ١١ ، ٦٩ - ٧٣) . وفى ١٦٦١ ، تم فى أوكرانيا إنشاء القلعة المسماة سد الإسلام أو دوغان كجيدى وأريد بذلك منع دخول الروس إلى أوكرانيا والقفقاس الشمالية . أدت هذه القلعة - التى وصفها هامر تمثال عظمة الدور العثمانى وسط جرداء أوكرانيا وصحراء التترستان (١١ ، ٧٩) - واجبها مدة طويلة ، اتضح من الرسائل التى ضبطت أن البطريق العالمى الأرثوذكسى فى إستانبول Parthenios الثالث تراسل مع روسيا ضد تركية . أعدم البطريق ، وأبطل كوبرولو الفرمان الذى يعطى البطريق درجة وزير فى البروتوكول والذى منحه السلطان الفاتح

للبطريق عام ١٤٥٣ ، وأنزله إلى بروتوكول بكلربك . سوف تعاد للبطريق امتيازاته السابقة بعد التنظيمات (E.Pitzipios, L'Eglise Orientole ، روما ١٨٦٦ ، ٣ ، ٨٣) .

وفى ١٦٥٦ جاءت رسل شاه جهان. حمل هدايا شاه جهان ، بادشاه الهند ، ٢٥٠ شخصا . كان شاه جهان ، يطلب بعض التسهيلات للحجاج القادمين من الهند ، والتضييق على إيران من الغرب ، وأحد معمارى القبب العثمانية (قبل فترة وجيزة شيد تاج محل أحد طلاب المعمار سنان) . وفى ١٦٥٨ أرسل محمد الرابع ، معان – زاده حسين بك سفيرا للهند . وخلال نفس العام ، خلع شاه جهان عن العرش بعد سلطنة رفيعة دامت ٣١ عاما وعن عمر يناهز الـ ٦٥ عاما . جاء مكانه ابنه أورنكزيب عالمكير شاه وهو حفيد تيمور فى البطن الـ ١٠ وبابور فى البطن الـ ٥ . وهكذا افتتحت سلطنة عالمكير شاه من مواليد ١٦١٨ التى ستستمر ٤٩ عاما .

نشب فى أواخر أيام كوبرولو ، أكبر الحرائق ، البلية الكبرى لإستانبول ، أكثر بلدان العالم – ذات البيوت الخشبية – زحاما (١٦٦٠/٧/٢٤) . تلف ثلث إستانبول الأصلية الكائنة داخل الأسوار . احترق ٨٠٠٠٠ دار و٣٠٠ سراى وقصر و٣٦٠ مسجدا و١٠٠ خان تجارى و٤٠ حماما عاما وماشابه ذلك من الأبنية الكثيرة العدد . مات أو جرح ٤٠٠٠ شخص ، تلفت أو تضررت آثار تاريخية مهمة . استمر الحريق ٤٩ ساعة .

توفى كوبرولو بعد صدارة دامت ٥ سنوات وشهرا و١٥ يوما (صباح ١٦٦١/١٠/٣٠) . توفى فى أدرنة . نقل إلى إستانبول ودفن قرب مسجده . كان عمره ٨٣ عاما . وبناء على وصيته أعطى محمد الرابع الختم الهمايونى إلى كبير أبنائه كوبرولو – زاده فاضل أحمد باشا .

٥٧) حرب ألمانيا (١٦٦١ – ١٦٦٤)

كان فاضل أحمد باشا أصغر رئيس وزراء فى تاريخ تركية عمره ٢٦ سنة . عنى أبوه الجاهل بتحصيله عناية فائقة ، تخرج من القسم العالى لمدرسة إستانبول ، صار مدرسا ، بكلربك ووزيرا. كان قد سافر إلى الأناضول ، سورية ، روملى . قضى

عام ١٦٦٢ فى الانشغال بشئون الإمبراطورية الداخلية ، وسنة ونصفا فى إستانبول وأدرنه ، فى تفهم شئون الدولة المركزية . ومع مافيه فإنه سيترك بعد الآن مهام مركزه إلى مرزيفونلى قرة مصطفى باشا بصورة دائمة ، ويكرس جهوده إلى الأمور الخارجية والحروب . مضى على عقد معاهدة سيتفاتوروك ٥٦ سنة و ٥ أشهر . حدثت خلال هذه المدة مع ألمانيا خلافات ، مناوشات موضعية ، اشتباكات لكنها لم تنقلب إلى حرب شاملة . أعلنت الحرب على ألمانيا (١٦٦٣/٤/١٢) على أثر إنشاء الألمان خلافا لمعاهدة سيتفاتوروك قلعة Serinwar (بالتركية ينى قلعة) على الحدود ، مقابل قلعة العثمانية وعدم هدمهم لها رغم إخطار الديوان .

تحرك الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) فاضل أحمد باشا من أدرنة (١٢ نيسان) ووصل المجر . الجيش الهمايونى المؤلف من ١٢٠٠٠٠ جندى ، ١٠٠٠٠٠ خيال قرمى و ١٥٠٠٠ مشاة قرمى ، عدا ذلك ، وحدات الصاعقة ، ١٢٣ مدفع صحراء ، وذخائر محملة على ٦٠٠٠٠ جمل و ١٠٠٠٠ بغل ، دخل سلوفاكيا من إستركون مجتازا الدونة (٣ تموز) . ورغم أن الجنرال Forgacs ، حاول وقف الاجتياز لكنه خسر أكثر من ٥٠٠ قتيل وأسير . حوصرت قلعة أويفار فى ١٨ آب (بالألمانية : Neuhausel بالسلوفاكية : Nove Zamky بالمجرية : UJvar) . أويفار التى انتقلت إلى العثمانية مرات عديدة ، حصنها الألمان وجعلوها فائقة الاستحكام لكى تصبح أقوى قلاع أوروبا ، تقع شمال – غرب بودابست ، على الشرق من فينا بـ ١١٠ كم ، ومن براتسلافا بـ ٨٠ كم . كان خان قرم محمد كيراى الرابع ، وفويفودات (أمراء) أردل ، بغدان ، أفلاق ضمن الجيش العثمانى . سلم الجنرال Forgacs القلعة بعد ٣٧ يوما (١٦٦٣/٩/٢٤) . انسحب جند الألمان من بين صفوف الأتراك وهم يعزفون الموسيقى وذهبوا إلى النمسا . قلبت فرق الصاعقة رأسا على عقب كلا من سلوفاكيا ، النمسا ، بوهيميا ، مورافيا ، سيليزيا ، بولونيا وحرقوا براتسلافا ووصلوا أمام فينا . أحدثت هذه الحملة والتى تسمى حملة أويفار السرور العظيم فى الإمبراطورية وأدهشت أوروبا من الناحية الأخرى (راشد ، ١ ، ٤١ – ٨) ، وبعدها استسلمت حوالى ٣٠ قلعة ألمانية : أهمهن Novigrad (٤ ت٢) و Nrutra (بالسلوفاكية : Nitra) فى شمال أويفار (١٨ ت٢) . أسست إيالة أويفار فى جنوب سلوفاكيا التى تشكلها السهول . تم الاستيلاء على

سلوفاكيا حتى جبال تاترا . ازدادت الدهشة عندما دخلت فرق الصاعقة Olmütz (بالجيكية : Olomoue) ، قلب جيكوسلوفاكيا (٢ أيلول) .

قضى كوبرولو - زاده الشتاء فى بلغراد . وتحرك فى الربيع (١٦٦٤/٥/٧) . تعاطف كل حكام أوروبا مع الإمبراطور ، حتى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، أكبر أعداء ألمانيا ، أرسل لأمر الإمبراطور فرقة ممتازة مؤلفة من ٥٠٠٠ شخص . جاء كوبرولو - زاده إلى كانيجة واجتاز الحدود الألمانية وفتح ينى قلعة (Serinwar) (٦ حزيران) ، وهى القلعة التى شيدها الألمان حديثا وسببت نشوب الحرب . تقع القلعة فى الموقع الذى يبتعد فيه نهر مور عن درافا . أصيب القائد العام للإمبراطورية الكونت Von Strozzi ومات . جاء مكانه قائد عام للإمبراطورية ، الماريشال كونت Montecueulli ، وهو من أشهر العسكريين فى القرن ١٧ .

كان الجيش الألمانى فى الغرب على الضفة الأخرى من نهر رعب (Raba) بينما كان كوبرولو - زاده أمام ينى قلعة .

وبعد أن اجتاز ١٠٠٠٠ جندى تركى إلى الطرف الآخر من الماء نسف Montecuculli الجسر بقذائف المدفعية .

جرت حرب الجيش الألمانى غير المتكافىء مع هؤلاء الـ ١٠٠٠٠ جندى أمام أعين الجيش العثمانى الكبير الموجود على الضفة الأخرى (١٦٦٤/٨/١) .

لم يستطع كوبرولو - زاده إلا أن يرسل مساعدات قليلة للطرف الآخر ، كما لم يسمح بإطلاق نيران المدافع والرصاص ؛ لأن الـ ١٠,٠٠٠ عثمانى كانوا مختلطين ومتداخلين مع الألمان إلى الدرجة التى لو فتح فيها النار من الجهة المقابلة لأثرت على الجند العثمانى بنفس الدرجة التى تؤثر فيها على الآخرين . استمر القتال بين ٦٠٠٠٠ ألمانى و ١٠٠٠٠ عثمانى مدة ٧ ساعات . وحاول كوبرولو - زاده خلال هذه المدة نصب جسر والعبور إلى الطرف الآخر ، إلا أن نار مدفعية العدو والمطر الغزير حالا دون ذلك . أفنى الـ ١٠٠٠٠ جندى عثمانى المتشكلين من السباهية والإنكشارية على التساوى وعلى رأسهم إسماعيل باشا بكلربك بوسنة فرقة المقدمة للجيش الألمانى المكونة من ٣ أفواج مشاة وفوج خيالة ، واستولى على قرية

Mukkestrof وحاول الاحتماء باستحكامات مستعجلة ، لكن أمير Baden أسقط القرية وحاصر الأتراك وأفناهم . تقدر خسائر العدو بـ ١٠٠٠٠ (Ricaut ، ٢ ، ٥٩٦ - ٨) . قتل ٦٠ جنرالا وشريفاً من العدو . طلب الإمبراطور الصلح .

تم التوقيع على معاهدة فاشفار (بالمجرية : Vasvar) بعد ٩ أيام (١٦٦٤/٨/١٠) . فاشفار (بالألمانية : Eisenburg ،) هى قصبة تقع بين كانيجة و Szombathly . عقد ممثلو الطرفين مؤتمرا فيها . كانت قصبة عثمانية تبعد عن حدود النمسا ٢٥ كم . وعند التوقيع على المعاهدة المكونة من ١٠ مواد بدأ الجيش الهمايونى بإطلاق المدافع والرصاص وترتيب الأفراح . بموجب هذه المعاهدة تبقى جميع مواد معاهدة سيتفاتوروك معتبرة ، وتدفع ألمانيا غرامات حرب رمزية قدرها ٢٠٠٠٠٠ سكة ذهبية ، وتبقى كافة القلاع مثل أويفار ، نوفيكراد ، ينى قلعة التى فتحها الأتراك لدى العثمانية . وعلى هذا تكون الحرب قد انتهت خلال سنة ، و٣ أشهر و٢٨ يوما . تحرك الصدر الأعظم بعد أن أتخذ التدابير اللازمة على الحدود ، إلى أدرنة (١٦٦٥/٤/١٧) (سلاحدار ، ١ ، ٢٣٥ - ٣٧٤ ؛ راشد ، ١ ، ٢٥ - ٩٠) .

٥٨) إكمال فتح كريت من البندقيين (١٦٦٤ - ١٦٧٠)

أرسل الإمبراطور ، بعد الصلح ، الكونت Leslie إلى محمد الرابع مع هدايا ثمينة . ورد عليه السلطان بإرسال محمد باشا إلى فينا بلقب بكلربك (أمير الأمراء) وسفير فوق العادة . دخل الباشا مع معيته البالغة ٢٩٩ شخصا . تكدس الشعب الذى كان متلهفا على مشاهدة العثمانيين فى الشوارع . أجر لأشراف الأماكن فى محلات المرور بأبهظ الأسعار . كانت فرقة موسيقى الجيش (مهتر طاقمى) تتقدم الوفد تسير بخطا هائلة عازفة إحدى قطعها المهترية التى ترتجف بصداها السماء والأرض (Takats ، Macaristan Türk Âleminden Cizqiler ، ٣١٥) . وفى ١٦٦٥/٦/١٨ استقبل الإمبراطور محمد باشا عند حضوره باحتفال لم يجر قبلا لأى سفير ، وخلافا للعادة كان أولياء جلبى أكبر كتاب العصر فى معية الباشا . نظم حكام أوروربا بعد هذا الحادث فرق موسيقاهم على غرار المهترخانة (مؤسسة

الموسيقى العسكرية) التركية . وافق الباشا على إجراء مقابلات عديدة مع الدوقات والماركيزات والكونتسات ، وكان يجيب بحرية على أسئلتهن عن تركية والمرأة العثمانية . كان يصلي صلاته للأوقات الخمسة في حديقة السراى المخصص لإقامته ، وكان يحدث زحام كبير أمام الحديقة في أوقات الصلاة (هامر ، ١١ ، ١٥٥) .

من ناحية أخرى كانت العلاقات مع فرنسا تسير نحو التأزم . واعتبارا من ١٦٤٨ كانت أقدر دولة مسيحية هي فرنسا وليست إسبانيا . فرنسا وإنكلترا ، كانتا تنموان ، بينما كانت إسبانيا تسير نحو الانحطاط . كسر رئيس الوزراء الكاردينال ريشيليو طموح ألمانيا ، قلل من شأن إسبانيا ، أخضع الإقطاعيين الأشراف في الداخل للملك وخلف دولة فرنسية ذات مكانة . بدأت اللغة الفرنسية وأدبها الرفيع في الانتشار بين الشعوب المسيحية كافة . سبقت الفرنسية اللاتينية والإيطالية بمراحل ، وصارت في أوروبا Lingua Franca التي ستحافظ على وضعها هذا في العالم أجمع حتى ١٩٤٠ ، وسوف تترك في هذا التاريخ مكانها إلى اللغة الإنكليزية . كان الملك لويس ١٤ مسيحيا متعصبا ، ويلقب بـ « الكاثوليكي المركز » . كان يساند بصورة دائمة البندقية التي كانت في حالة حرب مع تركية ، ويرسل إلى كاندية في كريت وحدات ومساعدات كبيرة . حقر سفراء عديدين لهذا السبب ؛ لكنه لم يمتنع عن مساعدة البندقية . وافق كوبرولو – زاده على مقابلة الشاب السفير LaHaye ، وبعد أن هدده وحقره بوصفه « يهودى » وطرده من حضرته ، وعند خروجه صفعه على خده أحد مرافقي الصدارة (١٦٦٥/١٢/٧) (فون هامر ، ١١، ١٥٩ – ٦٠) . حرضت إستانبول أسطول الجزائر ، على ضرب فرنسا . أنزل الأسطول الفرنسي بقيادة دوق Beaufort ٨٠٠٠ جندى مشاة على Cicelli واستولى على هذا الميناء الجزائرى . أدركهم شعبان أغا قائد الإنكشارية في الجزائر وذبح بالسيف ٢٠٠٠ فرنسي ، وركب البقية سفنهم وهربوا إلى فرنسا . جرى هذا الحادث في ١٦٦٤ . وصار له صدى كبير بحيث لم يتمكن الفرنسيون من تحقيق إنزال آخر على الجزائر الا بعد ١٦٦ سنة في عام ١٨٣٠ (Watbled, Expédition du Duc de Beaufort Contre Gigelli, Revue Africaine, 1873; Montchicourt, L'Expédi tion de Djidjelli en 1664, Revue Maritime, 1898) .

أعطيت القيادة العليا لحرب كريت إلى كوبرولو - زاده (١٥/٥/١٦٦٦) . مضت ٢١ سنة على فتح جملة كريت . كانت كاندية وعدة قلاع صغيرة تقاوم حتى الآن . كانت أوروبا تمطرها بالمساعدات . الوحدات الفرنسية ، الإنكليزية ، الإيطالية ، الألمانية ، البابوية جعلت من كريت الشرقية ساحة مناورات . أخذ الأمر شكل مسألة كرامة بالنسبة للمسيحيين تجاه الإسلام . تحرك البادشاه مع كوبرولو - زاده من أدرنة وشيع السردار الأكرم لغاية ميناء Golos فى Tesalya . صعد فاضل أحمد باشا إلى خانيا بـ ١٦٧ قطعة بحرية (٣/١١/١٦٦٦) . قضى فصل الشتاء هناك . اشتغل بتجهيز جيشه مدة ٦ أشهر و ١٣ يوماً . تحرك من خانيا فى ١٦ أيار وشرع فى حصار كاندية صباح يوم ٢٦ أيار ١٦٦٧ .

دام الحصار ٦ أشهر و ٢١ يوما . لم تسقط القلعة . استشهد خلال هذه المدة ٨٠٠٠ جندى . انفجر ٨٠٠٠ لغم . استهلك ٢٠٠٠٠ قنطار من البارود . أمطرت القلعة بمعدل ٤٠٠ قذيفة يوميا . وفى ١٦ ت ١/١٦٦٧ رفع الصدر الأعظم الحصار لكنه لم يترك مواقعه أمام كاندية . قضى فصل الشتاء تحت الأرض فى المدينة ، فى الملجأ الذى حفره أمام كاندية ، كانت والدته عائشة خاتون وأخوه الصغير على بك يرافقانه . لأول مرة فى التاريخ يدخل جيش كبير تحت الأرض ويمضى الشتاء .

وفى ٣٠ حزيران ١٦٦٨ بدأت حرب كاندية مجددا بهجوم العثمانية . تحرك السلطان من أدرنة (١٨/٦/١٦٦٨) وجاء إلى Golos ، حتى إنه فكر فى العبور إلى كريت . قضى الجيش الهمايونى والصدر الأعظم شتاء عام ١٦٦٨ - ٦٩ فى مدينة تحت الأرض أمام كاندية . جاء فى ذلك الشتاء من البندقية إلى أدرنة أحد السفراء فوق العادة . وبناء على طلبه سمح له بالمثول أمام الوزير الثالث من زيفونلى قره مصطفى باشا ، قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) . صرح بأنه مفوض للتفاهم حول أى طلب تطلبه العثمانية لعقد الصلح ، شرط أن تبقى كاندية لدى البندقية . وأفاد بأن المسألة لو كانت فى سلطة مجلس أعيان الجمهورية لترك كاندية منذ زمن بعيد ، فقد أصبحت هذه القضية بلية ، ولاتستأهل فقدان البندقيين هذا القدر من النفوس والأموال ، لكنه يخشى أن يحاسبهم حكام الدول الأوروبية العديدة

وعلى رأسهم البابا ولويس الرابع عشر على ماأرسلوه من مساعدات وجنود ونقود كثيرة إلى كانديه .

كان لويس ١٤ قد أرسل إلى Morosini ، الذى يدافع عن كانديه فرقة بقيادة دوق ومبالغ كبيرة من النقود (Bougeois ، ١ ، ٧١) ، ومن ناحية أخرى كان السفير التركى سليمان أغا المرسل إلى باريس ، يستقبله لويس ١٤ بمراسم فوق العادة . إن الذى عرف القهوة – التى يحب شربها الفرنسيون الآن – للفرنسيين وجعلهم يتذوقونها هو سليمان أغا هذا . وقد انتشرت فى فرنسا مع هذه البعثة عادات وأزياء ملابس الطراز التركى وأصبحت طرازا ونموذجا عاما . إن موليير يستهزىء بهذا الطراز المسمى « Turquerie » فى كتابه Bourgeois Gentilhomme وينقد أشراف الفرنسيين الذين يقلدون الأتراك (هامر ، ١١ ، ١٩٥ ؛ Vandal, Marquis de Nointel ، ٢٢ ، ٣٤) . وقد لحن ملحن القرن ١٧ الفرنسى الكبير Lulli الأغانى على شرف السفير التركى .

وخلال المرحلة الأخيرة لحرب كانديه كان محمد الرابع يتجول فى Tesalya للعبور إلى كريت إذا اقتضت الضرورة . وذات مرة تسلق على ذروة جبل أوليمبوس الذى يعتبر ملتقى آلهة اليونان القدامى . وأثناء تسلقه سقط حصانه الذى كان يركبه إلى الهاوية ومات . ورغم أن البادشاه نجا من قبيل الصدف ، إلا أنه استمر على الصعود مشيا على الأقدام . والمشهور عنه أنه أثناء اقترابه من الذروة قفز بحصانه من حافة هاوية عريضة مما أدهش معيته الذين لم يجسروا على ذلك (هامر ، ٢٠٠/١١) .

بدأ الحصار النهائى لكانديه فى ١ حزيران ١٦٦٩ . وفى ٢٤ حزيران جاء الأسطول الفرنسى ودخل الميناء بغتة ، وأنزل ١٦٠٠٠ جندى فرنسى آخر إلى القلعة . كان هذا الجيش يضم عدة أمراء فرنسيين وأشراف . قتل فى ٢٥ حزيران دوق Vendôme الأمير François (١٦١٦ – ١٦٦٩) حفيد هنرى ٤ وابن أخ لويس ١٤ ، وفى ٢٩ حزيران قتل الدوق Beaufort أحد دوقات الإنكليز . خرج الإنكيز الموجودون فى القلعة وبيدهم العلم الأبيض وأفادوا بأن الدوق هو ابن أخ الملك ، ورجوا تسليم الجثة إليهم لإرسالها إلى إنكلترا ، ووصفوا الامير بإسهاب .

أمر الصدر الأعظم بالبحث عن الجسد ، ولم يعثر عليه بين آلاف القتلى . وفى ٣ تموز ، نقلت ١٥ سفينة فرنسية و ٩ بابوية و ٧ مالطية و ٤ بندقية المعونات إلى كاندية . كان يدافع عن القلعة ١١٠٠ مدفع بندق ، عدا مدافع الأسطول الراسى فى الميناء . لم تكن السفن التركية تستطيع الدخول إلى الميناء ، إذ إن جهة القلعة التى تشرف على البحر كانت تحمى بمدافع جبارة . وفى ٩ آب ، أصيب كونت Waldeek أحد الحكام الألمان ومات .

كان Francesco Morosini يتولى الدفاع عن كاندية منذ ١٣ عاما ويعتبر من أكبر العسكريين فى عصره . جمع جنرالات وإميرالات الأقطار المختلفة فى مجلس عسكرى ، وأفاد بأنهم يملكون القسم السطحى فقط للقلعة وأن الأتراك أسسوا مدينة تحت القلعة وشقوا لها شوارع وأزقة ، وأنهم يفجرون الأنفاق عدة مرات يوميا . أفهمهم بأن ليس بالأمكان الدفاع عن هذه القلعة أكثر من ذلك ، وحتى لو أمكن استمرار الدفاع فإن القلعة لاتعادل حجم الخسائر فى الأرواح والأموال . راجع Moro Sini فى ٢٨ آب (١٦٦٩) فاضل أحمد باشا ، وطلب المفاوضة .

وأثناء استمرار المفاوضات يوم ٣١ آب جمعت الأساطيل الفرنسية والبابوية والمالطية جنودها الأحياء والجرحى وتركت كاندية . وبخ البابا بعد ذلك ، أشد التوبيخ أميراله الذى ترك كاندية قبل انتهاء المفاوضات . ولم يوافق لويس ١٤ حتى نهاية حياته على مقابلة الدوق Noailles لهروبه من كاندية . لقد أفزعت دموية ووحشية الحرب الأوروبيين . والحقيقة هى أن القائد العام البندق موروسينى لم يطلب المفاوضة وضمان الأمان من العثمانية ، إلا بعد تصريح دوق Noailles الذى حدث فى ٢٠ آب والذى ذكر فيه أنه سيسحب جنوده إلى فرنسا وأنه تكبد خسائر فادحة .

وقعت المعاهدة يوم ٥ أيلول وأوقفت الحرب . دام حصار كاندية النهائى هذا ٣ أشهر و ٤ أيام . تنص معاهدة كاندية المحتوية على ١٨ مادة والتى عقدت بعد مؤتمر دام ٨ أيام على مايلى :

تنتقل إلى العثمانية كاندية والـ ١١٠٠ مدفع الموجودة بداخلها وجميع المهمات العسكرية.تعود جزيرة كريت لتركية . تترك ٣ قلاع صغيرة للبندقية ، شرط عدم

استعمالها فى غير المعاملات التجارية (ضمت هذه القلاع بعد مدة إلى العثمانية) . يمكن لأفراد حامية كاندية الذهاب إلى البندقية سالمين حاملين معهم مايستطيعون حمله من المال والسلاح . لايسمح بحمل الأموال بواسطة الدواب . تخلى المدينة وتسلم إلى الجيش العثمانى خلال ١٢ يوما . لايسمح خلال هذه المدة بإجراء أية معاملة سيئة ، مهما كانت ، تجاه المسلمين الأسرى الموجودين داخل القلعة ، وأساسا فإنه سيتم خلال هذه المدة مبادلة أسرى كلا الطرفين ، وفور التوقيع على المعاهدة ، ستعلن المدنة بإطلاق المدافع وسوف لايطلق بعد ذلك أى سلاح .

وهكذا انتهت الحرب العثمانية - البندقية التى دامت ٢٤ سنة و ٤ أشهر و ١٦ يوما والتى كانت دموية حقا بمؤتمر صلح دام ٨ أيام فقط . مضى على الحصار الأول لكاندية الذى أجراه فاضل أحمد باشا سنتين و ٣ أشهر و ٢٠ يوما و وخلال هذه المدة فقط استشهد تقريبا ٣٠٠٠٠ جندى عثمانى ، استهلك ٧٣٠٠٠٠ قنطار من البارود ، فجر ٣٥٠٠ لغم (نفق أرضى) أما البندقيون فخلال نفس المدة خسروا ٢٠٠٨٨ قتيلا ، حققوا ٨٠ خروجا ، صدوا ٦٩ هجوما عثمانى وفجروا ١٣٦٩ لغما . ويروى أن ١٣٠٠٠٠ عثمانى قتلوا فى كريت خلال ربع قرن . وبهذا فقط أمكن إزاحة حكم الإيطاليين من الجزيرة الذى دام ٤/٥ قرن . كان عزم كوبرولو - زاده هو الذى حقق فتح الجزيرة . ولولا وجود شخص يعتمد عليه تمام الاعتماد ، فى العاصمة مثل مرزيفونلى قره مصطفى باشا لما وجد أى صدر أعظم فى نفسه الجرأة الكافية للابتعاد عن المركز هذه المدة الطويلة . إذ إنه لم يخرج من كريت أبدا طيلة ثلاث سنوات ونصف . وقد عمل ذلك ليكون قدوة للجيش .

وفى الساعة ٩ من صباح يوم ٢٧ أيلول (١٦٦٩) قدم البندقيون إلى السردار الأكرم داخل صينية فضية مفاتيح كاندية الـ ٩٣ . بدأت الوحدات التركية فى دخول المدينة . أخذ الروم المحليون يهتفون الهتافات الموالية ؛ لأن آخر قطعة أرض يتكلم ساكنوها اليونانية تنضم إلى الدولة العثمانية . و بعد ذلك ، استقبل كوبرولو - زادة Moroxsini الذى دافع عن القلعة بشرف سنين طويلة . حادثه بكلمات رقيقة جدا وقدم له الهدايا الثمينة . قام باشوات العثمانية بزيارات مجاملة للأشراف الإيطاليين ، الفرنسيين ، الألمان ، الإسبان ، الإنكليز الذين كانوا يدافعون فى الخنادق المقابلة لهم وكان بينهم أيضا Duc de la Feuillade من أكبر أشراف الفرنسيين . زار أغا

الإنكشارية (ينى جرى أغاسى) الجنرال Coigny السويسرى وأثنى على قدرته العسكرية وهنأه على ذلك . كان العدو ممتنا بقدر ماكان الأتراك كذلك عند إنزال الصلبان الموجودة على القلعة ورفع العلم التركى ذى الهلال مكانها . استقبل الكل بسرور انتهاء هذه الحرب الجنونية .

أنيرت الجزيرة بكاملها ٧ ليال وأطلقت القذائف الضوئية تعبيراً عن الفرح طيلة ٧ ليال . قبل كوبرولو – زاده يد والدته المسنة عائشة خاتون ، التى أصرت على عدم الذهاب إلى الحج قبل أن ترى فتح كاندية .عاشت مع ابنها تحت الأرض ، وتحركت الآن متوجهة إلى الحج مرتاحة الضمير . والمعلوم أن كوبرولو محمد باشا ، مدين برخائه لثروة زوجته الكبيرة عائشة خاتون والكوبرولو الأصلى هو يوسف أغا والد عائشة خاتون الذى كان فويفودا (أمير) الجسر (كوبرى) لـ (وزير كوبرى) . كان محمد الرابع فى هذه الأثناء يذهب من ينى شهر إلى آغرى بوز ، كان فى Livadya (شمال – شرق أثينا) . عندما أيقظ مرزيفونلى قره مصطفى باشا قائمقام الصدارة السلطان من نومه ليلا وأعلمه بفتح كاندية ؛ أظهر الخاقان سروره بقوله « الحمد لله » . وبينما كان يريد التوجه إلى كريت قرر العودة إلى سلانيك . أرسل إلى كوبرولو – زاده سيفا مرصعا وخطا همايونيا يبلغه فيه تبريكه .

قضى كوبرولو – زاده شتاء عام ١٦٦٩ – ٧٠ كذلك فى كريت وأشرف على إصلاح القلاع والأسوار والأبنية وإنشائها مجددا وجرى العمل على قدم وساق . غادر الجزيرة بعد فتح كاندية بـ ٧ أشهر و ٨ أيام (١٦٧٠/٥/٥) . قضى فى جزيرة كريت بصورة كاملة مدة ٣ سنوات و ٦ أشهر ، ٣ أيام يشاهد بدهشة عظيمة التغيرات والحفر الكبيرة والتلال الصناعية التى أحدثتها مدافع وألغام الطرفين فى طبغرافية الجزيرة . صار الوزير عنكبوت أحمد باشا قائد كريت السابق بكلربك على كريت . نزل كوبرولو – زاده إلى البر فى تكرداغ وذهب إلى أدرنة لمقابلة البادشاه . وفى ١ تموز ١٦٧٠ استقبله محمد الرابع بتلطف لم يسبق له مثيل إلى ذلك الحين – خارج أدرنة وهو على ظهر جواده . كان البادشاه قد بلغ ٢٨/٥ عاما والصدر الأعظم يكبره بـ ٦ أعوام فقط .

لم يسبق حتى ذلك اليوم وفى أى قطر من أقطار العالم أن يكرّس جهد لقلعة واحدة كما كرس لكاندية ، ولم يسبق أن يصرف على أى موقع مستحكم هذا القدر

من الأنفس والأموال . حوصرت القلعة ٣ مرات خلال ٢٥ عاما . قصف كلا الطرفين الآخر بقذائف يزن بعضها ٥٠٠ ليره . أطلق البندقيون ، للدفاع عن القلعة ما مجموعه ٢٧٦٧٤٣ قذيفة مدفعية و ٤٨١١٩ قبرة ، ١٠٠٩٧٠ قبرة يدوية ، ٤٨٧٤ قبرة كيماوية واستهلك لذلك ١٨٠٤٤٩ قنطارا من الرصاص ، ١٢٥ ١٣٠ فتيلة ، ٥٢٧٠ برميل بارود . أما الأتراك فاستهلكوا ٠٠٠ ٧٣٢ قنطارا من البارود (فون هامر ، ١١ ، ٢٢٧) .

قسمت إيالة كريت إلى سناجق (ألوية) خانيا ، كاندية ريسو وانتقل أحد المراكز البحرية من المراكز الثلاثة التى تركت للبندقية Granbosa فى ١٦٩٢ و SUda و Spinalonga فى ١٧١٥ إلى العثمانية ، وهذه آخر بقايا حكم إيطاليا الكاثوليكية واللاتين الذى استمر عصورا طويلة - وكلها من نتائج الحروب الصليبية التى تم قلعها من أرخبيل الجزر وشرق البحر الأبيض .

٥٩) تشكيلات الإنكشارية فى المغرب (مغرب أوجاقلرى ، بحريات إيالات الجزائر ، تونس ، طرابلس ، ليبيا)

إن خدمات القطع البحرية للجزائر ، تونس ، طرابلس كانت خدمات كبيرة طيلة فترة استمرار حرب كريت وذلك إما بدخولها إلى مياه كريت واشتراكها فى القتال ، أو بقطع طرق المعونات الأوروبية . ومنها قوة جزائر البحرية . كانت أسطولا بالمعنى الصحيح . وفى ربيع عام ١٦٥٠ قصف الأسطول الجزائرى خليج ليون ، Côte d'Azur ، بحر ليكوريا ، كورسيكا وفى أيلول شوهد فى نابولى . وفى عام ١٦٥١ التالى حققوا إنزالا على Civitavecchia ووصلوا قرب روما . وفى ١٦٥٣ قصفوا Balearlar وخرجوا إلى المحيط الأطلسى ودخلوا بحر المانش وأحرقوا Saint Malo مركز قراصنة الفرنسيين مع السفن الراسية فى الميناء ، ثم دخلوا ميناء Plymouth وحرقوا السفن الإنكليزية . وبهذا يكونون قد انتقموا منهم لمساعداتهم التى قدموها لكريت .

وعند تثبيت نهر Tafna حدودا فى ١٦٤٩ انتقلت Vacda - وهى أهم مدن فاس القريبة من الجزائر - إلى إيالة الجزائر . كانت تطوان مركز البحر الأبيض ،

وسالة مركز المحيط الأطلسى لقراصنة فاس . كان أكثرية الربابنة أتراكا من الأناضول ، وأكثرية الملاحين من المهاجرين الأندلسيين . الأميرالان : رئيس القراصنة الأندلسى الأصل المسمى عياشى وخلفه غيلان كانا يتسلمان المعونات سواء من الجزائر أو من إستانبول رأسا ، وكانا يرسلان الهدايا إلى السلطان .

وفى عام ١٦٦١ سار أسطول الجزائر فى البحر الأدرياتيكى واليونانى واقتحم المدن التابعة للبندقية وإيطاليا . وعاد إلى الجزائر بغنائم تقدر بـ مليونين سكة ذهبية . وبعد ضرب إسبانيا و Balearlar ، جرى إنزال على Livorno . وفى ١٦٦٣ اقتحم أحد الأساطيل نابولى ، واقتحم الآخر قادش Cadiz أكبر مركز بحرى لإسبانيا على المحيط الأطلسى . وحصل أسطول الجزائر (الذى اقترب حتى ميناء البندقية فى ١٦٦٤) ، فى السنة التالية فى المحيط الأطلسى بقطعه طريق السفن التى تنقل البضاعة من الهند - على غنائم تقدر بـ ٢ مليون سكة ذهبية . اقتحمت نابولى فى ١٦٦٦ ، وبعدها جرى إنزال على Otranto .

وفى ١٦٦٧ أوقف أحد الأساطيل فى الأطلسى السفن التى تنقل البضاعة من الهند ، وحقق أسطول آخر إنزالا على سواحل نابولى وجزيرة كابرى . وفى ١٦٦٨ تم حرق السفن الراسية فى ميناء Genova ثم قصفت سواحل Pulya . وفى ١٦٦٩ قصفت Côte d'Azur وخلال ذلك تم قصف ميناءى Genova و Monaco . وفى العودة تم تحقيق إنزال على كورسيكا . وتم فى ١٦٧٠ تخريب موانىء خليج Man Fredonia فى الأدرياتيك . وفى ١٦٧١ تم قصف سواحل Kalabria ، Pulya صقلية التابعة لإسبانيا . وتم فى ١٦٧٢ تخريب سواحل نابولى والأدرياتيك . وفى ١٦٧٥ تم قصف سواحل Latium التابعة للبابوية ، ومحيط روما وجنوب إيطاليا العائدة لإسبانيا وصقلية . وقصف ميناء Malaga العائد لإسبانيا وموانىء البرتغال الواقعة على الأطلسى (لخص عن Grammont) .

كان فى الأسطول الجزائرى ، عام ١٦٢٠ ، ٣٠٠ ربان (قبطان) تركى ماهر ، ٨٠ سفينة ومئات من السفن الصغيرة . كان قوام تشكيلات (أوجاق) الإنكشارية فى الجزائر ٢٢٠٠٠ شخص . أما صنف قول أوغوللرى ووحدات الخيالة من العرب البرابرة المحليين فكانوا يشكلون وحدات منفصلة . تغير هذا الوضع فى أواخر العصر ١٧ أخذ عدد الأتراك القادمين من الأناضول وروملى إلى الجزائر يقل جدا . وعدد

جنود البحارة الإنكشاريين (لوند) أخذ يقل هو الآخر بشكل خطر . عدد الإنكشارية هبط من ٥٠٠٠ فى ١٧٦٩ ، إلى ٣٢٠٠ فى ١٨١٧ . اضطر البكلربك (دابى) إلى تقديم رتب جماعة « القول أوغوللرى » وتشكيل الجيش من أفرادهم . إن « القول أوغوللرى » هم أتراك مولودين من النساء المحليات و لم يكن فى استطاعتهم تنفيذ شئون البحارة (لوند) ، لكنهم كانوا عساكر بر قديرين . أخذت عناية إستانبول بالجزائر تقل على مر الزمن لانشغالها فى مشاكلها . لم تكن المساعدات تصل كما كانت فى السابق . هيأت هذه العوامل الجو الملائم لفرنسا للاستيلاء عليها عام ١٨٣٠ .

وفى ١٦٧٩ اقتحمت فى الأطلسى جزر Asor التابعة للبرتغال ، وفى ١٦٨١ اقتحمت سواحل كورسيكا ، صقلية ، نابولى ، لاتيوم وتم الاستيلاء على ١٠ سفن بابوية راسية فى Civitavecchia . وفى ١٦٧٩ أراد سلطان فاس إسماعيل الكبير ، الاستيلاء على الجزائر لكنه هزم وانسحب . وفى ١٦٨٢ تم الاستيلاء على ٢٩ سفينة فرنسية ، و ٣٥٠ سفينة إنكليزية خلال ٤ سنوات . وقبل ٣ أيام من بدء مرزيفونلى قره مصطفى باشا محاصرة فينا صار ميزومورتا حسين رئيس « دابى » فى الجزائر (١٦٨٣/٧/١١) ومنح رتبة الباشوية وبكلربك (فريق) . هذه الشخصية صارت بعد ذلك قبطان دريا (مشير بحرى) وهو آخر أميرال داهية أنجبه الأتراك . وفى ١٦٩٠ استدعى ميزومورتا حسين باشا إلى إستانبول ، وترك شعبان دابى نائبا عنه فى الجزائر . صار فى البداية أميرالا لأسطول السفن الحربية الشراعية (كاليون) ، وبعد مدة صار قبطان دريا . وفى ١٦٩٣ دخل مولاى إسماعيل الكبير إلى الجزائر مع ١٤٠٠٠ مشاة و ٨٠٠٠ خيال ومدفعى ، واسترجع Vacda . أدركه شعبان دابى مع ١١٠٠٠ انكشارى و ٣٠٠٠ سباهى و ١٠٠٠ خيال عربى.رغم تكبد الجيش الفاسى ٥٠٠٠ قتيل ، ظلت Vacda لدى فاس . استاءت إستانبول من إدخال دولة إسلامية كفاس جنودها فى إيالة الجزائر فى الوقت الذى تخوض فيه العثمانية مع أوروبا معركة حياة أو موت . أرسلت إستانبول سفيرا إلى مكناسة . أراد سلطان فاس إرسال مولاى عبد الملك أحد أبنائه إلى الجزائر لحل مشاكل الحدود . إلا أنه لم يحصل اتفاق . غلب وجرح السلطان إسماعيل الذى يقود ٥٠٠٠٠ جندى تجاه مصطفى دابى وقتل أكثر من ٣٠٠٠٠ فاسى فى الحرب الميدانية جدويّة

(١٧٠٠/٤/٢٨) . وانتقل مزراق السلطان ليد الأتراك . ترك مولاى إسماعيل الذى عاشت فاس على عهده آخر أيام عظمتها التدخل فى شئون الجزائر .

وفى السنين ١٦٩٢ و ١٦٩٥ طلب الديوان انسحاب الأسطول الجزائرى إلى بحر الأرخبيل ، كان أسطول الجزائر حتى ١٦٩٩ يشترك فى حروب العثمانية ضد الدول الأوروبية ، وضرب فى كل عام تقريبا إيطاليا وصقلية . إلا أنه فى هذا التاريخ عقد صلح بين العثمانية وأوروبا . وقلت الغنائم التى كانت ترد إلى الجزائر . وبسبب عدم مجىء (لوند) بحارة إنكشارية من الأناضول ، أخذ أسطول الجزائر يتقلص . ازدادت الحاجة إلى البحارة إلى درجة أن أسطولا جزائريا جاء فى عام ١٧٠٠ إلى ميناء فوجا فى أزمير وأخذ ماصادفه من الشباب بالقوة إلى الجزائر وسجلوهم بحارة . احتسبت هذه العملية ضد أسطول الجزائر ، حيث ألغى الديوان الهمايونى ، امتياز تسجيل الجزائر لشباب الأناضول الراغبين اختياريا الانخراط فى سلك البحرية والذى كانت الجزائر قد حصلت عليه منذ منح السلطان ياووز سليم هذا الامتياز إلى أخوة بارباروس ، لكنه أجاز ذهاب شباب الأناضول الراغبين إلى الجزائر وتسجيلهم بحارة (لوند) وقد بقى هذا السماح الأخير حبرا على ورق . إذ إن ذهاب شاب أناضولى فى ذلك العهد إلى الجزائر بإمكاناته الخاصة لم يكن بالأمر السهل (Mühimme ، ١١١ ، ٤٩٣) . وفى مستهل القرن ١٨ كانت بحرية بكلربكية الجزائر العظمى فى قمة عظمتها ، ثم أخذت فى التدهور .

ونفس الحكم سار بالنسبة لبحريتى البكلربكوية الآخرين من بحريات البكلر بكوية الثلاث التى يطلق عليها العثمانيون اسم « مغرب أوجاقلرى » وهى بحرية تونس وطرابلس (ليبيا) .

وفى تونس بقيت الإيالة تحت إدارة أغوات الإنكشارية فعلا والتى تسمى (دايلق دورى) فترة الدايات التى استمرت ٦٥ سنة من ١٦٤٠ إلى ١٧٠٥ .

وفى ١٧٠٥ عاد حكم البكلربك . صار حسين باشا ابن تورك على باشا بكلربك (١٧٠٥/٧/٩) . بدأ بعد هذا التاريخ فى تونس تعيين البكوات من هذه العائلة ، تأسست السلالة التى تسمى الحسينيين ، والتى يطلق عليهم اسم « بكوات تونس » . أما فى طرابلس فقد بدا عهد « الداى » بعد أن خسر عثمان باشا الكفاح ضد

الإنكشارية (١٦٧٢/٤/٢٩) . ولكن كان بعض البكلربكوات يملون رغباتهم على الدايات ويتحكمون فى إدارة الإيالة .

٦٠) حرب بولونيا (١٦٧٠ - ١٦٧٦)

فى هذه الفترة التى أخذ فيها نجم أوروبا الغربية كفرنسا ، إنكلترا ، هولندا ، السويد فى التألق دخلت بولونيا (بالتركية لهستان) فى دور الانحطاط مثل إسبانيا والبندقية . ورغم أنها كانت آنذاك دولة أهم من روسيا إلا أنها استنفدت قوتها السابقة (فى عام ١٧٠٠ تقريبا ، كان تعداد روسيا وبولونيا يساوى أحدهما الآخر وكل منهما ١٢ مليونا) . عين سوبياسكى Sobiesky فى ١٦٥٦ سفيرا فى إستانبول (هو الذى سينتخب ملكا فى ١٦٧٤) . ويروى أن تفشى الطاعون عام ١٦٦٠ ، قضى على ثلث نفوس بولونيا (A.Jobert, Histoire de la Pologna ، ص ٢٩) (وبعدها طاعون عام ١٧١٠ - ٢٠ السارى ، أفنى الملايين من البولونيين ، نفس الكتاب ، ٣١) . ومع ذلك كانت بولونيا - ليتوانيا لاتزال الثالثة من جهة التعداد فى قارة أوروبا بعد تركية ، فرنسا ، ألمانيا ، بينما كان تعداد الدول كروسيا ، إسبانيا ، إنكلترة فى قارة أوروبا أقل من ذلك . ومع أن بولونيا دخلت فى فترات مختلفة تحت النفوذ العثمانى حتى إنها اعترفت بتبعيتها للسلطان ودفعت ضريبتها السنوية إلا أن خلافات تركية معها والتى كانت تتطور بين الحين والآخر إلى درجة القتال لم تحقق النفع للعثمانية ، وفيما لو أخذنا بعين الاعتبار التطورات التى حصلت بعد ذلك وأنها - لكونها كانت تؤمن النفع لروسيا - فإنها كانت مضرة للعثمانية ، إذ لم يكن بالإمكان فى القرن ١٧ رؤية التطورات المقبلة حيث إن بولونيا كانت فى البداية دولة أقوى وأكثر أوروبية من روسيا ، وكان منّ الطبيعى أن ترجح العثمانية الوقوف أمام الأقوى . ثم إن بولونيا كانت كاثوليكية . ولم تكن علاقات العثمانية حسنة مع العالم الكاثوليكى . ولم يتسن فى أى وقت من الأوقات عقد صلح مع دولة البابوية ، أو التوقيع معها على معاهدة . لأنه لم يأت بابا على الإطلاق مستعد لترك فكرة إزاحة العثمانية من القارة الأوروبية . أما روسيا فكانت أرثوذكسية ، ولم يكن ارتباطها بالبابا بل بالبطريق العالمى فى إستانبول . إذ إن باتريك (بطريق) موسكو كان تابعا لبطريق

فنر Fener فى إستانبول . أما البادشاه بصفته إمبراطور البيزنط (بالعثمانية قيصر الروم) فقد كان حاميا للأرثوذكسية والباتريك العالمى وفى نفس الوقت حاكمهم . كان عدم جعل الأرثوذكسية لقمة سائغة للكاثوليكية هو مبدأ سياسة العثمانية الذى لم يتغير لعدة عصور . إن تحركات روسيا كان فى الإمكان وقفها عند حدها بواسطة خان قرم . أما بولونيا فقد استوجبت تحركاتها إدخال الجيش فيها مرات عديدة حيث كان يسهل على بولونيا أكثر من روسيا الاتفاق مع الدول الأوروبية للوقوف ضد العثمانية .

كانت القضية الرئيسية .. أوكراينا . كانت سواحل البحر الأسود لأوكراينا الحالية مسكونة بالأتراك ، وتحت إدارة العثمانية – وكان يسكن بقية البلاد ، الأوكران (الأوكرانيون) وهم أرثوذكس ، والقسم الأكبر من اوكراينا كان تحت إدارة قرم أو تحت نفوذها . أما القسم الشمالى – الغربى من البلاد ، فكان تحت حكم بولونيا الكاثوليكية . وكان احتمال تدخل الروس من الشمال يزداد يوميا . هتمان (أمير) أوكراينا دوروشنكو ، صار تابعا للعثمانية ومنح رتبة صنجق بك بينما كان تابعا لبولونيا . وعندما عارضت بولونيا ذلك ، أرسل الديوان الهمايونى ٦٠٠٠ جندى لمساندة دوروشنكو ضد الإستيلاء البولونى ، سرت روسيا لتورط العثمانية وبولونيا بسبب أوكراينا سرورا كبيرا . لم يفزع بولونيا ادعاء العثمانية حكم أوكراينا بأجمعها ، ومساندة هذا الإدعاء بالسلاح والجيش ، ولم تتخل عن اوكراينا . على أثر ذلك ، قررت الحملة الهمايونية (الحملة التى يقودها البادشاه بنفسه) . وكان قد مضى على الحملة الهمايونية لعثمان الثانى عم محمد الرابع – على بولونيا ، ٥١ عاما .

تحرك محمد الرابع للحملة الهمايونية مع الجيش من أدرنة (١٦٧٢/٦/٤) . كانت القيادة الفعلية للصدر الأعظم كوبرولو – زاده فاضل أحمد باشا . نصب أحد ضباط الاستحكامات المسمى بلغرادلى زعيم يوسف أغا على نهر دجلة جسرا طوله ٥٦٥ مترا وعرضه ٧ أمتار واجتاز عليه الجيش إلى مولدافيا (سلاحدار ، ١ ، ٥٧٥) . كان فويفودا افلاق هتمان دوروشنكو ، خان قرم سليم كيراى ، ضمن الجيش العثمانى . جاءوا إلى قلعة كامانيجو (بالاوكرانية : Kamenec Podolsk ، بالبولونية : Kaminiee) وبعد حصار دام ٩ أيام ، فتحت القلعة (١٦٧٢/٨/٢٧) . تقابل هذه القلعة قلعة خوتين التى استولى عليها الأتراك على

عهد عثمان الثانى ، وتقع خوتين على الساحل الجنوبي من نهر Dnyestr (بالتركية تورلا) ، أما كانيجه فتقع على مسافة ٢٠ كم فى الشمال – الشرق وعلى الضفة الشمالية من النهر ، وتقع مدينة جرنوفيج على مسافة قريبة من جنوب – غربى خوتين .

كان يقدر للقلعة أن تقاوم مدة شهرين ، ولما سقطت خلال ٩ أيام ، ولد ذلك الذعر فى وارسو . كان القائد العام البولونى سوبياسكى ، على رأس قواته ، وكان يراقب حركات الجيش العثمانى من مسافة معينة ، ويحرص على عدم الاقتراب . تقدم الوزير قبلان مصطفى باشا (الذى كان صهرا لكوبرولو محمد باشا،كما كان مرزيفونلى قره مصطفى باشا) ، نحو الشمال – الغربى مع عدة فرق ، وحاذى السواحل الشمالية لنهر Dnyestr حتى وصل مصبه . وخلال شهر أيلول استولى على بولونيا بأسرها وغاليجيا . وفى ٩ أيلول ، فتح Lwow (Lemberg / Leopol بالتركية ايلباف) وهى من أكبر مدن بولونيا (حاليا فى اوكراينا) وصار يذكر باسم « فاتح ايلباف » . استمر نحو الشمال – الغربى واستولى على مدينة Lublin ، والمناطق الواقعة على شرق نهرى سان وفيستول . وصل نقطة عرض ٥٢ وعلى بعد ١٠٠ كم من وارشو . طلبت بولونيا الصلح ، فأوقفت العثمانية الحركات العسكرية .

وقع فى قصبة بوجاس (Buezacz) فى بولونيا على معاهدة ذات ٤ مواد (١٦٧٢/١٠/١٨) :

تبقى بولونيا لدى العثمانية وغاليجيا ، لدى بولونيا ، تقطع بولونيا كافة علاقاتها مع اوكراينا ، وتعترف بالبادشاه متبوعا لها وتدفع ضريبة سنوية قدرها ٢٢٠٠٠٠ سكة ذهبية . تم تأسيس بكلربكوية (إمارة) Ilbav فى بلاد Padolya بين Dnyestr و Bug ، استمرت الحملة الهمايونية ٦ أشهر ، ٥ أيام وعاد محمد الرابع إلى أدرنة (١٦٧٢/١٢/٩) .

تحرك البادشاه والصدر الأعظم اللذان بقيا فى أدرنة ٨ أشهر ، لحملة بولونيا الثانية فى ١٦٧٣/٨/٧ . اعترض ديت بولونيا (مجلس الأشراف) على معاهدة بوجاش . كانت كل من اوكراينا وبادوليا فعلا بيد العثمانية ، لكن عدم الاعتراف بمعاهدة موقعة ، أدى إلى الحرب . وكانت العثمانية ، قد أخلت بموجب معاهدة بوجاش ، غاليجيا والأراضى البولونية التى تقع على شمالها .

كذلك كانت بولونيا قد اعتمدت ، على وعود المانيا والبابا بالمساعدة . استعاد سوبياسكى من العثمانية ، فى فصل الشتاء لوبلين (على بعد ١٥٥ كم من جنوب – شرق وارشو) ، وحتى Lwow . ثم هزم بجيشه البالغ ٨٠٠٠٠ جندى ، جيش صارى حسين باشا البالغ ٣٠٠٠٠ جندى فى حرب ميدانية خلال ٣ ساعات واستعاد خوتين (١٠/١١/١٦٧٣). أدى هذا الانتصار إلى انتخاب سوبياسكى ملكا.

بقى الجيش الهمايونى مع البادشاه والصدر الأعظم ٦١ يوما فى اساكجه على نهر الدونة ، وفى ٢٠ ت٢ ، دخل المشتى فى حاجى اوغالو بازارى . تحرك الجيش الهمايونى ، مع البادشاه والصدر الأعظم ، من حاجى اوغلو بازارى فى ١٦/٦/١٦٧٤ . دخل اوكراينا وبولونيا . طلب سوبياسكى الصلح ، بقى محمد الرابع ٣٢ يوما فى Ladjin (Ladyzyn) على نهر Bug بين بودوليا واوكراينا ، وبعد تثبيت مواد الصلح ، تحرك فى ١٨ أيلول وعاد إلى أدرنة (٢١/١١/١٦٧٤) . دامت حملة بولونيا الثانية سنة وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوما ، ووقعت معاهدة Zorawno (٢٧/١٠/١٦٧٦) على أن تبقى خوتين بادوليا ، Lwow (Ilbav) ، اوكراينا لدى العثمانية ؛ غاليجيا ولوبلين لدى بولونيا . وهكذا انتهت الحرب التركية – البولونية التى استمرت ٤ سنوات ، ٤ أشهر ، ٢٣ يوما . أمّنت هذه المعاهدة بين الدولتين صلحا لمدة ٧ سنوات . والغت المادة التى تنص على تبعية بولونيا للعثمانية فى معاهدة بوجاش .

٦١) وفاة كوبرولو – زاده فاضل أحمد باشا وصدارة مرزيفونلى قره مصطفى باشا (٣/١١/١٦٧٦)

توفى فاضل أحمد باشا عن عمر يناهز ٤١ عاما ، بعد أن بقى فى الصدارة بصورة مستمرة ١٥ سنة ، ٤ أشهر (تسلسله فى طول المدة ، الخامس بين رؤساء وزراء تركية) . قضى القسم المهم من صدارته فى جبهات المانيا ، البندقية (كريت) ، بولونيا . بقيت الإدارة الداخلية خلال هذه المدة بيد وكيله الوزير ٣ مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، بصفة وكيل رئيس الوزراء . ولم تكن صدارة الوزير ٢ ، داماد صاحب مصطفى باشا ، موضوع بحث ؛ بسبب كونه من المنتسبين إلى السراى .

كان فاضل أحمد باشا أحد أكبر رؤساء الوزارة فى تاريخ تركية المعدودين ، لم يخلف ولدا . استمر نسل كوبرولو ، من أخيه فاضل مصطفى باشا . كان فاضل أحمد باشا ذا عينين كبيرتين فاتحتين ، أبيض البشرة ، طويل القامة ، ضعيفا ، ذا لحية صغيرة ، جذابا ، محبوبا ، جادا ، كريما ، وقورا ، مجتهدا . زاد بالمشروب اتلاف جسمه الرقيق ، وكان كلامه منسقا جدا ومؤثرا ينفر من الرشوة إلى حد أنه لايقبل هدية . (يعيد الهدية ولايحقق طلب مرسلها ، إن كان له طلب) . لم يرث عن أبيه ظلمه واستبداده ، بل ورث عنه عزمه ودهاءه . قوى الذاكرة ، واضح التفكير ، سريع البديهة ، حذرا ، حازما عند اللزوم . لايعد بما لا يستطيع تنفيذه . ينفر من المرائين والثرثارين والمتملقين . يتكلم باحترام مع الأشخاص الجادين والعلماء ، ويحاول تحقيق كل طلباتهم ، وعلاوة على ذلك ، كان يحميهم شخصيا . وكان غنيا جدا . خصص معظم ثروته للأعمال الخيرية . كان عالما . بدأ حياته المسلكية كمساعد لشيخ الإسلام قره جلبى - زاده عبد العزيز أفندى . كان عالما فى حقول الفقه ، الكلام ، التاريخ . كان من طلاب درويش على أفندى ، خطاطا جيدا وقوى النثر فى الكتابة . مقتدرا على كتابة أعوص المسائل على شكل تقارير دولة ودون كتابة مسودة . كان الشاعر الكبير نابى ، يقوم بوظيفة سكرتاريته الخاصة . حصل على شهرة عالمية تملى الخشية والاحترام لفتوحاته اويفار ، كانديه ، كامانيه ، حروبه فى جبهات المانيا ، كريت ، بولونيا . جعل الدولة تحيا حياة الرفاهية والنظام والعظمة التى كانت فى عهد القانونى ، مدة ١٥ عاما . وكانت السلطانة - الوالدة تارخان ، تلقن سرا ابنها محمد الرابع مساندة صدره الأعظم فى كل الأمور . لم يكن اعتباره لدى الحكام الأجانب بأقل من البادشاه . حقيقة لقد سحق بولونيا ، مما سبب توسع روسيا وتوليد العداء تجاه العثمانية فى بولونيا ، لكن بولونيا كذلك كانت مخطئة بنفس الدرجة فى عدم رؤيتها المستقبل البعيد .

ولد خلفه مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، من عابده خاتون فى قرية Marinca القريبة جدا من مرزيفون ، فى نفس العام الذى ولد فيه فاضل أحمد باشا من عائشة خاتون فى قصبة وزير كوبرى . أبوه اوروج أغا ، أحد ضباط السباهية الذين استشهدوا تحت أسوار بغداد فى محاصرة مراد الرابع لبغداد عام ١٦٣٩ ، وفى هذا التاريخ كان قره مصطفى فى الرابعة من عمره . كان اوروج ، فى ذلك التاريخ برتبة

مقدم وكتن أقرب أصدقائه خلال ذلك ، هو سنجق بك (أمير اللواء) كوبرولو محمد بك (باشا) . وقد اعتنى كوبرولو بتربية ابن صديقه مع أبنائه فاضل أحمد وفاضل مصطفى ، المتقاربة أعمارهم ، اصطحبه إلى استانبول واعتنى بتحصيله ، واعتبره ابنه المعنوى ، ثم زوجه بعد ذلك بابنته وجعله صهرا له . كان الشعب يعتبر مرزيفونلى ، الابن الآخر لكوبرولو باشا . أدار الدولة العالمية ، مع أخى زوجته ، صديق طفولته وأخيه المعنوى فاضل أحمد باشا بتناسق تام . وخلال سنوات حملات فاضل أحمد باشا الطويلة ؛ أقام فى إستانبول وأدرنه وأدار دفة الإمبراطورية بجدارة وبصلاحيات غير محدوده . صار سنجق بك (أمير لواء) فى سن ٢٤ ، وبكلربك وتسنم وظيفة قبطان دريا (مشير البحر) مدة ٤ سنوات ، شهر ، ١٤ يوما ووكيل رئيس الوزراء مدة طويلة . تنحدر عائلة مرزيفونلى - زاده - مثل عائلة كوبرولو - زاده - من ناحية الأم ، من صالحه خاتون بنت كوبرولو الذين أدركوا زماننا هذا وقدموا للدولة العثمانية العديد من رؤساء الوزراء ، وزراء ، بكلربك ورجال دولة . أهدى منجم باشى شيخ أحمد ده ده ، كتابه المسمى جامع الدول ، أبدع وأروع ماكتب فى التاريخ العثمانى باللغة العربية ؛ إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا .

٦٢) عهد مرزيفونلى قره مصطفى باشا ،وحرب روسيا (١٦٧٦ - ١٦٨٣)

نشبت الحرب مع روسيا بسبب اوكراينا ، عين فى أوائل عام ١٦٧٧ الوزير شيطان ابراهيم باشا سردارا ، وكان برفقته سليم كيراى خان قرم . حضر ٤٠٠٠٠ جندى عثمانى - قرمى أمام قلعة جهرين (Czehryn) فى اوكراينا . أبدى الـ ٦٠٠٠٠ جندى روسى واوكرانى الموجودين فى القلعة ، مقاومة مدهشة . رفع السردار الحصار (١٦٧٧/٨/١٤) ، عزل كل من السردار والخان . وهكذا عزل قره مصطفى باشا ، شخصا قديرا جدا ، آخر عسكرى قرمى كبير مثل سليم كيراى ، وعين مكانه مراد كيراى وهو شخصية ضعيفة وجعله خانا .

غادر محمد الرابع والصدر الأعظم استانبول للحملة الهمايونية الروسية الأولى (١٦٧٨/٤/٣٠) . هذه هى الحملة الأولى لسلطان عثمانى على روسيا . كان يقوم بهذه المهمة فيما مضى - والى ذلك التاريخ - القائد الأعلى وخاصة خان قرم . جاء

الجيش أمام قلعة جهرين على ساحل نهر Tiasmin (بالتركية : تاسما) قرب الساحل الجنوبي لنهر Dnyepr ، ولهذا السبب تسمى هذه الحملة « حملة جهرين » أيضا . كانت قلعة جهرين تقع على مسافة ٤٠ كم في الجنوب - الغربي من مدينة Kremençug ، وجنوب - شرقي كييف بمسافة ٢٣٠ كم . كانت مركزا لقوزاق اوكرانيا ودخلها الروس بموافقة القوزاق . كان تحصين القلعة جيدا لاحاطتها بالمستنقعات والصخور المرتفعة وكانت الأراضي ضيقة إلى درجة لاتسمح لجيش كبير بولوجها ومحاصرتها . كان الجيش الروسي البالغ ٢٠٠٠٠٠ شخصا والذى يقوده الأمير Romo danowsky ، مرابطا على الجهة الأخرى من المستنقعات ، أي أنه كان يتخذ المستنقع حاجزا بينه وبين العثمانية .

سقطت جهرين ، رغم ذلك ، بعد حصار دام ٣٢ يوما (١٦٧٨/٨/٢١) . قتل ٢٠٠٠٠ جندى معاد والقيت أجسادهم في نهر Tiasmin . لم يتقدم محمد الرابع إلى جهرين ، حيث كانت روسيا دولة من الدرجة الثانية ، وبقى في سلستره ، ثم عاد إلى أدرنه ، وعاد مرزيفونلي كذلك إلى أدرنه في ١٦٧٨/١١/٢٠ .

غادر محمد الرابع استانبول للحملة الهمايونية الروسية الثانية (١٦٨٠/١٠/٢٩) . بعد مضى سنتين على الحملة الأولى ، وقضى فصل الشتاء في أدرنة ، لكنه عقد صلحا مع روسيا ولم تتحقق هذه الحملة .

بموجب معاهدة أدرنه (١٦٨١/٢/١١) : التي وقعت عليها العثمانية مع روسيا ، دون وساطة قرم ، ومدتها ٢٠ عاما ؛ تقسم اوكرانيا بين العثمانية وروسيا . تبقى ضفاف Dnyepr الشمالية التي تقع بعد كرمنجوغ لدى روسيا ، وضفافه الجنوبية لدى العثمانية ، تبقى مدينة كييف الارثوذكسية المقدسة التي تقع على ضفافها الغربية لدى روسيا ، وعلى هذا الأساس ، فان شريطا سميكا شمال اوكرانيا ينتقل إلى روسيا . يستمر القسم الأكبر من البلاد تحت الحكم العثماني وقرم . تستمر روسيا في تقديم الضريبة السنوية إلى قرم وتدفع المتراكم خلال سنوات الحرب الثلاث ، دفعة واحدة . بعد عقد الصلح في استانبول استقبل محمد الرابع ، السفير الروسي (١٦٨١/٥/١٦) ، وقدم السفير هدية القيصر وهي ١١٩٤ قطعة فرو زبلن ، ١٠ مورس انثي ، ١٠ طيور صيد (هامر ، ١٢ ، ٥٥) . قال البادشاه للسفير : « قل

لمليكك ، أن يراعى الصلح ، والا تعرض للعقاب » (سلاحدار ، ١ ، ٧٥٣) . تتضح من هذه الافادة ، ماهية روسيا ومنزلتها بالنسبة إلى العثمانية .

كان لنهيبة Côted Azur فى ١٦٦٢ ودحر الأسطول الفرنسى فى البحر الأبيض على يد الأسطول الجزائرى واغتنامه ٢٩ سفينة حربية فى ١٦٨١ ، وقع أليم على فرنسا . لم يتلق سفراء فرنسا الذين قدموا شكاوى عديدة لاستانبول ، اية اجابة ؛ لأن الباب العالى ، لم ينس تأييد فرنسا للسياسة الكاثوليكية للبندقيين والألمان اثناء ماكانت العثمانية فى حرب . يقدر عدد السفن التى كان يستولى عليها شهرياً من فرنسا وتجلب إلى الجزائر خلال العصر ١٧ ، بـ ٢٠ سفينة . كان لويس الرابع عشر ، يشعر بآثار الضرب والصفع على وجهه . لويس الرابع عشر هو الذى ضُرب سفيره بالفلقة وصفع وحبس فى يدى كوله - ولم تكن فرنسا لتجسر على مجابهة الإمبراطورية العثمانية بالحرب ، بسبب مصالحها التجارية الكبرى معها . ولكنها ساندت اعداءها جهرا فى الحروب ضد العثمانية دون أن تدخل الحرب . وهكذا ، فانه فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية فى مستهل خلاف شديد جدا مع المانيا ، كانت علاقتها متوترة جدا مع فرنسا التى هى أقدر دولة مسيحية ، وكانت فى حرب مستمرة مع أسبانيا ، علاقتها مع بولونيا سيئة جدا . البندقية وروسيا ، تمنيان النفس بالخلاص من صفع العثمانية . كان هنالك شيىء واحد يريح النفس ، فى هذا المشهد السياسى ، وهو أمانها فى الشرق من إيران .

كانت وفاة الوزير قبلان مصطفى باشا فى سفينة الإميرالية (١٦٨٠/١٢/٥) فى أزمير ، خسارة كبيرة للدولة . قبلان مصطفى باشا الذى كان صهرا لكوبرولو محمد باشا ، شغل وظيفة قبطان دريا ٧ سنوات ، ١١ شهرا ، ١٠ أيام . وخلال هذه الأيام كذلك ، منح فاضل مصطفى بك ، ابن كوبرولو فاضل محمد باشا المتوسط ؛ رتبة وزير (مشير) (١٦٨٠/٦/٢٩) .

كانت الدولة العثمانية العالمية فى قمة اعتبارها . كان هذا الاعتبار ، على الأغلب ، يقوم على الخوف . كانت العثمانية ، قد افزعت أوروبا بدرجة كبيرة ، وكانت أوروبا تريد الخلاص من هذا الخوف ، وتبحث عن وسيلة لذلك ، ولكنها لاتجدها . أقلق فينا قلقا عظيما استيلاء القائد اوزون ابراهيم باشا على كامل سلوفاكيا من أولها إلى آخرها ، وإسقاطه قلعة Fülek بعد حصار دام ١٧ يوما (١٦٨٢/٩/٢٩) واستيلائه على ٢٨ قلعة فى المنطقة ، ومنح Tökeli Lmre ، القومى المجرى عدو

الألمان ، لقب « ملك المجر الوسطى » . كانت المانيا وراء سياسة استعادة سلوفاكيا وأخذ أردل (ترانسلفانيا) تحت نفوذها ، دون أن تدخل مع العثمانية فى حرب شاملة . وكانت هذه السياسة ، تغضب قره مصطفى باشا ، وأخذت تستحوذ عليه فكرة ضرب المانيا ضربة قوية لكف يدها عن التدخل فى شئون المجر ، وتمكن من إقناع البادشاه والديوان بذلك .

٦٣) الحرب مع المانيا

اتخذ الديوان الهمايونى قرار إعلان الحرب على المانيا (١٦٨٢/٨/٦) تحرك محمد الرابع على رأس الجيش الهمايونى من ادرنه (١٦٨٣/٤/١) ، كان قد مضى على مصالحة فاشفار ١٨ سنة ، ٧ أشهر ، ٢٢ يوما ، والسلطان وابناه الشهزاده (ابن السلطان = امير) مصطفى (الثانى) والشهزاده أحمد (الثالث) ظلوا فى بلغراد . تحرك الصدر الأعظم قره مصطفى باشا مع الجيش من بلغراد (١٦٨٣/٥/٢٤) . إن تحرك السردار الأكرم « للإستيلاء على النمسا بجيش لم تتمكن أية دولة حتى ذلك التاريخ من تأليفه وجمعه » (Fernard Grenad ص ٩٩) ، لم يقلق المانيا وحدها فقط ؛ بل أقام أوروبا وأقعدها .

عند أى حد سيقف هذا العثمانى ؟ هل يريد الوصول إلى الراين ويجاور فرنسا ؟.

كان يحمى مقدمة الجيش الهمايونى بكلربك دياربكر الوزير قره محمد باشا والمؤخرة الوزير حسين باشا بكلربك الشام . وجاء كل من خان قرم ، وملك المجر الوسطى ، وفويفودات أردل وبغدان وافلاق وقبلوا رداء الصدر الأعظم فردا فردا وانضموا إلى الجيش الهمايونى . حضر بانات الخروات والسلوفينيا إلى الجيش واقروا للسلطان بأنهم أحقر التابعين له . كانت ١٥٠ قطعة من السفن غير العريضة فى الدونة تتقدم مؤخرة الجيش .

أبلغ لويس ١٤ ، الامبراطور بأنه يمكنه سحب جميع قواته الموجودة على الراين واستعمالها ضد الأتراك ، وقدم له تأكيدا بعدم حدوث أى ضرر من فرنسا وأنه سيرسل له فرقة أخرى . أخذت الحرب العثمانية – الألمانية ، طابع القتال بين

المسيحيين – الإسلام ، أوروبا – آسيا ، الصليب – الهلال . وبينما كان حزب Whig فى انكلترا ، يؤيد العثمانية ، وحزب Tory يؤيد الألمان ، اتخذ حزب Whig فى ١٦٨٣ قرارا بمساندة حزب Tory والتحرك ضد العثمانية . كانت هولندا ، تنفذ رغبات انكلترا ، وكانت إيطاليا وأسبانيا والبرتغال أيضا إلى جانب ألمانيا ، دعا البابا كافة المسيحيين إلى الجهاد المقدس . كانت بولونيا والبندقية مصممتين على التحامل على العثمانية وتعويض أضرارهما . كان القيصر بترو الكبير ، لايزال مترددا ، فقد كان يخشى قرم وبولونيا والسويد ، كانت السويد ، تقف على الحياد ، وكان الدانمارك عدو السويد إلى جانب المانيا .

فى ٢٧ حزيران (١٦٨٣) جمع الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، مجلس الحرب فى Istolni - Belgrad (بالمجرية : Székesféhervr بالألمانية : Stuhlweissenburg) . وأعلن أنه سيستولى على فينا ويملى على المانيا شروط الصلح هناك ، لأن مجرد الإستيلاء على يانق قلعه (بالمجرية : Raba ، بالألمانية Raab) ، لايمكن أن يخضع المانيا ويجعلها تكف يدها عن شئون المجر . تحير الوزراء . وقال الوزير داماد إبراهيم باشا بأن إرادة البادشاه هى الاستيلاء خلال هذا العام على يانق و Komorn ومناوشة أوروبا الوسطى بواسطة كتائب الصاعقة ، ويحتمل أن تكون الحملة إلى فينا فى العام المقبل . أجاب مصطفى باشا أنه فى الوقت الذى يتجمع فيه جيش كهذا ، فإن الأمر يقتضى إنزال ضربة قاضية ، والا فستطول الحرب ، وأن المانيا عقدت الصلح مع فرنسا وبقيت حرة فى الغرب وأن الملك سوبياسكى ، اتفق مع الإمبراطور لاستعادة بادوليا ، ولابد من أن تكون البندقية كذلك ضمن هذا الاتفاق ، وأن روسيا ، فى محاولة البحث عن السبل التى توقع بها العثمانية ، وأن الدول التى لم تعقد صلحا مع تركية كاسبانيا ، البابوية ، مالطه ، فلورنسا من الطبيعى أن تكون بجانب المانيا ، إن هذا الاتفاق ، إما أن يكسر هذا العام ، أو أن الحرب ستطول كثيرا إلى زمن غير محدد . لم يبلغ السردار الأكرم ، البادشاه بتوجيه حملته نحو فينا ؛ إلا بعد بدء الحصار بـ ٦ أيام فى ١٨ تموز وقال محمد الرابع مخاطبا وكيل رئيس الوزارة الوزير الثالث ابراهيم باشا : « لو كنت أعلم ذلك مقدما لما أذنت » (سلاحدار ، ٢ ، ٣٩) ؛ وعلى هذا فإن رجال العثمانية يكونون قد انقسموا إلى قسمين: فريق يرى

أن تهديد فينا عاصمة المانيا الإمبراطورية سيخيف كافة أوروبا ويحرضها على القيام ، ويؤيد هذا الرأى قره مصطفى باشا ، وفريق يرى أن الاستيلاء على يانق قلعة ، سيخيف المانيا ويحول دون حصول اتفاق كبير ضد العثمانية وهذا هو الذى يراه البادشاه .

٦٤) بدء حصار فينا الثانى (١٦٨٣/٧/١٤)

وصل الجيش الهمايونى أسوار فينا (بالعثمانية بچ) بعد ٣ أشهر ، ١٣ يوماً من حركته من أدرنة (١٦٨٣/٧/١٤) . جاء السردار الأكرم إلى المحل الذى نصب فيه السلطان سليمان القانونى سرادقه الهمايونى قبل ١٥٤ سنة . وخلال ذلك ، كانت وحدات الصاعقة قد استولت بشكل تام على ايالات Burgenland Stirya وايالة النمسا الشرقية النمساوية ، ووادى الدونه حتى Linz ، وكذلك دخلت بعض وحدات الصاعقة إلى سويسرا . بدأ قره مصطفى باشا الحصار بـ ٦٠ ٠٠٠ جندى ووزع جيشه على ساحة واسعة جدا كان قصده ، قطع طريق المساعدات القادمة ، لكن ذلك كان فى الحقيقة خطأ عسكريا .

هُزم دوق لورين (Lothringèn) جارلس (الملك) الذى عين قائدا عاما لجيوش الإمبراطورية أمام قره مصطفى باشا ، وبدأ فى جمع جيوشه فى شمال - غربى فينا وأخذ ينتظر الجيوش التى ستأتى من أوروبا ، وترك الإمبراطور ليوبولد الأول فينا وابتعد والشعب يصيح ويصرخ . نهب الشعب الغاضب ، سراى الإمبراطور وبقى دفاع فينا على عاتق الكونت Ernest rüdger Von Starhem berg المسن . كانت المدينة تعتمد على مدافعها التى تعد بالالآف ، وأسوارها المتينة وخنادقها ، وقوات الإمدادات التى ستصلها . فتح حسين باشا براتسلافا (بالالمانية : Pressburg) واغتنم تاج امبراطور المانيا الموجود فيها (١٦٨٣/٦/١١) . وبعدها تم الاستيلاء على كامل سلوفاكيا إلى حد مورافيا وغاليجيا - راتسلافا هى مركز سلوفاكيا الموجود على حدود النمسا ، على مسافة ٣٠ كم عن شرق فينا - وصل الأتراك كذلك إلى حد بافيرا . كان الامبراطور ليوبولد ، فى لينز ، أما القائد العام كارل فقد كان فى ليوبولد ، على بعد ١٥ كم من فينا ، وأرسل مرزيفونلى محمد باشا ، بكلر بك أدنه

للحملة على كارل ، وقد كان لدى كارل دوق اللورين ، ٤ فرق المانية وفرقتان بولونيتان وبعد التحامه مع الأتراك الذى دام ساعتين ، هزم وطلب إلى جنرال شولتر نسف الجسر الموجود على الدونة وانسحب إلى الضفة الأخرى من النهر . ونفذ قراره القطعي والصائب بعدم دخول أية حركة مالم يتسلم الإمداد . دخل الأتراك مدينة ليوبولد وأحرقوا قصر الإمبراطور الصيفى (هامر ، ٩ ، ٩٨ – ٩) .

كان قره مصطفى باشا ينتظر وهو متأكد من سقوط المدينة ، وفى أواخر أيام الحصار استشهد ٢٠٠٠ سباهى خيال تقريبا ، ٢٠٠٠ خيال قرمى تقريبا ، ٢٥ يايا باشى (نقيب انكشارى) ، ١٦ شوربه جى (مقدم انكشارى) ٣ ، بكلربك (فريق) . وبالنسبة إلى هامر (١٢ ، ٥٠٨ – ١٠) كان الجيش الهمايونى يتكون من ١٦٢٠٠٠ جندى تقريبا ؛ حوالى مائة الف منهم منتشرون على ساحة واسعة ، ومايقارب ستين الفا يشتركون فى الحصار . كان مدافعو فينا ، فى بداية الحصار ١١٥٠٠ جندى ، انخفض عددهم إلى ٥٥٠٠ ، البقية ماتوا ، وقتل من أفراد الشعب ١٦٤٨ شخصا .

كان لدى دوق لورين ٨٥٠٠٠ جندى . أما الملك سوبياسكى فكان فى الطريق مع ٣٥٠٠٠ جندى وعلى وشك الانضمام إلى جيش الألمان الإمبراطورى السيَّار . وكان ٤٠٠٠٠ من هذا الجيش البالغ ١٣٥٠٠٠ جندى ، خياله . اعتبارا من أول أيلول ، بدأت الجيوش فى الانضمام ، وبدأت المساعدات فى الوصول من جميع الأطراف . استحوذت جاذبية فينا على قره مصطفى باشا ، وشلت بصيرته . وبدلا من أن يفرق هذا الجيش ، كان ينتظر سقوط المدينة . والواقع أنه لو تمكن من إفناء جيش العدو أو على أقل تقدير ، لو كسره وشتته ، لسقطت المدينة لحالها . التأمت جيوش الأعداء بشكل كامل فى ٧ أيلول ، وترك دوق لورين القيادة العامة إلى سوبياسكى الذى يفوقه منزلة فى السلطة ، لكن العسكرى الفعلى الكبير ، هو الملك دوق لورين . وبينما استكملت كافة استعدادات المتفقين فى ١١ أيلول ؛ كان الكونت يشعر من فينا بأن سقوط القلعة رهين بأيام أو ساعات . وعلى هذا أقدموا على عمل ، كثيرا ماترددوا فى فعله ، وهو عبور جسر الدونه جبرا ، مع القبول بالخسائر الكبيرة التى ستحدث ، لأن الجسر بيد الأتراك .

لم يكن بالإمكان إيصال الإمدادات إلى فينا دون عبور الجسر . كلف قره مصطفى باشا ، خان قرم مراد كيراى بمهمة حراسة الجسر ، ونسفه عند الضرورة وعدم السماح للعدو بعبوره . كان مراد كيراى . يكره الصدر الأعظم الذى يعامله معاملة قائد صغير . كان يعتقد بأن فشل الصدر الأعظم فى فينا ، يسقطه من السلطة ، ولم يكن يخطر بباله بأن خسارة كهذه ، ستغير مجرى التاريخ العالمى . قرر حفيد جنكيز ، فى البطن ١٨ ، أن يظل متفرجا على عبور المتفقين الجسر بحرية وفكهم الحصار ، وتوضيحا لهذه النقطة ينبغى أن نذكر أنه كان بالجيش العثمانى وزراء وبكوات (بكلربك) عديدين يخشون جدا من أن يكون قره مصطفى باشا فاتحا لفينا ، التى لم يقدر السلطان سليمان القانونى على فتحها . ويذكر المؤرخ الكبير ، ومحافظ مخزن الأسلحة السلطانى مستقبلا فندقلى محمد آغا ، الذى اشترك فى الحصار بالذات ، مسألة عبور المتفقين الجسر كما يلى بالضبط (٢ ، ٨٢) :

« كان حضرة الخان مكلفا بحماية جسرِ اسكندر (Insburg) الحجرى الكائن على نهر الدونه العلوى الذى يبعد عن بچ (فينا) مسافة ٦ ساعات مع جنوده التتر منذ بدء الحصار . وبينما كان قادرا على منع مرور الجيشين النمساوى والبولونى ، لم يصدهما وأخذوا بالمرور فوجا فوجا وأغاروا على عساكر المسلمين. كان منذ يوم واحد يقف ممتطيا جواده على مكان عال مشرف على الجسر وبيده السوط ؛ ضاغطا على قبضته بكفه واضعا يده على خصره يتفرج على مرور الكفار (من الجسر) . وعندما اقترب إليه الإمام الموجود فى معيته قائلا « أيها الخان ألا يمكن ضرب هؤلاء الكفار الذين يمرون فوجا فوجا وقطع مؤخرتهم ؟ » أجاب : ياأفندى ، أنت لاتعلم مبلغ الظلم الذى لاقيناه من هؤلاء العثمانيين . قللوا من شأننا إلى درجة أن قيمتنا لديهم لم تعد بقدر قيمة كفرة افلاق وبغدان ؛ كتبت وأعلمت (السردار الأكرم) مرات عديدة ، عن تجمعات وحركات هذا العدو .. لم يرتد عن عناده ولم يعر كلامى أى اهتمام . وفى أجوبته العديدة المليئة بالعتاب التى أرسلها ، كتب يقول : إننا سوف نأكل لحم الحصان الجائف ، إن شاء الله تعالى ، إن دفع هذا العدو ، كان سهلا بالنسبة لى ، وأعلم أن ذلك خيانة ، لايسمح بها ديننا ، فلير العثمانيون ماذا يعادل قدرهم (كم قرشا يعادل قدرهم) ، وليعلموا منزلة التتر . قال ذلك ولكز حصانه آخذا جنوده التتر ، سائرا أمام الكفار ... متلكئا ، اليوم (١٩ رمضان = ١١ أيلول الجمعة) الوقت يقترب إلى العصر ،

جاء إلى الجيش الهمايونى الكائن أمام فينا متوجها إلى سرادق السردار الأعظم ونزل وسرد واقع حال العدو (عبوره الجسر) » .

وبهذه الفاجعة التي حدثت فى ١١ أيلول ، جرت خيانة من أكبر الخيانات التى شهدها التاريخ التركى . وفى يوم السبت المصادف ٢٠ رمضان ١٠٩٤ من الهجرة و ١٢ أيلول ١٦٨٣ من الميلاد ، قبل العيد بـ ١١ يوما ، تقابل الجيشان أمام عاصمة إمبراطورية روما الغربية ليتجمد سير تاريخ المستقبل .

٦٥) معركة KAHLENBER 6 (بالعثمانية : المان داغى) الميدانية (١٦٨٣/٩/١٢)

كان ضمن جيش المتفقين ، ملك بولونيا ، رئيس وزرائها ، وخمسة أمراء لواء بولونى ، ومن الألمان ٨ دوق ، ٢ Margrav (ماركيز) ، ٧ كونت ، ٤ أمراء ، (أكثر هؤلاء حكام المان) ، ٩ من هؤلاء برتبة مارشال (مشير) وكل واحد منهم على رأس فرقة من الجيش . ومن ناحية أخرى ، كان فى جيش العثمانية ٩ مارشالية و ٨ برتبة فريق (للتعرف على أسمائهم : هامر ، ١٢ ، ١١٤) . يقول المؤرخ الكبير النمساوى البارون فون هامر « كان هذا جيشا جيدا ويوم ١٢ أيلول ١٦٨٢ ، كان يوما جيدا » .

كان المتفقون مزهوين باجتيازهم الدونه دون أن تسكب قطرة دم واحدة ، ولكنهم كانوا مع ذلك حذرين . كان العثمانيون فى حالة سأم ، لعدم تمكنهم من إسقاط فينا ومذهولين لاجتياز العدو الجسر . لم يتبلور الوضع بصورة تامة فى الحرب الميدانية التى بدأت صباحا ، حتى وقت الظهر . لم يقاتل القرميون كما يجب بل كانوا مشغولين بحماية أنفسهم وغنائمهم ، ذلك أنهم كانوا قد حصلوا على غنائم ثمينة جدا ولايشغلهم إلا إيصال هذه الغنائم إلى بلادهم وهم أحياء . كانت علاقة الوزير قوجا إبراهيم باشا ، قائد الجناح الأيمن ، سيئة جدا مع الصدر الأعظم ، وبعد الظهر بقليل ، سحب الجناح الأيمن من ساحة الحرب وانفصل ، فى الوقت الذى لم تكن هنالك أية علامة للهزيمة .. هذه الخيانة سببت الهزيمة . هجم العدو بكل قوته على مركز العثمانية ، وحوالى الساعة ٤ (١٦) ، أدرك المتفقون أنهم على وشك

الانتصار . لم يكن الجيش العثمانى يحارب جيدا ؛ فقد شرب طيلة مدة الحصار آلاف البراميل من الشراب ، وعاشر آلاف النساء ، وحصل على غنائم ثمينة . وفى الساعة ٧ (١٩) مساء ، قطع السردار أمله فى النصر ، ولكى ينقذ الجيش ، أعطى أمر الانسحاب . نجت فينا فى الساعة الـ ٧ مساء (هامر ، ١٢ ، ١١٥) .

وقع فى يد المتفقين ، سرادق السردار الأكرم الذى يقارب حجمه السراى الكبير ، ٥٠٠٠ خيمه ، ٣٠٠ مدفع ، أرشيف الجيش ومهمات كثيرة جدا . استشهد مايقارب ١٠٠٠٠ جندى عثمانى ، وجرح آلاف . وكانت خسائر العدو بنفس الدرجة . لم يعد أمام قره مصطفى باشا مايفعله ، سوى تركه ساحة القتال وقد وفق فى تحديد ساعة الانسحاب بشكل صائب جدا ؛ فقد كانت مقاومته أكثر من ذلك تولد فاجعة ، وانسحابه قبل ذلك ، كان من الممكن أن يسبب كارثة أيضا . فتح فى السور ٦ فتحات ، كل فتحة بعرض مترين ولتوسيع هذه الفتحات ، وضعت الألغام وهى على وشك التفجير ، أدهش هذا المنظر ، قيادات المتفقين . جرح الكونت Von Starhemberg وفقد ثلثى جنده ، قتل ٢ كونت ٣ بارون . أخذ الجيش التركى معه أثناء انسحابه ٨١٠٠٠ أسير ، أمكن إنقاذ البقية (هامر ، ١٢ ، ١١٩) . وفى اليوم التالى كان الملك سوبياسكى ، يكتب إلى ملكته الحبيبة الفرنسية الأصل هذه الرسالة : « إننى عاجز عن تعريف العظمة والثراء والذوق الرفيع الذى شاهدته فى سرادق مصطفى باشا . داخل السرادق ، توجد حمامات ، حدائق ، حنفيات وطيور ... إن أهم غنيمة حصلت عليها من بين حاجيات داخل السرادق ، نطاق ملىء بالماس ، ساعتا جيب مرصعتان بالماس ، يواقيت لآلى ، يواقيت زرقاء ، أثمن أنواع السجاد وألف خارقة لم أستطع كتابتها . ولاننس أثمن أنواع الزبلن (الفرو) على وجه الأرض . لكننى لم أستطع أن أظفر بخزينة الجيش . يظهر أن الأتراك هربوها . إن الحاجيات التى ذكرتها أعلاه ، كلها حاجيات السردار الشخصية » .

٦٦) نهاية حملة فينا

وهكذا غادر الجيش الذى يقوده قره مصطفى باشا فينا ومعه ٨١٠٠٠ أسير والغنائم التى يمكن حملها ، وتركت المهمات الثقيلة للعدو .

وتؤكد وثائق الأرشيف البولونى التى نشرت ، أن خيانة مراد كيراى ، لم تكن بالشىء البسيط ، وإنما كانت خيانة كبيرة جدا ، اقترفت عمدا ، فهو يصرح فى رسالته التى كتبها لسوبياسكى بأنه سينسحب دون قتال . ويظهر أن ذلك أعطى لسوبياسكى الجرأة على عبوره الجسر دون خشية . ومن ناحية أخرى فإن أخطاء قره مصطفى باشا كانت كبيرة كذلك ، فمثلا أثناء احتفال المسيحيين بيوم خلاص فينا التى يقدسونها ، انسحب قره مصطفى باشا المغرور ، البخيل والحريص من النمسا إلى المجر ، ولم يحاول إسقاط فينا بهجوم عام ؛ فقد أدى بخله المفرط إلى الحرص على ألا ينهب جيشه المدينة ، وانتظر استسلامها لحالها » (فون هامر ، (١٢ ، ١٢١ - ٢) . حيث ينص القانون الدولى ، على ألا تنهب المدن التى تستسلم لحالها .

فقدت الدولة التركية ، بهزيمة فينا ، ديناميكية الهجوم والتوسع الذى بدأه السلطان الب ارسلان فى ٢٦ آب ١٠٧١ . ينتظر تركية ، بعد هذا التاريخ التوقف ، الانسحاب ، الانفكاك ، السقوط . وسوف يصل هذا فى ١٩٢١ إلى حد نهر صقارية .

جاء الجيش الهمايونى الذى حاصر فينا ٥٩ يوما أمام يانق قلعة فى ١٤ أيلول وهو نصف طريق فينا - بشته . كان داماد إبراهيم باشا بكلر بك بودين (المجر) ينتظر قدوم الجيش هنا . جاء إبراهيم باشا الذى قيل إن « تركه ساحة القتال لغرض شخصى وإقدامه على الفرار قبل الكل ، كان سببا للهزيمة » (راشد ، ١ ، ٤٢٠) ، فقد قصد الإيقاع بقره مصطفى باشا ، لكى يعود ذليلاً . عزل إبراهيم باشا ، الذى ترك ساحة الشرف دون أن يكون هنالك أى سبب عسكرى ودون أن يحصل على إذن من القائد الأعلى ، وسبب انكسار ثلث الجيش التركى والهزيمة النهائية فى الحرب ، نزل أمام سرادق السردار وقبل رداء السردار » (سلاحدار ، ٢ ، ٨٨) . وبخه مصطفى باشا قائلا « أيها الشيخ الملعون ، فررت ، وبفرارك كنت السبب الكلى فى هزيمة العساكر الإسلامية كافة » وأمر بقتله .

لم يكن إبراهيم باشا جبانا ، أو عسكريا غير قدير ، فحياته العسكرية الطويلة مليئة بالشرف ، ولكنه ارتكب هذه الخيانة التى لايصدقها العقل ، لإسقاط مصطفى باشا لاغير هامر (١٢ ، ١٢٢ - ٣) . وقبل قطع رأسه ، قال للشاويش باشى

(رئيس مرافقى السلطان) هذه الجملة : « قل لبادشاهنا ، لايستطيع أحد أن يتلافى مافات غير مصطفى باشا » . يقصد بذلك ، ألا يعزل البادشاه مصطفى باشا بسبب الهزيمة،وأن الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يزيل آثار الهزيمة هو مصطفى باشا . يظهر أن ضميره أنبه وأدرك إضراره بمستقبل الدولة التى منحته مؤخرا رتبة الوزارة وبنت السلطان .

وفى هذه الأثناء ، كانت كنائس فينا كلها تدق أجراسها ، فتجاوبها كل الكنائس القريبة التى تسمع صوت الأجراس . وهكذا وخلال عدة أيام ، بدأت كافة أجراس العالم المسيحى تدق – إلى أبعد الأماكن فى أوروبا – على شرف خلاصها من الخطر التركى .

سيطر مرزيفونلى ، الذى مكث ٣ أيام فى يانق قلعة على ضبط الجيش بشكل تام . لم يكن هنالك خسائر مهمة . كان الجيش الهمايونى ، يقدم عادة خسائر بنفس هذه الدرجة فى انتصاراته الكبيرة . كانت هنالك فى أيالتى Stirya و Burgenland النمساوية وحدات عثمانية تحت قيادة ٣ بكلربك . وعند سماع هذه الوحدات خبر الهزيمة ، التأمت أولا ، قرب Graz ، ثم انسحبت إلى Kanije (هامر ، ١٢ ، ١٢٤ – ٥) . وفى ٢٢ أيلول ، قدم الجيش إلى بودين . ظل قره مصطفى باشا ، هنا ٢٤ يوما إلى ١٦ ت١ . ولكى يعدم مراد كيراى فى أول فرصة ، عزله وعين مكانه ابن عمه حاجى كيراى ، خانا . عزز قلاع الحدود .

من ناحية أخرى ، تحرك جيش المتفقين من فينا ، على أمل استقطاع بعض الشىء من العثمانية ، قبل فوات موسم القتال ، كان الملك Tökeli قد أخلى Bratislava وانسحب إلى Kosiee (بالعثمانية كاشا) . اجتاز المتفقون نهر Raba نحو الشرق ودخلوا الأراضى العثمانية . كانت هنالك ضاحية جكردلن (بالألمانية : Parkany) فى الساحل الشمالى من الدونة واستركون (حاليا جيكوسلوفاكيا) وكان يربطهما جسر (بقايا هذا الجسر الحجرى العظيم المنهدم تشاهد على نهر الدونه فى الحدود المجرية – الجيكية ، كنموذج يظهر عظمة العثمانيين حتى يومنا هذا . كان بكلربك (فريق) بودين الوزير قره محمد باشا ، حديث السن ، جسورا ، عسكريا مقتدرا . جاء إلى هنا وأخذ ينتظر العدو ، تقابل هنا الملك سوبياسكى بجيشه البالغ ٦٠٠٠٠ مع ٣٠٠٠٠ من جنود محمد باشا . قتل محمد باشا ، الذى خرج من بين الأدغال

بغتة أمام الفرق البولونية فى المعركة الميدانية جكردلن (١٦٨٣/١٠/٧) ١٠٠٠٠ جندى معادى بخسائر طفيفة . تراجع سوبياسكى الذى ظن أن قره مصطفى باشا باغته . وبعد يومين توحد مع دوقين لورين ؛ فأصبح ١٥٠٠٠٠ جندى معاد أمام ٣٠٠٠٠ من جنود محمد باشا ، وانسحب بعد أن خسر ٧٠٠٠ شهيدا و ٣٠٠٠ جريح. وتسمى هذه الهزيمة معركة جكردلن الميدانية الثانية . استشهد بكلربك بوسنه خضر باشا وأسر كل من خليل بآشا بكلربك سيواس ومصطفى باشا سنجق بك سلستره . كان Tökeli Imre مع ٣٠٠٠٠ مجرى وحاجى كيراى مع ٣٠٠٠٠ خيال قرمى على وشك اللحاق . وعندما علموا بهزيمة محمد باشا ، عادوا على أعقابهم . قاومت استكون تجاه المتفقين ٢٢ يوما وسقطت يوم ١ ت٢/١٦٨٣ . كان المتفقون قد نسفوا جسر استركون – جكردلن الكبير على نهر الدونه ومنعوا وصول الإمدادات ؛ ومعنى ذلك أن محمد باشا لم يتمكن إلا من إدخال ٥٠٠ جندى فقط إلى استركون . انتقل فى استركون إلى يد المتفقين ٥٠ مدفعا و ١٠٠٠ كنتال بارود . كانت كل من جكردلن واستركون مركزا هاما لكتائب الصاعقة ، وكلتاهما من فتوحات السلطان سليمان القانونى ، وقد ظلت تحت الحكم العثمانى ١٢٨ سنة (١٥٤٣ – ١٥٩٤   ١٦٠٥ – ١٦٨٣) . فتح ، هذه القلعة التى كانت محل إقامة أسقف المجر والمركز الدينى للبلاد ؛ القانونى تجاه ٥٠٠٠٠ من جنود الأرشيدوق ماثياس Mathias وحكمها حكما عظيما جدا وفى اليوم التالى ، عاد سوبياسكى ، مودعا دوق لورين إلى وارشو .

من ناحية أخرى ، أمر ، قره مصطفى باشا الذى جاء من بودين إلى بلغراد خلال ٣٣ يوما (١٨ ت٢) خان قرم ، أن يقضى الشتاء فى الحدود . وعندما علم مراد الرابع بالهزيمة ، تحرك فى ١٢ ت ١ من بلغراد إلى أدرنة . حاجى كيراى البالغ عمره ٣٥ عاما ، اتخذ مدينة ياش مقرا لمشاته . وهكذا أغلق عام ١٦٨٣ المشئوم.تسلقت العثمانية وآسيا إلى القمة ، ثم سقطت منها . شرح الفرنسى Fernard Grenard الاخصائى الكبير فى تاريخ آسيا ، التوازن العالمى فى تلك الحقبة فى أثره الذى كتبه عام ١٩٣٨ كما يلى :

« نحن الآن فى النصف الثانى من القرن ١٧ ، فى عهد لويس ١٤ . آسيا فى ذورة عظمتها وسطوتها . هذه القارة ، تحت سيطرة ٤ دول كبرى – الثلاث الأول

تركية – الهند ، ايران – والصين . تضم بين جوانحها أقدم حضارات العالم وذكريات التاريخ البشرى التى تستحق أجل الاحترام . أما الشعوب الأوروبية ففى نزاع تتقاسم قطع الإمبراطورية الوحيدة التى ورثوها ، روما الغربية ... تعداد آسيا فى ذلك التاريخ ، ٣ أضعاف تعداد أوروباوهذه النسبة التى انخفضت اليوم (١٩٣٨) إلى نسبة ١/٨ ، تكون بالضبط بنسبة ٣/٤ . كانت تعيش بسعادة فى جو عظمة ورفاهية ، تنبع تربيتها عن عاداتها وأعرافها ، لها تاريخها البعيد الجذور فى الفن والأدب لقد وصلت المدى الذى لايتصور أن تصل إلى أبعد منه . كان ثراء مواردها وخزائنها ، يبهر العقول ويغذى الخيال . أما الغربيون ، فمجتمعون حول بضعة ملايين من الذهب المتداولة فى أوروبا ، يولولون ويصرخون ولولة وصراخا عظيمين ، وبنو تيمور فى الهند مستغرقون فى رفاهية لامثيل لها . كأنهم فوق هاوية لاقعر لها مليئة بالذهب ، والفضة ، والماس . أما تركية فتمتاز فوق ذلك بأنها أقدر قوة عسكرية على وجه الأرض .. إن أباطرة الشرق هؤلاء ، حتى ولو أنهم اعترفوا بحكام أوروبا ، كحكام ؛ إلا أنهم ينظرون إليهم من علو شاهق . يقبلون السفير ، لكنهم يتعالون عن إرسال سفير دائم إلى أوروبا ... » .





المبحث السادس

عصر التوقف (١٦٨٣ - ١٧٦٨)

عصر التوقف
(١٦٨٣ - ١٧٦٨)

(١) سقوط مرزيفونلى قره مصطفى باشا (١٦٨٣/١٢/١٥)

انتهت الدولة العثمانية العالمية . كانت العثمانية لاتزال أيضا الدولة الأولى فى العالم ، لكن العصور التى كان فيها نفوذها يعبر القارات ويوجه سياسة وتاريخ العالم ، أصبحت فى ذمة الماضى . كانت قد بليت وانقرضت فيها قوة الاندفاع ، الفاعليه ، الجرأة ، دهاء التوسع . وفى العصر التالى ستكون غايتها الوحيدة هى الحفاظ قدر الإمكان ، على ماتملكه .

تلقى محمد الرابع خبر الهزيمة ، ولم يعره اهتماماً فى البداية ؛ فالأمر لايزيد على أنهم فشلوا فى الاستيلاء على قلعة !! وهكذا الحرب .. لاتنتهى ضرورة بالنصر !! .

فتح كوبولو - زاده فاضل أحمد باشا ، كاندية بعد جهود دامت سنوات طويلة . أرسل إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، عندما كان فى بودين ، سيفا مرصعا وكتابا همايونيا يواسيه ويباركه لتمكنه من إعادة الجيش إلى بودين بخسائر قليلة .

كانت السلطانة - الوالدة الذكية التى تتبنى عائلة كوبرولو ، قد توفيت قبل هزيمة فينا ببضعة أشهر (١٦٨٣/٧/٥) . وقد عبر الشعب الذى يعلم دورها الكبير فى الدولة عن تأثره بهذه الجملة « ذهب ركن الدولة الأعظم » (راشد ، ١ ، ٤١٥) .

كان مرزيفونلى ، حديث السن ، ولم يكن معتل الصحة مثل فاضل أحمد باشا ، كان قوى البنية ، لايتعاطى المشروب ، ترى هل سيبقى صدراً أعظم إلى نهاية حياته ويكون استمرارا لدور الباشوات كوبرولو محمد باشا وفاضل أحمد باشا ؟ .

كان كثير من الوزراء يتحرقون شوقا لمنصب الصدارة ، ولم يكن هنالك ذريعة ، أحسن من هزيمة فينا . فى المرة القادمة وفى أول فرصة ، سيعدل مرزيفونلى الوضع بصورة أكيدة ، وسوف لايمكن إزاحته بعد ذلك عن منصبه مطلقا . أخذ العديد من رجال الدولة فى التأثير على مراد الرابع لإسقاط صدره الأعظم . كان رائدهم الوزير الثالث وقائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) قره مصطفى باشا . المعروف فى استانبول عن صارى سليمان باشا ، أنه عندما سمع خبر هزيمة فينا ، أمسك المنديل بيده وأخذ يرقص . لأن مرزيفونلى ، كان وزيرا شديدا ومغرورا . فاضل أحمد باشا كذلك ، كان محسودا ، لكن الحملة ضده لم تكن قوية جدا . يكن مغرورا ولامتكبرا ، وكان يعامل أصدقاءه من الوزراء معاملة الصديق لصديقة ولايتكبر عليهم .

ولما لم تجد اللمذات والايحاءات التى دبرتها أخت البادشاه (التى أمر مرزيفونلى بإعدام زوجها الخائن ابراهيم باشا) ، فى اقناع البادشاه ، عندئذ رتبوا رسائل مزيفة تفيد أن الجيش لايريد مرزيفونلى وأنه سوف يعلن عصيانه ، إذا بقى على رأسه صدرا أعظم مغلوبا .. تمكنوا من غش محمد الرابع . ولما كان الجيش هو درع الدولة الأول ، ولايمكن اللعب معه ، عزل محمد الرابع ، قره مصطفى باشا وعين مكانه الوزير الثالث قره إبراهيم باشا (١٦٨٣/١٢/١٥) . صدارة مرزيفونلى ، دامت ٧ سنوات ، وشهرا ، ١٠ أيام . وأعدم بعد ١٠ أيام (٢٥ ك١) . قرأ قره مصطفى باشا الذى سعى ليلا ونهارا فى تجهيز الحملات والذى يملك مكانة ممتازة فى الجيش ، الخط الهمايونى الذى حمله له رئيس تشريفات السلطان ، كزار – زاده أحمد أغا بكل هدوء . صلى . ثم صاح بالجلاد بنفسه وطلب قطع رأسه . سودت هذه الفاجعة التى جرت فى بلغراد ، مستقبل الدولة وقضت على الشخص الوحيد الذى كان يملك القدرة لتعويض ماضاع . كان فى سن ٤٨/٥ .

انتهى دور كوبرولولر (عائلة كوبرولو) . وبدأ « قحط الرجال » ، كما كان فى الأزمنة التى تسبق عهد كوبرولو محمد باشا قبل ٢٧ عاما . بدأ الأشخاص الذين لايستطيعون تنفيذ واجباتهم التى تقتضيها مقاماتهم ، يتعاقبون الواحد تلو الآخر . قره مصطفى باشا ، الذى يقال عنه « من أعظم وزراء العثمانية ومن أعظمهم غرورا بنفس الدرجة » (هامر ، ١٢ ، ١٣٥) المكروه لدى العالم المسيحى آنذاك والآن أيضا .

كان قائمقام الصدارة فى المركز لسنوات عديدة ، طيلة مدة بقاء قره مصطفى باشا فى الحملات ، بايبوردلى قره مصطفى باشا ، فى ٦١ من عمره وزيرا حريصا ، ولئيما ، وجبانا وغير كفء . وقد حافظ داماد صاحب مصطفى باشا أحد رجال السراى الذى يحمل لقب الوزير الثانى منذ سنوات عديدة ؛ على مقامه . ينشغل بأعمال السراى والأمور العلمية والفنية ، ولايتدخل كثيرا بالسياسة ، ولايؤمل أن يكون صدرا أعظم . قره إبراهيم باشا ، هو الشخص الذى ساندە مرزيفونلى وأعطاه الرتبة . وهذا يعنى أن مرزيفونلى ، لم يتمكن حتى من اختيار الوكيل الجديد له . كان هنالك وزير يمكنه صيانة الإمبراطورية من المصائب ، وهو كوبرولو - زاده فاضل مصطفى باشا ، لكن قره إبراهيم باشا ، عين هذا الوزير الذى يصغر مرزيفونلى بسنتين خارج استانبول فورا . كان كأنما هنالك اتفاق بين العديد من رجال الدولة على التخلص من (كوبرولولر) عائلة كوبرولو .

٢) السنوات الأولى للحرب الكبرى (١٦٨٤ - ١٦٨٦)

تسمى فترة الـ ١٥ سنة ، ٤ أشهر ، ١٤ يوما التى مضت بين هزيمة فينا وصلح كارلوفجه فى التاريخ العثمانى « سنوات المصيبة » . حرب العثمانية لوحدها أمام ائتلاف أوروبى (١٦٧٣/٩/١٢ - ١٦٩٩/١/٢٦) أعلن الحرب على العثمانية كل من امبراطور المانيا ، ملكية بولونيا ، جمهورية البندقية ، البابوية ، ملكية اسبانيا ، دوقية توسكانا الكبرى ، فرسان مالطه ، وبعد مدة ، روسيا القيصرية . وكانت العثمانية فى وضع صيانة حدودها الممتدة من قفقاسيا إلى فاس . لكن الحروب الكبرى جرت فى المجر ، بولونيا ، اوكراينا ، دالماجيا ، مورا . المفروض أن تبقى فرنسا على الحياد ، ولكنها ساندت المتفقين بإرسالها وحدات . إن الائتلاف المسمى « Sainte - Allianee » (الاتفاق المقدس) ، كان يحمل الروح الصليبية والنزعة الكاثوليكية . كانت الغاية منه إخراج المسلمين والأتراك من أوروبا إلى آسيا ، وتنحية تركيا ، وجعل آسيا بلا مدافع لوضع اليد على أكبر قارة فى العالم .

الصدر الأعظم الذى سيدافع عن العثمانية تجاه هذا الائتلاف ، هو الصدر الأعظم قره مصطفى باشا الذى يجزع من الخروج إلى الحملات . كان قره مصطفى باشا

يريد فقط أن يكون صدراً أعظم ويتخلص من تحكم مرزيفونلى . أعطى قيادة الجبهة الألمانية إلى الوزير بكرى مصطفى باشا ، وجبهة بولونيا إلى الوزير الثالث صارى سليمان باشا . انضمت البندقية إلى الاتفاق ١٦٨٤/٤/٢٥ وأعلنت الحرب على تركيا . عين على جبهة البندقية من الوزراء الباشوات بالتسلسل كور شعبان ، شاهين مصطفى ، اسباناقجى اسماعيل ، خليل باشا . ومن بين هؤلاء القواد كان بكرى مصطفى باشا من القواد متوسطى الدرجة . صارى سليمان باشا تافه للغاية وعاجز ، والبقية عسكريون عديمو الكفاءة . كان هدف المانيا المجر ، وهدف بولونيا Podolya ، وهدف البندقية مورا ، وإن أمكن هرسك ، وهدف روسيا ، الحصول على قطعة كبيرة من اوكرانيا . وأخطر هؤلاء ، كانت المانيا . كان القائد العام للإمبراطورية أحد حكام الألمان دوق لورين (Karl) V. Charles (Lothringen) ، عسكريا كبيرا .

كانت أكبر حروب عام ١٦٨٤ هى حرب حصار بودين الذى جرى من قبل الألمان واستمر ٣ أشهر ، ١٩ يوما (١٥ تموز – ٣ ت٢) . دافع عن بودين بكرى مصطفى باشا . معاوناه هما العسكريان الكبيران ، وكلاهما برتبة وزير ؛ ديوريكلى قره محمد باشا بكلربك بودين الشاب ، وداماد شيطان إبراهيم باشا الكهل . كانت بودين تقصف يوميا بمعدل ١٠٠٠ – ١٥٠٠ قذيفه و ٧٠٠ – ٨٠٠ قنبله ، هذا عدا فتح الألغام . وكان الأتراك يحققون تقدما متواصلا . حاول الألمان قطع مجارى المياه للمدينة ، لكنهم لم يوفقوا . تسمر الألمان أمام بودابست هذا العام ؛ كما تسمر العثمانيون أمام فينا فى العام الماضى . ترك بكرى مصطفى القلعة إلى قره محمد باشا بكلربك بودين وانسحب . قطعت إحدى القذائف ، يد محمد باشا فى ٢٠ تموز . استمر فى الدفاع بعد سكب زيت زيتون حار على يده . وفى آب ، أصابت إحدى القذائف بطن الوزير الشاب . نادى محمد باشا ، الباشوات محاولا جمع أمعائه بيده السالمة ، وأخبرهم بأنه عين مكانه داماد شيطان إبراهيم باشا ، وأمرهم باطاعته والدفاع عن بودين حتى آخر جندى ثم استشهد . جاء إلى بودين فى ٩ أيلول منتخب بافيرا ؛ أهم حاكم المانى بعد الإمبراطور ، حصل على امدادات وتسلم القيادة . وانتقلت الحرب إلى خارج القلعة .

خسر الألمان ثلاث حروب ميدانية : انهزم الألمان فى كرز الياس ، أمام قاضى

كوپلى محمد باشا بكلربك روملى (١٩ أيلول) ، وفى أوفا قابوسى ، أمام سياووش باشا بكلربك دياربكر (٢٧ أيلول) ، وفى بشته ، أمام أحمد باشا بكلربك أكرى (٢٤ ت١) . انسحب الألمان فى ليلة ٢ - ٣ ت٢ . وعلى أثر هذا النصر ، استبدل محمد الرابع لقب داماد إبراهيم باشا من « شيطان » إلى « ملك » . وعينه قائدا مكان بكرى مصطفى باشا ، وعين عبد الرحمن عبدى باشا أحد الوزراء المسنين ؛ بكلربك على بودين (سلاحدار ، ٢ ، ١٤٠ - ٨٥) .

كان سليم كيراى الذى عاد وصار خانا لقرم ؛ عسكريا كبيرا . تمكن بمهارته من تعويض عجز سليمان باشا قائد عام جبهة بولونيا . هزم سليم كيراى ، الملك سوبياسكى فى الحرب الميدانية كامانيجه (١٦٨٤/٩/٢٦) . فر غالب فينا ، تاركا وراءه ٢٧ مدفعا ثقيلا للحصار وآلاف القتلى (سلاحدار ، ٢ ، ١٨٥ - ٨) .

قدمت البندقية فى ١٥ تموز إلى الباب العالى ، مذكرة إعلان الحرب . وحققت إنزالات عديدة على سواحل داماجيا ، هرسك ، البانيا ، مورا . كان قائد عام البندقيين موروسينى ، هو العسكرى الكهل الذى سلم كانديه ، إلى كوبرولو - زاده . أطلق البابا بصورة رسمية ، على هذا الاتفاق المقدس الجديد اسم « الحملة الصليبية ١٤ ضد الأتراك » . وكما لاحظ هامر (١٦١/١٢) ، أن هذه الحرب هى الحرب الأولى والأخيرة فى تاريخ البندقية كلها التى أعلنت فيها البندقية الحرب على العثمانية ، أما فى بقية الحروب الأخرى ؛ فكانت تركية هى التى تعلن الحرب . احتلت البندقية جزيرة آيا مافرى خلال ٦ أيام (٨ آب) ، وسيبينيك (Sebenico) وأماكن عديدة فى داماجيا ، واحتلت Preveze فى ٧ أيام (٢٨ أيلول) وأغلقت عام ١٦٨٤ وهى رابحة (سلاحدار ، ٢ ، ١٩١ - ٢٠٠) . ولكن فندق مصطفى باشا بكلربك بوسنه ، تمكن فى السنة التالية من هزيمة البندقيين فى الحرب الميدانية المسماة شين (بالإيطالية : Sign) (١٦٨٥/٤/٧) واغتنام ٩٠ راية . تمكن البندقيون الذين أنزلوا جيوشهم فى Koron جنوب مورا ، من الاستيلاء عليها بعد حصار طويل وذبحوا كافة سكانها المسلمين .

استولى الألمان على Szolonk ، وهجم العثمانيون على يانق قلعة . حاصر ملك إبراهيم باشا استركون مدة ١٦ يوما ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . استسلمت اويفار إلى دوق لورين بعد حصار دام ٥٠ يوما (١٦٨٥/٨/١٩) (هامر ، ١٢ ،

١٨١ ؛ راشد ، ٤٧٤ - ٧ ؛ سلاحدار ، ٢ ، ٢١١ - ٤) . استمر آخر حكم للأتراك فى اويفار ، منذ فتح كوبرولو - زاده الأخير لها ٢١ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٥ يوما . وهكذا زالت من الوجود ، إيالة عثمانية صغيرة . لكن جنوب - شرق سلوفاكيا ، مازال عثمانيا . كان الاستيلاء على اويفار ، سببا فى إقامة الأفراح فى العالم المسيحى كافة (هامر ، ١٢ ، ١٨٤) .

اجتاز الكلك سوبياسكى دنيستر نحو الجنوب ، معلقا آمالا كبيرة على النصر ، ولكن جيش سليم كيراى المؤلف من ٨٠٠٠٠ شخص (٥٠٠٠٠ قرمى) ، هزم الملك فى الحرب الميدانية المسماة بويان Bojan) (١٦٨٥/١٠/١٠) . انسحب سوبياسكى تاركا وراءه ٦٠٠٠ قتيل و ٥٠٠٠ أسير .

استمر قره إبراهيم باشا فى أعماله الدنيئة وأعدم العسكرى الفذ والمسن ، داماد ملك إبراهيم باشا ، الذى اتهمه بمسؤليته عن سقوط اويفار ، وقد كانت الحقيقة أنه كان يخشى أن يحتل مكانه . قطع رأس ملك إبراهيم باشا فى بلغراد فى ١٦٨٥/١٢/٣ (سلاحدار ، ٢ ، ٢١٥ - ٧) . لكن قره إبراهيم باشا ، لم يتمكن من الحفاظ على مقامه بعد منافسه ، سوى ١٥ يوما . عزل محمد الرابع ، الصدر الأعظم هذا ، لرفضه الخروج للحملات (١٦٨٥/١٢/١٨) ، ونفاه إلى جزيرة رودس وأمر فى آيار ١٦٨٧ بإعدامه هناك . دامت صدارته سنتين ، ٤ أيام . جىء مكانه بالوزير الثالث يناجى صارى إبراهم باشا ، وهو مثال النذالة والجبن وآخر من يصلح للصدارة بسبب كونه عديم الشأن محروما من الاخلاق ومن العلم العسكرى والشجاعة . تمكن من الحفاظ على السلطة وادعاء شرف النصر الذى احرزه سليم كيراى فى معركتين ميدانيتين فى سنتين متتاليتين تجاه سوبياسكى فى جبهة بولونيا . جاء فى ك٢ من عام ١٦٨٦ إلى أدرنة وتسلم الختم الهمايونى . ولم يكتف بذلك ، وإنما أصبح علاوة على ذلك سردارا أكرم (قائدا أعلى) على جبهة ألمانيا (سلاحدار ، ٢ ، ٢٢٥ - ٦ ، ٢٢٨ - ٣٠ ؛ راشد ، ٤٨٤ - ٦) .

كانت مورا ، لواء (سنجق) بحريا عثمانيا مقسما إلى ٢٣ قضاء . كان هذا اللواء ، هدف البندقية . وكان استيلاء البندقية عليها سيغطى على ضياع كريت بشكل واسع . استولى موروسينى على نافارين خلال ١٣ يوما (١٦٨٦/٦/١٥) (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤١ - ٢) . واسقط كورون بعد حصار دام ٣٠ يوما (١٢

آب) . كانت هذه الأماكن كلها تعود إلى البندقيين وفتحت خلال عهدى فاتح وبيازيد الثانى . احتل موروسينى ، عدا قطع البندقيين ، فرقة سكسونية وفرقة Braunschweig ، وفرقة من ميلانو بقيادة الأمير Visconti ، وفرسان مالطه واحد كبار عسكريى العصر وهو الماريشال السويسرى الكونت Königsmark . أكمل موروسينى فتح مورا بعد أن استولى فى تموز ١٦٨٧ على باتراس ، وبعدها على Korinthos . انسحب السردار أحمد باشا من مورا إلى أثينا . واجه المتفقون العثمانية فى جبهة مورا ، بقوات كبيرة ودهاة عسكريين مثل موروسينى وكونيكسمارك . أما إستانبول ، فلم تتمكن من إرسال قوات كافية ولاقادة ذوى مقدرة عسكرية . ورغم ذلك ، تمكن القبطان - دريا مصرلى أوغلو إبراهيم باشا من تشتيت الأسطول البندقى خارج ميديلى ، فى معركة بحرية استمرت ٣ ساعات (ت١/١٦٨٦) . منح مجلس السناتو (الأعيان) الجمهورى البندقى ، موروسينى أعلى رتبة للأصالة ، وهى رتبه لم تمنح لغيره خلال الألف سنة من تاريخ البندقية ؛ الا لشخصين فقط (هامر ، ١٢ ، ٢٢٥) .

٣) سقوط بودين (١٦٨٦/٩/٢)

شرع المتفقون الذين اتعظوا من هزيمة بودين فى العام الماضى ، بمحاصرة المدينة بواسطة جيش كبير (١٦٨٦/٦/١٨) . كان البكلربك (الفريق) عبد الرحمن عبدى باشا ، الكبير السن ، يدافع عن المدينة . سار الصدر الأعظم والسردار الأكرم آيناجى صارى سليمان باشا من بلغراد مع جيش عدده ٥٠٠٠٠ جندى ووصل المجر . يشبه هامر ، جيش الاتفاق الذى جاء إلى بودين ، بجيش الصليبيين الذى خرج أمام ييلديرم بيازيد فى نيغبولى قبل ٢٩٠ عاما ؛ من ناحية أنه كان ممثلا لكافة شعوب أوروبا تقريبا (١٢ ، ١٩٨) . كان عدد الجيش الألمانى ٨٠٠٠٠ جندى وبقية الجيش من الشعوب الأخرى . أما عبدى باشا الذى يناهز عمره الـ ٧٠ عاما ، فكان لديه ١٦٠٠٠ جندى ممتاز ومدرب وعتاد كاف ومهمات كثيرة .

أهم قواد الجيش الصليبى : من اسبانيا دوق Vexas ، دوق Escalona ، ١١ ماركيزاً اسبانيا ، من فرنسا ٣ ماركيز و ١ كونتا ، من انكلترا الابن غير الشرعى

للملك جيمس الثانى ، أمير Ruppert ، ٤ لورد ، من ايطاليا ٥ كونت أحدهم ماريشال ، من المانيا منتخب بافيرا ، دوق لورين ، دوق كروى ، دوق Courland ، أمير Neuburg أمير Velden ، ماركيز Baden ، ٩ كونت ٢ منهم برتبة ماريشال ، ٢ بارون الخ . كان الجيش الألمانى يتألف من ٨٠٠٠ جندى أرسلوا من Brandenburg - Prusya ، ٥٠٠٠ من ساكسونيا ، ٨٠٠٠ تحت قيادة منتخبهم البافارى بنفسه ٦٠٠٠ من دوق Würtemberg ، ٣٠٠٠ من دوق ساكسونيا ، وكان الجيش الشخصى للإمبراطور عبارة عن ٥٠٠٠٠ جندى (هامر ، ١٢ ، ١٩٨ - ٩) . ولو أن القائد العام ، كان منتخب بافيرا اسما ، باعتبار أنه كان أعلى حاكم ، لكن القيادة العسكرية الفعلية ، كانت بيد العسكرى الكبير جارلس ، دوق لورين .

كان الحصار ، شديدا جدا . سقط ٤ كونتات قتلى . وفى ١٦ تموز أصيب ميناء إنشاء السفن النهرى لبودين (ترسخانه) ، وأدى انفجار ٣٦٠٠٠ قطار من البارود إلى استشهاد ٤٠٠٠ جندى عثمانى . انفتحت فى الأسوار ثغرة بعرض ٦٠ قدما ، وحدد هذا الحادث مصير بودين . تغير مجرى نهر الطونه من شدة الانفجار (هامر ، ١٢ ، ٢٠١) . أعلم دوق لورين عبدى باشا ، بأنه ليس بإمكانه بعد الآن الدفاع عن القلعة التى دافع عنها حتى اللحظة الأخيرة ببطولة مكنته من إنقاذ شرف البادشاه ، وعرض عليه ترك بودين والذهاب مع جنده أحرارا . رفض الباشا . وفى ٢٧ تموز ، حدثت أمام باب بج (فينا) للمدينة ، معركة دموية شديدة سقط على أثرها وخلال ساعات ٢٦٠٠ جندى نمساوى ، ٤٠٠ بروسى ، ٨٠٠ - منهم أكثر من ٢٠٠ ضابط - بافيرى . تمكن عبدى باشا ، من صد ودحر ١٨ هجوما عاما كما تمكن من تكبيد العدو عشرات الآلاف من الخسائر ، ولكن لو تمكن ذلك الشخص الجبان الذى يحمل رتبة السردار الأكرم عن غير جدارة ولياقة ، من التدخل من الخارج لأمكنه إنقاذ بودين . إلا أن سليمان باشا اقترب إلى حد حمزه بك ، ولكنه بعد أن خسر ٣٠٠٠ شهيد ، انسحب مذعورا تاركا بودين لقدرها ، انتشر خبر حصار بودين فى جميع أنحاء الإمبراطورية . كانت تجرى مراسم الدعاء فى كافة المساجد لأجل المدافعين عن بودين . كما كانت تجرى مراسم الدعاء فى كنائس أوروبا لفتح بودين ، وهكذا تطور القتال ، إلى صراع بين الهلال - الصليب .

فى اليوم الـ ٧٤ لمحاصرة بودين (حصار فينا الثانى استغرق ٥٩ يوما) ، لم يبق لعبدى باشا إلا نفر قليل جدا . كان يحاول الدفاع عن باب بج بالسيوف فقط ، كانت أكبر فتحة فتحتها مدافع العدو ، فى تلك الناحية . قتل الدوق Asty الذى كلفه دوق لورين جارلس بالهجوم وقتل معه آلاف ، نتيجة قصف المدفعية التركية . دخل الصف الثانى من العدو إلى المدينة من باب بج واستشهد الوزير عبدى باشا الذى كان أمام الباب وبيده السيف ، وسحقته أقدام آلاف الجنود الذين مروا متجهين نحو ميدان بالى باشا . تجمع حفنة من الجنود الأتراك ، فى الميدان الذى يحمل اسم الغازى بالى باشا ، ابن عمة السلطان سليمان وأول بكلربك على بودين ، وهم يستعدون للدفاع الأخير . فضلوا جميعهم الشهادة على التسليم واستشهدوا . وبينما حاول بضعة من الجنود الأتراك النجاة بإلقاء أنفسهم فى الطونه ، عادوا وانضموا إلى الجيش ثانية عند مشاهدتهم شروع العدو فى ذبح الأهالى المسلمين القاطنين فى المدينة . ورغم إخلاء القسم الأعظم من الأهالى المدنيين من المدينة قبل بدء الحصار ؛ فإن عائلات تركية كثيرة لم ترض بالنزوح من بودين . تمكن بضع مئات من هؤلاء فقط من الهرب عن طريق الطونه . وعندما مل العدو من القتل العام للأهالى ؛ أسر عدة آلاف وهى البقية الباقية من الأتراك . حرقت آلاف الآثار المعمارية التركية وفى مقدمتها ٨١ مسجداً ، بمثل هذه البربرية . هرع الكونت Marsigli وهو جنرال إيطالى من Bologna فى خدمة الألمان مع بضعة من جنوده إلى القصور ، المكتبات ، المساجد وتمكن من إنقاذ الكثير من الكتب والآثار الفنية التركيةالتى أهدى فيما بعد قسما منها إلى المكتبة الإمبراطورية فى فينا ، وقسما منها إلى المكتبة والمتحف الموجودين فى Bologna . كان الكونت Marsigli الذى مكث مدة طويلة فى استانبول ، يجيد التكلم باللغة التركية . وله مؤلف قيم جدا فى التشكيلات العسكرية العثمانية .

لايستطيع أى مؤرخ أن يدعى أن العثمانية لم تدافع جيدا عن بودين . وهكذا انتهى الحكم الإسلامى التركى فى المدينة التى فتحها فاتح المجر السلطان سليمان خان القانونى بنفسه قبل ١٦٠ عاما . عبدى باشا ، الذى عين قبل سنة واحدة و ١٠ أشهر على بودين ، كان البكلربك (الفريق) الـ ٨٦ على بودين وآخرهم (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤٩ – ٥٣) . وبعد ٢٤ يوما (صباح ٢٦ أيلول) ارتجت إستانبول لخبر سقوط بودين ، ارتجاجا لم يحدث من قبل عند سماع نصر أو هزيمة .

حدثت مظاهرات ضد الحكومة ، وتطاول البعض على السلطان علنا ، وكتبت المرثيات ولحنت .

استولى دوق لورين ، بعد انتصاره هذا ، الذى أقام أوروبا وأقعدها والذى كتب حوله مئات من كتب الثناء والتبجيل ؛ على القسم الأكبر من المجر . بعد ضياع أكبر بلدة من بلدان الحدود ، التي لم يحرزها العدو فى أى وقت من الأوقات . تضعضعت معنويات الجيش التركى وأخذت القلاع الموجودة فى المجر فى الاستسلام الواحدة تلو الأخرى . لم تكن المصيبة الحقيقية ، محاصرة فينا الفاشلة قبل ٣ أعوام ، بل كانت سقوط بودين .

سقطت شيموتورنا (Simotornia) فى (١٥ أيلول) ، شيكلوش (Siklos) ذات الـ ١٣ مسجداً (١٩ أيلول) ، بج Peç (بالمجرية : Pécs ، بالألمانية : Funfkirchen) ذات الـ ١٧ مسجداً ، مركز لواء تركى مهم (١٠ ت١) ، سكدين (Segedin) بعد دفاع دام ٢٤ يوما (١٢ ت١) ، كابوشفار (Kaposwar) (٢٩ ت١) . وعلى أثر انتقاد شيخ الإسلام جاتالجالى على أفندى للحكومة انتقادا شديد اللهجة ، عزله محمد الرابع بضغط من قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) رجب باشا . كان يشغل مقام المشيخة الإسلامية منذ ١٢ سنة ، ٧ أشهر ، ٣ أيام (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤٥ - ٨) .

توقفت الحركات العسكرية فى شتاء عام ١٦٨٦ - ٨٧ ولم يجرؤ العدو على اجتياز Drava كان الصدر الأعظم ، مع ٥٠٠٠٠ جندى فى بلغراد وقالغاى قرم مع ٦٠٠٠٠ خيال تقريبا فى تامشوار (راشد ، ١ ، ٤٩٠ ومابعده)

٤) حركات عام ١٦٨٧

استغرق إعادة تجهيز جيش دوق لورين جارلس زمنا ، بسبب تكبده خسائر كبيرة فى بودين ، وهذا هو الذى أخر افتتاحه موسم الحرب . أما العثمانية فكان همها الدفاع وكانت فى وضع صعب . اقترب كونت Pallfy من Osiyek لكنه هزم وقتل (٢٠ تموز) . أنسحب جيش الاتفاق على أثر ذلك ، إلى موهاج . جاء صارى سليمان

باشا ، الذى شعر بتردد دوق لورين بعد هزيمة Osiyek ، إلى موهاج . كان قد مضى على إفناء السلطان سليمان القانونى ، جيش الملكية المجرية الكبرى فى صحراء موهاج (١٥٢٦/٨/٢٩) ١٦٠ سنة ، ١١ شهرا و ١٤ يوما بالضبط . كان جيش الاتفاق يفوق الجيش العثمانى عددا ، وكان سليمان باشا ، على علم بذلك . ترك ساحة القتال بعد أن خسر ٢٠ ٠٠٠ شهيد . كانت خسارة المتفقين ١٠٠٠ قتيل (١٦٨٧/٨/١٢) (هامر ، ١٢ ، ٢١٣) . العدو يستولى على سرادق صدر أعظم آخر قبل أن تمضى على هزيمة فينا ٤ سنوات ، وهذا السرادق عبارة عن سراى سيار يحتوى على ١٤ شقة . أخذه منتخب بافيرا . « كان Karl-Ludwig دوق لورين على الجناح الأيمن ، ومنتخب بافيرا على الجناح الأيسر . كانت قيادة الأتراك غير جيدة ، وكانوا يحاربون بشكل جيد . اتخذ الأتراك من الأشجار سدا ودافعوا فترة من الزمن ، ثم تركوا لنا ساحة القتال وانسحبوا بشكل غير منتظم ، ولم يتمكنوا من أخذ معظم مدافعهم ومهماتهم وانتقلت الينا . وقد حققت حرب موهاج هذه فوائد كبرى للعالم المسيحى والإمبراطورية . كانت السبب فى جلب المصائب الكبرى للسلطان » (كونت Marsigli ، ص ٢٣٥) .

لم يذق محمد الرابع الطعام مدة ثلاثة أيام . مرضت رابعة أمة الله كلنوش ، السلطانة – خاصكى (زوجة السلطان) (السلطانة – الوالدة بعد ذلك) . وصل الحزن والاستياء حده الأقصى فى الإمبراطورية وخاصة فى إستانبول . كان كامل نصف المجر تقريبا فى هذه الأثناء بيد الألمان ، أما نصفه الشرق الأكبر فكان بيد العثمانية إلا أن الألمان أوقفوا حركاتهم فى التقدم عند حلول فصل الخريف .

كانت جبهة بولونيا فى عهدة السردار (القائد) العسكرى الجيد الوزير داماد بوزوكلو (من يوزغات) بيقلى مصطفى باشا . قوته تتألف من ٥٨٠٠٠ جندى (٢٠ ٠٠٠ منهم تمارلى (نوع من الخيالة) ، ٨٠٠٠ انكشارى ، ٣٠ ٠٠٠ قرمى) . أراد الملك سوبياسكى أخذ كامانيجه لكنه دحر وتراجع (١٦٨٧/٩/٣) . دخلت روسيا كذلك الحرب فى هذه الأثناء . أرسل مصطفى باشا ، بعد انتصار كامانيجه ؛ نور الدين قرم (ولى العهد الثانى) على الجيش الروسى . تمكن نور الدين من العثور على الجيش الروسى الذى يقوده Prens Galitzyn قرب كييف Kiev وهزمه بسهولة .

تمكن الجيش البندقى الذى تسانده قطع اسبانيا ، توسكانيا ، ميلانو ، مالطه ، البابوية ، المانيا ، السويد من عبور برزخ Korinthos والدخول إلى شبه جزيرة Attika . استولى على أثينا (١٦٨٧/٩/٢٥) . خربوا ونهبوا المدينة بشكل فظيع . « الألمان والبندقيون الذين هم أكثر همجية من الأتراك ، هدموا ماحافظ عليه الأتراك لعصور طويلة من الآيات الفنية الأثرية التى تعتبر رمز الآثار القديمة وجعلوها هباء منثورا ، وتحولت المدينة المعمورة ، خلال أيام معدودة ، إلى كتل من الحجارة وبقايا الحريق . سقطت إحدى القنابل التى أطلقت من سفينة بندقية فى وسط Parthenon ونسفت أجمل قسم من المعبد » (فون هامر ، ١٢ ، ٢٢٧) ، كانت أثينا تحتوى على عدد قليل من الأتراك . ولأن الشعب كان أرثوذكسى المذهب ، فقد ذبحهم الكاثوليك بلا رحمة؛ لأنهم كانوا يعتبرون الأرثوذكس مسيحيين منحرفين .

كان الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) آيناجى صارى سليمان باشا ، الذى لعب أهم وأقبح دور فى إسقاط مرزيفونلى ، عديم الأخلاق والضمير ، ظالما ، عديم الكفاءة . أفسد النظام والضبط الصارم الذى أسسه الكوبرولولر (المنتسبين إلى عائلة كوبرولو) فى الجيش التركى بشق الأنفس . تمرد الجيش وأراد قتل الصدر الأعظم . فر صارى سليمان باشا إلى إستانبول ، واستقال (١٦٨٧/٩/١٩) . دامت صدارته سنة ، و ٩ أشهر ، ويومين . أمر محمد الرابع بإعدام صارى سليمان باشا ، وعين سياووش باشا ، صدرا أعظم وسردارا أكرم . كان سياووش باشا صهرا لكوبرولو محمد باشا . كان يحمل هذه الميزة ، لكنه شخصيا لم يكن شخصا ذا قيمة . تمرد الجيش ، بقيادة عصبة من ضباط الإنكشارية ذوى الرتب الصغيرة وطلب خلع البادشاه من عرشه ، كان يريد التحكم فى الدولة ونهبها كما حدث قبل ٣١ سنة فى العهد الذى يسبق كوبرولو . لم يعد مثل هذا الجيش يعير شأنا للقتال . لم يكن شعب إستانبول يريد البادشاه ، فقد حدثت على عهده هزائم لم تحدث فى تاريخ الدولة . لكن الحقيقة أن عدم الرضا الذى يظهره شعب إستانبول ، كان بسبب مكوث البادشاه بصورة مستمرة فى أدرنة وقلة مجيئه إلى إستانبول ، واستفادة أدرنة من ميزات كونها مدينة العرش .

٥) خلع محمد الرابع (١٦٨٧/١١/٨) وشخصيته

يمكننا القول إن كربرولو – زاده فاضل مصطفى باشا ، هو الذى رتب هذا الأمر . اتخذ موقفاً مضادا من البادشاه وشهزاداته (أبنائه) الاثنين . كان فاضل مصطفى باشا يرى أن هذا البادشاه ، هو الذى سبب ضعف الدولة العالمية بإبعاده عائلة كوبرولو عن السلطة منذ هزيمة فينا . خلع كوبرولو – زاده ، الذى عينه محمد الرابع وكيلا للصدارة ، البادشاه فى إستانبول ، عندما كان الجيش المتمرد فى ادرنه . كان السلطان مصطفى (الثانى) الأبن الكبير لمحمد الرابع ؛ هو ولى العهد الشرعى . لكن كوبرولو – زاده ، انتقاماً لأبيه ، أبعد كلا من ابنى مراد الرابع . وأجلس على عرش الشهزاده (الأمير) السلطان سليمان كبير أخوى محمد الرابع الذى على قيد الحياة . وبهذا شذ عن قاعدة الوراثة المتبعة للسلالة السلطانية .

كانت أكبر عيوب مراد الرابع ابتلاءه وشغفه بالصيد . إلى درجة مرضية . وصار لايمكنه العيش بدون الصيد . وفى الحقيقة ، كان مراد الرابع حاكما من النوع الذى يفوض إدارة الدولة للوزراء ويقوم بواجب رئاسة الدولة بكل وقار . لكن المجتمع العثمانى ، لم يكن معتادا على مثل هذا النوع من الحكام . كان يريد خاقانا يجمع كامل السلطة فى يده ويعرف كيفية إدارة هذه السلطة .

ترك السلطان محمد خان الرابع العرش إلى أخيه الذى يصغره بـ ٣أشهر ، ١٣ يوما . استمع إلى قرار خلعه بكل هدوء . وسأل دون اهتمام ، فيما إذا كان قد صدر قرار باعدامه أم لا . وعندما علم بعدم صدور قرار بقتله ، لم يظهر أدنى علامة للسرور . كان هدافا إلى درجة لاتصدق . فارسا ممتازا . وفى يوم شتاء ، امتطى الجواد من يان بولو إلى أدرنه طيلة ٢٠ ساعة دون أن يترجل من على الحصان إلا لتبديله فقط ودخل السراى دون أن تظهر عليه إمارات التعب ، أما معيته فمرضوا وأصبحوا طريحى الفراش لعدة أيام . قصد بإجراء سفرة كهذه أن تكون عبرة لمعيته الذين أخطئوا بقولهم للسلطان أنه من غير الممكن السفر فى شتاء كهذا الشتاء . كان أحد أشهر رماة الجريدة من بين الرماة الذين أحرزوا أرقاما قياسية فى الإمبراطورية . كتب عدة أشعار . وسار على التقليد المتبع فى رعاية الشعر والأدب والموسيقى والفن . لكنه بقى بعيدا عن التعمق فى ولوج هذه الحقول كما فعل

أجداده . جلس على العرش وعمره ٦ سنوات و ٧ أشهر و ٧ أيام ، ورغم أنه استمر على تحصيل العلم أثناء سلطنته مدة طويلة ؛ لكن تثقيفه لم يكن كأجداده . كان محظوظا جدا ، من جهة وجود أم له مثل السلطانة - الوالدة خديجه تارخان . ارتاح جدا فى دور الكوبرولولر (عائلة كوبرولو) (١٦٥٦ - ١٦٨٣) ، وقضى سلطنة ذات شوكة عظمى تشبه تلك التى فى عهد القانونى . وفى كل فرصة سنحت له ، ترك إستانبول التى تذكره بالثورات التى جرت فى طفولته وسكن أدرنه ، ولم يكن هذا مناسبا من ناحية صيانة نظام الدولة . عاشت أدرنه فى عهده الملع وأعظم فترات تاريخها ودخلت ضمن أكبر بلدان العالم المعدودة . لم يكن مغرما بالنساء أو المشروب . ولدت الباشخاصكى (زوجته المفضله) السلطانه رابعة أمة الله كلنوش ، التى عنيت بتربيتها والدة زوجته ، له ابنيه ، ولو أنها لم تكن الزوجة الوحيدة له ، إلا أنها احتلت مكانها المرموق كزوجته المفضلة بين الحرم الهمايونى . أعدامه ، قره مصطفى باشا ، وتعيينه بدلا منه باشوات غير جديرين ، أحدهم أسوأ من الآخر مثل إبراهيم باشا وسليمان باشا ؛ وضع السد المانع ضد سلطنته ، وأولاده وضد استمرار الدولة العالمية . أكمل بقية حياته سعيدا فى سرايات إستانبول وادرنه . لم يعش طويلا لتأثره من حرمانه من الخروج للصيد .

دامت سلطنته ٣٩ سنة ، ٣ أشهر ، ويوما . كان عمره عند خلعه يتجاوز الـ ٤٥ عاما بـ ١٠ أشهر و٧ أيام . هذه المدة ، هى أطول مدة لرئيس دولة فى تركية بعد عام ١٥٦٦ . مدة هذه السلطنة هى الرابعة فى التاريخ العثمانى بعد مدة سلطنات ارطغرل غازى والقانونى وعثمان غازى . كان من السلاطين النوادر الذين أصبحوا « ولى عهد » فور ولادتهم . عاش بعد خلعه ٥ سنوات ، وشهرا ، ٢٨ يوما . مات فى سارى أدرنه وعمره يتجاوز الـ ٥١ بـ ٥ أيام (١٦٩٣/١/٦) . نقل جثمانه إلى إستانبول ودفن جوار والدته السلطانه تارخان . ورغم مناداته سنجق بك (أمير لواء) على ساروخان (مانيسا) فى أواخر ولايته للعهد (ك ١٦٤٦/٢) ، فإنه لصغر سنه ، لم يلتحق باللواء . زار فى الأناضول ، الأماكن القريبة مثل جناقلعه ، أزميت ، بورصه . أما ناحية روملى فشاهدها كما زار تلك المناطق بشكل موسع حتى داخل بولونيا . توجب علينا الحقيقة أن نذكر مسيرته إلى عدة حملات همايونية ، ولو أنه لم يكن هو قائدها بنفسه .

جرت عملية ختانه بعد جلوسه على العرش بسنة واحدة وشهرين ونصف ، مع إخوته الثلاثة ، رئيس أساتذته (باش معلم) خواجه سلطاني وانى محمد أفندى . ومن بين أساتذته الذين يستحقون الذكر ، كل من المؤرخ الشهير والشاعر الوزير الثانى عبد الرحمن عبدى باشا ، شيخ الإسلام منقارى - زاده يحيى أفندى ، عمته السلطانه عاتكه . أستاذه فى التاريخ ، هو المؤرخ المشهور جدا والطبيب هزار فن حسين أفندى (وفاته ١٦٩١) . لم يفارقه بعد خلعه ابناه الإثنان . عاش مع ابنيه وأمهما السلطانة رابعة فى قصر طوب قابو حتى ربيع عام ١٦٨٩ ، ثم فى السراى الهمايونى فى أدرنه . يلقبه العثمانيون « آوجى » (صياد) و « غازى » ، ويلقبه الأوربيون بـ « الكبير » .

أولاده : السلطان مصطفى الثانى (١٦٦٤/٦/٥ - ١٧٠٣/١٢/٣٠) ، السلطان أحمد الثالث (١٦٧٣/١٢/٣١ - ١٧٣٦/٧/١) ، السلطانة خديجة (١٦٦٢ - ١٧٤٣/٥/٩) ، السلطانة فاطمة (١٦٨١ - ١٧٠٠/١٢/٦) ، السلطانة أمة الله « آمى » « كوجوك » (١٦٧٠ - ١٧٠٠/١٢/١٣) . توفى له ٣ شهزاده (أمير) و سلطانه (أميره) وهم أطفال ، استمرت السلالة إلى زماننا هذا عن طريق أحمد الثالث ، لكن ابنى مصطفى الثانى كذلك جلسا على العرش . السلطانة خديجه ، تزوجت أولا بالوزير الثانى داماد صاحب مصطفى باشا (وفاته ت١٦٨٦/١) ، ثم بالصدر الأعظم مورالى سلاحدار أنشته حسن باشا (١٦٥٦ - أيار ١٧١٣) ، وأنجبت من الأول ٤ ومن الثانى ولدين . إن والدة السلطانه خديجه ، هى كذلك السلطانه رابعة كلنوش والدة كل من مصطفى الثانى وأحمد الثالث . تزوجت السلطانه فاطمه بداماد طرناقجى جركس إبراهيم باشا (وفاته شباط ١٦٩٧) ، وبداماد طوبال يوسف (وفاته ت ١٧١٦/٢) ، وخلال الفترة بين زواجيها آنفى الذكر ، تزوجت بالداماد مصرلى محمد باشا ، ورزقت ببنت من كل من ابراهيم باشا ويوسف باشا . جرى نكاح السلطانة أمة الله وهى طفلة إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا ولكن لم يجر الزفاف ، ثم تزوجت بالداماد سلاحدار جركس كوجوك عثمان باشا (وفاته ١٧٢٧/١/٨) وأنجبت منه ٣ خانم سلطان (سلطانه) .

تنقسم سلطنة محمد الرابع إلى هذه الأدوار : ١) دور النيابة (١٦٤٨/٨/٨ -

١٦٥٦/٩/١٥ = ٨،١،٨) : أ- نيابة أم أبيه السلطانة - الوالدة الكبرى كوسم مهبيكر (١٦٤٨/٨/٨ - ١٦٥١/٩/٣ - ١٦٥٦/٩/١٥ = ٥،- ١٢،) ٢) دور الكوبرولولر (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٨٣/١٢/١٥ = ٢٧ ، ٣ ،-) : أ - صدارة كوبرولو محمد باشا (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٦١/١٠/٣٠ = ٥، ١، ١٥) ،
ب - صدارة كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا (١٦٦١/١٠/٣٠ - ١٦٧٦/١١/٣ = ١٥ ، -، ٤) ،
ج - صدارة مرزيفونلى قره مصطفى باشا (١٦٧٦/١١/٣ - ١٦٨٣/١٢/١٥ = ٧ ، - ، ١ ، ١٢) ، ٣) الدور الأول من سنى المصائب (١٦٨٣/٢/١٥ - ١٦٨٧/١١/٨ = ٣ ، ١٠ ، ٢٤) : أ - دور الحرب التوازنية إلى سقوط بودين (١٦٨٣/١٢/١٥ - ١٦٨٦/٩/٢ = ٢ ، ٨ ، ١٨) و ب - دور الهزيمة التامة (١٦٨٦/٩/٢ - ١٦٨٧/١١/٨ = ١ ، ٢ ، ٦) .

كانت الدولة فى تاريخ خلع محمد الرابع ، قد فقدت ٢٨ ٠٠٠ كم[٢] تقريبا من أراضيها للبندقيين و ١٠٠ ٠٠٠ كم[٢] تقريبا لألمانيا وكلها كانت أقطارا مهمة للغاية : القسم الأعظم من المجر الوسطى والغربية ، قسم من سلوفاكيا ، سلوفينيا ، خرواتيا ، مورا ، جزيرة آيا مافرى Aya Mavri ، أثينا وجوارها ، Preveze و Inebahti ، دالماجيا التركية . وخلال ذلك ، سقطت بكلربك (إمارة) بودين (بودابست) الإيالة الثانية بعد مصر وإيالة اويفار الصغيرة وذهبت فى ذمة الماضى .

٦) الدور الأول لسلطنة سليمان الثالث (١٦٨٧/١١/٨ - ١٦٨٩/١٠/٢٥)

سليمان الثالث ، هو الابن الثانى للسلطان إبراهيم . أمه السلطانة - الوالدة صالحة دلاشوب (١٦٢٧ - ١٦٨٩/١٢/٥ ، فى سراى أدرنه) . سمى المؤرخون العثمانيون ، سليمان ١ « أمير سليمان » وطفروا وسموا القانونى « سليمان ١ » وسليمان ٣ هذا ، سموه « سليمان ٢ » . استعمل الاوروبيون تعابير سليمان ١ ، ٢ ، ٣ - كما استعملناها نحن فى كتابنا هذا - على شكله الصحيح .

أساتذته ، حاجه سلطانى عرب - زاده عبد الوهاب أفندى ، شيخ الجلوتية آطبازارلى عثمان فضلى أفندى (وفاته ١٦٩١) . وبسبب منع الشهزادات (الأمراء

أبناء السلاطين) من إنجاب الأولاد فى العصرين ١٧ و ١٨ ، لم يرزق خلال فترة سلطنته بأولاد ، رغم أنه كان متزوجا بـ ٦ زوجات . كان سليمان ٣ المسمى « غازى » ولى عهد لمدة ١٦ سنة تقريبا ، خلال الفترة من جلوس أخيه الكبير محمد الرابع (١٦٤٨/٧/٨) إلى تاريخ ولادة مصطفى ٢ الابن الأول لأخيه الكبير (١٦٦٤/٦/٥) . (حتى أنه توجد محاولة انقلابية فى ١٦٥١/٩/٣ لخلع محمد الرابع وإجلاس الشهزادة الكبير سليمان) . وفى آذار ١٦٨١ ، عين الوزير السابع كوبرولو - زاده فاضل مصطفى باشا ، مرافقا لحماية كل من سليمان ٣ وأخيه أحمد ٢ ، خلال سفرتهما من إستانبول إلى أدرنه ، وبذا سنحت له الفرصة للتعرف على هذين الشهزادتين عن كثب ، أحبهما وصار مؤثرا فيما بعد لجلوس كليهما على العرش . عاش مدة طويلة فى أدرنه عندما كان أميرا . انشغل كثيرا بالخط . وحصل على أجازتين فى خط الثلث والنسخ من طوقاتلى أحمد أفندى .

سقط سياووش باشا ، صهر كوبرولو من الصدارة بعد ٥ أشهر و ٩ أيام (١٦٨٨/٣/٢) ، صار ، آياشلى نيشانجى اسماعيل باشا ، صدراً أعظم . سببت ثورة ٢٨ ربيع الأول ، سقوط سياووش باشا ، وهذه الثورة من أقذر ثورات التاريخ العثمانى ، فلقد قتل الثوار العصاة الذين اقتحموا سراى سياووش باشا ، الباشا مع ١٥٠ من رجاله (هامر ، ١٢ ، ٢٥٠) .

وبينما أصبح السفلة أصحاب النفوذ فى إستانبول ، كان يجرى فى المجر قتال دموى عنيف . استولى الجنرال Caraffa ، على مركز الإيالة اكرى (بالمجرية : Eger بالألمانية : Erlau) مع Vire (١٦٨٧/١٢/١٤) . وهكذا خرج شمال المجر من الحكم العثمانى . كان محمد الثالث قد فتح أكرى قبل ٩١ سنة ، وشهرين ، ٣ أيام . سبب استسلام القلعة لحالها بعد سقوط البكلربك حسن باشا شهيدا ، هو كثرة نفوس المسلمين فى المدينة . خرج هؤلاء بأمان . لكن الألمان نسفوا كافة الآثار المعمارية العثمانية فى المدينة ومن بينها ٤١ مسجدا ، جعلوها قاعا صفصفا . إلى حد أنه لايمكن لأحد أن يقول بأن هذه البلدة ، شهدت حكما عثمانيا . وتوجد الآن فى أكرى ، مأذنة واحدة - لاأحد يعلم كيف سلمت - كأنها تشهد على الماضى . تقع أكرى على بعد ٩٥ كم فى شمال - شرق بودابست . اغتنم الألمان الـ ١١٣ مدفعا الموجودة فى القلعة . اولو جامع (المسجد الكبير) صار كنيسة القديس ليوبولد . الذى احتل أكرى ، هو المؤرخ الشهير الكونت ماسيكلى مساعد Caraffa .

انتخب موروسينى الذى فتح كامل مورا ١٦٨٧/٨/١١ ، دوج على البندقيين (رئيس جمهور) . انتقلت إلى يد البندقيين ، كامل دالماجيا تقريبا ، كان يسكن اثينا ٣٥٠٠ تركى ، جاءوا إلى أزمير .

لم يتمكن اياشلى اسماعيل باشا من البقاء فى السلطة ، أكثر من شهرين . وأصبح تكرداغلى بكرى مصطفى باشا ، صدراً أعظم (١٦٨٨/٥/٢) .

انهارت كامل جبهة المانيا تقريبا ، فى صيف عام ١٦٨٨ . وصل منتخب بافيرا إلى القرب من بلغراد . سقطت قلعة Golumbacz ، وهى القلعة التى فتحها بيلديرم بيازيد . كانت هنالك عائلات تركية تسكن منذ ٢٩٠ عاما . نصروا ٣٠٠ إمرأة مسلمة وزوجوهن بالجنود الألمان . سقطت أستولنى – بلغراد (بالمجرية : Székesfé hervar) ، مركز لواء مهم على بعد ٥٠ كم فى جنوب – غرب بودابست ، رغم دفاعها الشديد (١٦٨٨/٩/٦) . قتل خلال هذا الدفاع أمير Liechtenstein و ٤ حكام ألمان يحملون لقب كونت . جرح دوق Mantova ، أمير Savoie المشهور Eugen ، كان القائد العام منتخب بافيرا بين الجرحى . استشهدت كامل الحامية العثمانية لاستولنى – بلغراد البالغة ٧٠٠٠ شخص وذبح كافة المسلمين الموجودين فى المدينة . انتقل ليد العدو ٧٩ مدفعا عثمانيا ، وقد دهش الألمان عند مشاهدتهم أحدها الذى كان يقذف قذيفة بحجم ٤٤٠ « ليفره » . أهدى المنتخب ماكسيميليان Maximilian الراية العثمانية التى اغتنمت ، إلى البابا Innocentius الحادى عشر . علق البابا هذه الراية إلى جانب راية مرزيفونلى قره مصطفى باشا التى سبق أن أرسلها إليه سوبياسكى .

سقطت قلعة بلغراد بعد سقوط استولنى – بلغراد بيومين وبعد قتال شديد جدا (١٦٨٨/٩/٨) . استمر الحصار ٢٩ يوما . كان قد تم إجلاء الشعب المسلم وإرسالهم إلى الداخل عن طريق الطونه . ذُبح الذين لم يرغبوا فى الذهاب ، بالسيوف مع بقية الحامية التركية . حول أكثر من ١٠٠ مسجد ، إلى كنيسة .

دخل والى بادن Ludwig ، أيالة بوسنه واحتل Banyaluka و Zvornik (١٦٨٨/٩/٤ ، ١٦٨٨/١٠/٤) . أزيح الأتراك بصورة كاملة من درافا التى كانوا قد وصلوها فى عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٢ – ١٣٨٩) . لكن البكلربك

الوزير محمد باشا ، هزم العدو فى بيهاج وتمكن من الحفاظ على خط الطونه .

كان النصر ، فى جبهتى بولونيا وروسيا ، يلازم الطرف العثمانى . وفى شتاء عام ١٦٨٨ فى المعركة الميدانية Sireth . اقترب الجيش الروسى الذى يقوده الأمير Vassili Galitzyn لأول مرة فى التاريخ إلى اورقابو ، وهى باب قرم . لكن الجيش المؤلف من ٣٠٠ ٠٠٠ شخص انهزم بشكل قطعى فى الحرب الميدانية أمام سبيم كيراى (١٦٨٩/٥/٣٠) .

جاء موروسينى ، فى عام ١٦٨٨ إلى أثينا . كان يريد الاستيلاء على آغريبوز . سلم القيادة العامة إلى العسكرى السويدى الكبير الماريشال الكونت Königsmark . كان مساعداه ، أميرا Wütem berg و Braunschweig ، وأمير d'Harcourt الفرنسى . كان جيشا إيطاليا – ألمانيا كبيرين.جاء أسطول الاتفاق المؤلف من أساطيل البندقية – البابوية – مالطه – توسكانا ، إلى بيره Pire . كان الأسطول مكونا من ١٣٤ سفينة حربية و ٢٠٠ سفينة نقل . كان يدافع عن آغرى بوز ، جلبى إبراهيم باشا . تحرك أسطول الاتفاق من بيره (١٦٨٨/٧/١١) ودخل ميناء آغرى بوز ، مركز جزيرة آغرى بوز (باليونانية : Chalkis ، بالإيطالية : Egripo) . هذه القلعة ، قريبة جدا من شبه جزيرة Attika وتقع على مضيق آغرى بوز الذى يفصل الجزيرة عن شبه الجزيرة . تمكن جلبى إبراهيم باشا من الدفاع عن الجزيرة أمام العدو الذى يفوقه عسكريا وبحريا بدرجة لاتقبل القياس ؛ مدة ١٠٦ أيام . أصيب القائد العام الماريشال الكونت Königsmark ومات ، احتل مكانه ، أحد الحكام الألمان أمير Barunschweig . جرح أمير Würtemberg (٢٠ آب) بلغ القتال الذى يجرى وجها لوجه فوق الأسوار ، والصدام الذى يجرى تحت الأرض بحفر الانفاق ، درجة مخيفة . أمر موروسينى ، برفع الحصار وإخلاء الجزيرة (١٦٨٨/١٠/٣٠) . قتل ٢٣٠٠٠ جندى من الأعداء وجرح عشرات الألوف منهم . لم تجد نفعا الـ ١٨٢٠٠٠ قذيفه و ٣٦٠٠٠ قنطار من البارود التى قذفت القلعة العثمانية . كان نصرا عظيما لجلبى إبراهيم باشا الذى قصفه العدو بمعدل ١٨٠٠ قنبلة يوميا . شخّص موروسينى المجرب ، خور قواته البندقية . اكتفى بـ Mora . وأيقن عدم إمكان تقدمه أكثر من ذلك . أراد أن يرسل الأسطول إلى سواحل الأناضول لاستعراض قوته وإخطار العثمانية ، لكن القبطان دريا (مشير البحر ، أكبر رتبة بحرية) مصرلى

أوغلو إبراهيم باشا ، هزم الأسطول البندق بعد إغراقه ٨ سفن معادية ، وفقد البندقيون فى السنة التالية كذلك ٩ سفن . أما قلعة العثمانية الأخيرة فى مورا ، بنفشه (Malvasia) فقد استسلمت بعد نفاد قنابل الـ ٧٨ مدفعا الموجودة فيها وبعد مقاومتها مدة ١٤ شهرا (١٦٩٠/٨/١٠) .

جاء سليمان الثالث إلى أدرنه ، على أثر سقوط بلغراد . وبتحركه منها ، وصل صوفيا خلال ١٩ يوما (١٦٨٩/٦/٢٥) . انتهت هنا الحملة الهمايونية الألمانية التى أعلنت فى ٦ حزيران (١٦٨٩) . لأن الوزراء لم يجرؤا على إرسال البادشاه إلى أبعد من ذلك .

كان البادشاه مريضا . وكان سردار (قائد) جبهة ألمانيا ، عرب رجب باشا ؛ عديم الكفاءة بشكل كبير . انهزم فى المعركتين الميدانيتين Batucina (٣٠ آب) وبعدها نيش (٢٤ أيلول ١٦٨٩) . استولى ماركيز بادن الذى اغتنم ٢٠٣ مدافع عثمانية ، على نيش . نقل الوزراء الذين ارتأوا خطورة بقاء البادشاه حتى فى صوفيا ، سليمان الثالث الذى كان يسكنها منذ ٥ أشهر ، إلى أدرنه . أعدم رجب باشا . أسقط الألمان الذين استولوا على صربيا ، Vidin ، ودخلوا بلغاريا ، وأخذوا يقتربون إلى اسكب ، مكدونيا والبانيا . تم وقف البندقيين ، وتم دحر البولونيين والروس باستمرار . ولكن ، كأنما لاتوجد هنالك أية قوة لوقف الألمان . قرر شورى السلطنة فى أدرنه بالإجماع أن الحل الوحيد هو تعيين كوبرولو – زاده فاضل مصطفى باشا ، صدرا أعظم وسردارا أكرم وعرض ذلك على البادشاه ، وقد صوت تكرداغلى مصطفى باشا ، الذى يشغل منصب الصدارة منذ سنة ، ٥ أشهر ، ٢٤ يوما (والذى عمل مابوسعه دون حصوله على نتيجة) ، مؤيدا ذلك (١٦٨٩/١٠/٢٥ . كان فاضل مصطفى باشا البالغ عمره ٥١/٥ عاما ، محافظا لجزيرة ساقز ، استدعىٰ إلى ادرنه . كان حاصلا على رتبة وزير قبل ٩ سنين وعمره ٤٢ عاما . بينما أخاه ، كان قد حصل على رتبة الوزير وعمره ٢٤ عاما وصدراً أعظم وعمره ٢٦ عاما .

٧) الدور الأخير لسلطنة سليمان الثالث (١٦٨٩/١٠/٢٥ - ١٦٩١/٦/٢٢)

يعود شرف طرح فكرة تكليف كوبرولو - زاده فى شورى السلطنة لأول مرة والتذاكر فى هذا الموضوع ، إلى شيخ الإسلام دباغ - زاده محمد أفندى . أما البادشاه ، فكان يضمر الامتنان نحو كوبرولو - حيث أن هو الذى نحى ولى العهد السلطان مصطفى وأجلسه على العرش ، إلا أن رجال الدولة ، كانوا على درجة من ضعف السجية والأخلاق ، وكأنهم عقدوا اتفاقا سريا بينهم لإبعاد عائلة كوبرولو من السلطة ، وذلك خوفا من مجىء صدر أعظم قوى على رأسهم ، يقف أمام مطامعهم فى سلب الدولة كيفما يشاءون . لم يكن سليمان الثالث بالشخصية التى تستطيع أن تقف أمام النظام العثمانى الصارم ذى القدرة المدهشة . لكن دخول العدو إلى الأقطار التى فتحت فى عهد مراد خداوندكار ، كان السبب فى إذعان الجميع أمام كوبرولو - زاده .

كان فاضل مصطفى باشا ، أحد أكبر دهاة الإداريين فى التاريخ العثمانى . كان يعلم عدم إمكانه دخول الحرب بجيش لايتردد جنوده فى نهب مهمات جيشهم فى ساحة القتال ويعتبرونها كأنها غنائم حرب سلبت من العدو . وكان يعلم كذلك بأن أمامه شتاءً واحداً فقط ، لإصلاح مثل هذا الجيش ، حيث أن الألمان سوف لن يمهلوهعند افتتاح موسم القتال فى الربيع القادم ، ولاأحد يعلم عندئذ ، إلى أى مدى سيتقدمون .

عندما أعلم سليمان الثالث ، بأن كوبرولو - زاده ، حمل الختم الهمايونى ، بنفس الصلاحيات التى حملها أبوه محمد باشا ، أخيه الكبير أحمد باشا وزوج أخته قره مصطفى باشا ، جزع المتمردون ، إن المتمردين فى هذا الدور ، هم الضباط صغار الرتبة ، أما عدد الجنرالات المشاركين معهم ، فقد كان قليلا جدا . كان الجنرالات قد سئموا من تحكم هؤلاء ، وكانوا مستعدين وراغبين باسم الدولة فى مساندة صدر أعظم كهذا . وينبغى أن نذكر أن المتمردين الذين سبقوا كوبرولو محمد باشا ، لم يكونوا من الضباط صغار الرتبة ، بل كانوا من الجنرالات .

كانت المشكلة الخارجية الوحيدة لكوبرولو محمد باشا ، هى دفع الأسطول البندق

الذى اقترب إلى فتحة مضيق جناقلعة ، كما أنه يمكن القول بأن أدرنه ، لم تكن سالمة من الخطر ، عند مجيء فاضل مصطفى باشا إلى السلطة . كان لدى كوبرولو الوقت الكافى لتصفية المتمردين ، وإن كان الوقت بشكل عام ضيقا جدا ، ورغم ذلك ، فقد وفق توفيقا خارقا للعادة ، من ت ١٦٨٩/٢ حتى تموز ١٦٩٠ (مدة ٨ أشهر) ، لم ينم ليلا ولانهارا ، وعاد بنظام الدولة إلى مستوى نظام عام ١٦٨٣ تقريبا .

أحدث إصلاحات جذرية فى مجالات المالية والزراعة وأنظمة الدولة ترتقى إلى درجة إصلاحاته فى الجيش . انشغل بالسياسة الخارجية . استحوذ جنون لذة الفتوحات على الألمان ، ودخلوا إلى عمق الأراضى العثمانية وسط الشتاء . ذبح سليم كيراى بالسيف فى صحراء Kosova ٢٠٠٠٠ جندى ألمانى واغتنم ٣٢ مدفعا . المشهور عن هذه المعركة الميدانية ، أنه لم يتمكن سوى جنديين المانيين فقط من الهرب والنجاة (سلاحدار ، ٢ ، ٤٩٤) ، لأنهم كانوا قد ابتعدوا جدا عن مراكزهم . ظفر قالغاى دولت كيراى مع حسن بك - زاده محمد باشا بجيش ألمانى آخر فى Prizrin وتمكنا من إفنائه . كان منقوشا على صدور جنود هذا الجيش المؤلف من ٨٠٠٠ شخص - كما فى الحروب الصليبية - صلبان كبيرة . طارد سليم كيراى العدو حتى صربيا وجاء إلى ادرنه ، أخبر السلطان كوبرولو - زاده بأنه تعب جدا وعرض عليه قبول تنازله عن العرش (١٦٩٠/٢/٢٣) . رفض كوبرولو - زاده طلبه مخبرا إياه بأن الزمن ، زمن جد . وقع خبر مجيء كوبرولو - زاده إلى السلطة فى أوروبا ، وقع القنبلة . لأن الألمان كانوا قد تذوقوا طعم إسقاط السردارات (القواد) الذين كان كل منهم أتفه من الآخر .

سقطت قلعة Kanije ، قبل خروج كوبرولو - زاده من أدرنه إلى الحمله ، بيومين (١٦٩٠/٧/١١) . كانت القلعة مركزا للإيالة بين سلوفينيا فى المجر وحدود النمسا . استمر حكم العثمانية فى كانيجه ١٥٨ عاما ، إلا ١٨ يوما . لم يتمكن كوبرولو - زاده من مغادرة أدرنه ، إلا فى ١٣ تموز (١٦٩٠) . وخلال تقدم ميزومورتا حسين باشا ، أميرال أسطول القطع النهرية (القليلة العرض) للطونه ، نحو بلغراد ؛ تحرك هو من أدرنه ووصل شهر كوى (Pirot) واستعاد هذه القلعة من الألمان ، وأجبر جيش الإمبراطورية الذى يقوده Von Schenkendorf على التراجع

مغلوبا على أمره . واستولى على قلعة موسى باشا (١٢ آب) ، وعلى نيش التى يحميها ١٠٠٠٠ جندى ألمانى بواسطة ٩٠ مدفعا ، بعد حصار ٢٣ يوما (٩ أيلول) ، وخلال يومين استولى على سمندره (٢٧ أيلول) ، Vidin ، اورشوفا وفتح الإسلام ووصل بلغراد .

عنى العثمانيون بصيانه قلعة بلغراد وتحصينها تحصيناً جيدا ، وكان الألمان قد أصلحوها بشكل فائق . كانت القلعة مكونة من ٩ طوابق ، ١١٦ برجاً ، وأسوار متتالية يمكنها مقاومة أضخم الجيوش بكل سهولة لمدة شهرين أو ثلاثة . هذه القلعة استولى عليها كوبرولو – زاده بعد قصفها مدة ٧ أيام ليلا ونهارا بواسطة ٤٩ مدفعا ضخما (١٦٩٠/١٠/٨) . استشهد ٥٠٠٠ جندى تقريبا . استشهد بكلربك روملى مصطفى باشا برصاصة أصابت رأسه . صلى عليه ، فاضل مصطفى باشا بنفسه وقام بمهمة الإمام . خسر الألمان ١٥٠٠٠ قتيل و ٣٩٦ مدفعا المانيا ، تم الاستيلاء على ١٢ سفينة حربية على الطونه (هامر ، ١٢ ، ٣١٤) . أسر آلاف الألمان . كانت بلغراد قد بقيت تحت حكم الألمان مدة سنتين ، وهكذا بدأ دور حكم العثمانية الجديد فى بلغراد لمدة ١٨٨ عاما . عاد القليل من الأتراك الذين تركوا المدينة قبل عامين . خرجت بلغراد ، عن كونها مدينة تركية . وفقدت كذلك هويتها كمدينة مجرية . وأخذت تزدهر كمدينة صربية . استعيدت الأراضى الممتدة من Vardar إلى Darva التى تزيد على ٢٦٠٠٠٠ كم٢ . استعيدت كامل صربيا . تم طرد العدو من بوسنه وبلغاريا بشكل تام . اقتحم فرسان قرم Esklavonya ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على Osiyek . كان الصربيون يتعاونون مع الألمان . عفا كوبرولو – زاده عن الصربيين ووزع البذور والحيوانات والحبوب مجانا على مناطق القحط . تم إرضاء الصربيين وكسب ودهم بشكل حال بينهم وبين التفكير فى العصيان ضد الدولة العثمانية طيلة عصر واحد .

قدم البادشاه من أدرنه إلى إستانبول ، على أثر سماعه بخبر الانتصار . استقبل الشعب كوبرولو – زاده بمظاهرات ترحيب عظيمة . خلع ، سليمان الثالث فى السراى ، البردة الموجودة على ظهره والبسها لفاضل مصطفى باشا . ودعا له باكيا . استعد فاتح نيش ، فيدين ، سمندره وبلغراد ؛ لاسترداد المجر فى العام المقبل . زاد الخوف فى المانيا ، جددت تحصينات قلعة فينا ، كما أعيد تحصين بودابست .

ورغم استشهاد جركس أحمد باشا برصاصة مسدس معاد ، تمكن من هزيمة جيش الجنرال Caraffa البالغ ٢٦٠٠٠ جندى فى معركة Zernest الميدانية (١٦٩٠/٨/٢١) . نجا ٢٠٠ جندى معاد فقط ، وقتل ١٢ وأسر ١٨ جنرالا من الأعداء . اغتنم العثمانيون ٣٠ مدفعاً، ٧ رايات ، ١٥ علما . كان عدد شهداء الأتراك قليلا جدا وجرح ٣٠٠ منهم . على أثر ذلك جاء ماركراف (ماركيز) بادن Ludwig فى السنة التالية بجيش أضخم ، بقصد الاستيلاء على أردل (Transilvanaya) أيضا واستولى على هذه البلاد المجرية . الغيت الإمارة المجرية فى أردل وضمت إلى الإمبراطورية الألمانية كمقاطعة (١٦٩١/١٢/٤) . وانتهى الحكم العثمانى الذى استمر ١٦٥ سنة (Makkai, Histoire de T,ansylvanie ، ٢٥٣ - ٤) .

سار كوبرولو - زاده من أدرنه لحملة المانية ثانية (١٦٩١/٦/١٤) . توفى سليمان الثالث الذى كان مريضا منذ زمن طويل ، بعد ٨ أيام (١٦٩١/٦/٢٢) . دامت سلطنته ٣ سنوات ، ٧ أشهر ، ٤ أيام . كان عمره يتجاوز الـ ٤٩ بشهرين و٧ أيام . نقل جثمانه من أدرنه إلى إستانبول ، ودفن فى مقبرة جده السلطان سليمان الثانى القانونى .

غادر كوبرولو - زاده أدرنه ، وهو يعلم أن البادشاه على فراش الموت ، لكنه لم يرغب فى تأجيل تاريخ مسيرته وتفويت الموسم . كان قبل ذهابه ، قد هدد كافة رجال الدولة لإجلاس أخ البادشاه ، السلطان أحمد على العرش ؛ حيث كانت الأكثرية تريد إعادة إجلاس محمد الرابع على العرش ، وكان قسم آخر ، يريد إجلاس ولى عهد - سلطان مصطفى ، الابن الكبير لمحمد الرابع ، وقليل أولئك الذين كانوا يريدون إجلاس السلطان أحمد . وعلى الرغم من هذا الوضع ، فقد تم إجلاس السلطان أحمد على العرش خوفا من كوبرولو .

٨) دور السلطان أحمد الثانى (١٦٩١/٦/٢٢ - ١٦٩٥/٢/٦)

أحمد الثانى ، هو الابن الثالث للسلطان إبراهيم . وهو أصغر من أخيه الأكبر محمد ٤ بسنة ،أشهر ، ٢٤ يوما ، وأصغر من أخيه الكبير الآخر سليمان الثالث بـ ١٠ أشهر ، ١٠ أيام . أمه خديجه معزز الخاصكى (زوجة السلطان) الثانية ، كانت

قد توفيت قبل ٤ سنين (١٦٢٧؟ - ١٦٨٧/٩/١٢) . صار ولى عهد ، طيلة سلطنة أخيه الكبير سليمان الثالث ، بضغط من كوبرولو ، ولكن بعد سليمان الثالث ؛ كان عدد الذين يريدون إجلاس محمد الرابع مرة أخرى أو إجلاس ابنه السلطان مصطفى ، أكثر . جلس على العرش وعمره ٤٨ عاما و ٣ أشهر و ٢٥ يوما وهو أكبر من جلس على العرش عمرا حتى ذلك التاريخ . كان مولويا ، شاعرا ، خطاطا ، ملحنا ومؤلفا وكان مستوى تحصيله أعلى من كل من أخويه الكبيرين . ولده الوحيد عدا ٣ سلطانات (أميرات) و شهزاده (أمير) توفوا فى سن صغيرة جدا هو الشهزاده - سلطان إبراهيم (١٦٩٢/١٠/٦ - ١٧١٤/٥/٤) الذى ولد توأما ، وصار ولى عهد لابن عمه أحمد ٣ مدة ١٠ سنوات ، ٨ أشهر ، ١٢ يوما وتوفى وعمره يتجاوز الـ ٢١ عاما بـ ٧ أشهر ، دفن فى مقبرة جده السلطان إبراهيم . وفى ١٧٠٣ حدثت محاولة لإجلاسه محل أحمد ٣ ، الإ أن مؤيدو أحمد ٣ ، انتصروا . زوجة أحمد الثانى ووالدة ولى عهد - شهزاده سلطان إبراهيم ، هى رابعة خاصكى - سلطان (زوجة السلطان) (وفاتها ١٧١٢/١/١٤) ، مدفونة فى مقبرة القانونى .

كان الجيش الإمبراطورى ، تحت قيادة ماركيز بادن Salankamen على بعد ٥٠ كم (مسافة مستقيمة) من شمال - غرب بلغراد . كان جيشا كبيرا مؤلفا من ٥٠٠٠٠ مشاة و ٥٠٠٠٠ خيال ووحدات أخرى . قضى الألمان الشتاء فى الاستعداد بشكل جيد وحصلوا على امدادات . انضم الملك Tökeli مع ٨٠٠٠ مجرى إلى الجيش العثمانى ، أما خان قرم فكان فى الطريق . أخذ قائد أسطول الطونه مصطفى باشا يتقدم باسطوله النهرى صاعدا إلى مابعد بلغراد . وعلى مقربة من Salankamen فى الموقع الذى يصب فيه Tisa على الدونه ، تقابل مع ٨٠٠ سفينة نقل نهرية المانية تحمل العتاد والمهمات . أغرق القسم الأكبر منها وأسر قسما آخر . كان الألمان مترددين ، بسبب هزيمة العام الماضى واسم كوبرولو . كانوا يدافعون عن المجر ويعلمون أنهم سيفقدونها نتيجة لإحدى الهزائم . حفز وضع الألمان المتردد هذا ، أركان العثمانية ، وكوبرولو الذى ينتظر الجيش القرمى الذى يبعد مسافة ٧ ساعات ، على الهجوم قبل وصول القرميين . بدأت المعركة الميدانية عصرا باطلاقات المدافع المتبادلة بين الطرفين (١٦٩١/٨/١٩) . وخلال ساعات ، أخذت صفوف الألمان

فى الانحلال والتراجع . شهر فاضل مصطفى باشا سيفه وتقدم فى الصف الأول لتشجيع جيشه وتحقيق نتيجة حاسمة . وفى تلك اللحظة ، أصابت جبينه إحدى الرصاصات . صاح شخص أو شخصان من عديمى الأخلاق الموجودين حوله منادين باستشهاد السردار بشكل كأنما يراد به إسماع كافة الجيش ، فانحلت الصفوف . جمع الماركيز Ludwig الذى شاهد تغير الوضع ، فرقه المبعثرة وشرع فى الهجوم . لم تقدم الأفواج التركية على القتال وبدأت فى الانسحاب . وهكذا تسلم الألمان الذين تكبدوا خسائر جسيمة ، ساحة القتال من العثمانية التى كانت أضرارها طفيفة . لم يتمكن الماركيز الذى خسر ٤٠٠٠٠ جندى من مطاردة الأتراك. كان عدد شهداء الأتراك ٥٠٠٠ تقريبا . غير أن القسم الكبير من المدافع والمهمات العثمانية انتقلت ليد الألمان . سعادت كيراى خان الذى جاء إلى بلغراد مع جيشه بعد يومين ، شاهد باكيا ، دخول الأفواج العثمانية إلى المدينة . الحقيقة أنه تأخر ، لأنه لم يكن يملك سطوة سليم كيراى ، ولم يتمكن من جمع جيشه فى الوقت المحدد . وتمكن فقط من مطاردة العدو . جاء أولا إلى صحراء Salankamen . شاهد القتلى الألمان الذين يبلغ عددهم أضعاف الشهداء الأتراك ، متروكين دون دفن وشاهد حرق قسم من المهمات العثمانية التى لم يتمكن العدو من نقلها بكاملها . طارد الألمان حتى Petervaradin . قتل فى هذه المعركة دوق هولشتاين Christian أحد الحكام الألمان مع ٣ كونت من الحكام أيضا . كان رئيس أركان الماركيز ، هو المارشال الكونت Von Caprara . كانت الخسارة الكبيرة التى تفوق خسارة الحرب والتى لايمكن تعويضها ؛ هى استشهاد فاضل مصطفى باشا . دامت صدارته ١٢ سنة ، ٩ أشهر ، ٢٥ يوما . كان عمره ٥٣ عاما . استمرت عائلة كوبرولو ، من أبنائه الصدر الأعظم نعمان باشا ، السردار الوزير عبد الله باشا ، الوزير أسعد باشا .

صار قائمقام الصدارة ، عربه جى خوجه قوجا قاضى على باشا ، صدراً أعظم (١٦٩١/٨/٣٠) . كان شيخا حريصا وظالما . كان من غير الممكن أن يسد الفراغ الذى تركه كوبرولو - زاده . والحقيقة أنه لم يكن هنالك من يستطيع سد هذا الفراغ . جىء بقوجا خليل باشا بكلربك حلب ؛ قائدا عاما لجبهة المانيا .

استمر القتال فى خريف عام ١٦٩١ . انهزم الملك سوبياسكى فى كامانيجه أمام قهرمان باشا ، انهزم الألمان أمام Lippa تجاه طوبال حسين باشا بكلربك (أمير

الأمراء) تامشوار . أعدم على باشا ، ٣ من منافسيه مدعيا أنهم السبب فى هزيمة Salankamen . عزل سعادت كيراى الذى لم يتمكن من اللحاق بالجيش فى الوقت المحدد ونفاه إلى رودس حيث توفى هناك بعد مدة وجيزة . انشغل مدة ٦ أشهر و٢٩ يوما باجراءات كهذه . نفى إلى رودس وأعدم فيها ، وصار الصدر الأعظم البكلربك على دياربكر الوزير مرزيفونلى جالك حاجى على باشا (١٦٩٢/٣/٢٧) . كان وزيرا قديرا . أرسل الإمبراطور ، الكونت Marsigli الذى اشترك فى كافة المعارك فى الجبهة الألمانية منذ حصار فينا فى سنة ١٦٨٣ والذى يجيد اللغة التركية ، لغرض عقد صلح . استقبله أحمد الثانى مرتين فى إستانبول وفى أدرنه ، لم تؤد المفاوضات إلى أية نتيجة . خرب القرميون فى ١٦٩٢ غليجيا وشمالها الأقصى وخلال ذلك مدينة Lwow استسلمت Varat (بالرومانية : Oradeà Mare ، بالمجرية : Warasdin بالألمانية : Grosswardein) إلى الألمان مع ٩١ مدفعا ، ٢٠٠ كنتال قذائف ، ٧٠٠ كنتال بارود التى كانت موجودة فيها (١٦٩٢/٦/١٢) .

جاءت أساطيل البندقية – مالطه – البابوية – فلورنسا إلى كريت تحت قيادة الأميرال الكبير موروسينى وانسحبت بعد محاصرتها خانيا مدة ٤١ يوما وخسارتها ٤٠٠٠ جندى (١٦٩٢/٨/٢٨) . دافع عن خانيا ، الوزير اسباناقجى إسماعيل باشا . دخلت جيوش البندقية ، دالماجيا من ناحية ، ودخلت الجيوش الألمانية من ناحية أخرى ، خرواتيا ، ولكن دحر كلاهما .

منح جالك على باشا ، القيادة العليا . سار من أدرنة بعد ٥ أشهر ، ١٢ يوما (١٦٩٢/١٢/١٢) . عين سليم كيراى – كان عمره ٥٨ عاما – خانا على قرم للمرة الثالثة (١٦٩٢/١١/٦) . كان جالك على باشا وزيرا ذا أخلاق عالية كما كان اداريا قديرا . لكنه لم يكن رجل الأزمات الكبرى . تمكن من حمل عبء الصدارة مدة سنة ، ويوما ثم استقال (١٦٩٣/٣/٢٧) . توفى فى كاندية عندما كان واليا على كريت عام ١٧٠٠ عن عمر يناهز الـ ٦٠ عاما (سلاحدار ٢ ، ٦٩٥ ومابعده) . عين مكانه بوزوقولو (من أهالى يوزغات) بيبقلى مصطفى باشا ، وهو أيضا من ذوى الأخلاق العالية ومن الأشخاص الذين دربهم مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، وأعطيت له القيادة العليا (سردار أكرم) كذلك .

سار بوزوقلى بييقلى مصطفى باشا من أدرنة (١٦٩٣/٧/٦) . اجتاز فى ٢٧ تموز الطونه من Tutrakan . كان يريد استعادة أردل . لكنه غير اتجاه مسيرته ، عندما علم بأن الألمان توجهوا نحو بلغراد . حاصر الجيش الألمانى الذى يقوده دوق Croy ، بلغراد فى ٢٩ تموز . رفع الحصار فى ١٢ أيلول . قتل ١٠٠٠٠ ألمانى ، ٤٤٠٠ شهيد تركى . دافع عن القلعة ، جعفر باشا ، طارد الصدر الأعظم مصطفى باشا ، العدو المنهزم حتى Petervaradin ، وكبده خسائر جسيمة وعاد إلى بلغراد (١٧ أيلول) . دخل سليم كيراى كذلك أردل ، أسر ٢٠٠٠٠ جندى . عاد مصطفى باشا ، إلى أدرنة بعد ٤ أشهر ، ٢٤ يوما (١٦٩٣/١١/٢٩) . عزل بعد أن قضى فى الصدارة ١١ شهراً ، ١٨ يوما ، (١٦٩٤/٣/١٤) .

أرسل الختم الهمايونى إلى الوزير ديمه توكالى سورمه لى على باشا بكلربك (فريق) طرابلس الشام . جاء إلى أدرنة خلال ٣٠ يوما . ومنح القيادة العليا وسار من أدرنة لحملة Varadin (١٦٩٤/٦/٢٨) . حاصر فارداين مدة ٢٣ يوما ، ولم يتمكن من فتحها (٢ ت١) . عاد إلى أدرنة من حملته التى استغرقت ٥ أشهر ، ١٠ أيام (١٦٩٤/١٢/٨) .

تحرك أسطول البندقية - البابوية - التوسكانية - المالطية المشترك من البندقية ، بقيادة الدوج (رئيس جمهور) فرانسيسكو موروسينى وجاءوا إلى مورا . مات هنا العسكرى الكبير Morosini ، احتل مكانه Antonio . نشر ١١٥ سفينة حربية بحرية ، ١٢٠٠٠ جندى فى ميناء ساقيز أمام جشمه واحتل القلعة والجزيرة بقصفها من البحر (١٦٩٤/٩/٢١) . استمر الحصار ١٥ يوما ، ولأن القلعة استسلمت لحالها ، تمكن الأتراك من الذهاب أحرارا إلى جشمه . لكن سقوط ساقيز ، التى هى جزء من الأناضول قلبت إستانبول رأسا على عقب . قال البادشاه « ساقيز ، أحرقت قلبى ، لو رأيت استعادة ساقيز ، ومت ، لما اكترثت » لكنه مات متأثرا ولم يشهد استعادة ساقيز (١٦٩٥/٢/٦) . سبب ضياع ساقيز ، المصائب للعديد من رجال الدولة .

نقل السلطان أحمد خان الثانى الذى توفى فى أدرنة ، إلى إستانبول ودفن فى مقبرة سليمانية . كان عمره يتجاوز الـ ٥١ عاما بـ ١١ شهراً و ٩ أيام . عاش أكثر بقليل من سلفيه وهما أخواه الكبيران . ومن أغرب الصدف ، أن مدة سلطنته

دامت بالضبط ، (بحساب الأيام) بقدر مدة سلطنة أخيه الكبير سليمان الثالث ٣ سنوات ، ٧ أشهر ، ١٤ يوما . خطٌ ، عندما كان شهزاده (أمير) قرائين جميلة جدا . كانت لديه خبرة باللغات الشرقية . فى حوزتنا دفتر مذكراته اليومية عندما كان شهزاده ، لايوجد لأى بادشاه مثل هذه المذكرات . فاق اهتمامه بأمور الدولة ، اهتمام أخويه الكبيرين .

٩) المعارك البحرية مع البندقيين (١٦٩٥)

خرج ولى عهد - شهزاده سلطان مصطفى خان ، الذى علم بوفاة عمه بعد دقائق - دون دعوة من أحد - من جناح ولى العهد فى السراى الهمايونى فى أدرنة وجاء إلى جناح الهنكار (السلطان) وجلس على العرش ونادى رجال الدولة لمبايعته . كان عمره يقرب من الـ ٣١ عاما . هو كبير ابنى محمد الرابع . أمه السلطانه - الوالدة رابعة أمة الله كلنوش (١٦٥٢ - ١٧١٥/١١/٦) ، « سمراء ذات عينين سوداوين وشعر مسترسل أسود » كانت امرأة جميلة جدا ، عنيت بها أم زوجها السلطانه تارخان ، طيلة مدة كونها السلطانه - خاصكى (زوجة السلطان المفضلة) وجهزتها بعناية فائقة بما تحتاج إليه من الخصال لتكون أهلا لمنصب السلطانة ــ الوالدة (والدة السلطان) شغلت عرش السلطانة الوالدة ، خلال فترة حكم ابنيها الاثنين مدة ٢٠ عاما و٩٠ أشهر بلياقة كبيرة جداً . وبموجب التربية التى حصلتها ، لم تزج نفسها فى أعمال الدولة أو الأمور السياسية . شيدت آثار خيرية كبيرة واشتهرت بكرمها الواسع .

جدد العرش ، شبابه . كان مصطفى الثانى ، الذى احتل مكان عمه ، يصغره بـ ٢٠ عاما . أسقط كوبرولو - زاده فاضل مصطفى باشا حقه فى ولاية العرش ، حيث أجلس على العرش مكان أبيه الذى خلع ، عميه الاثنين الواحد تلو الآخر . وعلى هذا يكون مصطفى الثانى قد حرم من إمكان جلوسه قبل ٧ سنوات ، ٣ أشهر عندما كان فى الـ ٢٣ من عمره . اشترك فى عهد أبيه فى الحملات الأوروبية ، وعاش فى عهد أعمامه حرا فى إستانبول وأدرنة . جلس على العرش وهو السلطان الأكثر فعالية وثقافة والأكبر مقدرة من جميع السلاطين الذين حكموا بعد مراد الرابع . والحقيقة ، أن تحصيله كان عاليا .

كان أحمد الثانى ، قد اهتم قبل وفاته بتجهيز الجيش والبحرية لاسترداد ساقيز . صار السردار الأكرم (القائد الأعلى) الوزير مصرلى اوغلو ابراهيم باشا . القبطان دريا (مشير البحر) السابق وبكلر بك طرابلس الغرب السابق ، عزل ميزومورتا حسين باشا بكلربك الجزائر السابق من منصب قبطان دريا وصار قبطان الكاليونات قائد « فريق البحر » أسطول المراكب الشراعية الحربية) .

تمكن ميزومورتا بالأسطول الهمايونى البالغ ٤٨ قطعة من العثور على الأسطول البندق المكون من ٦٥ قطعة . جرت معركة مضيق ساقيز البحرية ، فى المجال البحرى الكائن فى شمال – شرق الجزيرة . كان الأسطول البندق المعزز بأساطيل البابوية ، مالطه ، وتوسكانا ، بقيادة الأميرال الكبير (مشير البحر) Benedetto Pisani أصيبت سفينة الأميرالية المسماة Vittorio (الظفر) ، ومات ، وعندما شاهد مساعده الأميرال Contarini الذى احتل مكانه ، غرق ٦ من سفنه وإصابة الكثير منها ، وغرق سفينتين فقط للعثمانية ؛ انسحب إلى ميناء ساقيز (١٦٩٥/٢/٩) .

بعد ٩ أيام ، ظفر ميزومورتا فى هذه المرة بالأسطول البندق ، على مقربة من جنوب جزر قويون (صباح ١٨ شباط) الذى يقرب من موقع المعركة السابقة . ورغم غرق ٩ سفن من سفن الأميرال الكبير لم يتمكن من إغراق سفينة عثمانية واحدة . ترك ساقيز وهرب إلى مورا . وبهذا اتضح مصير ساقيز (راشد ، ٢ ، ٣٠٥ – ١٠ ؛ نصرت – نامه ، ١ ، ١٠ – ١٦ ؛ Rycault, History of The Turks ٥١٨ – ٢٦ ؛ هامر ، ١٢ ، ٣٧٧ – ٨ ؛ ف . قوردوغلو ، Mezomorta Hüseyin Pasa ، ٥٩ – ٦٢ ؛ وثائق ارشيفيه : صفوة بك ، Koyunadalari Deniz Harbi ، ٣ ، ١٥٠ – ٧٧) .

تم استرداد ساقيز (١٦٩٥/٢/٢٢) . كانت مدة الحكم البندق فى الجزيرة عبارة عن ٥ أشهر ، ويوم فقط . انتقلت ليد العثمانية ٨ سفن بندقية راسية فى الميناء ، وفى القلعة ١١٢ مدفعا ، ٥٠٠ بندقية ، ٣٥٠٠٠ قذيفة ، ١٢٠٠ قنطار بارود ، ٢٥٠٠ قنطار رصاص ، ٨٠٠ قنطار فتيل ، ٦٠٠٠ كيلة حنطه ، ٥٠٠٠ كيلة ذره (لم يتمكن العدو من نقلها معه) ، و ٧٨٠ جنديا بندقيا (نصرت – نامه ، ١ ، ١٦) . رفع ميزومورتا حسين باشا ، الذى حقق استعادة ساقيز ، إلى رتبة قبطان دريا (أميرال كبير ، مشير البحر) مع منحه لقب وزير .

تجمع البندقيون ، فى مورا ، ودخلوا مرة أخرى ، ارخبيل الجزر (ايجه) مع اسطول مكون من ٧٧ قطعة بحرية . وبعد أن أعجز ميزومورتا حسين باشا ، العدو خارج مياه جزيرة Sisam (١٧ أيلول) ، طاردهم مدة يومين وظفر بهم فى هذه المرة فى Yera خارج مياه جزيرة ميديلى (١٦٩٥/٩/١٩) . غرقت سفينتان بندقيتان وأصيبت ١٠ سفن باصابات بليغة ، فتحولت إلى قطع يمكن سحبها فقط كسفن احتياطية . قتل ٥٠٠٠ بندق . لم يقع أى ضرر على السفن العثمانية وكان مجموع الشهداء مع الجرحى ، عبارة عن ٣٠٠ .

وفى بداية عام ١٦٩٥ ، اجتاح شهباز كيراى ، ابن سليم كيراى خان ، مع ٧٠٠٠٠ خيال ، غاليجيا ووصل حتى Lwow ، خرب ١٠٠٠٠ قرية وقصبة ، عاد ومعه ٣٠٠٠٠ أسير .

عندما علم مصطفى الثانى بخبر استرداد ساقيز ، عزل رجل الدولة السيىء سورمه لى على باشا بعد صدارة دامت سنة ، شهرا ، ١٩ يوما (١٦٩٥/٥/٢) ، وعين مكانه الماس محمد باشا ، الذى كان قد حقره سلفه تحقيرا شديدا (عمره ٣٣ عاما) . لكن هذا التعيين ، أثار الغيرة الشديدة بين رجال الدولة . وفى ٢٥ أيار ، أمر باستقدام أستاذه شيخ الإسلام السالف فيض الله أفندى من أرضروم وجعله شيخ الإسلام مرة ثانية . سيحتفظ فيض الله أفندى بمقامه هذا إلى نهاية سلطنة البادشاه .

١٠) الحملتان الهمايونيتان ، الأولى والثانية على ألمانيا (١٦٩٥ ، ١٦٩٦)

سار السلطان مصطفى مع الصدر الأعظم ، من أدرنة للحملة الهمايونية الأولى على ألمانيا (١٦٩٥/٦/٣) . اشترك شيخ الإسلام حاجة سلطانى أرضروملى سيد فيض الله أفندى فى الحملة . ولدت الانتصارات على البندقية وبولونيا ، جوا من التفاؤل . استولى على Lwow ، وأفنى جيشا بولونيا عدده ١٢٠٠٠ جندى (نصرت – نامه ، ١ ، ٢٣) .

مكث البادشاه أسبوعين فى صوفيا واستقبل فى ٢ آب فى بلغراد بـ ٤٠٠ إطلاقة مدفعية . كان الجيش الهمايونى ١٥٣٠٠٠ جندى ، ومن ناحية أخرى ، كانوا فى

انتظار الجيش القرمى . حضر كذلك ملك المجر الوسطى Tökeli Imre . جاء البادشاه إلى Tamesvar مركز الإيالة . يسجل فندقلى لى محمد آغا ، خازن الأسلحة الشهرياری (السلطانى) الموجود فى معية البادشاه فى الحملة ، بأن مصطفى الثانى هو البادشاه الأول الذى يصل إلى تامشوار (نصرت - نامه ، ۱ ، ۷۲) . استولى على Lippa مع الـ ٤٣ مدفعاً الموجودة فيها خلال ساعة ونصف (٩ أيلول) . أسر الماريشال Marquis de Mirmillis الفرنسى الأصل والذى كان فى خدمة الإمبراطور . كان جيش الإمبراطورية الألمانى فى صحراء Lugos . جرت هنا حرب ميدانية (١٦٩٥/٩/٢٢) سقط آلاف الألمان قتلى ، أسر ٥٠٠٠ . كان القائد العام Frederico Veterani ورئيس أركان جيشه أمير Liechtenstein بين القتلى . استسلمت قلعة Lugos . ينوف عدد الشهداء على الـ ٧٠٠ ويقارب عدد الجرحى الـ ١٠٠٠ . كان بين الشهداء وزير (شاهين محمد باشا) ، ابكلربك ، اسنجق بك (أمير لواء) . دفنوا بملابسهم الملطخة بالدماء فى صحراء النصر . أما جراح محمود باشا بكلربك روملى ، فكانت بليغة ، ولانه مات بعد مدة ، فقد جرت مراسم دفنه حسب الأصول . جرح بكلربك واحد وسنجق بك واحد (نصرت - نامه ، ٩٥) .

تم الاستيلاء على قلعة شبش (بالمجرية : Sebes) ، وهكذا اكتسب الحكم العثمانى الصفة القطعية فى Banat وادمج جنوب - غرب أردل فى إيالة تامشوار . كانت أردل مفتوحة للاستيلاء العثمانى بعد انتصار Lugos . لكن روح الفتح والدولة العالمية كانت قد ماتت لدى العثمانية . اقنعوا البادشاه بالعودة بحجة حلول الخريف . عاد مصطفى الثانى إلى إستانبول بعد ٤ أشهر ، ١٨ يوما (١٦٩٥/١١/١٨) . عين الوزير جلبى ابراهيم باشا ، قائدا عاما على المجر والوزير مصرلى أوغلو إبراهيم باشا قائدا عاما على مورا تجاه البندقيين . وأحال إلى التقاعد وزيرا واحدا و ٦ بكلربك وهم الذين لم ترقه خدماتهم فى هذه الحملة ، وخصص لكل منهم راتبا تقاعديا قدره ٣٠٠ آقجه (عملة فضية) يوميا .

كان معروفا ، أن هدف القيصر بطرس الكبير هو الوصول إلى البحار المفتوحة ، خاصة البحار المفتوحة الدافئة . البحر الدافىء المفتوح ، هو البحر الأسود . فى الوقت الذى كانت فيه السويد تسد البلطق ، والعثمانية تسد البحر الأسود عن روسيا ؛ كانت

روسيا تعيش كأية دولة برية ، تتحسر على حرمانها من نعم البحار . ورغم محاولاتها ، لم تتمكن من النهوض والدخول فى عداد الدول الأوربيـة . جاء جيش بطرس الشاب مع ٣٠٠٠٠٠ جندى أمام آزاك (Rostov) . ولو تمكن من الإستيلاء عليها لأمكنه الوصول إلى البحر الأسود من أقصى حافته . دافع عن القلعة ، مرتضى باشا بكلربك كفه Kefe مدة ٣ أشهر ، ٤ أيام . جرى قتال عنيف جدا . تسجل المصادر الروسية أنه ، قتل مايقارب ٣٠٠٠٠ وبالنسبة للمصادر العثمانية ٦٠٠٠٠ جندى روسى . طارد ٥٠٠٠ جندى عثمانى ، القيصر أثناء انسحابه وقتلوا ٤٠٠٠ جندى روسى آخر تقريبا (نصرت – نامه ، ١ ، ١٢١ – ٩ ؛ هامر ، ١٢ ، ٣٩٥ – ٦) . درس بطرس أسباب هذه الهزيمة بدقة ، وتوصل إلى نتيجة مؤداها أنه لايمكن محاصرة قلعة دون حيازة المعلومات التكنولوجية ، وأن الجيوش الكثيفة بدون ضبط وتعليم ، هى قطعان لافائدة فيها . وفى ١٣ ت١/١٦٩٥ وقبل مضى سنة واحدة على الهزيمة ، جاء إلى آزاك ١٦٩٦/٦/٣ . شيد مصنعا للسفن الخفيفة (النهرية) فى Voronej على الدون ، وأخذ فى انتاج السفن ، وعلاوة على ذلك ، أعطى قيادة الجيش الروسى إلى الجنرال الاسكتلندى Gordon وإلى الفرنسى السويسرى Lefort . جاء مع ١٠٠٠٠٠ جندى . لم يكن الجيش العثمانى قد أصلح بعد قلعة آزاك ولم يعزز الحامية . حفر المهندسون البندقيون والسويديون ، والدانماركيون والهولنديون والانكليز الأنفاق المؤدية إلى قلعة آزاك . لم يتمكن ٥٠٠ جندى عثمانى وهم الموجودون فى القلعة من المقاومة أكثر من ٦٣ يوما واستسلمت فى ٦ آب . أعدم ٣ بكلربك الذين لم يتمكنوا من إمداد القلعة فى حينه . حكم بطرس قلعة آزاك واحتفل بنصره هذا فى موسكو بإقامة الأفراح . ومن ناحية أخرى ، أستولى على القرية التركية الواقعة على الساحل الشمال – الشرق من بحر آزاق المسماة Taygan وسماها Taganrogوجعلها مركزا بحريا . حكم العثمانيون ضفتى مضيق Kereç وكذلك عززوا Karasnodar الواقعة على نهر Kuban . قوبل ضياع آزاك باستياء فى إستانبول ، (نصرت – نامه ، ١٥١) ، ورغم أن آزاك سوف تسترجع بعد ١٥ سنة ، فإن روسيا كانت قد تذوقت طعم البحر الأسود .

سار القبطان دريا ميزومورتا حسين باشا مع ٦٦ قطعة بحرية إلى الحملة (١٦٩٦/٥/١٣) ، انضم إليها فى فوجا Foça ١٠ سفن حربية جزائرية

و ٥ تونسية و٣ طرابلسية . ظفر بالأسطول البندق فى ١٨ أيلول فى المياه المفتوحة لجزيرة Andros من جزر Kikland . غرقت ١٣ سفينة بندقية ، و٦ عثمانية . قتل ٥٠٠٠ بندق واستشهد ٣٠٠ تركى . قتل ٢ أميرال بندقيان وقطعت اليد اليسرى لآخر .

سار السلطان مصطفى الثانى من إستانبول للحملة الهمايونية الثانية (١٦٩٦/٤/٢٠) . ظل شهرا ، ٢٠ يوما فى أدرنة . جاء إلى بلغراد فى ٣ آب . كان الملك Tökeli Imre ضمن الجيش العثمانى .

كان الجيش الألمانى يتكون من ٤٥٠٠٠ خيال ، ٤٠٠٠٠ مشاة ، ووحدات إضافية ، و ١١١ مدفعا . القائد العام للإمبراطورية ، هو منتخب ساكسونيا Friedrich - August الذى يسميه الأتراك – بسبب كونه عسكريا فظاً – « نالقيران » (كاسر النعل) وهو الذى انتخب كذلك ملكا على بولونيا بعد وفاة سوبياسكى فى هذه الأثناء كان رئيس أركانه الماريشال الكونت Von Caprara ، قائد الجناح الأيمن الماريشال Von Taafe ، قائد الجناح الأيسر الماريشال Von Haeusler . كان السلطان مصطفى ، على وشك دخوله المجر ، عندما علم بمحاصرة الملك ـــ المنتخب ، لتامشوار ، فغير اتجاهه إلى تلك الناحية . أما الملك فإنه عندما علم بقدوم البادشاه نحوه ، رفع الحصار وجاء إلى الصحراء .

أصدر الملك المنتخب ، أمر التراجع عند خسارته ١٦٠٠٠ قتيل فى الحرب الميدانية Olas (١٦٩٦/٨/٢٧) ، كان بين القتلى Von Haeusler و ٣ كونت من حكام الألمان . كانت خسارة الأتراك مايقارب ١٥٠٠ شهيد و ٢٠٣٢ جريحا . استشهد وزير واحد وبكلربك واحد ، وقطعت إحدى القذائف اليد اليسرى للوزير مصطفى باشا ، أخ الصدر الأعظم الماس محمد باشا ، لكنه نجا من الموت . اغتنم العثمانيون ٢٢ مدفعا و ٩ رايات ومهمات على نطاق واسع . وبعد هذا الانتصار كذلك ، لم يفكرون فى استعادة أردل . جاء الجيش الهمايونى إلى تامشوار فى ٣١ آب . شيخ الإسلام وحاجه سلطانى (أستاذ السلطان) فيض الله أفندى الذى اشترك فى هذه الحملة ذبح القرابين ؛ لأن ٩ قذائف ألمانية مرت من فوق رأس البادشاه وارتكزت فى الأرض . استمرت الحملة مدة ٦ أشهر و ٥ أيام . عاد مصطفى الثانى إلى أدرنه (١٦٩٦/١٠/٢٥) .

وفى ١٦٩٦ ، اجتاح سعادت كيراى غاليجيا أيضا إلى Lwów وعاد ومعه ١٠٠٠٠ أسير (نصرت - نامه ، ٢١٧) . ظفر ميزومورتا حسين باشا فى ١٦٩٧ بأسطول البندقية وحلفائها ، خارج مياه جزيرة Andros وهزمه (٢ أيلول) . حاصر البندقيون قلعة أولكون (بالصربية : Ujcin ، بالإيطالية : Duleigno) على ساحل قره داغ . تسجل المصادر الأوربيـة أنهم خسروا ٥٠٠٠ ، وتسجل المصادر العثمانية أنهم خسروا ١٢٠٠٠ قتيل ثم انسحبوا . وفى ١٦٩٧ اجتاح القرميون دلتا الفولغا حتى استرخان . ساند القالموقيون البوذيون هنا (إحدى العشائر المغولية) الروس ، ولم يساندوا الأتراك . وفى السنة التالية ، ظفر ميزومورتا حسين باشا بالأسطول البندقى فى المياه الخارجية لزيتون بورنى جنوب ميديلى (١٦٩٨/٩/٢٣) . غرقت سفينتان للبندقيين ، أصيب أكثرها ، وسقط ١٢٠٠ قتيل و ٢٥٠٠ جريح تقريبا . خسائر العثمانية ٣٠٠ شهيد و ٥٠٠ جريح تقريبا . جرح الأميرال الكبير Cornaro فى يده اليمنى .

١١) الحملة الهمايونية الثالثة ، هزيمة Zenta (١٦٩٧/٩/١١)

سار مصطفى الثانى من أدرنه للحملة الهمايونية الثالثة (١٦٩٧/٦/١٧) . جاء إلى بلغراد فى ١٠ آب . كان فى انتظار البادشاه فى هذه المرة ، أحد أكبر العسكريين فى العصر وهو أمير Savoie الماريشال Eugen بصفته قائد الإمبراطورية . الأمير الذى ولد فى باريس عام ١٦٦٣ ، يكبر السلطان مصطفى بسنة واحدة . كان قد طلب من لويس ١٤ قيادة فوج ، وعلى أثر إفادة الملك بأنه حديث السن ، غادر فرنسا ، وحصل من الإمبراطور على قيادة فوج ، اشترك فى القتال بصفته هذه وهو فى سن الـ ٢٠ أمام مرزيفونلى قره مصطفى باشا فى معركة Kahlenberg الميدانية (بالعثمانية المان داغى) ، وتمكن بدهائه الخاص من التعمق فى فهم أصول القتال التركى وتشكيلاته العسكرية . حارب الأتراك بصفة قائد فوج ، لواء ، فرقة ، جيش . عين فى ١٦٩٧ قائدا عاما على القوات البرية للإمبراطورية الألمانية وعمره ٣٤ عاما . سيحارب الأتراك بصفته هذه للمرة الأولى وأمامه الخاقان - الخليفة العثمانى بنفسه وليس سردارا اعتياديا .

اجتاز الجيش الهمايونى ٩ جسور ووصل Zenta . وهى قرية تقع فى جنوب المجر ، وتبعد ٤٠ كم عن جنوب Srgedin و ٣٥ كم عن جنوب – شرق Subotica . ونهرها هو Tisa . الأراضى المجرية ، تأتى بعد عبور الجسر . أسر الألمان فى هذه الأثناء ، أحد البكلربك الخونة المسمى كوجوك جعفر باشا . قابل هذا الشخص الأمير أوجين . يقول الكونت Marsigli الذى اشترك فى هذه الحرب (ص ٢١٤) : « علم الأمير من الباشا التركى بأن السلطان اجتاز Tisa مع الخيالة ، وأن المشاة والمهمات جاهزة للعبور وأن الجيش بكامله سوف يعبر خلال أيام . جاء إلى Zenta ، وشاهد صحة ماقاله الباشا التركى ، وأدرك أن الفرصة سنحت له » .

قصف الأمير أوجين بنار المدفعية ، الجسر الذى يجتازه الجيش الهمايونى . سقط فى النهر آلاف الجنود العثمانيين من الجسر الذى انهار من ناحيتين . والأنكى من ذلك ، آن الجيش انقسم إلى شطرين ، وظل على ضفتى النهر . كان الوزير بيوك جعفر باشا ، بكلربك روملى فى الجناح الأيمن ، والوزير مصرلى أوغلو إبراهيم باشا بكلربك الأناضول فى الجناح الأيسر . وكان الملك Tökeli Imre وشهباز كيراى أمير قرم كذلك موجودين ضمن الجيش . جرت المصيبة المسماة معركة زنتا Zenta الميدانية بين الألمان وشطر الجيش الذى تمكن من العبور . بقيت الوحدات العثمانية التى لم تتمكن من العبور متفرجة فقط ، ولم تتمكن حتى من فتح النار . لأن النار التى ستفتح يمكن أن تصيب الطرفين ، بسبب تشابكهما .

تقول المصادر الألمانية أن حوالى ٢٠٠٠٠ عثمانى استشهدوا ، و ١٠٠٠٠ تقريبا غرقوا فى النهر (فون هامر ، ١٢ ، ٤٢٣) . أما بالنسبة لراشد (٢ ، ٤١٤) فمجموع شهداء الأتراك ١٣٠٠٠ تقريبا . استشهد كل من الصدر الأعظم الماس محمد باشا بكلربك الأناضول وأميرال عصره الشهير مصرلى أوغلو الوزير إبراهيم باشا ، بكلربك تامشوار الوزير قوجا جعفر باشا ، بكلربك روملى الوزير بلطه جى أوغلو محمود باشا . انتقل إلى حوزة الألمان الختم الهمايونى الذى يتأبطه الصدر الأعظم ، مدافع كثيرة ، ٩٠٠٠ عجلة ، ٦٠٠٠٠ جمل ، ١٥٠٠ ثور ، ٧٠٠ حصان ، ٢٦٠٠٠ اطلاقة مدفعية ، ٥٥٣ قذيفة ، ٥٠٠ طبل ، ٨٨ جرسا ، ٤٠٠٠٠ سكة ذهبية نقدية ، عربة البادشاه التى تسحبها ٨ خيول . وانتقل إلى حوزة الألمان كذلك التاج الملكى المجرى الذى كان لدى Tökeli Imre . عندما

قدمت الغنائم إلى الإمبراطور ، أبدى سروره بهذا التاج والختم الهمايونى .

كان انتصار الأمير أوجين كبيرا؛ حيث أنه لم يصغ لأمر الإمبراطور ببقائه فى حالة الدفاع وعدم دخوله حرب ميدانية بسبب عدم خسارة أى بادشاه ، فى حرب ميدانية حتى ذلك التاريخ ؛ ولم يفوت الفرصة عندما ظفر بالجيش الهمايونى على الجسر . والحقيقة ، أنه حتى ذلك التاريخ ، - عدا معركة انقره - لم يهزم أى بادشاه فى حرب ميدانية ، فى أية حملة همايونية . ولأن معركة انقرة خسرت تجاه حاكم مسلم ، فيكون الأمير أوجين ، قد أظهر فعلا ، إمكان انتصار جيش مسيحى على خاقان عثمانى فى حرب ميدانية . إذ لم يكن البادشاه ، قائدا عاما فى أية معركة سابقة انتصر فيها المسيحيون .

كان البادشاه وكذلك الصدر الأعظم فى شطر الجيش الذى اجتاز إلى الضفة الثانية . وبتضحيات كبيرة ، أمكن إنقاذ حياة البادشاه وإعادته إلى الخلف . لكن الجنود ، لم يعاملوا الصدر الأعظم بنفس المعاملة . بل بالعكس ، شهر الانكشاريون الخناجر على الماس محمد باشا ، استشهد الصدر الأعظم وجرح أخوه الوزير مصطفى باشا (الذى كان ذا ذراع واحدة) بجراح بليغة . ألقى الجند مسئولية نسف الجسر على عاتق الصدر الأعظم . والذى ألقى هذه الفكرة فى أذهان الجنود ، هم منافسو الماس باشا الذين يريدون التخلص منه . وبطبيعة الحال فانه ليس من السهل ، الحرب بجيش بهذا الوضع . أدرك مصطفى الثانى ذلك . « وأثناء انسحاب البادشاه بسكون مع سباهيته الخيالة إلى تامشوار ، لم يستصحب معه أية وحدة من وحدات الانكشارية التى يكرهها . لم يتمكن الأمير أوجين من مطاردة الأتراك ، بسبب وجود النهر الذى يفصل بين الفريقين . وبعد انتصارنا انتقلت إلى حوزتنا كافة القلاع التى كانت باقية لدى الأتراك . أكثرها استسلمت بسبب الجوع وانسحبت وحداتها وذهبت بحرية . لم يبق بعد الآن علاقة للأتراك بالمجر . والأهم من ذلك ، انقطع أملهم فى استعادة المجر » (Kont Marsigli ص ٢١٥ ، ٢٦٠) .

هكذا انتهت صدارة الماس باشا التى دامت سنتين و ٤ أشهر و ١٠ أيام صار عموجه - زاده حسين باشا ، صدراً أعظم . كان أعظم وزراء عصره . كان عمره ٤٩ عاما . وهو ابن عم لكل من كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا وفاضل مصطفى باشا . كان حسين باشا ، الذى يسمى كذلك باسماء « كوبرولو - زاده ، يكن

(ابن عم) ، مولوى ، سرخوش (سكران) » ؛ يريد توجيه الدولة نحو الصلح .
أما مصطفى الثانى ، فكان يزعم أنه سوف يسترجع المجر ويعتبر هزيمة زنتا ، صدفة سيئة نعيما ، كتب تاريخه المشهور الذى اسمه الأصلى روضة الحسين ، على اسم حسين باشا هذا .

وبهجوم مفاجىء ، دخل الأمير أوجين ، بوسنة سراى بعد زنتا بشهر واحد (١٦٩٧/١٠/١٧) . لاتوجد قلعة فى بوسنة سراى . إذ إنها كانت تعتبر مدينة داخلية . ولم يكن فى المدينة جنود ، فكلهم ذهبوا إلى الحملة . ولم يكن بكلربك بوسنة كذلك موجودا فى المدينة . كانت بلدة ثقافية عثمانية كبيرة يبلغ عدد نفوسها ١٢٥٠٠٠ نسمة ، تحوى ١٧٧ مسجداً ، ١٨٠ مدرسة ، ٤٧ تكية ، ٧٣ خان ، ٣ كروان سراى (منزل) ٧ عمارات (مراكز توزيع الطعام للفقراء) .
بقى الأمير ٢٤ ساعة فى البلدة وحرق ١٢٠ مسجدا (هامر ، ١٢ ، ٤٢٧ - ٨) ؛ راشد ، ٢ ، ٤٢٢ — ٣) ولأنه حقق هذه الغارة الجزئية بقوة بسيطة قوامها ٤٠٠٠ خيال ، ٢٥٠٠ مشاة ، ١٤ مدفعا ، فقد انسحب فى الحال عندما علم بقدوم وحدة عثمانية نحوه .

١٢) معاهدة كارلوفجه (١٦٩٩/١/٢٦)

كانت كل من المانيا وفرنسا ، تستعدان فى هذه الأثناء لحرب ترث فيها إسبانيا .
اخذت كل من انكلترا وهولندا ، مكانها بجانب المانيا وكانتا عازمتين على سحق فرنسا فى هذه الحرب . دولتان بحريتان كبيرتان كانكلترا وهولندا ، اتحدتا تحت إدارة وليم ٣ William (بالفلامانية : Willem) وكان لويس ١٤ ملك فرنسا عازما على تفريق هذا الاتحاد . وفى إستانبول ، كان لورد Lord Paget سفير انكلترا و Collyer سفير هولندا يمثلان اصلاً ، نفس الحاكم (رئيس الدولة) . وليم ، الحاكم الهولندى الأصل الذى صار – فى نفس الوقت – ملكا على انكلترا بلقب « وليم ٣ » . إن قوة انكلترا – هولندا معا ، تقل عن قوة فرنسا . إلا أنه ، لو أمكن إدخال ألمانيا كذلك فى هذا الاتفاق ، لأمكن التفوق على القوة العسكرية الفرنسية . لذا شرع السفيران فى إستانبول فى الدعاية الكبيرة لاقناع رجال الدولة بمصالحة ألمانيا وقدموا رشاوى كبيرة . ولو تقدمت المانيا بالصلح ، فسوف تتلهف على الدخول فيه بطبيعة

الحال البندقية ، بولونيا وروسيا لأنهم سيكونون لقما سائغة للعثمانية بدون ألمانيا .

كان الصدر الأعظم عموجه – زاده حسين باشا ، يريد إنهاء هذه الحرب وتضميد جراحات الدولة . رجال الدولة الآخرين كانوا يؤيدون الصدر الأعظم ، سواء لأنهم كانوا يؤيدون الصلح باخلاص ويرون أن سلامة الدولة فى هذا الاتجاه ، أو لأنه غرر بهم سفيرا انكلترا وهولندا الموجودان فى إستانبول . لم يجد مصطفى الثانى حوله من يؤيده فى الحرب إلا القليل جدا . كان قبول الصلح ، يعنى ترك المجر وموراً . جهز مصطفى الثانى جيشا عظيما وسط الشتاء لاستعادة المجر . لكن الوزراء مانعوا فى مسيرة البادشاه إلى الحملة عام ١٦٩٨ . ومرت السنة بكاملها فى مفاوضات الصلح ومحاولات السفيرين – لصالح العثمانية كما يزعمون – للوساطة فى الصلح . فرنسا التى شعرت بالإحاطة بها كانت ترغب وتستحث العثمانية على الاستمرار فى الحرب . لكن الباب العالى ، كان قد سئم من تقلب لويس ١٤ . كان يعلم أنه عدو الإسلام والأتراك ، ولايعتمد عليه إطلاقا . وفى الواقع فإن فرنسا ، كانت تزين فقط ، ولاتقترح دخول الحرب بجانب العثمانية . ومن جهة أخرى ، فان السفيرين كانا محايدين فى الظاهر ، ولكنهما فى الحقيقة ، كانا يخدمان مصالح ألمانيا حليفة رئيسى دولتيهما ، ويسعيان فى تحقيق صلح لصالح ألمانيا على قدر الإمكان . Collyer الذى يمثل هولندا فى إستانبول منذ ٢١ عاما ، يتكلم التركية ، ويذهب إلى بيوت الوزراء ويأكل الطعام متربعا على الطريقة العثمانية ، ويشرب القهوة والجبك (نوع من الغليون طويل الأنبوب) . وبناء على ذلك فإنه كان بالنسبة للكثيرين من رجال الدولة العثمانية السذج كافراً يحب العثمانيين . كان عموجه – زاده الذى كان إداريا جيدا ولكنه لم يكن عسكريا يخشى من خروج البادشاه بحملة جديدة ويريد التعجيل بالصلح . وفى جو كهذا ، لم تحدث أية حركة عسكرية مهمة فى الجبهات خلال عام ١٦٩٨ .

كانت البندقية ، تغرى فيينا بعقد الصلح خشية احتمال فقدانها مورا فى حالة استمرار الحرب وتيقنها كذلك من عدم قدرتها على استقطاع شىء جديد من العثمانية ، بسياستها الواقعية . بولونيا عاجزة أمام القرميين الذين يجتاحون غاليجيا ويدمرونها كل عام ، وتطلب الصلح . والقيصر بطرس فقط ، اقتناعاً بأنه لم يتمكن من استقطاع شىء من العثمانية ، واعتماداً على حصانته الجغرافية ، ولأنه ، لايبالى بعدد الجنود الذين يفقدهم فى الحرب ؛ كان يعارض الصلح مع فيينا .

كان العالم الإسلامى ، متأثرا من تكبد العثمانية خسائر كبيرة فى هذه الحرب . قدم الشاه إلى العثمانية فى إيران ضمانات أكيدةلأمن الحدود من جهة إيران وأنه يمكنها سحب جنودها الزائدة من الحدود الشرقية لاستعمالهم فى الحرب فى أوروبا ، وقد بر بوعده ، أرسل مصطفى الثانى رئيس الكتاب السابق (وزير الخارجية) محمد باشا إلى أصفهان وشكر الشاه حسين . ويبدو أنه قد انتهت الفترة التى كان لايمكن لأوربا فيها مقاتلة العثمانية ، إلا بمساعدة إيران ، والآن ، أصبحت أوربا ، مقتنعة بأنها تستطيع تحقيق ذلك بمفردها ، إذا ماإتفقت فيما بينها . أما تيمور أوغلو أفرنكزيب علمكيرشاه ، الذى وفق للمرة الثانية فى التاريخ - بعد السلطان علاء الدين محمد - فى توحيد الهند تحت ظل دولة موحدة واحدة والحاكم المقتدر الثانى على وجه الأرض بعد البادشاه ، فإنه لم يظهر أية إشارة تدل على ميله نحو العثمانية . كان من الواضح أنه يحسد البادشاه على حيازته صفة الخلافة . وبسبب كثرة عدد حجاجه ، ووجود تجارة عثمانية - هندية واسعة النطاق ، لم يظهر كذلك أى عداء تجاه العثمانية . وكان وجود ايران ، بين الدولتين ، يمنع ذلك . إن خانات تركستان وخاصة سبحان قولوخان ، الذى هو أعظمهم اقتدارا (١٦٨٠ - ١٧٠٢) ، ساند العثمانية فى هذه الحرب مساندة علنية . أفاد خطيا بأن البادشاه العثمانى ، كما أنه خليفة له بالذات ، فهو كذلك خليفة المسلمين كافة وأخ كبير له (سلاحدار ، ٢ ، ٤١٨) . ولكن لم يكن باستطاعته عمل الكثير . ساق جيشا ، وعزل روسيا عن قرم ، وهذه ليست بالخدمة اليسيرة ؛ إذ يسر بذلك للجيش القرمى أن يحارب فى جبهات بولونيا وألمانيا وهو فى أمان من ناحية روسيا . سلطان فاس اسماعيل ، ولو أنه يعتبر حاكما أقل شأنا بالنسبة لبادشاهات الأتراك فى الهند وايران ، لكنه على كل حال ، حاكم دولة كبيرة وأكبر شأنا من خانات تركستان وقرم ، لم يكن وضعه مواليا تجاه العثمانية . أزعج إيالة الجزائر بصورة مستمرة ، حيث كانت الجزائر مضطرة لإرسال أسطولها سنويا إلى مجالات الحرب العثمانية ، لكنه لم يحصل على شىء سوى الخسارة . وهكذا ، فانه بينما لم يكن هنالك اتحاد فى العالم المسيحى ، كذلك لم يكن هنالك اتحاد فى العالم الإسلامى .

منح حسين باشا ، فى ٣ أيار (١٦٩٨) رتبة السردار الأكرم (القائد الأعلى) وسار من أدرنه ، جاء إلى صوفيا . أرسل رئيس الكتاب (وزير الخارجية) رامى

محمد أفندى إلى بلغراد من أجل مؤتمر الصلح الذى سيجتمع فى كارلوفجه . وسافر مفوضا انكلترا وهولندا ، فى المؤتمر بصفة وسيطين ، وحصل هذان الوسيطان فى ٢٢ تموز من الصدر الأعظم على وثيقة تقر بقبول أساس الـ Statu quo (على حاله) فى المفاوضات ، أى قبول بقاء الأماكن الموجودة الآن لدى أية دولة ، على وضعها الحالى . هذه الوثيقة ، حددت مهمة رامى أفندى الدبلوماسية بشكل كبير . وسببت له المصاعب الكبيرة . ولايعلم أحد ماهية سلسلة الخيانات التى تمخضت عنها تقديم هذه الوثيقة إلى السفراء .

وإزاء احتمال فشل المفاوضات ، تجمع فى بلغراد ١٠٠٠٠٠ جندى عثمانى و ٣٠٠٠٠ قرمى . بقى عموجه - زاده ستة أشهر و١٥ يوما فى بلغراد وعاد إلى أدرنة فى ١٤ ك١ (١٦٩٨) . كان بزوقلو مصطفى باشا ، خلال هذه المدة ، قائمقام الصدارة فى أدرنة . وكانت ٢٠٠ قطعة من الأسطول الخفيف (النهرى) تنتظر فى بلغراد . كان سليم كيراى خان فى البداية ، فى بلغراد ثم انسحب إلى تامشوار لقضاء الشتاء . أخذت ٤٥ قطعة من الأسطول تجوب فى شمال البحر الأسود . جاء القيصر إلى فيينا وتكلم مع الإمبراطور شخصيا لإقناعه بترك الصلح . أفاد الإمبراطور بعد أن شرح وضع الأتراك العسكرى ، أن كافة الدول أصبحت تريد الصلح مع العثمانية . غادر القيصر فييناغاضبا . كانت روسيا ، قد أصبحت على قدم المساواة مع بولونيا من حيث القدرة .

تقع كارلوفجه ، التى عقد فيها المؤتمر على بعد ٦٥ كم عن شمال - غرب بغلراد ، قريبة من Petervaradin . كان ممثلو ألمانيا هم الماريشال كونت Wolfgang Von Ottingen الماريشال Von Schlink ، الفريق الكونت Marsigli الذى يجيد التركية . لم يتمكن الممثلون البولونيون والبندقيون والروس والعثمانيون من الحضور قبل ٢٤ ت١ وأفتتحت الجلسة الأولى للمؤتمر فى ١٣ ت٢ (١٦٩٨) .

يقول الكونت Marsigli الذى اشترك كممثل ألمانى ثالث (ص ٥٢) « لايمكن تصور عمل أصعب من عقد صلح مع الأتراك ، من شأنه أن يجلب لهم المصائب والشقاء أو أن يكون سببا فى تركهم مدينة ... أما المعاهدة التى أبرمت فى كارلوفجه فهى أكثر المعاهدات إضرارا بالأتراك من بين المعاهدات التى وقعوا عليها حتى الآن . إن الحرب بالنسبة للأتراك عمل أسهل وأخف من عقد صلح . عند جلوسهم على

مائدة الصلح ، يغطون فى نقاش لانهاية له ويخلقون كل المصاعب للطرف المقابل . وعند البحث على مائدة الصلح عن كلمة حدود ، تسليم مدينة ، تخريب أو إنشاء قلعة أو كلمة لاتعجبهم فى متن المعاهدة ، يعملون كل مايخطر أو لايخطر على البال من فنون الخداع والحيل . يطيلون المفاوضات ويوقعون الطرف المقابل فى الضجر والملل ، وكأنهم يبحثون عن ذريعة لرفض الصلح والقتال مجددا . ولذا فان الممثلين المسيحيين ، أصبحوا بين الحين والآخر ، فى حالة يرثى لها أمام الأتراك » . يبدو أن الكونت شرح نسبيا وضعه الشخصى أمام رامى أفندى فى كارلوفجه .

وفى ٢٤ ك٢ ، وقع الممثلون الروس على صلح لمدة سنتين . وتقرر عقد مؤتمر فى إستانبول لمفاوضات الصلح النهائية . (أى أن روسيا ، لم توقع على معاهدة كارلوفجه) . وقع على المعاهدة ، قبل الظهر بقليل فى الساعة ١١/٤٥ باجراء المراسم بعد افتتاح الجلسة الأخيرة فى الساعة ١٠ من صباح يوم ٢٦ ك٢/١٦٩٩ . وبعد تبادل التوقيعات ، خرج حشد المراسلين من باب الصالة وتحركوا فورا إلى إستانبول ، أدرنة ، فيينا ، البندقية ، وارشو ، لندن لاعلان انتهاء المؤتمر والتوقيع على المعاهدة . طلقات الفرح التى أطلقت من المدافع فى كارلوفجه ، أجابت عليها فى مساء نفس اليوم ، مدافع الألمان التى أطلقوها فى بيترفارادين والأتراك فى بلغراد . لم يلق الصلح استحسانا فى فيينا ، وارشو والنبدقية وأعتبر أن السياسيين الأتراك غرروا بالطرف الآخر . انتقدت بشدة ، المواد التى تعطى للعثمانية إينه باختى (Lepanto) و Preveze من البندقية ، والتى تنص على إخلاء القلاع الألمانية الأقل أهمية الموجودة فى الحدود المجرية وإعطائها إلى العثمانية ، رغم أن المؤتمر افتتح على أساس الـ Statu quo . « لكن معاهدة كارلوفجه ، كانت تلغى الضرائب السنوية المخلة بالكرامة التى كان يسددها الإمبراطور والبندقية إلى تركية ، وكذلك الضرائب التى تسددها بولونيا إلى خان قرم الذى يعتبر تابعا بسيطا للبادشاه . وتعيد لهذه الدول كرامتها . كانت تبعد الأتراك وتخرجهم من بولونيا والمجر بصورة أبدية . تمحى من مخيلة أوربا التفوق العسكرى المدهش الذى كانوا يصفون به الأتراك . توضح إمكان هزيمة الأتراك واستقطاع أقطار منهم . الانحطاط التركى ، كان أعظم مما يتصور ، وتدل الاصطلاحات والنجاحات التى حققها مراد الرابع وعائلة كوبرولو ، أنها كانت مؤقتة وغير كافية لتضميد الجراح » (فون هامر ، ١٢ ، ٤٧٣ - ٤) .

وحتى البادشاه ، وافق على مخاطبة حكام أوروبا فى مكاتباته بخطاب « أنتم » ، بينما كان يخاطبهم فى السابق بخطاب « أنت » . كانت أول اتفاقية فى صالح أوروبا وضد تركية . « إن عام ١٦٩٩ من أهم أعوام التاريخ . كان يظهر انتقال التفوق الآسيوى إلى أوروبا » (Grenard) . كانت الاتفاقية ، تنهى حالة الحرب بين العثمانية وكل من ألمانيا التى استمرت ١٥ سنة و ٦ أشهر و ٢٥ يوما ، بولونيا ، التى استمرت ١٥ سنة و ٤ أشهر و ٩ أيام ، البندقية التى استمرت ١٤ سنة و ٦ أشهر و ١٢ يوما ، روسيا ، التى استمرت ٩ سنوات و ٧ أشهر و ٢٧ يوما . وتغلق فترة الـ ١٥ سنة التى تسمى « سنين المصائب » فى التاريخ العثمانى . إن حالة الحرب ، كانت مستمرة رسميا مع دول البابوية ، مالطه ، توسكانا وأسبانيا ولكنها فعلا ، أخذت تنقلب إلى حالة هدنة .

تُركت أراض مجموع مساحتها ٣٤٦٠٠٠ كم٢ تقريبا ، منها ٢٤٩٠٠٠ كم٢ إلى ألمانيا ، و ٣٢٠٠٠ كم٢ إلى البندقية ، و ٤٥٠٠٠ كم٢ إلى بولونيا ، و ٢٠٠٠٠ كم٢ إلى روسيا . ورغم أن بولونيا هزمت ، فقد تخلت العثمانية عن إيالة بولونيا ومنحتها لتلك الدولة .

بالنسبة للمعاهدة الموقعة مع ألمانيا (عشرون مادة) : تنتقل كامل المجر ، سلوفاكيا ، خرواتيا ، أسكلافونيا ، سلوفينيا وترانسلفانيا من العثمانية ، إلى ألمانيا . هذه خسائر هائلة ، فقد كانت المجر ، اسكلافونيا وترانسلفانيا (بالتركية أردل) لدى العثمانية منذ ١٥٢٦ ، ولأن نهر ماروش ، يشكل خط الحدود ، فقد ظلت قطعة صغيرة ، تدخل ضمن المجر الحالية ، بيد العثمانية (جنوب سكدين = Szegedin) . كانت بانات وتامشوار بكاملها لدى العثمانية . تشكل جبال الالب الترانسلفانية فى الجنوب ، والكاربات الشرقية فى الشرق ، الحدود التركية - الألمانية . مولدافيا وعلى شمالها Bukovina (جرنوفيج وخوتين ، حاليا لدى السوفييت) كانتا لدى العثمانية . ولأن البلاد التى كانت تسمى فى حينه ، المجر واليوم ، خروات والتى تسمى « Esklavonya » الواقعة بين Sava و Drava ، تركت لألمانيا القديمة ، ظلت بلغراد ، على الحدود ولدى تركية . وعلى ذلك ، تكون حدود العثمانية التى انحدرت فى الغرب إلى أقصى الجنوب ، كانت فى الشرق ، لاتزال فى أقصى الشمال . بقى فى حوزة الأتراك ، لواء سمندره (بلغراد) فقط من إيالة بودين .

أما إيالات بودين ، كانيجه ، اويفار فأصبحت بعد الآن فى حوزة ألمانيا . كان نهر Una يشكل الحدود الشمالية – الغربية . وعلى هذا الأساس ، تبقى خرواتيا ، لدى ألمانيا وبوسنة ، لدى العثمانية (بضع مئات ألوف من المجريين القاطنين فى Banat لايزالون يحملون الجنسية العثمانية) . أما الكتلة المجرية الكبيرة التي تعيش فى المجر ، اسكلافونيا وترانسلفانيا ، فقد كانت المعاهدة بالنسبة لهم ، بداية لأيام تعسة ، لأن الألمان سوف يعاملون المجريين ، بدون رحمة .

تتكون المعاهدة التى عقدت مع البندقية من ١٦ مادة : تترك مورا ، وعلى جنوبها Cerigo (بالتركية : جوها) و Cerigotte و Hydra و Salamin الواقعة على الشمال – الشرق منها ، وجزر آيا مافرى (باليونانية : Leukas) ودالماجيا التركية ، إلى البندقية . ونظرا لبقاء مدينة Korinthos (بالتركية : Cördes) لدى العثمانية ، تكون السيطرة على برزخ كورينثوس ، لدى العثمانية ، وتعاد إلى العثمانية ، الأماكن الكائنة فى ATTika فى شمال خليج كورينثوس والموجودة فى حوزة البندقيين (أثينا ، كان قد استرجعها العثمانيون خلال الحرب) .

وتتكون المعاهدة التى عقدت مع بولونيا من ١١ مادة : تعطى قلعة كامانيجة ومعها Podolya ، غاليجيا التركية وبعض الأراضى فى أوكراينا ، إلى بولونيا ، كان نهر Dnyestr (بالتركية : TUrla) يشكل الحدود . كانت Bukovina ، خوتين ، بيسارابيا لدى العثمانية . جبال الكاربات تخط الحدود البولونية – الألمانية . تبقى لدى ألمانيا ، كاربات أوكراينا التى يسكنها المجر (حاليا لدى السوفييتية ، Munkaç ومحيطها) .

سوف تركز السياسة العثمانية هدفها بعد الآن على استعادة مورا من البندقية وآزاك من روسيا وسيتحقق هذان الهدفان . ولكن ، ورغم كل الجهود ، سوف لايمكن استعادة ولو قسم من الأماكن التى ظفر بها الألمان . سوف لاتطبق سياسة الاسترجاع تجاه بولونيا بعد الآن ، وسوف لاتحدث حرب تركية – بولونية بعد الآن ، سوف تتكثف الجهود السياسية التركية المقبلة ، فى الحيلولة دون إبتلاع ألمانيا وخاصة روسيا لبولونيا .

عقد الصلح مع روسيا بمعاهدة استانبول (١٧٠٠/٧/١٤) . وبالنسبة لهذه المعاهدة المكونة من ١٤ مادة والتى وقع عليها نتيجة مفاوضات استمرت ٥ أشهر :

تترك Azak (روستوف ومحيطها) إلى روسيا ، تعاد إلى العثمانية الـ ٤ قلاع التى استولى عليها فى هذه المنطقة بعد هدمها . يوافق الباب العالى على أن روسيا « دولة مستقلة » ويلغى الضريبة التى كانت تدفعها إلى خان قرم . وقع على هذه المعاهدة ، رامى أفندى (راشد ، ٢ ، ٥٠٠ - ٣) . وأغرب مادة تستلفت النظر فى هذه المعاهدة هى (المادة ١٤) التى تنص على أن ذهاب وإياب السفير الروسى إلى إستانبول ، يكون عن طريق البر ولايكون مروره عن طريق البحر الأسود . حيث أن البحر الأسود ، بحر عثمانى مغلق لاتطأه قدم روسى . أجاب مصطفى الثانى ، عندما التمس منه القيصر الروسى السماح للسفن التجارية الروسية بالملاحة فى بحر آزاك : « أسمح للروس أن يدخلوا سرايى الهمايونى ، أما جولانهم فى البحر الأسود ، فان سماحى الشاهانى ، لن يشمل ذلك أصلا » .

اقتسمت السلطة ، بعد الصلح - بتسلسل النفوذ بعد السلطان - بين شيخ الإسلام فيض الله أفندى ، الصدر الأعظم حسين باشا ، رئيس الكتاب (وزير الخارجية) رامى أفندى . لكن نفوذ شيخ الإسلام ، كان أقوى وفى ازدياد على مر الزمن . لم يحصل أى شيخ إسلام فى الدولة العثمانية ، على مثل هذا النفوذ لاقبله ولابعده .

جاء إلى إستانبول ، فى ٢٦ أيلول ١٦٩٩ ، وفد سفارة إمبراطور ألمانيا برئاسة كونت Ottingen ومعه دوق هولشتاين Adolf-August و ١٥ حاكما ألمانيا بدرجة كونت وأمير واحد . وكما أشار إلى ذلك هامر (١٣ ، ٢٤ - ٥) لم يسبق أن اجتمع فى أية هيئة سفارة ، جماعة من الأشراف على هذه الدرجة من الكثرة . اهتدى إلى الإسلام من بين هذه الهيئة ، عام ١٧٢٠ تقريبا ، الأمير Ernst Sehmid Von Anhalt - Zerbst وهو العم الأصلى للأميرة التى ستكون امبراطورة لروسيا باسم Ekaterina الثانية .

قابل مصطفى الثانى ، ذلك بالمثل ، وأرسل الأميرال إبراهيم باشا الذى اشترك فى حملة فيينا عام ١٦٨٣ ، مع وفده البالغ ٥٧١ شخصا والذى يحوى ٤٢٢ حصان ركوب ، ١٠١ حمار ، ١٨١ جملا ، ٢١٥ عربة حاجيات ، مئات الخيول والبغال . كانت حادثة فوق العادة ، إلى درجة أن الإمبراطورة ، كانت على فراش النفاس ؛ لكنها أرادت بإصرار مشاهدة دخول العثمانيين إلى فيينا . طلبت تكريم الوفد فى بانق

قلعة لعدة أيام ولحين الولادة . نفذ طلبها . حيث استقبل الوفد عندما كان لايزال في Osiyek الكونت الماريشال Guido Von Starhemberg . كانت المهترخانة (الموسيقى العسكرية العثمانية) تتقدم الوفد . ثم نشر بعدها علم تركي حريري أحمر واسع جدا . ومن بين الملابس الرسمية لجنود حرس الباشا السفير ، فراء النمور والفهود الملقاة على أكتافهم . صرفت ألمانيا لتكريم وفد السفارة هذا مبلغ ٤٥٠٠٠٠ عملة ذهبية لكيلا تكون مقصرة ويصيبها الخجل . أخبر وزير المالية ، الإمبراطور بأن مالية البلاد لاتتحمل صرف هذا المبلغ لمثل هذه المظاهر . لكن الإمبراطور ، أجاب بأن صرف مبلغ كهذا ، في محله وهو لايختلف عن صرفه في الحرب ، وذلك لكي تثبت ألمانيا لجارتها تركيا أن حاكم ألمانيا ، ليس حاكما أقل شأنا من البادشاه وملوك فرنسا وأسبانيا . لم يستوعب الوفد التركي سراى واحد ، وخصص له ثلاث سرايات (Takatsa, Macaristan Türk Âleminden, Cizqiler ، ٣١٩ - ٢١ ، ٣٢٣) .

أرسلت بولونيا إلى إستانبول ، هيئة سفارتها المكونة من ٥٠٠ شخص تقريبا وصانت بذلك شرفها الوطني . كان سفير بولونيا في إستانبول Winiawa Leszcynsky ، جداً لأب لزوجة لويس ١٥ وجداً لأب كذلك لام أب لويس ١٦ . أول سفير قديم إلى إستانبول ، كان سفير البندقية الذي دخل إلى الميناء على ظهر مركب جدافي عظيم (قادرغة) .

اتخذت الدولة ، تدابير واسعة على الحدود الجديدة . أرسلت وحدات عسكرية إلى مابين نهري دون وكوبان . مضيق كرج ، خوتين ، السواحل الجنوبية لنهر دنيستر ، أجريت فيها استحكامات مهمة . أخذت تشكيلات الإنكشارية التي قلص البادشاه عددها من ٧٠٠٠٠ إلى ٣٤٠٠٠ تستعد للإيقاع به . كان القبطان دريا ميزومورتا حسين باشا ، يؤمن بفوات دور المراكب الجدافية (القادرغة) وأنها صارت ملكا للتاريخ ولاتفي بالمرام . استبدل بالمراكب التي تسير بالجدف ، السفن الشراعية (القاليون) وخلال عدة أعوام ، فاق عدد القاليونات ، عدد المراكب الجدافية (القادرغة) وتوقف بعد مدة ، صنع المراكب الحربية الجدافية . أعفى الأهالي في الحدود الذين تضرروا .. من الضرائب ، وأرسلت المعونات إلى المحتاجين منهم . سمح لروسيا في ١٧٠٢ بتمثيلها بسفير دائم في إستانبول . منح هذا السماح ، لها بعد السماح الممنوح لكل من البندقية بـ ٢٤٩ ، ولفرنسا بـ ١٦٠ ، ولانكلترا

وهولندا بأكثر من ١١٠ ، ولألمانيا وبولونيا بأكثر من ١٠٠ سنة . لم يتوقف مولاى اسماعيل الكبير عن استقطاع الأراضى من الجزائر . وسار نحو الجزائر بجيش كبير ، هزم وانسحب إلى فاس (J-L. Miege, Le Maroc ، ٣٦) . آخر ملك لمجر الوسطى للأتراك Emeric Thököly (وفاته ١٧٠٥/٩/١٣) والملكة Ilona توفيا فى أزميت نقلت عظامهما فى ١٩٠٦ فى احتفال مهيب من أزميت إلى المجر . كان صديقا كبيرا للعثمانية وعدوا لألمانيا . ترأس حركة التحرير المجرية Ferenc Rakoczy ، صهر الملك ، الذى سيسعى طيلة مدة حياته لتحرير المجر من ألمانيا بمساندة تركية وفرنسا (Lavisse- Rambaud ، ٦ ، ٥٩٧ - ٨) . نقل نصف مليون مجرى من اسكلافونيا إلى المجر . وهكذا أصبحت حدود المجر فى الجنوب ، نهر درافا Drava بينما كان سافا Sava . وأصبحت البلاد المجرية الواقعة بين النهرين ، أقطارا خرواتية وسلافية .

توفى فى ١٧٠١/٧/٢١ خارج مياه جزيرة Paros من جزر Kiklad فى غرفة النوم فى سفينة الإميرالية وهو على رأس الأسطول الهمايونى ، ميزومورتا حسين باشا ، البحار الأخير الذى أنجبته تركية على نطاق عالمى والذى سن قوانين جديدة وحقق إصلاحات أساسية فى القوات البحرية . حقق عندما كان مشيرا للقوات البحرية ٨ معارك بحرية انتصر فيها جميعا ، هذا عدا انتصاراته عندما كان بكلربك فى الجزائر . كان عدد القطع البحرية فى الأسطول البندق - البابوى - المالطى - التوسكانى فى المعارك الـ ٨ ، أكثر من عدد القطع العثمانية (فوزى قورد أوغلو ، ميزومورتا حسين باشا ، ص ٩٢) . دامت قيادته العامة للقوات البحرية ٦ سنوات و ٣ أشهر و ١٦ يوما . منح خلال الفترة بين قيامه بوظيفة بكلربك فى الجزائر وتعيينه مشيرا للقوات البحرية ، منح رتبة قيادة كاليونات (السفن الشراعية الحربية) الأسطول الهمايونى . وفى عهده جددت كافة قطع الأسطول وإضافة إلى ذلك أصلح جميع مصانع السفن وأكسبها حيوية جديدة . نص فى أنظمته الجديدة بصورة صريحة ، على عدم إمكان حصول أى شخص على رتبة الضابط البحرى العثمانى ،مالم يكن أبوه ضابطا أو جنديا حائزا على سجل مشرف فى الأسطول الهمايونى . هذه المادة ، كانت تطبق سابقا ، فى تركية - كما كانت تطبق فى انكلترا - لكنها لم تكن مادة مكتوبة . نقل جثمان ميزومورتا حسين باشا ، بمراسم عسكرية كبرى أجرتها البحرية الهمايونية ، من Kiklad إلى جزيرة ساقيز ودفن فى الجامع الموجود فيها .

١٣) واقعة أدرنة (١٧٠٣/٨/٢٢)

استقال عموجه – زاده حسين باشا من الصدارة فى ٤ أيلول ١٧٠٢ . استمرت صدارته مدة ٥ سنوات إلا أسبوعين . سبب الاستقالة ، تدخل شيخ الإسلام فيض الله أفندى ، بصورة غير قانونية فى جميع أمور الدولة ، تدخله فى التعيينات ، تعيين أقاربه فى مناصب عالية وتدخله فى صلاحيات الصدر الأعظم وعرقلته نظام الدولة . السبب الآخر ، كان الادعاء القائل بأن ابن عمته قبله لى – زاده على بك ، أصبحت له علاقة سرية مع إحدى السلطانات (أميرات الإمبراطورية العثمانية) ، أمر البادشاه باعدام الشاب ، رغم توسلات حسين باشا . كان على بك قائدا للاسطبلات الهمايونية (أمير آخور أول شهرياري) وبرتبة بكلربك .

كان السلطان مصطفى ناقما على عموجه – زاده لإجباره على توقيع معاهدة كارلوفجه وينتظر الفرصة لعزله وكذلك ، كان شيخ الإسلام لايرغب فى بقاء هذا الكوبرولو – زاده القوى السلطة ، فى مقام الصدارة . لذا نرى أن الختم الهمايونى ، أعطى إلى مناصطرلى مصطفى باشا ، الوزير التافه الجاهل . جاء مصطفى باشا ، من بغداد الذى كان بكلربك عليها ، إلى أدرنة (٢٧ أيلول) وتسلم الختم الهمايونى ، وجد أمامه فى الديوان ، رامى أفندى القوى السلطة . منح فى عهد عموجه – زاده رتبة وزير (مارشال) إلى ٣ من عائلة كوبرولو : نعمان باشا ، الأبن الكبير للصدر الأعظم الشهيد فاضل مصطفى باشا (الذى صار فيما بعد داماد (صهر) وصدراً أعظم فى تموز عام ١٧٠٠ ، وعبد الله باشا ، الابن المتوسط له وصهر شيخ الإسلام فيض الله أفندى (صار قائمقام الصدارة فى بداية عام ١٧٠٣) ، على باشا الابن الوحيد لمرزيفونلى قره مصطفى باشا عمره ٢١ عاما ، رجل دولة قدير جدا ، فى آذار ١٧٠١ (زوج ببنت مصطفى الثانى السلطانة صفية) (راشد ، ١١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٧٨) .

أصبح رامى أفندى الشاعر والكاتب الذى اشتهر فى أوروبا بأنه دبلوماسى كارلوفجه القدير ، وزير قبه ، بينما كان رئيسا للكتاب (وزير الخارجية) (١٧٠٢/١٢/٢١)(راشد ، ٢ ، ٥٦٤ – ٥) . اتفق مع شيخ الإسلام على عزل مصطفى باشا ، الذى تجرأ على مخالفة شيخ الإسلام (١٧٠٣/١/٢٤) دامت صدارة مصطفى باشا ٤ أشهر و ٢٠ يوما ، أعدم بعد ٣ أيام (راشد ، ٢ ، ٥٦٥ – ٧٦) . صار رامى باشا صدرا

أعظم قبل مضى شهر واحد من حصوله على رتبة الوزير . كان دبلوماسيا لامعا فى الـ ٤٩ من عمره ، وكان مثقفا جدا . حاول ان تكون علاقته جيدة مع حميه فيض الله أفندى ، لكنه لم يوفق . قرر اسقاط شيخ الإسلام ، حفاظا على نظام الدولة . لم يكن بالإمكان إقناع البادشاه بذلك ؛ إذ إن هذا يعنى عزل السلطان ، فى الحال . حاول تحقيق ذلك بتحريك الجيش ، هذا علاوة على أنه سعى للحصول على تأييد العلماء الذين كانوا فى حالة عدم رضا . وفى النظام العثمانى ؛ اتفاق الجيش + العلماء = يعنى الثورة .

فيض الله أفندى ، عالم قدير فقيه ، متدين لكنه حريص وشديد التحيز لأقاربه . وزع أعلى المناصب العلمية بين أبنائه وأقاربه ، بحيث لم يكد يبق للعلماء الآخرين منصب يرقون إليه . منح أبنه الكبير درجة المشيخة للمرة الثالثة والأخيرة فى التاريخ العثمانى والتى تعادل درجة الصدارة . ولكونه كبير السن ، فكأنه أعلن ولى العهد لمنصب شيخ الإسلام ، صار كل من فتح الله أفندى نقيبا للأشراف ، أخيه مصطفى أفندى قاضيا عسكريا على الأناضول ، ابن عمه محمد أفندى قاضيا عسكريا على روملى . الأفندية القضاة العسكريون على روملى والأناضول الذين تأتى درجتهم بعد درجة شيخ الإسلام ، يصيرون أعضاء فى الديوان الهمايونى (الحكومة) . وهكذا وزعت المناصب بين فيض الله – زاده لر (عائلة فيض الله) .

السبب الآخر للانقلاب ، هو أن أدرنة صارت مركزا للعرش (العاصمة) بصورة فعلية منذ نصف قرن . وكان مصطفى الثانى ، كأسلافه ، يصر على السكنى فى أدرنة ، الأمر الذى كان يسبب حرمان شعب إستانبول وتشكيلات القابوقولو الموجودة مقارهم فى إستانبول ، من منافع عديدة . بدأت الثورة فى إستانبول (١٧٠٣/٧/١٨) . أشعل نار العصيان ٢٠٠ جيبه جى (فرق الاعاشة فى الجيش) الذين حرضوا على ذلك وانضم إليهم الإنكشارية . انضم العاطلون والرعاع إلى الجيش البالغ عدده ٢٢٠٠٠ جندى ، فتشكل زحام بشرى قوامه ٥٠ . ٠٠٠ شخص . تحرك هذا القطيع فى ٩ آب ، من إستانبول إلى أدرنة . كان فى أدرنة ٨٠ . ٠٠٠ جندى . ورغم أنه من المؤكد ، أنه كان باستطاعة هؤلاء تفريق هذا الحشد القادم بكل سهولة ، فإن كل الجهات وكل شخص ، ومن بينهم البادشاه ، خشوا اندلاع حرب داخلية . خلع البادشاه من العرش (١٧٠٣/٨/٢٢) . لكن المعارضة أو بالأحرى التردد ، كان كبيرا نحو ولى العهد – شهزاده أحمد الذى كان

أخا من نفس الأم والأب لمصطفى الثانى . وفى الوقت الذى كان فيه ، من المعهود فى النظام العثمانى ، أن يكون هنالك خلاف - فى أغلب الأحيان - بين البادشاهات وولاة العهد ؛ إلا أن علاقة هذين الأخوين كانت ممتازة . كان العصاة يخشون انتقام السلطان أحمد . وطالبوا باجلاس ابن عمه ، أى ابن السلطان أحمد الثانى ولى العهد الثانى الشهزادة (الأمير) السلطان إبراهيم الذى لم يكمل الـ ١١ من عمره ، ليعبثوا كيفما يشاءون تحت ظل سلطان طفل . لكن طلبهم هذا ، لم يتحقق ، وأجلس ولى عهد - شهزاده على العرش فى أدرنة بعنوان « أحمد الثالث » .

١٤) شخصية مصطفى الثانى

دامت سلطنة مصطفي الثانى الذى ولد ، جلس على العرش ، وخلع من العرش فى أدرنة ، مدة ٨ سنوات و ٦ أشهر و ١٦ يوما . هو من الشهزادات النوادر الذين ولدوا وهم « ولى عهد » . مات بسبب تأثره بعد خلعه بـ ٤ أشهر ، ٩ أيام (نصرت - نامه ، ٢ ، ٢٠٩) . كان عمره يتجاوز الـ ٣٩ بـ ٦ أشهر ، ٢٥ يوما . والواقع أنه بعد « مصالحة كارلوفجه » ، أصبح لايبالى بشىء . دفن فى مقبرة بنى جامع جوار أبيه . شاعر ، موسيقى ، خطاط ماهر ، ذو ثقافة عالية . أساتذته فى الخط ، الحافظ عثمانه أفندى (١٦٤٢ - ١٦٩٨) وخواجه - زاده محمد أفندى ، أساتذته الآخرون القضعسكر (القاضى العسكرى) أدرنة لى ابراهيم أفندى ، سيد محمد أفندى (وفاته ١٦٧٠) ، بورصه لى شيخ محمد أفندى ، وانى محمد أفندى وصهر هذا ، هو رئيس أساتذته شيخ الإسلام حاجه - سلطانى شهيد سيد فيض الله افندى . مجموع مدة حملاته الهمايونية الثلاث سنة ، شهر ، ٢٩ يوما . أشترك فى الحروب فى عهد أبيه ، مطلع بصورة جيدة على منطقة روملى ، لكنه لم يطلع على الأناضول . دامت سلطنته حتى مصالحة كارلوفجه ، ٣ سنوات ، ١١ ، شهرا ، ٢١ يوما ، المدة بين المصالحة وواقعة أدرنة هى ٤ سنوات ، ٦ أشهر ، ١٩ يوما .

أبناء مصطفى الثانى : محمود الأول (٢/٨/ ١٦٩٦ - ١٧٥٤/١٢/١٣) ، عثمان الثالث (١٦٩٩/١/٣ - ١٧٥٧/١/٣٠) ، ٩ شهزادات (أمراء) توفوا وهم صغار السن جدا وأطول من عاش من بينهم هما شهزادة سليمان (١٧٠٣ -

١٧١٠) وشهزادة محمد (١٦٩٨/١١/٢٢ - ١٧٠٣/٦/٥) ؛ وشهزادة السلطان حسن (١٦٩٩/٣/٢٧ - أيار ١٧٣٣) . ولأن أيا من هؤلاء لم يخلف ولدا ، فقد استمرت السلالة عن طريق أخيه أحمد الثالث وليس من مصطفى الثانى .

بنات مصطفى الثانى : السلطانه أمة الله (١٧٠١/٦/٢٢ - ١٧٢٧/٤/١٢) ، تزوجت بوزير واحد ورزقت بابنة واحدة ، السلطانة عائشة (١٦٩٦/٤/٣٠ - ١٧٥٢/٩/٢٦) ، تزوجت أولا بكوبرولو - زاده داماد نعمان باشا ، وعلى أثر وفاته (١٧١٩/١/٢٨) تزوجت بـ ٣ وزراء آخرين ، لم تنجب ولدا ، السلطانة أمينة (١٦٩٦/٩/١ - ١٧٣٩) ، تزوجت بـ ٤ وزراء أشهرهم الصدر الأعظم داماد سلاحدار جوررولوا على باشا (وفاته ١٧١١/١٢/٢٧) ، لها ابن واحد ، السلطانة صفية (١٦٩٦/١٢/١٣ - ١٧٧٨/٥/١٥) ، تزوجت بمرزيفونلى قره مصطفى باشا - زاده داماد كنج على باشا وبعد وفاته (ت ١٧٢٢/٢) ، تزوجت بوزيرين ، رزقت من زيجاتها الثلاث بـ ٤ أبناء وابنة .

ترك العرش بعد أن نصحه أخوه . تأثرت السلطانة - الوالدة رابعه أمة الله كلنوش ، لخلع ابنها لكن وضعها لم يتبدل . لأنها كانت والدة أحمد الثالث كذلك . استمرت صفة السلطانة - الوالدة التى تحدثنا عنها .

مصطفى الثانى هو آخر خاقان تركى سار إلى الحرب . لم يصبح أى أحد من البادشاهات الذين تلوه ، قادة فعليين . كان أحمد الثالث الذى احتل مكانه ، يصغره بـ ٩ سنوات ، ٦ أشهر ، ٥ أيام . وهنالك فى التاريخ العثمانى سلطانان آخران ولدا من أم واحدة ، هما مراد الرابع - إبراهيم خان .

واقعة أدرنة ، هى أحدى الثورات المشئومة والدنيئة فى التاريخ العثمانى . والحقيقة أنه لايوجد انقلاب فى التاريخ العثمانى لم يأت بالضرر الكثير . مزق العصاة ، فيض الله أفندى وابنه الكبير فتح الله أفندى (راشد ، ٣ ، ٧٧) وأعلن العلماء أنهما شهداء ، وهو شيخ الإسلام الثالث والأخير فى التاريخ العثمانى الذى قتل . تمكن أبناؤه الآخرون من النجاة من القتل . إثنان منهم صارا فيما بعد شيوخ إسلام . استمرت عائلة فيض الله (فيض الله زاده لر) كأشهر عائلة من العائلات العلمية ، إلا أن أحمد الثالث لم يوظف أحدا من هذه العائلة حتى ١٧٣٠ . قضت واقعة أدرنة ،

على الحياة السياسية لرامى باشا . صار واليا على رودس ومصر وتوفى فى ١٧٠٨ عن عمر يناهز الـ ٥٤ . وقضت كذلك واقعة أدرنة على بقاء أدرنة عاصمة فعلية . لم يجرؤ بعدها أى بادشاه على ترك إستانبول والسكنى فى أدرنة لمدد طويلة . استصحب أحمد الثالث ، أخاه الكبير مصطفى الثانى ، ووالدته ، والسلطان ابراهيم الذى هو ولى عهد – شهزادة وذهب إلى إستانبول مع الجيش ورجال الدولة .

١٥) الدول العالمية خلال تلك السنين

كان وضع الدول العالمية فى سنة ١٧٠٠ كما يلى : تركية ١٥٩٢٤٦٠٦ كم٢ ، والنفوس ٧٨ ٢٨٥٠٠٠ نسمة (فى أوربا ١١٦٧٣٩٤ كم٢ و ٢٤٨٣٠٠٠٠ نسمة فى آسيا ٤٠٩٦٦٧١ كم٢ و ٢٧٨٥٠٠٠٠ نسمة فى افريقيا ١٠٤٧٠٠٠٠ كم٢ و ٢٥٧٤٥٠٠٠ نسمة) ، نفوس أكبر المدن الأوربية والأفريقية (مع ضواحيها بصورة تقديرية) إستانبول ١٥٠٠ ٠٠٠ ، القاهرة ٦٥٠ ٠٠٠ ، أدرنة ٣٥٠ ٠٠٠ ، جزائر ١٥٠ ٠٠٠ ، اسكندرية ١٣٠ ٠٠٠ ، تونس ١٢٥٠٠٠ ، بخارست ١٠٠ ٠٠٠ (عدا المدن الموجودة فى قارة آسيا) .

امبراطورية بنى تيمور الهندية ، كانت الدولة العالمية الثانية : ٤٦٢٢٨٨٥٠٠٠ كم٢ و ١٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة . وتليها الإمبراطورية الصفوية الايرانية : ١٩٥٦٧٩١ كم٢ و ١٨٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ويقتضى بعدها ، وضع الإمبراطورية الصينية فى التسلسل : ١٢٢٦٨٢٠٨ كم٢ و ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

ملكية فرنسا ، كانت أقدر دولة مسيحية (مع مستعمراتها) : ٣٦٤ ٤٩٤ ٤ كم٢ و ٢١٤٠٦٠٠٠ نسمة (باريس ٧٣٠ ٠٠٠ ، ليون ١٠٠ ٠٠٠ ، مارسيليا ٩٠ ٠٠٠) . ملكية بريطانيا العظمى ١٨٣٣٤٧٨ كم٢ و ٩٠١١٠٠٠ نسمة (لندن ٦٧٤ ٠٠٠) . هولندا ١٠٢١٢٧٤ كم٢ و ٧٥٣٠٠٠٠ نسمة = ٢٨٥٤٧٥٢ و ١٦٥٤١٠٠٠ نسمة (امستردام ١٨٠ ٠٠٠) ، كانت هاتان الدولتان قد اتحدتا تحت ادارة حاكم واحد بصورة مؤقتة .

الإمبراطورية الألمانية ٨٠٣٨٢١ كم٢ و ٠٠٠ ٤٧٩ ٢٢ نسمة (فيينا ١٥٠ ٠٠٠ ، هامبورغ ٩٥٠٠٠) . ملكية اسبانيا التى لاتزال تحت إدارة عائلة هابسبورغ ١٥٠٨٦٠٠٣ كم٢ و ٠٠٠ ٤٠٥ ٣٠ نسمة (نابولى ٠٠٠ ٢٨٠ ، ميلانو ٠٠٠ ١٣٠ ، مدريد ٠٠٠ ١٢٥ ، المكسيك ٠٠٠ ٩٠) .

ملكية السويد ١٢٧٨٠٢٣ كم٢ و٠٠٠ ٤٥٠٠ نسمة (ستوكهولم ٠٠٠ ١٠٠) ؛ جمهورية البندقية ٦٢٦٨٣ كم٢ و٠٠٠ ٤٥٠٠ نسمة (البندقية ٠٠٠ ٢٤٠) ، امبراطورية روسيا ١٤٥٦٨٥٤٠ كم٢ و٠٠٠ ١٢٠٠٠ نسمة (موسكو ٠٠٠ ١٢٠) ، ملكية بولونيا ٧٦٠٤٠٧ و ٠٠٠ ١٢٠٠٠ نسمة .

امبراطورية فاس ٣٠٥١٦٩٩ كم٢ و ٠٠٠ ٨٠٠٠ (فاس ٢٥٠٠٠٠ ، مكناس ٠٠٠ ١٠٠ ، مراكش ٠٠٠ ١٠٠) . مجموع الخانات التركية فى تركشتان ٥٥١٢٨٠٠ كم٢ و ٠٠٠ ١١٥٠٠ نسمة . امبراطورية اليابان ٣٧٣٥١٢ كم٢ و ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ . ملكية البرتغال ٨٧٦٨٢٠٥ كم٢ و ٠٠٠ ٥٩٠٠ نسمة (ليشبونة ٠٠٠ ٢٢٠) . ملكية الدانمارك ٥٣٨٩٥٧ كم٢ و ١٤٠٨٠٠٠ نسمة . جمهورية سويسرا ٤٠٠٣١ كم٢ و ٠٠٠ ١٦٠٠ نسمة . البابوية ٤٣٣ ٤٧ كم٢ و ٠٠٠ ٢٢٠٠ نسمة (روما ٠٠٠ ١٦٠) .

دوقية توسكانا الكبرى ٤٨٩ ٢١ كم٢ و ٠٠٠ ١٠٠٠ نسمة .

كانت هنالك أقطارا مازالت مجهولة ، وتقديراتها كالتالى : مناطق الزنوج المجهولة فى افريقيا ١٣٠٨٩٠٧٩ كم٢ و ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ نسمة . المناطق الشمالية من أمريكا الشمالية التى يسيطر عليها البيض ١١٣٠٢٧٦٠ كم٢ و ٠٠٠ ١٦٠٠ نسمة . قارة اوقيانيا (عدا جزر هاواى) ١٦٢ ٢٣٦ ٩ كم٢ و ٠٠٠ ٣٠٠٠ نسمة .

١٦) السنوات الأولى لدور أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧١١)

أحمد الثالث الذى شغل منصب ولى العهد مدة ثمانى سنوات ونصف ، فى عهد أخيه الكبير الذى كان منسجما معه تمام الانسجام ؛ لم يكن عسكريا ، قائدا ، مغرورا ، جسورا كأخيه . ولد فى حاجى اوغلو بازارى فى دوبروجه عندما كان

أبوه فى الحرب . كان عمره ، فى فاجعة فيينا ١٠ أعوام ، وعند خلع أبيه ١٤ عاما . لذا كان يحب السلم ، لكنه لايتورع عن دخول الحرب إذا اقتضى الحال . لم تكن درجة ثقافته بقدر أخيه . لكنه كان شاعرا ، موسيقارا ، وبوجه خاص كان خطاطا كبيرا . كان من أبطال رماة السهم فى عصره . حصل على أجازة فى خط الثلث والنسخ من الحافظ عثمان أفندى . ومن بين أساتذته يمكن ذكر شيخ الإسلام فيض الله أفندى ، شيخ الإسلام بورصه لى محمد أفندى (وفاته ١٧٢٩) ، سيد محمد أفندى ، قضعسكر (القاضى العسكرى) والامام السلطانى إبراهيم أفندى . كان هو كذلك كأخيه الكبير ، مطلعا على منطقة روملى ولو أنه لم يكن بدرجته ، كان قد زار مورا لكنه لم تسنح له فرصة الذهاب إلى الأناضول . كان عمره عند جلوسه يقارب الـ ٣٠ عاما . كان ولوعا بالنساء والأنس والملذات . كان يملك وقار الحاكم . أول عمل قام به ، هو اعتقال فاعلى واقعة أدرنة المفجعة ، أمر بقتل كافة الذين خانوا أخيه . لم يبعد أحدا من منصبه مالم يرتكب خطأً جوهريا . كان يحمل فكرة الاصلاح . يؤمن بتجديد المؤسسات . عمل مابوسعه لأجل ذلك . هذه الاصلاحات ، لايمكن أن ينتظر منها أن تكون إصلاحات جذرية ، وإنما حركة تجديد فقط . لايقدم على الاصلاح الجذرى إلا عندما تكون الدولة فى خطر .

كان أحمد الثالث يحاول العثور على صدر أعظم قدير . لأن الصدر الأعظم ، فى النظام العثمانى ، هو الوكيل المطلق للخاقان ، المسئول عن كافة القضايا العسكرية والمدنية والمالية . عزل قاوانوز نيشانجى أحمد باشا ، الذى جىء به مكان رامى باشا ، بعد شهرين ، ٢٦ يوما (١٧٠٣/١١/١٧) . أما داماد أنشته حسن باشا ، فلم يتمكن من البقاء فى السلطة أكثر من ١٠ أشهر ، ١١ يوما (١٧٠٤/٩/٢٨) . عزل قيصريلى قالايلى قوز أحمد باشا بعد شهرين ، ٢٧ يوما (١٧٠٤/١٢/٢٥) . وصار ، قبطان دريا (مشير البحر) محمد باشا ، صدراً أعظم . رجل السراى الصادق الذى ضحى بكل ثروته فى واقعة أدرنة فى سبيل تأمين إجلاس أحمد الثالث وليس الشهزادة إبراهيم ، عزل بعد سنة ، ٤ أشهر ، ٩ أيام (١٧٠٦/٥/٣) . لم يكن أى أحد من هؤلاء رجل منصبه . وفى النهاية ، جاء إلى السلطة رجل الدولة المهم سلاحدار داماد جورلولو على باشا .

كان على باشا وزيرا شابا فى الـ ٣٠ من عمره . قام بادارة الدولة مدة ٤ سنوات ،

وشهر و ١٤ يوما . لم يتدخل البادشاه كثيرا فى أعماله . فتح وهران فى الجزائر من أيدى الأسبان . وقدمت مفاتيح المدينة إلى السلطان أحمد بتاريخ ١٤ ك١٧٠٨/١ . رغبة الصدر الأعظم جوررلولو ، فى إعلان الحرب على روسيا ومعارضة البادشاه له ، كانت سببا فى عزله (١٧١٠/٦/١٦) واعدامه بعد سنة ونصف . استمرت عائلة جورلولو ، إلى يومنا هذا . جاء مكانه كوبرولو - زاده داماد نعمان باشا . لم يتمكن من شغل المنصب أكثر من شهرين ويومين ، لم يعط الوقت الكافى ليتمكن من انجاز عمل ، وبعد ٤ سنوات جاء بلطجى محمد باشا من حلب ، صار صدرا أعظم للمرة الثانية (١٧١٠/٨/١٨) .

١٧) الحـرب مع روسـيا (١٧١١)

كان إعلان العثمانية الحرب على روسيا قبل مضى ١١ سنة ، نتيجة لحرب الشمال . ملك السويد كارل ١٢ ، انتصر على الدنمارك ، بولونيا ، روسيا واستولى على بولونيا ودخل إلى أعماق روسيا . لكن عدم إدخال جورلولو ، العثمانية فى الحرب فى تلك الأثناء ، أعطى الفرصة للقيصر . تمكن القيصر بطرس من لم شعثه وأنتصر على ملك السويد فى Poltava . اجتاز الملك الحدود العثمانية ولجأ إلى تركية . وأثناء مطاردة القيصر للملك ، دخل إلى قسم من الأراضى العثمانية . اعتبر الباب العالى ذلك ، سببا للحرب . أما السبب الحقيقى فهو فكرة استرداد آزاك - التى تركت فى معاهدة كارلوفجه إلى روسيا - وقد كانت هذه الفكرة بمثابة خط سياسى لايتبدل لدى الكثيرين من رجال الدولة العثمانية . اضطر البادشاه الذى لايرغب فى الحرب إلى إعلان الحرب على روسيا . أعطيت القيادة العليا إلى بلطجى محمد باشا .

سار بلطجى من إستانبول (١٧١١/٤/٩) مع ١٤٠٠٠٠ جندى وتمكن من العثور على جيش القيصر البالغ ٦٠٠٠٠ جندى فى موقع فالجى (بالرومانية : Falciu) على نهر بروت وحاصره . لذا اشتهرت هذه الحرب بحرب بروت . وهذا الموقع هو موقع عثمانى يقع متوسطا بين مدينتى كالاس وياش . حاول القيصر منع الجيش العثمانى من عبور نهر بروت . لكن عثمان باشا ، تمكن تحت نيران قصف العدو من نصب ٤ جسور والعبور بجيشه بسرعة إلى الضفة الشمالية من بروت . ولذا ، فإن بطرس الكبير الذى تحاشى الدخول فى حرب ميدانية ، اختبأ فى الخنادق التى حفرها على عجل . أجرى بلطجى عدة هجمات ، لكنه لم يوفق فى اختراق الخنادق

الروسية بسبب عدم حماس الإنكشارية لذلك . أرسل القيصر ، رئيس الوزراء البارون شافيروف إلى بلطجي وطلب منه أن يسمح له بالانسحاب مع جيشه وأنه سوف يعيد آزاك وكافة الأماكن التى أخذت فى معاهدة كارلوفجه . مشاوروا بلطجي الصدر الأعظم الثلاثة الذين رشاهم البارون بمجوهرات بالغة القيمة ، تمكنوا من إقناع بلطجي بقبول هذا العرض . هذا هو الوجه الأول من المسألة ، أما الوجه الثاني ، فهو اعتقاد بلطجي المحق فى عدم إمكانه اجتياز الخنادق والتحكيمات الروسية جبرا . كان لايعتمد على جيشه ولديه المبررات لذلك . وكان ملك السويد وخان قرم أعدى أعداء الروس ، على وشك الوصول إلى مقر السردار الأكرم ، وكان مجيئهم سوف يضطر بصورة مؤكدة بلطجي إلى الاستمرار فى القتال ؛ لذلك كله .. عقد الباشا الصلح على عجل . لكن الحقيقة أن وعود القيصر ، كانت حبرا على ورق ، كان همه الوحيد ، هو التخلص من الحصار العثمانى . كانت الأمنية الكبرى للقيصر ، التى توجه كل تصرفاته ، هى الهبوط إلى البحر الأسود ، وسوف لايتمكن من تحقيق هذه الأمنية فى حياته .

كانت العثمانية ، حتى ذلك اليوم ، قد أفنت جيوشا روسية كثيرة جدا ، ولكن روسيا مازالت حية . إن الحكاية التى رويت فيما بعد ، حول مقابلة بلطجي لعشيقة القيصر وامبراطورة المستقبل Ekaterina واستغفالها له ، ليس لها أى أساس صحيح ، فبلطجي لم يقابل ، لا القيصر ولا الإمبراطورة ابدا .

وأثناء التوقيع على مصالحة بروت فى ٢١ تموز باتفاق كافة الوزراء الموجودين فى الجيش ، قام بلطجي بهجوم أخير ، أخذ الجيش الذى لم يقاوم نيران أكثر من ١٢٠ مدفعا روسيا ، بالانسحاب بصورة غير منتظمة ، ولاشتداد الظلام ، لم يشاهد الروس ذلك . المادة المهمة فى المصالحة هى ، إعادة آزاك أى روستوف التى هى فتحة نهر الدون إلى العثمانية . المواد الأخرى التى كانت تبدو كأنها فى صالح العثمانية وتشدد على روسيا ، كانت افلاطونية ويشك فى إمكان تطبيقها . بعد فترة وجيزة من التوقيع ، حضر ملك السويد أكبر عسكرى فى عصره إلى مقر العثمانية وترجل عن حصانه الذى يرغو شدقه زبدا . وبعد نقاشه مع الصدر الأعظم نقاشا شديدا ، عاد غاضبا قائلا بأنه سوف يشكوه إلى البادشاه . وحقق ماقاله . أحمد الثالث الذى أمر باقامة حفلات الفرح فى البداية ، عزل الصدر الأعظم عند عودته إلى أدرنة من

الحملة التى دامت ٧ أشهر و ١١ يوما (١٧١١/١١/٢٠) . دامت صدارته سنة ، ٣ أشهر و ٣ أيام ومجموع مدة صدارتيه سنتان و ٧ أشهر ١٢ يوما . كان عمره يتجاوز قليلا الـ ٥٠ . مات فى السنة التالية .

أصبح أغا يوسف باشا ، ثم نيشانجى سلاحدار سليمان باشا صدراً أعظم لمدة ١١ شهرا و ٢٢ يوما (١٧١٢/١١/١٢) . وعندما لم يرض القيصر باعادة آزاك ، جاء البادشاه إلى أدرنة بنفسه للخروج إلى الحرب .

طلب القيصر الأمان . وقعت معاهدة أدرنة (١٧١٣/٦/٢٤) . استعيدت آزاك . انسحب الروس من بولونيا ، حافظ البحر الأسود على وضعه كبحيرة تركية لمدة ٦٠ عاما أخرى . لم يتمكن القيصر من الهبوط إلى المياه الدافئة . كارل ١٢ (بالعثمانية دمير باش شارل) الذى ظل فى تركية خمس سنوات ونصف ، قطع أمله فى زج تركية فى حرب ضد روسيا ، على أثر مصالحة أدرنة ، وغادر تركية (١٧١٤/٩/١٩) . غادر Dimetoka مع ٢٥٠٠ جندى سويدى و ٦٠٠ جندى عثمانى يرافقونه وذهب عن طريق افلاق إلى أردل عائدا إلى السويد .

وكنتيجة حرب الشمال ، لم يتمكن القيصر من الهبوط إلى البحار الدافئة ، إلى الجنوب ، لكنه تمكن تماما من الصعود إلى البحار الباردة أى البلطق . الروس الذين احتلوا مصب Neva (١٧٠٣/٥/١٣) ، أسسوا قواعد مدينة Sankt Petersburg (لنينغراد حاليا) . اضطرت السويد ، إلى ترك ساحل مهم فى البلطق إلى روسيا . وصلت روسيا إلى البحار المفتوحة . حصل بطرس فى السنوات الأخيرة من حياته على لقب « إمبراطور » . اما « جار » الذى كان لقبه السابق ، فمعناها إمبراطور صغير أو ملك كبير . اما لقب إمبراطور ، فيدل على ان « الجار » صار يملك صفة حاكم روما الشرقية أى حاكم البيزنط . لم تتقبل هذا اللقب الدول الأوروبية ، وخاصة الدولة العثمانية التى حافظت فعلا على عنوان إمبراطور روما الشرقية . ادعى إيفان الرابع منذ أواسط القرن ١٦ بأنه هو « جار » أى إنه صغير امبراطور روما الكبير الذى هو البادشاه . والآن ، يدعى بطرس أنه الإمبراطور الكبير لروما الشرقية . وعلى هذا يكون تاج روما الشرقية مقسما بين البادشاه والجار . كان أمنية وأمل الروس أن يكون الجار ، إمبراطور روما الشرقية الوحيد ، لكن هذا الخيال لم يتحقق فى أى وقت من الأوقات .

بعد عزل سليمان باشا بعد ٤ أشهر و ٢٥ يوما ، صار القبطان دريا (الأميرال الكبير) خوجه ابراهيم باشا ، صدرا أعظم (١٧١٣/٤/٦) . أعلم أولالى إبراهيم باشا ، بعد ٢١ يوما . كان أميرالا عظيما . عين مكانه ، ايزنيكلى داماد شديد سلاحدار على باشا ، صدر أعظم . سمى « داماد » (صهر) بسبب نكاحه - دون حدوث الزفاف مطلقا - فاطمة الطفلة ، أبنة أحمد الثالث الكبيرة . كان مثقفا بدرجة كبيرة ، له نفوذ لدى البادشاه ، فى سن ناضجة ، ذا مقدرة ، اداريا .

١٨) الحرب مع البندقية والمانيا (١٧١٥ - ١٧١٨) ، معاهدة باساروفجه (١٧١٨/٧/٢١)

استرد ، ماأعطى إلى روسيا فى معاهدة كارلوفجه . وبالنسبة إلى على باشا ، جاء دور استرداد ماأعطى إلى البندقية وألمانيا . أعلنت الحرب أولا على الأضعف ، البندقية (١٧١٤/١٢/٨). مضت على كارلوفجه ١٥ سنة و ١٠ أشهر و ١٣ يوما سار الصدر الأعظم على باشا- الذى صار سردار أكرم (قائدا أعلى)- من إستانبول على رأس الجيش الهمايونى (١٧١٥/٤/١) . شيعه البادشاه حتى أدرنة . تبع القبطان دريا (مشير البحر = الاميرال الكبير) جانم خوجه محمد باشا ، السردار الأكرم بالأسطول الهمايونى وأستولى على جزيرة ثينوس (بالتركية استنديل) من جزر كيكلاد التى كانت بحوزة البندقيين (١٧١٥/٦/٧) . دخل على باشا فى ٢٧ حزيران إلى مورا (وهى اراض بندقية) ، عن طريق كورينثوس .

كان فى مورا فى هذه الأيام ، أكثر من الفى قرية ، قصبة ، مدينة . جعل البندقيون مدينة Nauplion (بالتركية : Anabolu) مركزا . كانوا يذيقون الأهالى الروم الوانا من الظلم . استقبل الروم ، العثمانيين بسرور صادق وحقيقى . وقد ساعد هذا على فتح الجزيرة وسهل عملية الفتح خلال ٥٥ يوما . احتل على باشا كورينثوس (١٧١٥/٧/٤) ، Nauplion (٧/١٩) ، وخلال ٨ أيام Modon (٨/٢١) . ثم ميناء Monemvasia (بالتركية بنفشه (٩/٤) ، جزر Egin و Salamin (٧/٦) ، جزيرة آيامافرى (بالايطالية : Santa Maura) فى البحر اليونانى (١٠/٥) ، وخلال ذلك ، تم احتلال موانىء البندقية (٩/٢٤) الموجودة فى

كريت . سقطت نافارين وكورون فى ١٣ آب . هرب الأسطول البندقى ، من الأسطول العثمانى . حتى ذلك التاريخ ، كان ترتيب الأسطول البندقى ، الثانى بعد العثمانية فى البحر الأبيض . خرجت البندقية من صفوف الدول الكبرى فى عام ١٧١٥ ، بعد فقدانها مورا وانقطاع علاقتها ببحر إيجه . وفى ١٧٩٩ امُحيت من الوجود بشكل تام .

قضى على باشا ، شتاء عام ١٧١٥ - ١٦ فى إستانبول . كان يريد فى هذه المرة ، فتح جزيرة كورفو (التى لم يتسن الاستيلاء عليها حتى فى عهد القانونى) ، وتنحية البندقية بشكل تام . أعلنت ألمانيا التى أيقنت فورا أن الدور لحقها ، الحرب (١٧١٦/٤/٢٤) . كان على باشا قد غادر إستانبول فى ١١ نيسان ونظم جيشه لحرب البندقية . كان يلزم لمجابهة ألمانيا ، جيش أكبر ، ورغم ذلك ، غير طريقه وتوجه إلى المجر . جاء إلى بلغراد (١٧١٦/٧/٢٢) ، ولم يستمع للذين أشاروا عليه بقضاء الشتاء فيها والاستعداد لفتح المجر بقوات أكبر فى الربيع ، وقال أنه سينهى قضية المجر هذا العام ويصل إلى الحدود التى كانت فى عهد عائلة كوبرولو . ولأن المجريين يئنون تحت نير ظلم الألمان الشديد ، فقد كان يرى أنه من الممكن فتح المجر بتشتيت الجيش الإمبراطورى فى معركة ميدانية . لعب الوزير بوشناق صارى أحمد باشا بكلربك روملى ، دورا مشئوما فى هذا القرار وخدع الصدر الأعظم باقناعه بهذا الرأى وتنصر بعد مدة ودخل فى خدمة ألمانيا . مثل هذا يعتبر حادثة من اندر الحوادث الاستثنائية التى وقعت فى العثمانية .

تقابل الجيشان فى بترفارادين . فى ٢ آب شتتت مقدمة الجيش العثمانى البالغة ١٥٠٠ شخص ، مقدمة جيش الأمير اوجين البالغة ٨٠٠٠ شخص فى **Karlofca** وبدلا من أن يواصل الهجوم فورا- بينما العدو فى حيرة من أمره - تأخر على باشا ٣ أيام بناء على مشورة صارى أحمد باشا . بدأت معركة **Petervaradin** الميدانية فى الساعة ٧ من صباح يوم ٥ آب (١٧١٦) بهجوم الجناح العثمانى الأيسر الذى يشكله سباهية روملى « تمارلى » (نوع من الخيالة) وشروعه فى تشتيت الجيش الألمانى . ولكن الجناح الأيمن تشتت ، فور سقوط الوزير تورك أحمد باشا بكلربك الأناضول شهيدا . وعندما أراد على باشا تدارك الأمر فتقدم دون احتياط إلى الأمام ، سقط شهيدا برصاصة أصابت جبينه . تركت الوحدات التركية التى علمت بموت

السردار ساحة الحرب وبدأت فى الانسحاب إلى بلغراد . سببت عادة ترك ساحة القتال عند وفاة السردار – وهى عادة سيئة وقديمة لدي الجيش العثمانى – إحراز الأمير اوجين نصرا كبيرا . بعد ١٩ عاما من انتصاره على مصطفى الثانى فى معركة Zenta الميدانية ، ينتصر على أحد سردارات (قائد أعلى) العثمانيين كذلك . كان عمره فى هذه الاثناء ٥٣ عاما واشتهر بأنه عسكرى العالم المسيحى الذى لايقهر ، بطل ألمانيا الوطنى . غنم الأمير ، سرادق على باشا وعدة آلاف من كتبه ذات القيمة الفائقة المخطوطة بثلاث لغات شرقية والتى اعتاد استصحابها معه فى الحملات .

وبذلك تكون صدارة شهيد على باشا قد دامت مدة ٣ سنوات ، ٣ أشهر ، ٨ أيام . حقق خلال هذه المدة أعمالا كبيرة . لكن الفشل فى حملة ألمانيا ، جلب على الدولة مصيبة كبيرة . صار الوزير حاجى خليل باشا محافظ بلغراد ، صدراً أعظم وموشقارالى ابراهيم أفندى (نوشهرلى داماد ابراهيم باشا) الموجود فى الجيش ، قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) . كان ابراهيم باشا ، فى خدمة أحمد منذ كان شهزادة وكان مقربا إليه . صارى أحمد باشا الذى لم ترقه هذه التعيينات ، تنصر ولجأ إلى الألمان ، قبض عليه الجند الأتراك خارج بلغراد ومزقوه .

سار الأمير اوجين فور انتصار بترفارادين مع ١٨٠٠٠٠ جندى نحو تامشوار . وبعد حصار دام ٤٤ يوما ، استولى على قلعة تامشوار المهمة جدا وهى مركز الإيالة ومدينة مجرية حتى ذلك التاريخ (١٧١٦/١٠/٢٠) . استولى الألمان على Banata . انقطعت علاقة العثمانية بالمجر بصورة تامة . حاصر الأمير اوجين بلغراد (١٧٦٧/٧/٦) . اتحد جيش الصدر الأعظم والسردار الأكرم البستانلى حاجى خليل باشا ، مع ٧٠٠٠٠ من خيالة قرم الذين يقودهم سعادت كيراى خان وهجم من الخارج بغرض فك الحصار عن بلغراد ، لكنه انسحب بعد أن فقد ٢٠٠٠٠ شهيد ، وجريح واسير . دخل الأمير اوجين بلغراد (١٧١٧/٨/١٨) . عرض الألمان الذين احتلوا بلغراد خلال ٤٢ يوما الصلح وهم فى مركز قوة . كان أحمد الثالث وإبراهيم باشا قد قدما إلى صوفيا . تزوج قائمقام الصدارة ابراهيم باشا ، بابنة أحمد الثالث الكبيرة السلطانة فاطمة البالغ عمرها ١٣ عاما وأصبح صهرا له (داماد) . السلطانة فاطمة التى استشهد زوجها شهيد داماد على باشا ، قبل زفافها ، بقيت أرملة . عزل خليل باشا بعد صدارة دامت سنة ، ٢٢ يوما

(١٧١٧/٨/٢٦) . صار قيصريلى نيشانجى محمد باشا ، صدرا أعظم لمدة ١٤ يوما . احتل مكانه داماد ابراهيم باشا (١٧١٨/٥/٩) . أدى عدم حنكة وبصيرة خليل باشا ، إلى احتلال ألمانى لبلغراد دام ٢٢ عاما ، علاوة على عدم إمكان استعادة تامشوار فى أى وقت من الأوقات . ولأن بلغراد استسلمت لحالها ، غادرها المسلمون على شكل قوافل كبيرة . لم تعد بعد ذلك بلغراد ، مدينة تركية . هاجر المجريون إلى الشمال . وبعد ٢٢ عاما انتقلت إلى العثمانية مجددا على شكل مدينة صربية . استسلمت تامشوار كذلك لحالها ونزح منها الأهالى المسلمون . أخذ الرومانيون فى الاستيطان هناك ، وفى الأماكن التى أخلاها الأتراك ، وفقدت تامشوار هويتها كمدينة مجرية .

كان داماد إبراهيم باشا الذى أصبح صدراً أعظم بعد ماكان قائمقام الصدارة لمدة سنة و ٧ أشهر و ٧ أيام من مؤيدى الصلح كأبى زوجته البادشاه . كلاهما كان مقتنعاً بعدم إمكان الحرب بمثل هذا الجيش . كانت تقوية الجيش تستوجب إضافة معدات تكنولوجية جديدة ، ولتحقيق ذلك ، كانت الدولة تحتاج إلى فترة صلح طويلة الأمد . بعد ١٢ يوما من صدارة ابراهيم باشا ، وقعت العثمانية مع ألمانيا والبندقية معاهدة Pasarofca (١٧١٨/٧/٢١) وهى الاتفاقية المفجعة التى وقعت عليها العثمانية بعد كارولوفجه .

تنهى المعاهدة المكونة من ٢٠ مادة مع ألمانيا ، و ٢٦ مادة مع البندقية ، حالة الحرب مع البندقية التى استمرت منذ ٣ سنوات و ٧ أشهر و ١٤ يوما ، ومع ألمانيا التى استمرت منذ سنتين و شهرين ، ٢٧ يوما . تترك Banat مع مركزها Tamesvar إلى ألمانيا ، نهر Sava يشكل الحدود ، غير أن مدينتى بلغراد وسمنديره اللتين تقعان فى جنوب سافا ، تبقيان لدى ألمانيا . لايبقى تقريبا للعثمانية أية رعايا من المجريين ، ومقابل ذلك تحوز ألمانيا ، على قسم من الرعايا الصرب . كان المسلمون القاطنون فى بلغراد وسمنديره ، (اللتان كانتا مدينتين إسلاميتين حتى ذلك التاريخ) ؛ ينسحبون إلى الأراضى العثمانية . لم تكن الفتوحات التى أحرزت من البندقية بالأهمية التى يمكن معها تعويض ماأعطى لألمانيا . تبقى مورا ، جزيرة آياماقرى والجزر الأخرى ، لدى العثمانية ، لكن الجزيرة الصغيرة التى تقع بين كريت ومورا تبقى لدى البندقية .

١٩) دور لاله (١٧١٨ - ١٧٣٠)

أغلق الدور الأول لسلطنة أحمد الثالث الذى دام ١٤ سنة و ١١ شهرا و ويومين بمعاهدة باساروفجه . ويطلق على الدور الثانى لسلطنته « لاله دورى » (دور السنبل) وهو الذى يصادف داماد إبراهيم باشا والذى استمر ١٢ سنة ، وشهرين ، ١١ يوما . وفى نهاية هذا الدور حدثت حرب إيران التى كانت أحد أسباب اغلاق هذا الدور .

يمكن تعريف « دور لاله » ، بأنه يتمثل فى رغبة إستانبول والمدن التى تقلدها والتى ملت ويلات الحرب والانقلابات ، فى الاستفادة من نعم الحياة المادية بقيادة إبراهيم باشا . تم إعمار إستانبول والمدن الأخرى ؛ فمثلا ، شيدت القرية التى ولد فيها الصدر الأعظم المسماة موشقاره ، على شكل مدينة وأصبح اسمها نوشهر . ولأول مرة ، يركز الاهتمام على الإعمار المدنى بدلا من الإعمار الدينى ، أستعمل فى البناء الأسلوب الذى يعكس المرح والجانب المشرق للحياة ، تطورت هندسة الحدائق بشكل فائق . أصبحت هواية تربية الأزهار وخاصة « اللاله » (السنبل) الشغل الشاغل للناس ، إبتداء من البادشاه إلى الفقير المعدم . انعكست هذه الزوح المرحة المرتبطة بالحياة ، على الشعر والموسيقى . بزغ فى هذا المجال أفذاذ كثيرون . وخاصة نديم الذى تغنى فى اشعاره جو « دور لاله » ، وخاطب فيها القلب بأسلوب وجدانى سلس ، وحتى التصوف الكثير الرواج فى المجتمع العثمانى ، وحياة التكايا والطرق الصوفية ، زادت انفتاحا على الحياة ، وصارت تنظر إلى الحياة بكثير من المحبة والسرور والشكر لنعم الخالق عز وجل . أصبحت كل واحدة من تكايا الطرق الصوفية لدى العثمانية (والتى يطلق على صغيرها زاوية ، وعلى المتوسطة تكية ، وعلى الكبيرة دركاه وعلى الكبيرة جدا آستانة) ، اكاديمية للفنون الجميلة وناديا يجتمع فيه أهل القلوب . أخذت العلوم العملية حصتها من هذا الجو . بدأ توجيه الاهتمام نحو العلوم العملية ذات العلاقة بالعلوم العسكرية ، دور لاله ، هو بداية حركة التجدد . انفتحت الحركة الأولى على الاقتباس من الثقافة الأوروبية . ثم تلا ذلك التحرى والانتقاء . أخذ المثقفون من العثمانيين يشعرون برغبة ملحة لكشف وتفهم مايجرى واقتباس مايتذقونه ويعجبون به من الحياة الأوروبية . افتتحت مطبعة الدولة فى عام

١٧٢٧ . كان سبب تأخر تأسيس مطبعة وطنية ، إلى درجة أن الإمبراطورية كانت تطبع كتبها لدى المطابع الخاصة ، وتجلب الكتب المطبوعة من أوربا ، هو الخوف من البطالة التى ستصيب جيش الخطاطين . تم تأمين معيشة الخطاطين بمنع طبع الكتب الدينية فى المطابع (كتب الكونت Marsigli أنه كان فى عام ١٧٠٠ ، ٩٠٠٠٠ شخص يتعيشون بواسطة الخط،الأرجح إن هذا الرقم مبالغ فيه) .

لم يحقق إبراهيم باشا ، هذا الجو بإصلاحات جبرية وفورية ، بل بلين وبإجراءات نموذجية . ومع ذلك ، فإن جماعة المتعصبين المتشددين الذين لم ترقهم هذه التجديدات ، أخذت فى الازدياد .

٢٠) الحرب مع إيران (١٧٢٣ - ١٧٣٠)

جاءت خلال هذه السنوات سلالة أويسى من الأفغان واحتلت إيران بما فيها اصفهان . خربت مدنية الصفويين العريقة . استفاد القيصر بطرس من قتال الصفويين مع الأويسيين ، ودخل ايران . اضطربت العثمانية لذلك بشدة . خرجت داغستان السنية فى ١٧٢٢ من تبعية ايران وأعترفت بالعثمانية متبوعا لها مجددا . ورغم نفور ابراهيم باشا من الحرب ، اضطر إلى التدخل فى ايران . بدأت الحرب بدخول الجيش العثمانى فى تموز عام ١٧٢٣ إلى القسم التابع إلى إيران من كرجستان . احتل بكلربك أرضروم الوزير سلاحدار إبراهيم باشا ، تفليس وغورى وضم شرق البلاد كذلك إلى العثمانية . دخل بكلربك وان الوزير كوبرولو - زاده عبد الله باشا ، إلى اذربيجان . وفى الجنوب قام بكلربك بغداد الوزير ايوبلى حسن باشا باحتلال ايالات لورستان ، اردلان ، كرمنشاه،وهمدان . وهكذا انتقلت إيالات إيران الخمس (١٦٤٠٠٠ كم٢) إلى حوزة العثمانية . أما فى الشمال فتم الإستيلاء على إيالات روان وتبريز (كرمنشاه ١٧٢٣/١٠/١٥ ، سينه ١٧٢٣/١١/١٠ ، خوى ١٧٢٤/٥/٦ ، همدان ١٧٢٤/٨/٣١ ، تبريز ١٧٢٥/٨/٣ ، روان ١٧٢٤/١٠/٣ ، كنجه ١٧٢٥/٩/٤ ، خرم آباد ١٧٢٤/٩/٦) . وبهذا يكون قد تم فصل غرب وشمال - غرب إيران وقفقاسيا الجنوبية عن إيران لصالح العثمانية،وتم الاستيلاء على المدن الكبيرة المذكورة أعلاه الواحدة تلو الأخرى . أحرز كوبرولو -

زاده عبد الله باشا ، شهرة كبيرة بفتح تبريز (هو الأبن الكبير للصدر الأعظم داماد كوبرولو – زاده نعمان باشا) . وهكذا تم فتح ١٢٦٠٠٠ كم٢ من الأراضى فى الشمال (جمعا ٢٩٠٠٠٠ كم٢) . تم التوصل إلى حدود عهد مراد الرابع مجددا ، وتم التوصل إلى الخزر من جديد . أعترف بكل هذه الفتوحات أشرف شاه اويسى بمعاهدة همدان (١٧٢٧/١٠/٤) .

ظهر بعد ذلك فورا نادر خان اوشار . أعلن هذا البك التركمانى أن الأويسيين مغتصبون وغير شرعيين . أجلس على العرش طفلا ، أخذ يسعى فى تطهير إيران باسم الشاهات الصفويين من الاحتلال الأفغانى من ناحية ، والعثمانى من الغرب من ناحية أخرى . أحتل نهاوند من العثمانيين (١٧٣٠/٧/٢) ، اختطف بكلربك همدان عبد الرحمن باشا ، وبكلربك كرمنشاه بجوى باشا واستولى على كلتا المدينتين ، وخلال شهر تموز (١٧٣٠) ، استرجع إيالتى همدان وكرمنشاه (٨٥٠٠٠ كم٢) بحملة واحدة . عند ذلك ، ركزت أعلام الحرب للبادشاه فى صحراء اسكدار فى ٣ آب . لكن البادشاه وصهره الصدر الأعظم أرادا تأجيل الحملة إلى ربيع عام ١٧٣١ على أساس انتهاء موسم القتال . كثف المعارضون الدعاية ضد الصدر الأعظم بحجة أن نادر خان يذبح السنة فى إيران (كانت سلالة أويسى الأفغانية سنية – حنفية) .

٢١) ثورة باترونا (٢٨ أيلول – ١ ت١/١٧٣٠)

حدثت بعد ٢٧ عاما من واقعة أدرنة ، ثورة اتعس وأكثر شؤما منها . إيثار إبراهيم باشا ، أقاربه بالمناصب العالية ، وسلطته التى بدا وكأنه لانهاية لعهدها ، والخشية من انتقال السلطة إلى أحد أقاربه فى حالة وفاته .. كل هذه الأمور استعملت كأدوات إثارة ضده . زج أحمد الثالث فى هذه البلية ، وكذلك كان قد أبتلى ، قبل ٢٧ عاما أخوه الكبير مصطفى الثانى بسبب توزيع شيخ الإسلام فيض الله أفندى مقامات المشيخة والمناصب العالية بين أقاربه بشكل غير مألوف .

كان إبراهيم باشا . رجل دولة حر الفكر جدا ، وعادلا ورحيما . لم يكن معارضوه كثيرين ، لكن عدم اعتماده على تشكيلات صنف القابوقولو بسبب الحرب

الألمانية الأخيرة ، وعزمه على تجهيز الجيش باصناف تكنولوجية جديدة ، وإظهاره عدم الاعتماد على الجيش فى حرب إيرانية ، أثار الانكشارية .

حدثت الثورة فى هذه المرة بين أفراد جنود الانكشارية ولم يشترك فيها إلا عدد قليل من الضباط وبسبب عصيان باترونالى (من أهالى باترونا) خليل وهو جندى من صنف البحرية ورفاقه ، اشتهرت هذه الثورة التى أنهت دور لاله ، باسم « ثورة باترونا » وهى إحدى أكبر وأعنف وأشهر الثورات فى التاريخ العثمانى . اعتبر الصدر الأعظم مسئولا عن هروب بكلربك تبريز الوزير جاووش باشى قره مصطفى باشا من تبريز دون أن يطلق طلقة واحدة ، مما يسر لنادرخان احتلالها وقيامه بقطع أفواه وأنوف الشعب السنى .

بدأ العصاة فى التجمع فى ٢٨ أيلول . أهمل أمرهم فى بداية الأمر بشكل لايصدق ، وازداد عددهم ، وبينما كان تشتيتهم من أسهل الأعمال ، لعدم وجود أى رجل دولة على رأسهم أو حتى ضابط . ولعدم تصدى أى شخص فى العاصمة لتحمل المسئولية ، وترك الأمر فى بدايته دون مواجهة بل بتراخ وعدم اكتراث ، انقلب الأمر إلى اقتحام السجون وإخراج المسجونين وتسليحهم ونهب البيوت . وفى ٣٠ أيلول ، طلب العصاة من أحمد الثالث قطع رأس ٣٧ شخصا .

أعدم فى ١ ت ١ الصدر الأعظم نوشهرلى داماد إبراهيم باشا مع صهريه قبطان دريا الوزير قايماق مصطفى باشا (حفيد مرزيفونلى قره مصطفى باشا من ابنته) وكتخدا الصدارة (وزير الداخلية) الوزير محمد باشا . هكذا كانت نهاية أقدر صدر أعظم فى القرن ١٨ دون منازع ، طلب الثوار استقالة البادشاه ، لعلمهم بأنه سوف ينتقم . دعا أحمد الثالث ابن أخيه ولى عهد - شهزاده السلطان محمود فى الساعة ٩/٣٠ (٢١/٣٠) من مساء يوم ١ ت١ ، وجعله يقبل يده وقدم له النصح وأعلمه بأنه تخلى عن السلطنة لصالحه .

دامت صدارة داماد إبراهيم باشا ١٢ سنة و ٤ أشهر و ٢٢ يوما . هو رئيس الوزراء الثانى عشر فى تسلسل مدة البقاء فى الوزارة بين رؤساء وزراء تركية ، وهو الثانى فى التسلسل بعد رءوف باشا ، من بين الصدور الأعظم الذين تصدروا بعد وفاة فاضل أحمد باشا فى ١٦٧٦ حتى نهاية السلطنة ، إلا أن صدارة رءوف باشا

فى النصف الأول من القرن ١٩ ، لم تكن على فترة واحدة وأنما هى مجموع مدة بقائه لـ ٥ مرات . ابراهيم باشا الشاعر ، الملحن كان راعيا للعلوم والفنون والأدب والشعر والموسيقى وكان من كبار مشجعى حركة الأعمار .

كان عمر أحمد الثانى يتجاوز الـ ٥٦ عاما بـ ٩ أشهر ويومين . عاش بعدها فى شقته الكائنة فى سراى طوب قابو مع شهزاداته ونسائه مدة ٥ سنوات و ٩ أشهر ، يوم وتوفى وعمره يتجاوز الـ ٦٢ بـ ٦ أشهر و يوم (١٧٣٦/٧/١) . دور لاله ، كان دور استقرار كبير . شيخ إسلام هذا الدور هو ينى شهرلى عبد الله أفندى بقى فى مقامه مدة ١٢ سنة و ٢٤ يوما (١٧١٨/٥/٦ – ١٧٣٠/٩/٣٠) . وهو التاسع فى تسلسل المدة بين شيوخ الإسلام .

يندر من وصل من بين أولاده الذين يبلغ عددهم ١٢ شهزاده (أميرا) و٢٢ سلطانة (أميرة) سن السنتين ، كلهم ماتوا اطفالا . الذين توفوا وهم أطفال و لم يصلوا سن البلوغ هم : السلطانة رابعة (١٧٢٢ – ١٧٢٩) ، السلطانة أم سلمه (١٧٢٥ – ١٧٣٢) ، السلطانة عاقلة (١٧٣٠؟ – ١٧٣٧) ، السلطانة نائلة (١٧٢٢ – ١٧٢٦/١٢/١٠) ، السلطانة أمينة (١٧١٠ – ١٧٢٠) .

أبناؤه : مصطفى الثالث (١٧١٧/١/١٨ – ١٧٢٤/١/٢١) ، عبد الحميد الأول (١٧٢٥/٣/٢٠ – ١٧٨٩/٤/٧) ، السلطان سليمان وهو شهزاده عظيم جدا (١٧١٠/٨/٢٥ – ١٧٣٢/١٢/١١) ، الشهزادة السلطان محمد (١٧١٧/١/١ – ١٧٥٦/١٢/٢٢) الذى صار وليا للعهد لمدة سنتين و ٩ أيام (١٧٥٤/١٢/١٣ – ١٧٥٦/١٢/٢٢) ، الشهزادة السلطان بيازيد الذى صار وليا للعهد لمدة ١٣ سنة و ١١ شهرا و ٦ أيام (١٧١٨/١٠/٤ – ١٧٧١/١/٢٥) ، شهزاذه نعمان (١٧٢٣/٢/٢٢ – ١٧٦٤/١٢/٢٩) ، شهزادة سيف الدين (١٧٢٤ – ١٧٣٢) . والذين جلسوا على العرش من بين هؤلاء هم مصطفى ٣ وعبد الحميد ١ ، صار لهما أولاد ، لكن السلالة استمرت إلى يومنا هذا عن طريق عبد الحميد ١ فقط .

بناته : ١) السلطانة فاطمة (فاطمة الزهـراء) (١٧٠٤/١٠/٢٢ – ١٧٣٣/١/٣) ، جرى نكاحها للصدر الأعظم داماد شهيد سديد سلاحدار ازنيكلى فاضل على باشا ، ولم يحدث الزفاف (١٦٦٧ – ١٧١٦/٨/٥) ، وتزوجت بعده

بالصدر الأعظم داماد نوشهرلى إبراهيم باشا (١٦٧٠؟ - ١٧٣٠/١٠/١) وانجبت ابناً واحداً . ٢) السلطانة أم كلثوم (١٧٠٨/٢/٧ - ت١٧٣٢/٢) ، تزوجت بابن أخ ابراهيم باشا ، الوزير داماد نوشهرلى كنج على باشا (١٦٩٨؟ - ١٧٣٢) ، أنجبت ٤ أبناء وابنة واحدة . ٣) السلطانة عاتكة (١٧١٢/٢/٢٨ - ١٧٣٧) ، تزوجت بابن ابراهيم باشا ، داماد نوشهرلى كنج محمد باشا (١٧٠٢ - ١٧٦٨/٦/١٦) وانجبت ابنا واحدا هو نوشهرلى - زاده سلطان - زاده حاجى ابراهيم بك (١٧٣٠؟ - ١٨١٩) وهو الذى استمرت عائلة نوشهرلى إلى يومنا هذا عن طريقه . ٤) السلطانة صالحة (١٧١٥/٤/٢٠ - ١٧٧٨/١٠/١١) ، تزوجت ٥ مرات وأشهرهم رابعهم الصدر الأعظم داماد قوجا محمد راغب باشا (١٦٩٩ - ١٧٦٣/٤/٨) ، ورزقت من زوجها الأول (وزير داماد صارى مصطفى باشا ابن الصدر الأعظم غازى دلى حسين باشا) بـ٣ بنات وابن واحد . ٥) السلطانة عائشة (١٧١٥/١٠/١١ - ١٧٧٥/٧/٩) ، تزوجت ٣ مرات ورزقت ببنتين وولدين ، زوجها الثانى هو داماد وزير أحمد راتب باشا ، ابن الصدر الأعظم طوبال عثمان باشا ؛ أما زوجها الثالث فهو الصدر الأعظم داماد سلاحدار محمد باشا . ٦) السلطانة خديجة (١٧١٩/١١/٢٠ - ١٧٣٨) ، تزوجت بالداماد حافظ أحمد باشا ابن الوزير داماد كوجوك جركس عثمان باشا . ٧) السلطانة أسماء (١٧٢٦/٣/١٤ - ١٧٨٨/٨/١٣) ، تزوجت ٣ مرات وآخرهم هو الصدر الأعظم داماد محسن - زاده محمد باشا (١٧٠٦؟ - ١٧٧٤/٨/٤) ، ورزقت منه بابنة واحدة . ٨) السلطانة نظيفة (أيار ١٧٢٥ - ١٧٦٤/١٢/٢٩) لم تتزوج . ٩) السلطانة زبيده (١٧٢٨/٣/٢٩ - ١٧٥٦/٥/٦) ، تزوجت بوزيرين . ١٠) السلطانة زينب (١٧١٤/٤/٨ - ١٧٧٤/٣/٢٥) ، تزوجت أولا بداماد نوشهرلى سنك كوجوك مصطفى باشا ابن أخ إبراهيم باشا (١٧٠٩؟ - ١٧٦٤/٢/١١) ورزقت منه بابن واحد ، ثم تزوجت بالصدر الأعظم داماد ملك محمد باشا (١٧٢٠ - ١٨٠٢/٢/٢٢) .

٢٢) دور السلطان محمود خان الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤)

السلطان محمود الأول الذى جلس على العرش ، هو الابن الكبير لمصطفى الثانى . يعرف بلقب « غازى » . أمه السلطانه - الوالدة صالحة سبقتى (١٦٨٠؟ -

١٧٣٩/٩/٢١٠) . وبعد وفاة الشهزادة ابراهيم ابن عمه أحمد الثانى ، صار مكانه وليا للعهد (١٧١٤/٥/٤) . وبعد بقائه فى منصب ولاية العهد مدة ١٦ سنة و ٤ أشهر و ٢٨ يوما ، جلس على العرش مكان عمه أحمد الثالث وعمره يتجاوز الـ ٣٤ بشهرين ويوم . شاعر ، وحفار أختام وملحن كبير للأغانى الموسيقية التركية (الساز) . تزوج من ١١ زوجة لكنه لم يرزق باولاد ابدا . من بين اساتذته يمكن ذكر قضعسكر (قاضى عسكرى) روملى فيض الله - زاده ابراهيم افندى نذير آغا ، عثمان باشا وأول أستاذ له هو شيخ الإسلام ارضروملى فيض الله أفندى . أول من بايعه عند جلوسه ، شهزادات (أمراء ، أولاد السلاطين) عمه أحمد الثالث الـ ٧ (أحمد الثالث ، مدفون فى مقبرة ينى جامع بجوار أبيه وأخيه الكبير) .

كان محمود الأول ، عاقلا ، دقيقا ، حذرا ، وقورا ، ذا ثقافة عالية ، وعلى خلق . قتل بعد مدة وجيزة جميع مدبرى ثورة باترونا خليل وأنهى الثورة القصيرة وحكم التمرد ، ثم استمر على السير على نمط تراث دور لاله . اتعظ بعاقبة أبيه وعمه وبدل رؤساء الوزراء بصورة مستمرة ، ولم يبق أى صدر أعظم ، مدة طويلة فى السلطة . عين فى مقام المشيخة ، ابنى شيخ الإسلام ارضروملى شهيد حاجه سلطانى فيض الله أفندى (فيض الله - زاده مصطفى أفندى ١٧٣٦/٤/١٣ - ١٧٥٤/٣/٤ وفيض الله - زاده مرتضى أفندى ١٧٥٠/٦/٢ - ١٧٥٥/١/١٢) .

الذين شغلوا منصب الصدر الأعظم خلال دور السلطان محمود ، بعد نوشهرلى ابراهيم باشا هم : سلاحدار داماد محمد باشا ٣ أشهر و ٢١ يوما ، قاره حصارلى قاباقولاق ابراهيم باشا (١٧٣١/١/٢٢) ٧ أشهر و ١٩ يوما ، طوبال عثمان باشا (١٧٣١/٩/١٠) ٦ أشهر ويومين حكيم أوغلو على باشا (١٧٣٢/٣/١٢) ٣ سنوات و ٤ أشهر و يوم ، اسماعيل باشا (١٧٣٥/٧/١٢) ٥ أشهر ، ١٣ يوما ، ديمه توكالى سلاحدار محمد باشا (١٧٣٥/١٢/٢٤) سنة ، ٧ أشهر و ١٦ يوما . (١٧٣٧/٨/٦) ٤ أشهر و ١٤ يوما ، علائيه لى يكن محمد باشا (١٧٣٧/١٢/١٩) سنة و ٣ أشهر و ٤ أيام ، حاجى عوض باشا (١٧٣٩/٣/٢٢) سنة و ٣ أشهر ، ويومين ، انطاليه لى حاجى أحمد باشا (١٧٤٠/٦/٢٣) ١ سنة و ٩ أشهر و ٢٨ يوما ، حكيم أوغلو على باشا للمرة الثانية (١٧٤٢/٤/٢١) سنة و ٥ أشهر و يومين و شبين قره حصارلى سيد حسن

باشا (١٧٤٣/٩/٢٣) سنتان و ١٠ أشهر ، ١٦ يوما ، ترياكى حاجى محمد باشا (١٧٤٦/٨/٩) سنة و ١٦ يوما و كركوكلى حسن باشا – زاده بوينو أكرى عبد الله باشا (١٧٤٧/٨/٢٤) سنتان و ٤ أشهر و ١٠ أيام ، محمد أمين باشا (١٧٥٠/١/٣) سنتان و ٥ أشهر ، ٢٩ يوما ، صوفو عبد الرحمن باشا – زاده باهر مصطفى باشا (١٧٥٢/٧/١) . توفى محمود الأول على عهد هذا . كان عمره يتجاوز الـ ٥٨ بـ ٤ أشهر ، ١٢ يوما . العسكرى الكبير ورجل الدولة الممتاز بين هؤلاء الصدور الأعظم ، هو حكيم الوغلو على باشا . هو أعظم رئيس وزراء فى العصر ١٨ بعد نوشهرلى . أيضا كان طوبال أحمد باشا ، عسكريا كبيرا .

٢٣) الحرب مع ألمانيا وروسيا (١٧٣٦ – ١٧٣٩) ، معاهدة بلغراد

ساءت العلاقات مجددا مع روسيا . ساندت روسيا ، نادرشاه فى حرب العثمانية مع إيران . أزعج إستانبول ازدياد تدخلها فى شئون بولونيا على مر الأيام ، وإرسالها الجنود إلى بولونيا باستمرار ، وبهجوم مفاجىء غير متوقع ، استولى الروس على قلعة آزاك بعد حصار دام ٣٤ يوما (١٧٣٦/٥/٣) . استنادا على ذلك ، أعلن الباب العالى الحرب على روسيا (١٧٣٦/٦/١٦) . وبهجوم مفاجىء كذلك وبقيادة الماريشال Münich الألمانى الأصل، اجتاز الروس لأول مرة فى التاريخ اورقابو ودخلوا قرم وقاموا خلال شهر ، بتخريب كبير (١٧٣٦/٥/٢٨) . هزم فاتح كيراى الثانى الروس وأخرجهم من قرم ، وطاردهم إلى أعماق أوكراينا وعاد إلى قرم مع مائة ألف أسير .

على أثر هزيمة الروس ، أعلنت ألمانيا حليفة روسيا التى خططت تقسيم بولونيا معها بصورة مشتركة ، الحرب على العثمانية (١٧٣٧/٧/١٢) . اجتاز الألمان الحدود العثمانية من ثلاث نقاط وبثلاثة جيوش مختلفة ودخلوا افلاق (رومانيا) وبوسنه وصربيا . سقطت نيش (١٧٣٧/٧/٢٧) . لكنهم هزموا أمام بكلربك بوسنه – الصدر الأعظم السابق – فى المعركة الميدانية بانياقولو (١٧٣٧/٨/٤) . وفى جبهة صربيا ، استرجع كوبرولو – زاده أحمد باشا ، نيش (١٧٣٧/١٠/٢٠) . وفى المعركة الميدانية Vidin هزموا أمام الوزير عوض محمد باشا (١٧٣٧/٩/٩) ولم يكن حظ الألمان حسنا فى افلاق وبغدان كذلك ؛ حيث

هزموا فى تلك المناطق واخرجوا ودفعوا إلى ماوراء الحدود . هزم الروس كذلك أمام آزاك . جاء الماريشال كونت Von Münich (١٦٨٣ - ١٧٦٧) مع ١٨٠٠٠٠ جندى و٩٠ مدفعا أمام القلعة التركية المهمة Özö (بالروسية : Oczakov) بجوار Odesa . وعند تسلم Münich القلعة بعد أن ضحى بـ ٣٠٠٠٠ جندى روسى ، دهش عند مشاهدته ٧٠ جنديا بقوا على قيد الحياة من مجموع ٦٠٠٠ من جنود يحيى باشا وهنأ الباشا على ذلك (Mür'ü't-Tevarih ، ورق ٣٧٢ آ - ب) .

أدخل الألمان إلى بوسنة فقط ١٥٠٠٠٠ جندى ، كانوا قد فقدوا فى حرب بانيالوكا Banyaluka الميدانية ٦٠٠٠٠ جندى من مجموع ٨٠٠٠٠ جندى الذين اشتركوا فى المعركة ، وفقدوا فى معركة Vidin الميدانية ٦٠٠٠ جندى .

عند بدء الحرب مع روسيا ، كانت الدولة فى حرب مع إيران . وعلى أثر دخول ألمانيا الحرب ، عقد الباب العالى الصلح مع إيران بصورة مستعجلة ، لتأمين جهه الشرق . لم تكن العثمانية تثق فى نادرشاه . ولذلك فقد حاربت ثلاث امبراطوريات ، الايرانية ، الألمانية والروسية .

صعد عوض محمد باشا ، إلى الشمال واسترجع من الألمان فتح الإسلام ، آداقلعة وسمنديره . أما نعمان باشا فاسترجع من الروس قلعتى Özö وقيلبورنو . وهب الباب العالى السويد ١٥٠ مليون آقجه وحصل على وعد منها بفتح الحرب من الشمال ضد روسيا ، ولكن على أثر انضمام الدانمارك للجانب الروسى - الألمانى ، لم تتمكن السويد من دخول الحرب واستمرت تركية لوحدها . كانت السويد تحث الباب العالى على سحق روسيا ، أما بروسية فكانت تحثه على سحق ألمانيا (النمسا) وكلاهما تحثان الباب العالى بالقول ، دون أن تقدم أية مساعدة فعلية . أما انكلترا وهولندا وفرنسا فكانوا يغرون تركية بالصلح . أعلم ، يكن محمد باشا الديوان بأن الجيوش الألمانية سحقت فى كافة الجبهات ، وأنه ليس هنالك أسهل من إستعادة تامشوار والمجر وطلب الأذن للهجوم على المجر . لكن الديوان الذى فقد القدرة على إصدار القرارات الصائبة ، لم يسمح بذلك .

سار عوض محمد باشا متجها نحو بلغراد . وصول حكيم أوغلو على باشا ، من بوسنة أعاد الحياة للجيش الهمايونى . بقى ٤٢٠٠٠ جندى ألمانى الذين يبغون الدفاع

عن بلغراد ، فى ساحة الحرب . طلبت ألمانيا الصلح (١٧٣٩/٨/١٣) ، وأعقبتها روسيا فى طلب الصلح . كانت العثمانية تحاصر بلغراد منذ ٢٦ تموز . دخل حكيم أوغلو إلى خرواتيا ودمر Una وKulpa . بدأت أزمة سياسية فى فيينا وقامت مظاهرات ضد الامبراطور . ولكن ، فى الجبهة الروسية ، استولى الماريشال فون مونيخ على خوتين (١٧٣٩/٨/١٩) . ثم أستولى على ياش مركز Bukovina وبغدان . أوقف صارى أحمد باشا الروس عند نهر بروت . لم تكن هذه الانتصارات مفيدة للروس . لأن المفاوضات كانت قد تقدمت فى هذه الأثناء وكان قد تم التفاهم على أسس المصالحة العثمانية - الروسية .

طلبت ألمانيا ، وساطة فرنسا وانكلترا وهولندا وإيران لعقد الصلح فى غضون عام ١٧٣٩ ؛ ذلك أن ألمانيا كانت قد قطعت الأمل فى بلغراد ، وأدركت أنها سوف لاتتمكن من الدفاع كذلك عن تامشوار إذا استمرت الحرب إلى السنة التالية . أجرى الوساطة الحقيقية ماركيز Villeneuve سفير فرنسا فى إستانبول ؛ وبهذا تكون دبلوماسية لويس ١٥ قد وصلت الذروة فى أوربا . تولى المفاوضات الصدر الأعظم والسردار الأكرم حاجى عوض محمد باشا بنفسه . وقع فى ١٨ أيلول ١٧٣٩ على معاهدة بلغراد المكونة من ٢٣ مادة مع ألمانيا ، ١٥ مادة مع روسيا. أخليت بلغراد فى ٤ أيلول وسلمت إلى الأتراك . دام الاحتلال الألمانى للمدينة مدة ٢٢ سنة ، و١٧ يوما. تنتقل سمنديره ، بوغوردلن (Czabacz) ، آدا قلعة إلى العثمانية وكذلك الأراضى التى أعطيت إلى ألمانيا فى معاهدة باسا روفجة ١٧١٨ عدا بانات وتامشوار . تهدم قلعة آزاك وتعطى أراضيها إلى العثمانية ، ويتعهد الروس والعثمانيون كذلك بعدم انشاء قلعة فيها (كانت هذه هى عاقبة قلعة آزاك التى قال عنها السلطان محمد الفاتح « قلعة آزاك ، مفتاح إستانبول ») Mür'üt-Tevarih ورق ٣٧٩ ب - ٨٠ ب) . لاتبحر أية سفينة روسية فى بحر آزاك والبحر الأسود . سيحافظ البحر على وضعه كبحيرة عثمانية . يخاطب الباب العالى ، بعد الآن ، الحاكم الروسى فى المكاتبات بـ « امبراطور » أو « امبراطورة » (وهكذا تمت الموافقة بصورة رسمية على أن روسيا امبراطورية) . تعيد روسيا بشكل كامل خوتين وياش اللتين احتلتهما فى الأونة الأخيرة . بدأت كافة الدول تعتبر وجود خوتين لدى العثمانية ، ضمانا لاستقلال بولونيا . أكرمت فرنسا بمنحها المزيد من الحقوق التجارية المسماة

Capitulation . طبقت جميع بنود المعاهدة ، إلا أن الباب العالى ظل مصرا لسنوات طويلة ، على عدم استعمال لقب « امبراطور وامبراطورة لحكام روسيا ، واعتبر فقط ، سفراء روسيا ، معادلين لبقية السفراء .

معاهدة بلغراد ، وثيقه تثبت أن العثمانية ، هى الدولة العالمية الأولى ، بشكل لايقبل الجدل ؛ حيث أنها حاربت امبراطوريات روسيا ، ألمانيا ، إيران ، انتصرت وحصلت على أراض . تمكنت تركية ، فى أوروبا ، من تأمين فترة سلم ورفاهية استمرت مدة ٢٨ سنة . أثبتت هذه الحرب كذلك ، أن روسيا ، اكتسبت قوة بعد بطرس الكبير وبإصلاحاته التى وضعها ، وأن قوتها العسكرية اقتربت من القوة العسكرية الألمانية .

٢٤) الحرب مع إيران (١٧٣٠ - ١٧٤٦)

استمرت الحرب التى بدأت مع إيران ، على عهد أحمد الثالث ، إلى عهد محمود الأول كذلك . استرجع السردار (القائد) الوزير أحمد باشا بكلربك (فريق) بغداد ، كرمنشاه (١٧٣١/٧/٣٠) ، واسترجع همدان كذلك فى معركة كوريجان الميدانية بعد إفناء ثلاثة أرباع الجيش الصفوى المؤلف من ٤٠٠٠٠ شخص (١٧٣٠/٩/١٦) ، أما السردار الوزير حكيم الوغلو على باشا فاحتل فى الجبهة الشمالية مدينة أورمية(١٧٣١/١٠/١١) واسترد مدينة تبريز (١٧٣١/١٢/٤). وفى ١٠ ك١٧٣٢/٢ ، وقع أحمد باشا على معاهدة الصلح . أعيدت كامل إيران الغربية إلى إيران (بضمنها تبريز ، اذربيجان الجنوبية ، همدان ، كرمنشاه ، لورستان ، اردلان ، خوزستان) . نهر آراس ، يحدد الحدود . أما روان التى كانت تعود فى السابق إلى الصفويين ، نهجوان ، شيروان ، أران أى أذربيجان الشمالية ، كرجستان الشرقية وداغستان فبقيت لدى العثمانية . ورغم تضحية تركية بايران الغربية بغرض إمكان حفاظها على قفقاسيا الجنوبية وحدود بحر الخزر ؛ فإن ذلك لم يكن كافيا لتطمين نادر خان . دام الصلح سنة واحدة وبدأت الحرب بهجوم نادرخان فى ١٧٣٣ ؛ وبعد أن أحتل أربيل ، جاء أمام بغداد (١٧٣٣/١/١٢) . كان أحمد باشا يدافع عن المدينة ، لكنه لم يكن بامكانه الخروج من القلعة بسبب محاصرة الجيش الصفوى الكبير لها . عند قدوم الوزير طوبال أحمد باشا ، إلى بغداد مع ٨٠٠٠٠ جندى ، كانت المدينة تحت الحصار منذ ٧ أشهر ، ٨ أيام . هزم عثمان باشا نادرخان ، أكبر عسكرى فى القرن

١٨ فى العالم أجمع والفاتح العالمى الأخير الذى أنجبه القوم التركى ، بشكل حاسم فى الحرب الميدانية الكبرى التى أستمرت ٩ ساعات (١٧٣٣/٧/١٩) . جرح نادر ، قتل ٣٠٠٠٠ من جنده ، ترك مدافعه وسرادقه إلى العثمانية وانسحب . تم الاحتفال بالنصر فى إستانبول مدة ٣ أيام مع لياليها ومنح السلطان محمود لقب « غازى » .

وفى السنة التالية ، اقتحم نادرشاه بصورة مفاجئة مقر عثمان باشا الصدر الأعظم السابق والباشا السردار المريض جدا الذى كان يقضى الشتاء فى كركوك وقتله شهيدا ودخل كركوك . أعلن نفسه شاها وأنهى بذلك السلالة الصفوية ، وهى من أكبر سلالات التاريخ ، وبدأت فى إيران سلالة آوشار (١٧٣٦/١/٢٧) . انتصر على الوزير كوبرولو - زاده عبد الله باشا الذى صار سردارا (قائدا) مكان عثمان باشا فى معركة باجاى وقتله شهيدا . استولى على روان ، كنجه ، تفليس . واسترجع كافة الاقطار التى حصلت عليها العثمانية منذ ١٧٢٣ . وفى وضعه هذا المتمكن ، طلب الصلح . كان يعلم بأن العثمانية ستقبل الصلح ، لأنها دخلت فى حرب مع ألمانيا وروسيا ، وكان هو (نادرشاه) قد قرر فتح الهند . وافق الطرفان على أسس معاهدة قصر شيرين لعام ١٦٣٩ ووقعت معاهدة إستانبول (١٧٣٦/١٠/١٧) . لم تحصل العثمانية التى سالت دماؤها مدة ١٣ سنة ، من إيران على شىء . كان نادرشاه التركمانى الخالص الدم والمصطبغ بالصبغة الإيرانية ، كما هو الحال فى شاهات الصفويين الأخيرين ، سنيا - حنفيا فى الباطن . أراد إعلان المذهب بصورة رسمية ، إلا أنه خشى من ظهور الاضطرابات . وبناء على ذلك ، أدخل المرونة على مذاهب الإثنى عشرية المفرط للشاه إسماعيل وأعلن مذهب الجعفرية الأكثر اعتدالا ، وأصبح هذا المذهب هو مذهب الشيعة الرسمى والذى هو مذهب إيران منذ ذلك التاريخ وحتى الآن . راجع الخاقان العثمانى ، (الذى هو الخليفة) ، لغرض الاعتراف بالجعفرية مذهبا شرعيا خامساً ، أحال السلطان محمود الموضوع إلى هيئة العلماء برئاسة شيخ الإسلام ، حيث إن الخليفة لا يصدر الفتاوى شخصيا ، رفض المجلس بالاجماع الاعتراف بالمذهب الجعفرى كمذهب خامس . لكنه سمح للشيعة بالذهاب إلى الحج فى الأراضى العثمانية ، وزيارة المدن المقدسة فى العراق بحرية كما كان الحال سابقا . كانت هنالك فى النجف ، مدرسة شيعية عالية . وكانت الإدارة العثمانية تتغاضى عن تدريسها العلوم الدينية على الأصول الشيعية ، منذ القدم .

دام الصلح مع إيران مدة ٦ سنوات و ٧ أشهر و ١٣ يوما . بدأ مجددا فى ٢٩ أيار ١٧٤٣ ، وفى هذه المرة استمر لمدة ٣ سنوات و ٣ أشهر و ٦ أيام . أنزل نادر خلال هذه المدة ، ضربة كبرى ببنى تيمور الهند ، وصار سببا لأحد التحولات التاريخية المضرة جدا بالتاريخين التركى والإسلامى . وبهذه الضربة تقوضت سلطة بنى تيمور - الفريدة فى نوعها - فى القارة الهندية وتبعثرت . بدأ الهندوس فى الاعتراض على الحكم الإسلامى الذى استمر عصورا طويلة . تشكلت دولا عديدة واعترفت اسما فقط ، ببادشاه دلهى . وأصبحت الهند ، عرضة لتدخل وإستيلاء خارجى . تراجعت الدولة التيمورية عن وضعها كقوة عالمية ثانية ، واستولت إيران مرة أخرى على هذه الأماكن .

(كانت المدن الموجودة فى القارة الآسيوية كبيرة ومزدحمة جدا نسبيا ولم نذكرها هنا بسبب عدم توافر المعلومات التى يمكن أن تكون أساسا لتقدير عدد نفوس كل منها) :

تركية العثمانية ، كانت لاتزال الدولة الأولى فى العالم : المساحة ١٥٥٣٨٠٠٠ كم٢ والنفوس ٧٦ ١٥٠ ٠٠٠ (إستانبول ١٤٠٠ ٠٠٠ ، القاهرة ٥٨٠ ٠٠٠ ، أدرنة ٣٥٠ ٠٠٠ ، جزائر ١٢٥ ٠٠٠ ، تونس ١١٥٠٠٠ ، اسكندرية ٩٣٠٠٠) . لم تعد الإمبراطوريات الآسيوية ، تأتى بعد تركية من حيث القدرة والأهمية ، كما كانت قبل فترة وجيزة ، وإنما تأتى دولتان أوربيتان هما أولا فرنسا ، ثم بريطانيا العظمى (مع كافة مستعمراتها) :

الملكية الفرنسية ٢٦٢ ٥٣٩٦ كم٢ و ٢٢٦٥٣٠٠٠ نسمة (باريس ٦٠٠ ٠٠٠ ، ليون ١٠٣ ٠٠٠ ، مارسيليا ١٠١ ٠٠٠ ، نانتس ٩٩٠٠٠ ، بوردو ٩٤٠٠٠) . ملكية بريطانيا العظمى ١٨٧١٦٢٩ كم٢ و ١٢٩٨٥ ٠٠٠ نسمة (لندن ٨٠٠ ٠٠٠) .

بعد ذلك يمكن ذكر امبراطوريتى الصين وإيران بالتسلسل . كانت إيران قبل عدة سنوات ، الدولة الثانية ولكنها فقدت وضعها هذا بعد وفاة نادر مباشرة : الصين ١٠٧٩٧٨٠٤ كم٢ ، ١٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، إيران ١٧٥١٧٩١ كم٢ ، ١٦٥٠٠ ٠٠٠ نسمة .

كانت مساحة الامبراطورية الألمانية ٨٣٤٠٠٩ كم٢ ونفوسها ٢٦٣٤٤٠٠٠ (فيينا ١٦٠٠٠٠ ، ميلانو ١٣٠٠٠٠ ، هامبورغ ١١٠٠٠٠) . ثم تأتى بعد ذلك الإمبراطورية التيمورية الهندية : ٣١٠٣٢٤٣ كم٢ ، ١٤٠٠٠٠٠٠٠ نسمة .

كانت ملكية أسبانيا فى دور الانحطاط ١٥٠٩٨٤٥٥ كم٢ ، ٣٢٤٢٧٠٠٠ نسمة (نابولى ٣١٠٠٠٠ ، المكسيك ١٠٤٠٠٠ ، مدريد ١٠٢٠٠٠ ، باليرمو ٩٥٠٠٠) . الإمبراطورية الروسية ١٦٥١٧١٨٥ كم٢ ، ١٥٠٠٠٠٠٠ نسمة (موسكو ١٢٠٠٠٠ ، بطرسبورغ ١٠٠٠٠٠) . ومن ثم يمكن ذكر الإمبراطورية الأفغانية لأحمد شاه درانى الكبير (١٧٤٧ - ١٧٧٣) التى اتبعت طريق نادر فى ضرب الإمبراطورية الهندية : ١٦٥٢٠٤٢ كم٢ ، ٢٢٠٠٠٠٠٠ نسمة .

كانت ملكية بولونيا التى هى فى دور الانحطـاط ٧٩٠٤٠٠ كم٢ ، ١٥٦٠٠٠٠٠ نسمة . ملكية بروسيا ١٢١٢٢٤ كم٢ ، ٢٤٠٠٠٠٠ نسمة (برلين ١٠٥٠٠٠) كانت بروسيا قد دخلت حديثا فى عداد الدول الكبرى بفضل فريدريك الكبير (١٧٤٠ - ١٧٨٦) . جمهورية هولندا ١٠٢١٢٧٤ كم٢ ، ٧٩٥٠٠٠ نسمة . وقد خرجت فى ١٧١٣ من عداد الدول الكبرى (امستردام ٢٠٠٠٠٠) . ورغم أن ملكية السويد ٧٩٤٢٧٨ كم٢ و ٣٤٥٠٠٠٠ نسمة ، فإنه يمكن اعتبار أنها خرجت من عداد الدول الكبرى .

امبراطورية فاس لاسماعيل الكبير (١٦٧٢ - ١٧٢٧) كذلك يمكن اعتبار أنها خرجت من عداد الدول الكبرى بعد وفاته (نفوس فاس مع أقطار الزنوج) : ٣٥٠١٦٩٩ كم٢ ٨٠٠٠٠٠٠ نسمة (فاس ٢١٠٠٠٠ ، مكناس ٩٢٠٠٠ ، مراكش ٩٠٠٠٠) . ولم تكن جمهورية البندقية كذلك فى عداد الدول الكبرى فى ١٧١٥ : ٥١٠٤٠ كم٢ و ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة (البندقية ١٧٠٠٠٠) .

مجموع مساحة الخانات التركية فى تركستان ٥٥١٢٨٠٠ كم٢ وتحوى على ١١٥٠٠٠٠٠ نسمة ، كانت الإمبراطوريـة اليابانيـة ٣٧٣٥١٠ كم٢ و ٢٠٠٠٠٠٠٠ نسمة .

ومن بين الدول الأوروبية الأخرى : ملكية البرتغال ٨٧٦٨٢٠٥ كم٢ و ٦٦٠٠٠٠٠ نسمة (لشبونه ٢٥٠٠٠٠) ، ملكية الدانمارك ٢٥٨ ٩٥٧ كم٢ و ١٧٦٠٠٠٠ نسمة ، الملكية العظمى لتوسكانا ٤٨٩ ٢١ كم٢ و ١٠٥٠٠٠٠ نسمة ، جمهورية السويد ٤٠٠٣١ كم٢ و ١٨٠٠٠٠٠ نسمة .

كانت أفريقيا ١٣٠٨٩٠٧٩ كم٢ و ٣٣٠٠٠٠٠٠ نسمة وأمريكا الشمالية ١٠٥٤٨ ٣٠٢ كم٢ و ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة ؛ مجهولة تماما من قبل البيض .

كانت توزيع الإمبراطورية العثمانية على القارات بصورة تقريبية كما يلي : في أوروبا ١١٢٨٠٠٠ كم٢ و ٢٣٨٠٠٠٠٠ نسمة ، في آسيا ٣ ٩٤٠٠٠٠ كم٢ و ٢٦ ٥٥٠٠٠٠ نسمة ، افريقيا ١٠٤٧٠٠٠٠ كم٢ و ٢٥٨٠٠٠٠٠ نسمة (٣٠٤٠٠٠٠ كم٢ و ٧٠٠٠٠٠٠ نسمة منها ، ملكية بورنو الزنجية المسلمة التابعة إلى البادشاه نظرياً) .

ويمكن تقدير نفوس العالم في ١٧٠٠ بـ ٦٨٤١٠٤٠٠٠ نسمة وفي ١٧٥٠ بـ ٧٠٠٣٩٩٠٠٠ نسمة ، (ليست هناك زيادة مهمة) . وتوزيع النفوس على القارات في ١٧٠٠ و ١٧٥٠ هو كما يلي : زادت نفوس آسيا من ٤٥٤٩٠٠٠٠٠ - ٤٤٧٠٨٠٠٠٠ ، أوربا من ١٣٤٤١٢٠٠٠ - ١٥٢٣٤٨٠٠٠ أفريقيا من ٧١١١٩٠٠٠ - ٧٥٠٥٥٠٠٠ ، أمريكا الشمالية من ١٠٨٢٣٠٠٠ - ١١٧٢٦٠٠٠ ، أمريكا الجنوبية من ١٠٦١٠٠٠٠ - ١١١٣٠٠٠٠ ، اوقيانيا من ٣١٤٠٠٠٠ - ٣١٤٠٠٠٠ .

٢٦) دور السلطان عثمان خان الثالث (١٧٥٤ - ١٧٥٧)

جلس مكان محمود الأول ، أخوه الصغير عثمان الثالث لمدة سنتين و ٥ أشهر . أبوه ، مصطفى الثاني ، أمه السلطانة - الوالده شهسوار (١٦٨٢؟ - ١٧٥٦/٤/٢٧) . كان وليا للعهد خلال مدة سلطنة أخيه الكبير التي دامت ٢٤ سنة ، شهرين ، ١١ يوما (١٧٣٠/١٠/٢ - ١٧٥٤/١٢/١٣) . رئيس أساتذته هو القضعسكر فيض الله - زاده ابراهيم أفندي . كانت لديه ٤ زوجات ، ولكنه كأخيه الكبير محمود الأول ، لم يرزق بأولاد . لذا فإن السلالة ، لم تستمر من مصطفى الثاني ، بل استمرت من أبني أخيه أحمد الثالث . إن مدة سلطنة السلطان

عثمان الذى دفن فى مقبرة بنى جامع جوار أخيه الكبير ، عبارة عن سنتين ، شهر ، ١٨ يوما . توفى وعمره يتجاوز الـ ٥٨ بـ ٢٨ يوما . جلس على العرش وعمره ٥٦ عاما ، وهو أكبر السلاطين الذين جلسوا على العرش عمرا إلى ذلك التاريخ .

عثمان الثالث ، من الحكام العثمانيين القليلى الذكر جدا ، وتوجد إمارات تدل على ضعف نصيبه من الخلق العالى . عنيد جدا . صعب المراس ، عصبى ، متردد . لم يتعايش أبدا مع أى صدر أعظم . كان كوسه بدر مصطفى باشا ، صدرا أعظم عند جلوسه على العرش ، وهو ابن الوزير جورلولو صوفو عبد الرحمن باشا . ظل فى مقامه هذا مدة سنتين ، ٧ أشهر ، ١٤ يوما . تصدر حكيم اوغلو على باشا للمرة الثالثة (١٧٥٥/٢/١٥) . لم ينسجم مع البادشاه وعزل بعد ٣ أشهر ويوم بعد نقاش حاد (١٧٥٥/٥/١٨) . مجموع صداراته الثلاث ٥ سنوات ، ٤ أيام . الذى تصدر مكانه ، هو نائلى عبد الله باشا من الرجال المدنيين ، عالم ومن وزراء المالية . عزل بعد ٣ أشهر ، ٧ أيام (١٧٥٥/٨/٢٤) . أما الرجل الشاب بييقلى على باشا فاعدم بعد ٢ شهرين ويومين (١٧٥٥/١٠/٢٥) . عزل يرمى سكيز جلبى – زاده محمد سعيد باشا بعد أن شغل السلطة مدة ٥ أشهر ، ٧ أيام (١٧٥٦/٤/١) . كان رجلا جيدا ، تواجد فى شبابه فى باريس عندما كان أبوه يرمى سكيز جلبى محمد أفندى سفيرا فيها ، له الفضل فى افتتاح أول مطبعة وطنية ، مؤلف كتب تركية وفارسية . توفى فى ١٧٦١ . أصبح باهر مصطفى باشا صدراً أعظم للمرة الثانية لمدة ٩ أشهر ، ١٠ أيام . واحتل مكانه قوجا محمد راغب باشا (١٧٥٧/١/١١) . دبلوماسى ممتاز جدا عمره ٥٨ عاما ، رجل دولة كبير وشاعر ممتاز . أحسن صدر أعظم فى القرن ١٨ بعد نوشهرلى إبراهيم باشا وحكيم أوغلو باشا .

٢٧) دور السلطان مصطفى خان الثالث (١٧٥٧ – ١٧٧٤)

كان ولى عهد عثمان الثالث ، وابن عمه الذى يصغره بـ ١٨ عاما ، هو السلطان محمد . توفى وفاة عثمان الثالث بـ ٣٩ يوما فقط عن عمر يناهز الـ ٤٠ عاما . كان شهزاده(أمير) نشأ نشأة حسنة ، وفاته أحدثت تأثرا كبيرا . دفن فى بنى جامع جوار أبيه أحمد الثالث . كان أخوه السلطان مصطفى الذى يصغره بـ ١٧ يوما

فقط ، ولى عهد وأصبح بعد ٣٩ يوما بادشاها على أثر وفاة ابن عمه عثمان الثالث . وارتقى أخوه السلطان بيازيد الذى يصغره بسنتين إلى منصب ولى عهد .

مصطفى الثالث ، هو ابن أحمد الثالث . أمه أمينة مهرشاه قادين أفندى (زوجة السلطان) الثانية (١٦٩٣؟ - ١٧٣٢) ، كانت قد توفيت منذ سنين ، وهى والدة الشهزادة سليمان بن أحمد الثالث الكبير ووالدة ولى عهد - شهزادة بيازيد كذلك . دامت سلطنة السلطان مصطفى الذى جلس على العرش وعمره ٤٠ عاما ، مدة تقل عن ١٧ سنة بـ ٨ أيام وتوفى وعمره يزيد على ٥٧ عاما بـ ٤ أيام ، دفن فى قبره الكائن فى جامع لاله لى الذى شيده هو . سمى « غازى » منذ ١٧٦٩ . شاعر وخطاط . سليم الثالث ، هو ابن مصطفى الثالث . ولعدم إنجاب سليم الثالث ، استمرت السلالة من عبد الحميد الأول ، أخ مصطفى الثالث وخلفه . والشهزادة محمد ، الابن الآخر لمصطفى الثالث ، توفى قبل بلوغه سن السادسة (١٧٦٧/١/١٠ - ١٧٧٢/١٠/١٢) . توفيت بناته الخمس قبل بلوغهن سن الـ ٤ ، توفيت السلطانة مهرشاه فى السادسة من عمرها (١٧٦٣/١/٩ - ١٧٦٩/٢/٢١) ، أما بناته الـ ٣ اللواتى عشن فهن : (١) السلطانه شاه (١٧٦١/٤/٢١ - ١٨٠٣/٣/١١) ، جرى عقد قرانها للصدر الأعظم ياغلقجى - زاده حاجى محمد أمين باشا (١٧٢٣ - ك١٧٦٩/١) لكنها لم تزف ، ثم تزوجت بالوزير داماد نيشانجى سيد مصطفى باشا (وفاته ١٨١٣) وأنجبت ٣ بنات . (٢)السلطانة بيخان (١٧٦٦/١/١٣ - ١٨٢٤/١١/٧) ، تزوجت بالوزير داماد سلاحدار بريشان جليك مصطفى باشا (١٧٤٨؟ - ١٧٩٨) وخلفت بنتا واحدة . (٣) السلطانة خديجة (١٧٦٨/٦/١٣ - ١٨٢٢/٧/١٧) ، تزوجت بالوزير داماد سيد أحمد باشا (١٧٤٧ - ١٧٩٩) ، ابن داماد سليمان باشا وأبى داماد علاء الدين باشا .

منحت آخر اكرامية جلوس ، عند جلوس مصطفى الثالث فى ١٧٥٧ ثم تركت هذه العادة بعد ذلك التاريخ . كان مصطفى الثالث ، مجددا وكذلك مشجعا للحركة العمرانية . قام بإصلاحاته الجديدة بعناية ودون إثارة تشكيلات القابو قولو التى يكرهها . لكن هذه الاصلاحات لم تكن كافية وظلت قاصرة . فكر فى فتح قناة السويس . أسس بدلا من المدرسة التى تخرج المهندسين والمسماة « مهندسخانه

همايون » التى كانت قد أسست فيما مضى ، مدرستى « مهندسخانه برى همايون ومهندسخانه بحرى همايون » أى مدرسة الهندسة البرية الهمايونية ومدرسة الهندسة البحرية الهمايونية . الأولى ، جامعة إستانبول التكنولوجية الحالية ، والثانية المدرسة الحربية البحرية . ومن هذه المدرسة تخرج ضباط الاستحكام والمدفعية والبحرية وتم تدريب ضباط الخيالة والمشاة الذين يشكلون نواة الجيش ، فى معسكرات الجيش . ولخشيته من الانكشارية ؛ لم يتمكن من المساس بصنف المشاة . كان هماما ووطنيا . حدث على زمانه زلزال إستانبول الكبير فى ٢٢ أيار ١٧٦٦ . أعاد إنشاء جامعى أيوب سلطان وفاتح اللذين هدما فى الزلزال .

كان ، الصدر الأعظم ، عند جلوسه راغب باشا . توفى بعد صدارة دامت ٩ سنوات و وشهرين و ٢٨ يوما (١٧٦٣/٤/٨) . كان فى سن الـ ٦٤ . لم يملأ الفراغ الذى حدث بوفاته . كانت حرب السنوات السبع فى أوروبا قد انتهت فى عام وفاة راغب باشا ، اسقطت انكلترا ، فرنسا إلى الدرجة الثانية وأصبحت أقدر دولة مسيحية ، أثبتت ملكية بروسيا الصغيرة ، أنها قوة عسكرية لايستهان بها . وبناء عليه ، فإن ميزان قوى الدول فى أوروبا كان قد تبدل . لم يدخل راغب باشا الحرب ، رغم مساندته بروسيا والملك فردريك تجاه روسيا . عاشت تركية عهد استقرار ورفاهية ، فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تشتعل بنار الحرب . لم يكن بالامكان إيجاد حل لضعف بولونيا ، وبالرغم من مساندة العثمانية وفرنسا لها ، فإنها بقيت تحت تهديد ضغوط كل من روسيا ، ألمانيا (النمسا) وبروسيا .

جاء مكان راغب باشا ، نيشانجى حمزه حامد باشا لمدة ٦ أشهر و ٢٣ يوما ، ثم تصدر باهر مصطفى باشا للمرة الثالثة (١٧٦٣/١١/١ – ١٧٦٥/٣/٢٨) . عزل بعد سنة و ٤ أشهر و ٢٧ يوما واعدم بعد ٢٧ يوما . مجموع صداراته الثلاث ٤ سنوات و ٩ أشهر و ٢١ يوما . احتل مكانه داماد محسن – زاده محمد باشا ، رجل الدولة القدير وابن الصدر الأعظم محسن – زاده عبد الله باشا ، عزل بعد ٣ سنوات و ٤ أشهر و ١٠ أيام (١٧٦٨/٨/٧) . لم يتمكن سلاحدار حمزه ماهر باشا البالغ سنه ٤٠ عاما ، من البقاء فى السلطة ، أكثر من شهرين و ١٤ يوما . بدأت على عهده حرب كبيرة جدا مع روسيا .

صار ، ياغلقجى – زاده داماد نيشانجى حاجى محمد أمين باشا ، البالغ سنه ٤٥ عاما ، صدرا أعظم (١٧٦٨/١٠/٢٠) . عزل بعد ٩ أشهر و ٢٣ يوما (١٧٦٩/٨/١٢) . قطع رأسه بعد مدة وجيزة . لم يتمكن قاسطامونيلى مولدوفاجى على باشا ، من البقاء فى الصدارة أكثر من ٤ أشهر و يوم . شغل عوض – زاده خليل باشا ابن عوض محمد باشا ، من الصدور الأعظم السابقين ، منصب الصدارة لمدة ١٠ أشهر و ١٤ يوما (١٧٦٩/١٢/١٢ – ١٧٧٠/١٠/٢٥) . أما داماد سلاحدار محمد باشا ، فظل فى السلطة مدة سنة ، شهر و ١٧ يوما . أصبح محسن – زاده صدرا أعظم للمرة الثانية (١٧٧١/١٢/١١) . ومجموع صدارتيه الاثنتين بفاصل ثلاث سنوات ونصف ؛ ٦ سنوات ، ٤ أيام . توفى على عهده مصطفى الثالث وجلس عبد الحميد الأول .



المبحث السابع

دور الإنحطاط (١٧٦٨ - ١٨٢٦)

دور الانحطاط
(١٧٦٨ - ١٨٢٦)

١) الحرب مع روسيا (١٧٦٨ - ١٧٧٤)

بدأت الحرب الروسية - العثمانية الكبرى ، بسبب إدخال روسيا الجنود إلى بولونيا ، رغم مذكرات الاحتجاج العديدة التى أرسلها الباب العالى . أعلنت الحرب على روسيا التى أخذت تطارد الوطنيين البولونيين حتى داخل الأراضى العثمانية (١٧٦٨/١٠/٨) . مر على مصالحة بلغراد ٢٨ سنة و ١٠ أشهر و ١٩ يوما . مرت على تركية فترة صلح غير اعتيادية ، ولعدم دخول الجنود الحرب ، نسوا حتى كيفية القتال . أما الجيش الروسى ، فقد جهزته الإمبراطورة كاترينا الثانية بشكل جيد على الطراز البروسى . حتى ذلك التاريخ . لم تكن دولة أوروبية بمفردها قد استطاعت أن تنتصر على العثمانية .

بدا القتال بصورة فعلية بهجوم شتائى مفاجىء قام به خان قرم كيراى مع جيشه البالغ ١٠٠٠٠٠ خيال (١٧٦٩/١/٣١) على اوكراينا وقلبها رأسا على عقب وعاد مع مئات الألوف من الأسرى . أما الصدر الأعظم والسردار الأكرم ياغلقجى - زاده محمد أمين باشا ، فسار من إستانبول (١٧٦٩/٤/٣) ووصل Isakel (١ أيار) على الطونه فى شمال Dobruca وظل فيها ٢٥ يوما . وخلال قضاء الصدر الأعظم وقته مع الجيش الهمايونى فى دوبروجه ، بدأ القتال فى خوتين على نطاق واسع .

خوتين ، باب بولونيا ، تقع على نهر دنيستر وعلى نقطة عرض ٤٨ ٣٠ . لايمكن دخول الروس إلى بولونيا ورومانيا ، دون إسقاط هذه القلعة ، إلا أن يكون ذلك استيلاء مؤقتا . أما القلعة العثمانية القديمة كامانيجه (Kamenec Podolsk) الواقعة فى الضفة المقابلة من دنيستر ، فهى الآن بيد الروس ، وترى خوتين على الضفة المقابلة ، وكانت مدينة جرنوفيج الواقعة على مقربة من جنوب - غرب خوتين ، لدى العثمانية . ولأهميتها الاستراتيجية هذه ، اجتاز الأمير Galitsin مع ٦٥٠٠٠ جندى فى ٢٦ نيسان (١٧٦٩) ، دنيستر ودخل الأراضى العثمانية ، وبعد ٤ أيام وصل أمام خوتين . ولكن الجيش العثمانى الذى خرج فى اليوم الأول من أيار ، شتت الجيش الروسى . لم يتمكن الأمير من لم جيشه وتنظيمه قبل مضى ٣ أشهر و ١٢ يوما ، ثم جاء ثانية أمام خوتين . خرج آخيسكالى حسن باشا من القلعة وهزم الجيش الروسى مرة أخرى (١٢ آب) . لكن الجيش التركى الذى كان تحت إمرة قادة لايفقهون العسكرية ولم يسبق أن دخلوا الحرب ، كان فى حيرة من أمره . تركت حامية خوتين - التى استاءت من سحب الصدر الأعظم الجيش إلى اساكجى لغرض قضاء الشتاء - القلعة وتبعت الجيش . عندما دخل الأمير Galitsin فى ٢١ أيلول إلى القلعة شاهد بدهشة ، عدم بقاء جندى تركى واحد ، ووجود ٣٠٠ مدفع وبجواره عتاد ضخم ترك على حاله . وهكذا ، انقلبت الحرب التى بدأت بانتصار الأتراك ، إلى سقوط خوتين فى خريف عام ١٧٦٩ ، بيد الروس . دخل الروس إلى قفقاسيا كذلك واستولوا على بعض الأراضى التابعة للعثمانية .

كان الأسطول الروسى فى بحر البلطق ، بسبب كون البحر الأسود بحيرة عثمانية مغلقة . فى عام ١٧٦٨ ، أبحر الأسطول الروسى من Kronstadt المركز البحرى له فى خليج فنلنده متوجها إلى المحيط الأطلسى ، واجتازه إلى البحر الأبيض . أخبر السفير الفرنسى الكونت - Saint Priest ، الباب العالى ، بتحرك الأسطول الروسى إلى البحر الأبيض . لكن أحدا من الوزراء ، لم يصدق إمكان اجتياز أسطول العدو لتلك البحار ووصوله إلى المياه العثمانية . (كان بعض الوزراء لايصدقون وجود أسطول روسى بالمعنى الصحيح) . كان أغلب قادة الجيش الروسى جنرالات ألمان ويحوى أسطولهم على أميرالات وضباط انكليز . كان على رأس الأسطول - فى الظاهر - أحد عشاق الإمبراطورة Kont Aleksiy Orlov ، لكن قيادة الأسطول الروسى ،

كانت فى الحقيقة ملقاة على عاتق الأميرال الأسكتلندى Elphiston ومعاونيه الضابطين الانكليزين Dugdale, Gregg .

أنزل الأسطول المكون من ٢٤ سفينة حربية وسفن عديدة مساعدة أخرى ، جنودا فى مورا وأدى ذلك إلى تمرد الروم . جاء محسن – زاده محمد باشا إلى مورا وقذف الروس إلى البحر وقتل ٧٠٠٠٠ من الروم العصاة الذين تجمعوا فى تريبوليجه وسفكوا الدم العثمانى فى مورا (١٧٧٠/٤/٩) . دخل الروس إلى بحر إيجه لتعويض اندحارهم فى مورا .

تقابل الأسطولان العثمانى والروسى فى شمال ساقيز ، غرقت سفينة من كل منهما . انسحب Elphiston من مجال القتال على أثر مشاهدته غرق سفينة الأميرال Spiridov وغرق ٧٠٠ روسى وإنقاذ الكونت Fedor من البحر بصعوبة (صباح ٦ تموز ١٧٧٠) . كان القتال قد استمر مدة ٤ ساعات . القبطان دريا (مشير البحر ، قائد القوات البحرية) ، كان قانعا بانسحاب الروس . رست السفن بصورة متقاربة ودون احتياط . اقتربت إلى الميناء ليلا سفينتان صغيرتان من السفن المساعدة الروسية التى يقودها Dugdale . أراد العثمانيون فى البداية اغراقهما . انتظروا اقترابهما بعد أن قررتا انهما قادمتان لغرض اللجوء . وكانتا فى الحقيقة سفينتى احراق (بالفرنسية : brulot) . كانت فكرة جريئة لـ Elphiston . أشعلت قنابل الحريق التى أطلقتها السفينتان ، شراعات السفن التركية الشراعية وانتقل الحريق إلى السفن الأخرى التى رست جنبا إلى جنب ، ثم انفجرت المعدات الموجودة بالسفن . إحترق الأسطول العثمانى برمته ، عدا سفينتين . دخل الفستون ، ميناء جشمه وقصفه . نجا أكثرية أفراد البحرية العثمانية بقفزهم إلى البحر فى بداية الحريق . أحدثت غارة جشمه هذه (ليلة ٧/٦ تموز ١٧٧٠) صدى عظيما فى أوروبا ، وزادت من اعتبار روسيا . حاصر الروس ميناء Mondros فى جزيرة ليمنى مدة شهرين . أجبر جزائرلى حسن باشا الذى سار إلى الروس بـ ٢٣ قطعة بحرية – أسطول العدو على التراجع . منح رتبة القبطان دريا وبصورة رسمية لقب « غازى » .

احتل الكونت Romanzov قسماً كبيرا من بغداان (Moldavya) بواسطة ٣٠٠٠٠ جندى . أما الكونت Panin فبدأ بحصار قلعة Bender بواسطة ٦٠٠٠٠

جندى . كانت بندر قلعة عثمانية مهمة فى Besarabya على الساحل الجنوبى من Dnyestr (بالتركية تورلا) ، قرب مدينة كيشنيف Kisnev . انهزم الصدر الأعظم والسردار الأكرم عوض - زاده خليل باشا ، أمام رومانزوف فى موقع كارتال (بالرومانية : Kagul) قرب ايساكجى (١٧٧٠/٨/١) . ذبح بالسيف ٥٠٠٠٠ جندى عثمانى الذين طوردوا بعد تركهم القتال وهروبهم . وبذلك ، سقطت Bender (١٧٧٠/٩/٢٧) . ذبح الروس الذين تكبدوا خسائر كبيرة فى بندر ، كافة المسلمين بالسيف . الآباء الأتراك الذين قتلوا بأيديهم نساءهم وأولادهم بالخناجر ؛ رموا بأنفسهم بين صفوف الروس ليستشهدوا .

وعلى هذا ، كانت روسيا هى المنتصرة فى الحرب فى بداية خريف عام ١٧٧٠ . وهذه ، نقطة تحول فى التاريخ ، فلأول مرة فى التاريخ تغلب دولة اوروبية لوحدها فى حرب شاملة ، الدولة العثمانية . إن تركية التى كانت حتى هذا التاريخ ، الدولة الأولى فى العالم ، سقطت من حيث القدرة إلى الدرجة الرابعة بعد انكلترا ، فرنسا ، روسيا بالتسلسل .

بدأ الأمير Dolgoruki مع ٩٠٠٠٠ جندى بمحاصرة أورقابو (بالروسية : Perekop) وهى مدخل لقرم واحتلها بعد محاولات دامت ٣ أشهر (١٧٧١/٦/٢٤) . وعدت الإمبراطورة ، خان قرم سليم كيراى الثالث ، بأنها ستعترف بقرم ، دولة مستقلة ، فى حالة انفصاله عن العثمانية . فرق هذا الوعد القرميين إلى فريقين ؛ فريق يريد الاستمرار فى القتال ولايريد الانفصال ، وفريق سيطرت عليه رغبة تكوين دولة مستقلة ، يريد عقد صلح مع الروس ، والانفصال عن العثمانية .

كان جيش قرم المكون من ٨٠٠٠٠ خيال ، جيش قرون وسطى ، لايمكنه دخول حرب جديدة دون مساندة المدفعية والوحدات الفنية الأخرى للجيش العثمانى ، وكان هذا الجيش مفيدا فقط كوحدات للصاعقة . تخلى عن العرش ، سليم كيراى الذى لايرغب فى الدفاع عن قرم منقسمة إلى شطرين ، وجاء إلى إستانبول . ذهب ابناه إلى بطرسبورغ ، لغرض التفاوض مع الإمبراطورة حول استقلال قرم المزعوم . لم يحارب الجيش القرمى وحاربت الوحدات العثمانية الموجودة فى قرم فقط ، واستسلموا مع قائدهم القرمى الونير سلاحدار إبراهيم باشا (١٧٧١/٧/٣) . استولى

الأمير Dolgoruki على كامل الجزيرة . وبذلك انتهى حكم العثمانية الفعلى فى قرم بعد ٢٩٦ عاما . اتضح بشكل مؤكد ، أن روسيا انتصرت فى الحرب بشكل حاسم وأن الدولة العثمانية ، ليست هى الدولة العالمية الأولى ، حققت روسيا حلمها القديم ، وهبطت إلى البحر الأسود بشكل واسع . لم يعد البحر الأسود بعد الآن بحيرة عثمانية . بدأ استيلاء روسى مفجع على الجزيرة التى تضم مليونا ونصف مليون تركى .

وخلال عام ١٧٧١ استولى الروس على بغدان (مولدافيا) ثم على أفلاق (رومانيا) كذلك . ورغم أن الجنرال Essen أراد عبور الطونه نحو الجنوب بجيشه البالغ ٢٠٠٠٠٠ ، فإنه عدل عن ذلك عند تكبده الخسائر (١٧٧١/٩/١٢) . أراد الصدر الأعظم محسن - زاده محمد باشا ، استرجاع بخارست . انهزم فى Dumbovitza أمام الجيش الروسى البالغ عدده ٣٠٠٠٠ جندى (١٧٧١/١٠/٣٠) . استولى الروس الذين طفروا إلى جنوب دلتا الطونه ، على تولجا ، وعلى أثر اقترابهم من باباداغى ، سحب القائد محسن - زاده مقره الموجود فيها ونقله إلى حاجى أوغلو بازارى ، فى شمال فارنا . (وعند مجيئه إلى شومنو ، لقضاء الشتاء ، علم بإعادة تعيينه صدرا أعظم) . إزاء ذلك لم يتمكن الروس من اسقاط القلاع التركية الموجودة فى اوديسا وجوارها الكائنة على البحر الأسود ، وانسحبوا بعد تكبدهم الخسائر .

خارت أنفاس الروس الذين حققوا فتوحات كبيرة . لم يقوموا بأية حركات مهمة خلال عام ١٧٧٢ . أنفقت كاترينا الثانية ، كامل خزينتها الاحتياطية فى الحرب كما فعل مصطفى الثالث . كانت فرنسا وألمانيا (اوستريا) تتبعان سياسة خارجية مواليَة للعثمانية بسبب قلقهما من التوسع الروسى ، وخشيتهما بوجه خاص من ابتلاع روسيا لبولونيا . أما بروسيا وانكلترا فكانتا تتبعان سياسة موالية لروسيا . ولكنهم كانوا جميعا يبذلون جهدهم للابتعاد عن نار الحرب . جرت مفاوضات صلح ، لكنها لم تصل إلى نتيجة ، إزاء طلبات الروس المفرطة .

أظهرت الحركات الفاشلة التى قام بها الروس فى عام ١٧٧٣ أنهم قد استنفدوا قدرة الهجوم ؛ فمثلا ، فشل الجنرال Unger أثناء عزمه على استيلاء فارنا (١٧٧٣/١٠/٢٠) . عقد مؤتمر صلح فى قصبة كوجوك قاينارجه قرب الطونه فى ربيع عام ١٧٧٤ . كان الأمير Renin والماريشال Romanzov ممثلين عن روسيا

وكتخدا الصدارة (وزير الداخلية) الدبلوماسى الشهير رسمى أحمد أفندى ورئيس الكتاب (وزير الخارجية) الدبلوماسى المعروف كذلك منيب أفندى ممثلين عن العثمانية .

٢) معاهدة قاينارجه (١٧٧٤/٧/٢١)

يومان من المفاوضات ، كانا كافيين للاتفاق على أسس المعاهدة . ورغم أن الممثلين العثمانيين وقعوا على المعاهدة فى ١٧ تموز ، فقد أخر الأمير Renin التوقيع مدة ٤ أيام ووقعها فى ٢١ تموز ، هو يوم ذكرى محزنة لروسيا ، يوم الذكرى الـ ٦٣ لمعاهدة Prut .

احكام المعاهدة المكونة من ٢٨ مادة ومادتين إضافيتين ، كالتالى :

تنفصل خانية قرم ، عن العثمانية ، وتكون دولة مستقلة . روسيا تعترف بصورة رسمية بالخاقان العثمانى خليفة لكافة المسلمين . وبناء على ذلك ، فان تبعية خان قرم للخاقان من الناحية الدينية وتنظيم الأمور الدينية لقرم من قبل شيخ الإسلام فى إستانبول ؛ لاتعتبر منافية لاستقلال قرم . على الجيش الروسى . أن ينسحب من قرم فى أول فرصة تراها روسيا مناسبة . يكون التتار الذين يسكنون على ساحل البحر الأسود التى يسميها الأتراك « بوجاق » فى بيسارابيا ، والتتار الذين يسكنون فى المنطقة التى تسمى « كوبان » فى بحر آزاك ، مستقلين عن الأتراك ، ويشكلون مناطق محايدة عازلة بين روسيا والعثمانية . تترك تركية ، إلى روسيا ساحل البحر الأسود القصير الواقع بين نهرى Bug (بالتركية : آقصو) و Dnyepr (بالتركية : اوزو Özö) ، ميناء كرج المسيطر على مضيق كرج فى قرم وميناء آزاك (Rostov) الواقع فى نهاية بحر آزاك وحواليهما. تبقى لدى تركية سواحل البحر الأسود الواقعة بين Bug و Dnyestr (بالتركية : تورلا) ، وبضمنها Özö وخوجاباشا (Odessa) . تعطى تركية الإمارتين الرومانيتين (أفلاق وبغدان) الاستقلال النسبى ، وسوف يأخذ الباب العالى بعين الاعتبار الطلبات المعقولة من الناحية الدينية لروسيا فى هذه الامارات الارثوذكسية . تعامل العثمانية الملايين من تبعيتها الارثوذكس بشفقة . تستفيد روسيا كذلك كانكلترا وفرنسا من الحقوق

التجارية والعدلية المسماة « Capitulation » فى الإمبراطورية العثمانية . ولأن البحر الأسود سيكون مشتركا بين الدولتين ، فسوف تبحر فيه السفن التجارية الروسية بحرية، وتمر بحرية كذلك من المضايق إلى البحر الأبيض وبالعكس . ستسدد تركية لروسيا خلال ٣ سنوات ، غرامات حرب مقدارها ٧٥٠ مليون آقجه .

على الرغم من أن معاهدة قاربنارجه لم تفقد تركية سوى اراض قليلة جدا بالإضافة إلى قرم ، فإنها تعتبر من أتعس المعاهدات التى وقعت عليها تركية على مدى تاريخها .

يشير تحليل الاتفاقية باختصار إلى النتائج التالية :

ترفع المعاهدة روسيا دفعة واحدة إلى الدرجة الثالثة بين الدول بعد انكلترا وفرنسا ، أما تركية فتسقطها مرة واحدة من القمة إلى الدرجة الرابعة .

ينتهى تحكم العثمانية فى البحر الأسود ، ولايقف الأمر عند حيازة روسيا ساحلا لأول مرة ، بل يكون خروجها إلى البحر الأسود بشكل موسع . ومن الطبيعى أنها ، ستؤسس بعد ذلك فى البحر الأسود موانىء لإنشاء وتصليح السفن ويكون لها أسطول فيه ، وإن كانت ستستعمل هذا الأسطول فى البحر الأسود فقط لعدم إمكانها إمرار سفنها الحربية من المضايق ، (المسموح به فقط هو السفن التجارية) .
بسبب وجود رعايا أرثوذكس كثيرى العدد فى الدولة العثمانية والعطف المتوالى على المذهب الارثوذكسى ، فسوف تكون الأمور الدينية هذه ، ذريعة لتدخل روسيا فى شئون العثمانية ، وسوف تبدأ برومانيا .
مع الاعتراف رسميا بأن البادشاه هو خليفة لكافة مسلمى العالم ، إلا أن هذا لايعنى أن البادشاه سيمكنه التدخل فى شئون المسلمين فى روسيا ، لأن تدخلا كهذا ، لايمكن تحقيقه إلا بالقوة العسكرية ، ومن الواضح أن تدخل الطرف الضعيف سيبقى رمزيا فقط .

تدفع الدولة العثمانية غرامات حرب لأول مرة فى التاريخ .

يترك مستقبل قطر صغير كقرم ، القطر التركى منذ ١٥ قرنا والذى يسكنه ١/٥ مليون تركى (يعتبر هذا الرقم عاليا جدا بالنسبة إلى ذلك الزمن) وذى الأهمية الاستراتيجية الكبرى ، بشكل تام إلى نوايا روسيا الطيبة .

دخلت العثمانية هذه الحرب ، التى ساقتها إلى الدمار ، فى سبيل استقلال بولونيا . وقد خشيت كل من فرنسا وسويسرا اللتين تؤيدان استقلال بولونيا بنفس الدجة ، من دخول الحرب . لأنهما ، خشيتا من دخول انكلترا وبروسيا اللتين تتبعان نفس سياسة انكلترا . إن الدولة العثمانية التى لم تستطع الدفاع عن بولونيا ، صارت فى وضع تجهل فيه تماما ، مايمكنها أن تعمله لهذه الدولة بعد الآن ، وبناء على ذلك فسوف تبقى بولونيا دون مدافع ومفتوحة أمام نوايا جاراتها السيئة. والواقع أن روسيا ، لايمكنها وضع اليد على كامل بولونيا دون أن تعطى حصة لكل من جارتيها ألمانيا (اوستريا) وبروسيا ، وحينئذٍ تكون معرضة للصدام مع اتحاد تركى - سويدى - بروسى - ألمانى - فرنسى مخيف . ولكن فى حالة منحها حصة لألمانيا وبروسيا ، فسوف لايكون هناك اتحاد سياسى يمنعها من اقتسام بولونيا . وفى الواقع فان روسيا أظهرت استعجالا بدرجة ما ، باقتسامها بولونيا الاقتسام الأول فى ١٧٧٢ مع بروسيا وألمانيا قبل انتهاء الحرب العثمانية ، ولكن فور احتلالها لقرم وتيقنها بانتصارها فى الحرب ، صارت بولونيا بعد الآن ، « بولونيا صغيرة » ، خرجت عن نطاق الدول العظمى إلى درجة أنها كانت حتى فى حدودها الجديدة هذه ، معرضة لتقسيم جديد .

أعطيت فى معاهدة قاينارجه ، صلاحية تعيين خانات قرم إلى تركية ، وبالأحرى إلى الخاقان - الخليفة ، وقد كان ذلك لمجرد إظهار أن قرم مازالت تابعة للعثمانية ؛ لكن الحقيقة هى أن روسيا كانت تتحفز لضمها فى أول فرصة . وصار من الواضح أن العثمانية ليس لديها القدرة على منع ذلك .

خوتين ، كانت لاتزال لدى العثمانية ، كأنها ذكرى تاريخية لها فى الشمال بين أوروبا الوسطى والشرقية . لقد أبقيت خوتين فى حوزة العثمانية لأن انتقالها إلى روسيا ، سوف يولد المزيد من شكوك ألمانيا . وحقيقه الحال ، أن العثمانية لم تعد فى وضع يمكنها من أن تستعمل خوتين كضمان لاستقلال بولونيا ، كما أن تأمينها القوة التى تستطيع بها تحقيق ذلك كان من الصعوبة بمكان . وبالإضافة إلى مامضى فإن بولونيا كانت قد قسمت التقسيم الأول . إن التقسيم الأول لبولونيا ، لم يكن بالمعنى الصحيح وعلى المدى الطويل فى صالح ألمانيا (النمسا) ، ولا فى صالح بروسيا ، وإنما كان فى صالح روسيا فقط ؛ كان يقرب روسيا ، بصورة أكثر إلى أوروبا الوسطى ، ويجعلها جارة للبلاد الألمانية .

لقد اشتركت فيينا وبرلين فى التقسيم للحيلولة دون ابتلاع روسيا لكامل بولونيا . ولم تكن هذه الأمور ، بعد ، لتشغل بال انكلترا التى أصبحت الدولة العالمية الأولى .

كانت أوروبا البرية ، خارج نطاق السياسة العالمية لانكلترا ؛ فقد كان اهتمام انكلترا موجها إلى القارات الأخرى والمستعمرات . كانت فرنسا فى هذا التاريخ ، هى المنافسة لها فى هذا المجال ، ولم تكن روسيا . وبناء على ذلك ، كانت انكلترا مستعدة لمساندة أى اتفاق ضد فرنسا . اقتسام بولونيا ، كان مخلا بالاعتبار إلى درجة كبيرة كذلك بالنسبة إلى السياسة الخارجية الفرنسية . استمرت الحرب ٥ سنوات و ٩ أشهر و ١٤ يوما،وضعضعت أركان الدولة العثمانية . أظهرت أن الجيش العثمانى فقد روح القتال والقدرة عليه ، وإذا لم يكن الأمر كذلك تماما ، فإن هذه الروح وهذه القدرة قد قلت لديه كثيرا ، وعلى ذلك فانه يكون فقد قوته المهابه والرادعة . ويكون من الصعب عليه،بعد الآن ، وقف تدفق السلاف إلى البلقان وقفقاسيا . لقد كان المد السلافى ، ينساب كذلك نحو الغرب واوروبا الوسطى ، ضد العرق الجرمانى .

ينهى هامر التاريخ العثمانى الكبير بمعاهدة قاينارجه ١٧٧٤ هذه . يبدأ جودت باشا بالتاريخ العثمانى الكبير لفترة ٥٠ سنة اعتبارا من هذه المعاهدة .

حاولت العثمانية منذ هزيمة فيينا ١٦٨٣ وحتى هذا التاريخ ، المحافظة على وضعها كدولة عالمية أولى . خرجت فى ١٦٨٣ من كونها دولة عالمية . لكن قوتها العسكرية والبحرية ، كانت لاتزال تخيف العالم قرابة عصر كامل إلى وقت الحرب الروسية ، فقد كانت لاتزال فى الوضع الذى لم تستطع فيه دولة منفردة الانتصار عليها . كانت لاتزال تحكم الأقطار العظيمة فى القارات الثلاث . ولعدم تحقيق الانقلاب الصناعى فى اوروبا حتى ذلك التاريخ ، كانت بعض الأقطار العثمانية – وإن لم تكن بكاملها – داخلة ضمن الأقطار العالمية الغنية .

إن الحرب التى بدأت فى ١٧٦٨ ، والتى أخذت تميل نحو هزيمة تركيا فى ١٧٧٠ ، ثم اكتسبت الهزيمة صفتها الأكيدة بالاحتلال الروسى لقرم فى ١٧٧١ ثم تسجيل ذلك الوضع فى ١٧٧٤ .. هذه الحرب جعلت تركية العثمانية تهبط دفعة واحدة من وضعها كدولة عالمية أولى ، إلى المرتبة الرابعة ، دون مرورها بالمرتبتين الثانية والثالثة .

وبناء على ذلك ، تفتح صفحة جديدة فى تاريخ الدولة العثمانية . تبدأ بالبحث عن وسائل الإصلاح ، بعد الهزيمة .

ولوجود جيش مغلوب ، فإنه من الطبيعي أن يؤمن الأتراك بأن الإصلاح ينبغى أن يبدأ من الجيش .

لكن الجيش موزع ومفرق إلى عصابات ، اشبه ماتكون بالميليشيات ، ويرفض أن يكون من نفسه جيشا جديدا ، ويخشى من حرمانه من امتيازاته ، وكسبه غير المشروع ، ومايقوم بنهبه .

بسبب ذلك ، أقدم البادشاهات وقسم من الصدور العظام والوزراء على الإصلاح بتردد ، رغم أنهم يؤمنون بضرورته .

لم يتحقق إصلاح جذرى . عرضت زمرة القابوقولو ، ثورة كهذه ، بقطع الرءوس . عاشت الدولة مثل هذه المغامرة فى الفترة التى استمرت حتى ١٨٢٦ . التجديد ، لم يكن بشكل جذرى . بينما كانت فى اوروبا ، فترة النصف قرن التى استمرت حتى ١٨٢٦ ، هى الفترة التى حدث فيها الانقلاب الصناعى ، وصلت رءوس الأموال إلى مبالغ ضخمة . بدأت التكنولوجيا تدخل فى صلب الجيش والبحرية وتصبح لاغنى عنها ، بدأت الميكنه فى انكلترا فى صناعة النسيج ، وتحولت المصانع الصغيرة إلى مصانع ضخمة ، فزاد الإنتاج وأخذ يغزو الأسواق الخارجية ، انتقل هذا الانقلاب – الذى هو المرحلة الأولى للانقلاب الصناعى – فورا إلى فرنسا ومنها إلى دول أوروبا الغربية الأخرى ، وبعدها ، إلى كافة أوروبا تقريبا . أما الدولة العثمانية التى لم تتمكن من إيجاد الفرصة المناسبة لاتخاذ قرار التجديد الجذرى ، الا فى ١٨٢٦ ، فقد وجدت أمامها أوروبا بكاملها تقريبا ، قد تمكنت من تحقيق الانقلاب الصناعى ، ووجدت أوروبا الغربية ، قد اقتربت من المرحلة الثانية من هذا الانقلاب . وسوف نعرض فى الكتاب السابع ، هذا الدور الذى يتميز بتجارب التجديد التى لم توفق إلى تحقيق تغيير جوهرى فى الداخل . أما فى الخارج فسنجد أنه دور يتميز بسياسة استقطاع الدول الأوروبية الكبرى ، التى شخصت ضعف الدولة ، قطعا من العثمانية .

٣) دور عبد الحميد الأول (١٧٧٤ - ١٧٨٩) ، قضية قرم

مات مصطفى الثالث ، بسبب تأثره من الحرب الروسية . وعند جلوسه على العرش ، كان أخوته بيازيد ، ونعمان ، وعبد الحميد أولياء العهد الأول والثانى والثالث بالتسلسل . وبوفاة الشهزادة نعمان (١٧٦٤/١٢/٢٩) صار السلطان عبد الحميد ولى عهد ثانى وبوفاة أولو شهزادة بيازيد (١٧٧٠/١٢/١٩) ، أصبح ولى عهد السلطنة . وبعد ولايته للعهد لمدة ٣ سنوات ، جلس بعد وفاة أخيه الكبير الذى دامت سلطنته ٨ سنوات ، وشهرا ، و٢٣ يوما . وكان عمره ٤٩ عاما تقريبا (٤٨ سنة ، و ١٠ أشهر ، و ٣ أيام) .

عبد الحميد الأول ، هو أصغر أبناء أحمد الثالث . توفيت أمه رابعة شرمى قادين عام ١٧٣٢ ، عندما كان السلطان عبد الحميد فى الـ ٧ من عمره . وعند وفاة أبيه المخلوع ، كان عمره ١١ عاما . استمرت السلالة العثمانية إلى يومنا هذا ، من السلطان عبد الحميد الأول هذا فقط . منح لقب « غازى » بصورة رسمية فى ١٧٨٨/٩/٢١ . دامت سلطنته مدة ١٥ سنة و شهرين و ١٧ يوما . توفى وعمره يتجاوز الـ ٦٤ بـ ١٨ يوما . ومنذ ١٥٦٦ ، أى منذ عهد القانونى ، لم يبلغ أى بادشاه هذا القدر من العمر . دفن فى مقبرة الحميدية فى بقجه قابو .

توفى لعبد الحميد الأول ٩ شهزاده (أمير) و ١٢ ابنة فى سن صغيرة . وأطول من عاش ، هما شهزاده سليمان (١٧٧٩/٣/١٣ - ١٧٨٦/١/١٩) وشهزاده محمد (١٧٧٦/٨/٢٢ - ١٧٨١/٢/٢٠) . واولاده الآخرون هما مصطفى الرابع (١٧٧٩/٩/٨ - ١٨١٨/١١/١٦) ومحمود الثانى (١٧٨٥/٣/٢٠ - ١٨٣٩/٧/١) واستمرت السلالة من هذا الأخير . أما بنات عبد الحميد الأول فهن : (١) اختر - ملك خانم (١٧٥٨ - ١٧٨٦) تزوجت بابن الصدر الأعظم محمد عزت باشا ورزقت منه بابن واحد . (٢) السلطانة عائشة در شهوار (١٧٦٧ - أيار ١٨٢٦) ، تزوجت بالداماد أحمد نظيف أفندى (١٧٤٧؟ - ١٧٨٩/٥/٢١) ورزقت منه بابنتين أحداهما زوجة ابن الصدر الأعظم قوجا يوسف باشا . (٣) السلطانة أسماء (١٧٧٨/٧/١٧ - ١٨٤٨/٦/٤) ، هى زوجة قبطان دريا (مشير البحر) الوزير داماد كوجوك حسين باشا (١٧٦١ - ١٨٠٣/١/٨)

ولم تنجب أولادا . (٤) السلطانة هبة الله (١٧٨٩/٣/١٦ - ١٨٤١/٩/١٨) . زوجة الداماد الوزير علاء الدين باشا (١٧٧٤؟ - ك١٨١٣/٢) ولم تنجب أولادا . علاء الدين باشا هذا ، هو ابن سيد أحمد باشا صهر مصطفى الثالث الذى هو ابن سليمان باشا صهر أحمد الثالث .

حدثت فى عهد عبد الحميد الأول ، حرب إيرانية استمرت ٤ سنوات تقريبا (١٧٧٥ - ١٧٧٩) . البادشاه الذى وقع على معاهدة قاينارجه بعد ٦ أشهر من جلوسه ، جابه إيران بعد عدة أشهر . ظهرت فى هذه الأثناء سلالة تركمانية جديدة ، وهم القاجاريون ، يحاولون جمع شمل إيران . من منافسى تلك السلالة ، كريم خان زند ، بدأ بمحاصرة البصرة فى آذار (١٧٧٥) . على أمل أنه إذا انتصر على العثمانية التى خرجت من الحرب الإيرانية منهزمة ، سيقضى على القاجاريين . أعلن الباب العالى الحرب على إيران (١٧٧٦/٥/٢) . سقطت البصرة فى نيسان ١٧٧٦ بعد صمودها للحصار مدة ١٣ شهرا وبقيت فى الحكم الإيرانى ٣ سنوات تقريبا . هزم السرعسكر (قائد) الوزير حسن باشا بكلربك الموصل ، الجيش الإيرانى فى معركتين ميدانيتين (٢٢/ ١٧٧٧/٤ ، ١٧٧٧/٥/٥) . جرت الثانية فى اردلان قرب سينه . دخلت الحرب بعد ذلك فى فترة التوقف وانتهت بإعادة البصرة إلى العثمانية دون حدوث أى تغيير .

توفى الصدر الأعظم والسردار الأكرم محسن - زاده داماد محمد باشا إثر اشتداد مرضه نتيجة تأثره بمعاهدة قاربنارجه ، فى الطريق أثناء عودته إلى إستانبول (١٧٧٤/٨/٤) . دامت صدارته الثانية سنتين ، ٧ أشهر ، ٢٤ يوما ومجموع صدارتيه ٦ سنوات ، ٤ أيام . أعقبه الصدور العظام التالية أسماؤهم : عزت محمد باشا ، الذى كان قائمقام الصدارة فى إستانبول ، البالغ عمره ٥٠ عاما ، صدرا أعظم وهو من سلالة روم محمد باشا ، أحد الصدور العظام فى عهد فاتح . عزل بعد ١١ شهرا ، ٣ أيام (١٧٧٥/٧/٦) ، ثم جاء كتخدا الصدارة دارنده لى جبجى - زاده محمد باشا لمدة سنة ، ٥ أيام ، ثم فى (١٧٧٨/٩/١) اغا الانكشارية قالافات محمد باشا لمدة ١١ شهراً ، ٢٠ يوما ، أعقبه فى (١٧٧٨/٨/٢١) سلاحدار عربسونلى قره محمد باشا لمدة سنة ، ٥ أشهر ، ٢٩ يوما . وبهذا يكون ٦ أشخاص مختلفين باسم محمد باشا ، تصدروا الواحد تلو الآخر . وبوفاة قره محمد باشا

(١٧٨١/٢/١٩) تصدر مجددا ، عزت محمد باشا الذى كان بكلربك ارضروم ، لمدة سنة ، ٦ أشهر ، ٤ أيام ومجموع صدارتيه سنتان ، ٥ أشهر ، ويوم . عزل علائيه لى يكن محمد باشا (١٧٨٢/٨/٢٥) بكلربك روملى الذى أحتل مكانه ، بعد ٤ أشهر ، ٦ أيام (١٧٨٢/١٢/٣١) . وأخيرا أعتلى السلطة أول صدر أعظم لم يكن أسمه محمد ، وهو اسبارطه لى خليل حميد باشا .

كان خليل حميد باشا فى سن ٤٦ . وكان مصلحا . ولكنه بدلا من أن يتعاون مع البادشاه الذى كان مصلحا كذلك ، أراد خلع السلطان عبد الحميد الأول ، وجعل ابن أخيه ولى العهد السلطان سليم الذى يفوقه رغبة فى الإصلاح ، خاقانا . اكتشفت المؤامرة . عزل (١٧٨٥/٣/٣١) بعد صدارة دامت سنتين ، ٣ أشهر . وأعدم . وبالرغم من علم ابن أخيه (الذى سيكون سليم الثالث فى المستقبل) ، بالمؤامرة وعدم إخباره بها ، لم يمسسه السلطان عبد الحميد بسوء ، لكنه حدد حركاته نسبيا بعد ذلك حيث كانت كل الآمال متعلقة بالسلطان سليم ؛ إذ إن أبناء عبد الحميد الأول كانوا لايزالون اطفالا . كان ولى عهد – شهزاده (الامير ولى العهد) ، يرسل سفيرا بصورة شخصية إلى لويس ١٦ ملك فرنسا ويتراسل معه . عرقلت محاولة خليل حميد باشا الفاشلة ضد البادشاه ، حركة الاصلاح . لأن رجال البادشاه الآخرين المنتقدين له:قره – وزير محمد باشا الذى توفى قبل مدة ، صهر البادشاه نظيف أفندى وقبطان دريا (الاميرال الكبير) جزائرلى غازى حسن باشا – كانوا كلهم محافظين ولايرغبون فى الاصلاح الجذرى . جاء محافظ اوزو إلى إستانبول وتصدر لمدة ٩ أشهر ، ٢٤ يوما . احتل مكانه قوجا يوسف باشا (١٧٨٦/١/٢٤) . ازداد نفوذ قبطان دريا جزائرلى حسن باشا ، إلى حد التحكم على الصدر الأعظم . وقوجا يوسف باشا هذا ، كان كذلك من جماعة حسن باشا الملتزمين ، وولده المعنوى . لكنه كان رجل دولة قديرا . وهو الصدر الأعظم الأخير لعبد الحميد الأول ، والأول لسليم الثالث .

سببت معاهدة كوجوك قاينارجه اختلال التوازن الدولى . لم تحل مشكلة واحدة ، وتمخضت فقط ، عن روسيا كبيرة . لم تطبق روسيا المادة التى تنص على إخلاء قرم من الجيش الروسى . وكذلك لم تخل الدولة العثمانية مناطق بوجاق (بيسارابيا الجنوبية) وكوبان فى قفقاسيا الشمالية . أبلغت العثمانية بأنه إذا سحبت روسيا جيشها من قرم ، فإنها سوف تسحب جيشها المتواجد فى هذه المناطق وتمنح

لها الاستقلال . رفضت روسيا . لأنها كانت عازمة على السيطرة على قرم بشكل تام . ومستعدة لأن تعمل أى شىء فى هذا السبيل . كانت كل من الدولتين تستعدان للحرب بكل مافى وسعهما . كانت روسيا قد خرجت من الحرب متقطعة الانفاس متكبدة خسائر كبيرة ، ولم تكن لدى العثمانيين ، ولا لدى روسيا ، القدرة على دخول حرب جديدة بعد عدة سنوات .

انقسم الشعب التركى فى قرم الذى يطلق عليهم العثمانيون اسم « تتار » إلى قسمين : مؤيدى العثمانية ومؤيدى الروس . كانوا يريدون العثمانية ويخشون روسيا . كان الحزبان ، كأن احدهما عدو للآخر . كان صاحب كيراى الثانى من مؤيدى الروس . تخلى عن العرش بتأثير العثمانية وأحضر إلى إستانبول ، وعين مكانه دولت كيراى المؤيد للعثمانية . ورغم تصديق السلطان عبد الحميد على كونه خانا ، لم يتمكن من البقاء أكثر من سنة ، ٧ أشهر (حزيران ١٧٧٥) . وأجلس مؤيدو الروس ، برشاوى الروس ، شاهين كيراى ، أحد أخوة صاحب كيراى الثانى على العرش . اضطر الباب العالى إلى التصديق على تعيين هذا الشاب المنحط ، خانا . عاش شاهين كيراى عدة سنوات فى سراى الإمبراطورة فى بطرسبورغ ، وكان من المعجبين بالروس والمتطبعين بعاداتهم .

لم تطق العثمانية الصبر على هذه الحال فى قرم ، وكان لدى الشعب العثمانى إصرار كبير على استرداد قرم ، وبينما كانت العثمانية على وشك اتخاذ قرار الحرب ، عرضت فرنسا الوساطة . وافقت روسيا على هذه الوساطة . وعلى هذا الأساس ، عقدت بين روسيا والعثمانية معاهدة آينالى قاياق (اسم السراى الكائن على الخليج فى إستانبول) (١٧٧٩/٣/٢١) . لكن الاتفاقية ، كانت ضد العثمانية ؛ لأنها تلغى حق الأعتراض على خان قرم ، وسوف يصادق البادشاه ، بعد الآن ، أوتوماتيكيا على أى أمير ينتخبه القرميون خانا ، شرط أن يكون من سلالة كيراى ، وستكون كذلك قرم متبوعة لصفة الخليفة . خلال ذلك ، أسقط العثمانيون شاهين كيراى وجعلوا القرميين ينتخبون سليم كيراى الثالث ، ولكن تدخل الروس بعد عدة شهور ، وجعلوهم ينتخبون شاهين كيراى مرة أخرى . كانت خانية شاهين كيراى الثانية التى دامت ٤ سنوات اياما مظلمة لقرم . كان يلبس ملابس الجنرالات الروس المتميزين ويعلق على صدره الأوسمة التى تسلمها من الإمبراطورة . ويسير بين الشعب

راكبا عربته التى صنعها فى بطرسبورغ ولايسير ممتطيا الحصان كما كان يفعل أجداده ، يرتب الولائم بالمشروبات ويجعل المسلمين يرفعون اقداحهم شاربين نخب الشرف . يلغى الأوقاف ويضع يده على إيراداتها ، يحاول تأسيس أسطول لإلغاء سيطرة « العثمانيين الرجعيين » على البحر الأسود .. إلى غير ذلك من الأمور .

كان مقتنعاً بأن الإمبراطورة (الجاريجه) تقدره وتحبه . أما فى إستانبول فكان يضطر لتقبيل أردية الوزراء . لكن هذا العثمانى الغرير ، الذى غره بهرج المدنية الروسية ، سيوقف عند حده ! نفد صبر القرميين .خلعوا ، فى ١٧٨٢ شاهين كيراى من العرش وانتخبوا أخاه الكبير بهادر كيراى الثانى خانا وعرضوا ذلك على تصديق العثمانية . فر شاهين كيراى إلى بطرسبورغ وشكا إلى إمبراطورته ، القرميين وكذلك العثمانيين . أرسلت الإمبراطورة ، شاهين كيراى إلى قرم مع جيش روسى وأجلسته على العرش بعد ٧ أشهر . فربهادر كيراى إلى إستانبول . ولم تدم سلطنة شاهين كيراى ، الذى كان يعتقد أنها ستطول مدى حياته ، أكثر من شهور معدودة .

أستولى الوزير على باشا الموجود فى Kubon ، على Taman . وعندما صرح شاهين كيراى بأن Taman منطقة حيادية وطلب سحب جنده ، أمر على باشا باعدام السفير الذى جاء بالطلب ، لابسبب كونه سفيرا لدولة مستقلة ، بل بسبب كونه خائنا للوطن . أعترض الروس على المعاملة التى جرت مع السفير وأستولوا على شبه جزيرة تامان شمال نهر كوبان ، زاعمين أنهم يعملون ذلك مساندة لشاهين كيراى . نصب الأمير Potemkin القائد العام للإمبراطورية الروسية ومن المع عشاق كاترينا الثانية ، مقره فى قره صوبازارى . لم تذع العكاز Ukaz (ارادة الإمبراطورة) وأخفيت عن الناس رغم توقيع الإمبراطورة عليها فى ١٩ نيسان . تليت بالروسية على أهالى قرم يوم ذكرى جلوس كاترينا الـ ٢١ (١٧٨٣/٧/٩) . تتضمن هذه الإرادة ، ضم قرم إلى روسيا كأيالة جديدة ، ويطلب من أهالى قرم كافة ، يمين الاخلاص للإمبراطورة ، والذين لايرغبون فى أداء اليمين يتركون احرارا ويعطون الاذن فورا للهجرة إلى تركية ، وسوف لايتدخل فى ديانة وعرف وعادات وحرية الذين يرغبون فى البقاء . وبذلك تنتهى سلطنة بنى جنكيز . نقل مركز قرم من باغجه سراى إلى آق مسجد وأرسل إليها وال روسى . توصل إلى ذروة قلة الحياء ، بالتصريح القائل بأن السبب الموجب ، لضم قطر مثل قرم لايسكنه فرد روسى او

مسيحى ، هو التخلص من مشكلة بسيطة تثير حربا جديدة مع العثمانية .

هذا ماآلت إليه خانية قرم التى لم تمس حتى العثمانية استقلالها منذ ٣ قرون . أعدم الأمير بوتمكين أكثر من ٣٠٠٠٠ قرمى وكلهم من الطبقة الممتازة خلال أقل من شهرين . قتل أكثرهم نتيجة التعذيب بتهمة التجسس لحساب العثمانية ! قضى بهذه الطريقة على جميع أصحاب الأراضى . بدأ سيل المهاجرين الروس إلى قرم . مئات الألوف من الأتراك انتشروا على البيوت الساحلية لقرم . بدأو فى البحث عن النبل التى توصلهم إلى الأراضى العثمانية . كانت تجرى فى قرم نفس الحوادث التى جرت فى الأندلس . مات أكثر بكثير من نصفهم نتيجة المطاردات والضغوط الروسية او باسباب اخرى كالمرض والجوع والبرد ، وألقى البقية أنفسهم فى البلقان والاناضول وإستانبول . هبط تعداد قرم الكثيف جدا ، إلى الثلث او إلى نسبة قريبة من ذلك (كان يسكن قرم فى ذلك التاريخ ١/٥ مليون تركى وهذا يعنى ٦٠ شخصا كم٢ . وهذه النسبة ، نسبة عالية جدا فى ذلك العصر) .

خصص الروس اولا ، راتبا لشاهين كيراى . ثم اعتبروا هذا الراتب لاداعى له . ولعدم رغبتهم فى تسديده ، اخذوا فى اذلاله بصورة مستمرة . لم يتحمل الشاب الغافل والخائن ذلك وفر إلى تركية . تغاضى الروس عن هروبه . اولا ليتخلصوا من الراتب الذى يدفعونه له ، وثانيا لمعرفتهم ، العاقبة التي تنتظره فى تركية . أعتقل الباب العالى شاهين كيراى فورا ونفاه إلى جزيرة رودس وهناك قطع رأسه (تموز ١٧٨٧) . مجموع مدة جلوسه خانا للمرات الثلاث هو ٥ سنوات . هو الخان الـ ٤٩ لقرم ، وحفيد جنكيز فى البطن ٢١ . هكذا انمحت من التاريخ خانية قرم ، التى دامت ٣٥٦ عاما ولعبت دورا مهما ، فى أوروبا الشرقية . أما حكم العثمانية فى هذه الإيالة فقد دام ٣١٠ سنين و١٠ أشهر و١٦ يوما ، ولو احتسبت حتى معاهدة قاينارجه فتكون ٢٩٩ سنة وشهرا و٢٠ يوما . أما فترة الاستقلال المزعوم المرتبط صوريا بالبادشاه ، فقد دامت ١١ سنة ، ٨ أشهر ، ٢٦ يوما .

اعترفت تركية بانضمام قرم إلى روسيا باتفاقية ٨ ك١٧٨٤/٢ ، وأعتبر نهر كوبان حدودا ، وتركت كامل قفقاسيا الشمالية إلى العثمانية . لكن الباب العالى لم يكن مخلصا فى هذا الاعتراف . وإنما كان يستعد للحرب وينتظر الفرصة المناسبة . أعلن بعد ٤ سنوات و٤ أشهر من الانضمام ، شهباز كيراى ، خانا وكان عمره ٥٥ عاما ،

وهذا الامير هو الاخ الكبير لدولت كيراى الرابع (اب ١٧٨٧) ، وآبنه حليم كيراى ، مؤلف مهم لتاريخ قرم (بالتركية) . وبعد سنة ونصف (شباط ١٧٨٩) منح الباب العالى لقب الخان الـ ٥٢ إلى بخت كيراى (شباط ١٧٨٩) مكان شهباز كيراى . حمل هذا اللقب حتى آب ١٧٩٢ . يعيش اليوم فى تركية العديد من نسل كيراى . وشغل بعضهم مناصب عالية فى الدولة العثمانية .

جاءت الإمبراطورة فى ١٧٨٧ مع ٦٠٠٠٠ جندى إلى قرم . استقبلها والى إيالة قرم الأمير Potemkin فى ميناء Kherson فى مصب الدنيبر وأمررت من تحت قوس نصر كتب عليه « طريق بيزنط » . مرت من تحت هذا القوس سوية مع حليفها جوزيف الثانى امبراطور ألمانيا الذى حضر لزيارتها . أعلن الباب العالى الذى علم بهذه الصفاقة ، الحرب على روسيا (١٧٨٧/٨/١٣) . مضى على مصالحة قاينارجه ١٣ سنة ، ٢٣ يوما ، لم تتحسن ولالحظة واحدة ، خلال هذه المدة ، العلاقات العثمانية - الروسية . سيمر التاريخان العثمانى والروسى بعد ذلك بحروب تركية - روسية متعاقبة .

٤) الحروب مع روسيا وألمانيا (١٧٨٧ - ١٧٩٢)

بالنسبة للحرب الروسية ١٧٦٨ - ١٧٧٤ ، كان من غير الممكن كسب تعاطف الشعب لتبني الحرب ، فلقد كان صعبا أن يتفهم الشعب دخول حرب للحفاظ على استقلال بولونيا . أما هذه المرة ، فإن الحرب لا تتعلق ببولونيا وإنما تتعلق بقضية قرم .

كانت روسيا تجرى على مسلمى قرم الانكزسيون (المجازر البشرية) الحديثة . كل عثمانى كان يضمر الحقد الدفين تجاه روسيا . بعد إعلان العثمانية الحرب انتظر الطرفان الربيع للحرب الفعلية ، الا أن ألمانيا ، قدمت مذكرة إعلان الحرب على العثمانية ، بعد إعلان الحرب بـ ٥ أشهر و ٢٨ يوما وقبل حلول الربيع (١٧٨٨/٢/٩) . كان الإمبراطور جوزيف الثانى مبهورا بالفتوحات والانتصارات السهلة التى احرزتها روسيا على العثمانية فى حرب ١٧٦٨ - ٧٤ ، وكان يريد الآن أن يأخذ حصته من سلب جديد . ونظرا لوفاة فريدريك (الكبير) الثانى فى ١٧٨٦ ، فانه لم يعد أمام روسيا ماتخشاه من جهة بروسيا . لكن السويد التى

خشيت من توجه روسيا نحوها بعد انتصارها ثانية على تركيا وسحقها لبولونيا ، أعلنت الحرب على روسيا ، دون ألمانيا (حزيران ١٧٨٨) ، لكن الجيش السويدى تلكأ دون قصد ، وضيع فرصة غزوا العاصمة بطرسبورغ وأسر الإمبراطورة ، وقد كان ذلك ممكنا لكون العاصمة بطرسبورغ على الحدود السويدية ، ولكون بطرسبورغ خالية من الجيش . حيث كانت روسيا ، قد جمعت كل جيشها على الحدود العثمانية .

سار الصدر الأعظم والسردار الأكرم قوجا يوسف باشا من إستانبول قاصدا تنحية ألمانيا أولا (١٧٨٨/٣/٢٥) . كان الإمبراطور جوزيف الثانى قد اتخذ شبش (بالمجرية : Sebes) فى جنوب أردل (ترانسيلفانيا) مقراً لجيشه . اجتاز الجيش العثمانى الحدود الألمانية وبعد أن تقدم مسافة طويلة جدا ، عثر هنا على جيش الإمبراطورية . شتت الجيش العثمانى الجيش الألمانى بعد تكبيده خسائر جسيمة فى معركة شبش الميدانية (١٧٨٨/٩/٢١) . نجا الإمبراطور من الموت صدفة وبتضحيات . اغتنم الأتراك ٨٠ مدفعا وكافة المهمات و ٥٠٠٠٠ أسير . وكأنما انتقم لـ Zenta بعد عصر كامل . خربت Banat وتامشوار من أولها إلى آخرها . وإزاء هذا الانتصار ، منح العلماء ، عبد الحميد الأول ، بصورة رسمية لقب « غازى » .

أمّن انتصار شبش ، بقاء بلغراد والمناطق المجاورة لها ، لدى العثمانية لعصر آخر . كان هدف الإمبراطور ، هو الإلتئام مع الجيش الروسى . زال هذا الهدف ونحيت ألمانيا . وظلت العثمانية فى المجال وجها لوجه أمام روسيا ، بعد هذه الحركات الخاطفة .

وفى الجبهة الروسية ، جاء الأمير Potemkin مع ٨٠٠٠٠ جندى إلى Özü (بالروسية : Ocszakov) أهم قلعة فى شمال – غرب البحر الأسود ، واحتل هذه القلعة الشهيرة (١٧٨٨/١٢/١٧) . وجرت مجزرة بشرية ذبح فيها ٢٥٠٠٠ جندى تركى ، ونساء وأطفال . عذب جميعهم ولم يترك فردا واحدا على قيد الحياة . ثم سقطت قلعة خوجا باشا الواقعة بالقرب من أوزو ، حاليا أوديسا . وعلى هذا ، انتقل الساحل الشمالى – الغربى من البحر الأسود الذى يبدأ من غرب قرم ، إلى حوزة الروس . وسقطت بعدها قلعة خوتين فى بودوليا .

انتقل الموقف الحربى وهو على هذا الوضع إلى سليم الثالث . هزم جيش الاتحاد الروسى – الألمانى فى الحرب الميدانية فوكشانى (١٧٨٩/٨/١) أمام جيش القائد الوزير كانكش مصطفى باشا البالغ ٣٠٠٠٠ شخص . فى منطقة فوشكانى ، قرب فرع Siret للطونه بين افلاق وبغدان (كان الجنرال Suvarov يقود الروس ، وأمير Sachsen-Koburg يقود الألمان) ، ثم هزم الروس – الألمان ، الصدر الأعظم والسردار الأكرم جنازه حسن باشا (١٧٨٩/٩/٢٢) فى حرب Buzau الميدانية . استشهد ٢٣٠٠٠ تركى وفقد ٦٨ مدفعا . فى ٩ ت٢ احتل الألمان بخارست ، عاصمة الأفلاق ، واحتل الروس ياش عاصمة بغدان . انسحب العثمانيون الذين انقطع ارتباطهم برومانيا ، إلى جنوب الطونه .

استولى الألمان الذين يقودهم الجنرال Laudon على بلغراد بعد حصار دام ٣ أسابيع (١٧٨٩/١٠/٨) . ساندت بولونيا وبروسيا ، العثمانية بالطرق الدبلوماسية كما فعلت السويد . لم يكونوا يريدون الاشتراك فى الحرب بصورة فعلية . انهزم الألمان فى الحرب الميدانية يركوى (بالرومانية : Giurgiu) فى الأفلاق (رومانيا) فى الساحل الشمالى من الطونه . هرب قائد عام الإمبراطورية أمير Sachsen Koburg بعد أن خسر ٥٠٠٠ قتيل و ١٠٠٠ أسير ، وآلاف الجرحى تاركا ٥٠ مدفعا من مجموع ٦٠ من مدافعه ، للعثمانية . اتضح من ذلك ، عدم إمكان اجتياز الألمان ، الطونة نحو الجنوب .

وفى معاهدة بيقوز (١٧٨٩/٧/١١) منح الباب العالى ١ مليار آقجه إلى السويد كاعانه ، مع أن السويد ، لم تساعد العثمانية فى هذه الحرب ، بصورة فعلية ، عدا أنها ثبتت قسما من الجيش الروسى على حدودها . اجتاز الأمير Potemkin ، دنيستر نحو الغرب ودخل بيسارابيا الجنوبية (بالتركية بوجاق) . استولى على قلعتين عثمانيتين مهمتين جدا Akkerman (١٧٨٩/١٠/١١) و Bender (١٧٨٩/١١/١٤) . ونظراً لسقوط قلعتى خوتين وبلطه،اللتين تشكلان سدا لبيسارابيا فى الشمال ، بيد الروس ، أصبحت بيسارابيا فى خطر . إلا أن الروس انهزموا فى معركة إسماعيل الميدانية فى أقصى جنوب بيسارابيا أمام جزائرلى غازى حسن باشا (١٧٨٩/٩/٢٣) .

(١٧٩٠/١٢/٢٢) ، Tulca (١٧٩١/١١/١٦) ، ايساكجـــــــــــى (١٧٩٠/١١/٢٥) . كانت هذه القلاع الأربع مراكز دفاع عثمانية فى دلتا الطونة بين بيسارابيا ودوبروجه . فقد بوتمكين ، أمام اسماعيل ١٥٠٠٠ قتيل ، فانتقم لذلك بذبح ٣٠٠٠٠ مسلم بالسيف فى إسماعيل ؛ أكثرهم مدنيون ، ونساء وأطفال . أستولى الجنرال Kutuzov على Maçin (١٧٩١/٧/١٠) . كان كوتوزوف هذا ، الذى صار ماريشالا ثم أميرا ، من أصل تركى وقد انتصر حتى على نابليون فيما بعد .

نتيجة لاجتياح الثورة الفرنسية لأوروبا ، طلبت ألمانيا (النمسا) الصلح على أساس Statu quo (أى عرضت العودة إلى حدود ماقبل الحرب) . وقعت على معاهدة زيشتوف Zistovi (١٧٩١/٨/٤) وهى قصبة تقع على الساحل الجنوبى من الطونه . أنهت هذه المعاهدة المكونة من ١٤ مادة الحرب الألمانية – العثمانية التى كانت مستمرة منذ ٣ سنوات ، ٥ أشهر ، ٢٤ يوما . انسحب الألمان من بلغراد والافلاق التى سيطروا عليها منذ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٦ يوما والأراضى العثمانية التى استولوا عليها قبل الحرب الأخرى بعد إخلائها ، وأعادوا إلى العثمانية كذلك ، قلعة خوتين التى كان قد استولى عليها الروس خلال الحرب وأعطوها إلى الألمان . كان مكسب الألمان الوحيد ، هو انتقال قصبة اورشوفا Orsova التى تقع بين أردل وأفلاق إلى الألمان ، أثناء إجراء تعديلات الحدود . كانت هذه الحرب هى آخر حرب تركية – ألمانية فى التاريخ . لم تحارب تركية ، أية دولة ألمانية بعد ١٧٩١ .

أخذت روسيا كذلك ، تميل نحو السلم بوساطة انكلترا وبروسيا . وبعد مضى ٦ أيام على مصالحة Zistovi تم التوقيع على مهادنة Kalas (بالرومانية : Galati) . أستمر مؤتمر ياش مدة ٤ أشهر . أنهت معاهدة ياش Yas (١٧٩٢/١/٩) الحرب الروسية – العثمانية ، أخليت كل من بغدان ، بيسارابيا ، بودوليا الجنوبية بوجاق وأعيدت إلى العثمانية . أما ساحل البحر الأسود الواقع بين نهرى Bug ودنيستر ، Özü (Oezakov) ، قيلبورون ، خوجا باشا (اوديسا) مع قلاعها فقد انتقلت إلى روسيا . أنقذت الثورة الفرنسية والتوازن الدولى الدقيق فى أوروبا ، العثمانية من خسائر أكبر . ولكن كان يتحتم تجديد الجيش العثمانى وتنظيمه ، حتى لاتتعرض العثمانية لمثل هذه الخسائر فى المستقبل .

٥) جلوس سليم الثالث (١٧٨٩/٤/٧)

أصيب عبد الحميد الأول بنزيف فى المخ ومات ، عند قراءته عريضة الصدارة التى تبين سقوط قلعة اوزو فى اوكراينا وذبح الأهالى المدنيين . بالسيف . تبين ظروف وفاته ، طبيعته ، ومبلغ أصالته وإنسانيته وشعوره بالمسئولية . كان رقيقا ، مؤدبا ، رحيما ، وطنيا متحمسا ، مصلحا باعتدال .

جلس على العرش ابن أخيه سليم الثالث ، الذى كان يشغل منصب ولى العهد طيلة مدة سلطنة عبد الحميد الأول التى استغرقت أكثر من ١٥ عاما . جدد العرش ، شبابه ، فقد كان سليم الثالث أصغر من عمه عبد الحميد الأول بـ ٣٦ سنة ، ٩ أشهر ، ٥ أيام كانت سن سليم الثالث ، الأبن الوحيد لمصطفى الثالث ، يتجاوز الـ ٢٧ عاما بـ ٣ أشهر و ١٤ يوما ، وكان عمره عندما تولى ولاية العهد إثر وفاة أبيه وجلوس عمه على العرش ١٢ عاما . كان أبوه وهو فى سنه هذه ، يستصحبه معه فى السفرات القريبة والمناورات . أتاح له عمه السلطان عبدالحميد الحر التفكير ، خلال مدة ولاية عهده الطويلة ، حياة حرة واتصالات واسعة ، وحتى بعد المحاولة الانقلابية التى دبرها خليل حميد باشا ، لم يقلص من حرية ولى عهده وابن أخيه ، الا القليل جدا . ويمكننا القول أن سليم الثالث ، هو أرقى الخاقانات الذين أتوا بعد السلطان مراد الثالث الذى توفى فى ١٥٩٥ من جهة الثقافة والتحصيل ، وهو كذلك أعظم الخاقانات الذين أتوا بين مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) ومحمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩) . وهو كذلك الوحيد من بين سلالة بنى عثمان الذى وصل إلى درجة النبوغ فى أى فرع من فروع الفنون الجميلة ، كان ملحنا نابغاً ، وشاعراً ، وخطاطاً ، وعازفاً على الناى ، ملماً باللغات الشرقية تمام الألمام . مولوليا ، ذكيا ، مجتهدا ، وطنيا ، مصلحاً . ورغم زواجه فى تواريخ مختلفة بـ ١٦ امرأة ، لم يخلف أولاداً ، انقرض فرع مصطفى الثالث واستمر فرع عبد الحميد الأول .

دامت صدارة قوجايوسف مدة ٣ سنوات ، ٤ أشهر ، ١٤ يوما . احتل مكانه حسن باشا ، قائد Vidin (١٧٨٩/٦/٧) ؛ وبعد ٥ أشهر ، ٢٦ يوما جاء القبطان دريا جزائرلى غازى حسن باشا (١٧٨٩/١٢/٣) ، وبوفاته فى Sumnu بعد ٣ أشهر ، ٢٨ يوما (١٧٩٠/٣/٣٠) ، تصدر جلبى - زاده شريف حسن باشا محافظ راخوفا ، أى أن ٣ صدور عظام اسماؤهم حسن باشا تصدروا مددا

قصيرة الواحد تلو الآخر ، ومنهم غازى حسن باشا الاميرال المشهور الذى شغل منصب قبطان دريا (مشير البحر) مدة ١٨ سنة ، وشهرا ، ١٥ يوما ، وقد كانت هذه المدة هى أطول مدة بين كافة الذين شغلوا منصب قبطان دريا فى التاريخ العثمانى (قيليج على باشا هو الثانى فى تسلسل المدد ، داماد بياله باشا الثالث ، بارباروس خير الدين هو الرابع وهؤلاء فى العصر ١٦) أعدم شريف حسن باشا فى Sumnu بعد ١٠ أشهر ، ١٢ يوما (١٧٩١/٢/١٥) . تصدر قوجا يوسف باشا للمرة الثانية وعزل بعد سنة ، وشهرين ، ١٧ يوماً (١٧٩٢/٥/٤) . مجموع صدارتيه الاثنتين ٤ سنوات ، ٧ أشهر ، ويوم . عين داماد ملك محمد باشا ، صدراً أعظم ، وكان عمره ٧٢ عاما وهو أقدم وزير (بالعثمانية شيخ الوزراء) ، وهو ابن فندقليلى سليمان باشا وصهر أحمد الثالث . شغل منصب قبطان دريا لمدة ٤ سنوات ، ٨ أشهر ، ١٧ يوما ، كان واليا على كريت ، جاء من كاندية واحتل منصب الصدارة . كان قد مضى على نيله مرتبة الوزارة مدة ٣٩ عاما . أعلن فى عهدة النظام الجديد (نظام جديد) .

٦) بدء دور النظام الجديد (١٧٩٣/٢/٤)

طلب سليم الثالث فى ت١٧٩١/١ من ١٩ تركيا وأجنبيين أن يقدم كل منهم تقريرا عن أسباب فقدان الإمبراطورية قدرتها السابقة ، واقتراح الإصلاحات التى يلزم إجراؤها حاليا لاستعادتها تلك القدرة (عاصم ، ١ ، ٣٤ ومابعده ؛ جودت ، ٦ ، ٣ ومابعده) . تركز الـ ٢١ تقريرا حول نقطة واحدة : مؤداها أن الدولة العثمانية قد فقدت قدرتها السابقة ، وإن مؤسساتها قد أصبحت فاسدة أو معطلة عن العمل ، وأن الأمر يحتم إجراء إصلاح (Reform) . وكان أصحاب التقارير يبحثون عن العلاج .

كان هناك ٣ جماعات أساسية :

المثاليون المحافظون : كانت العثمانية فى الماضى دولة عالمية ، لم يكن لها منافس ، كانت جميع مؤسساتها فى ذلك العهد قوية تماما . يمكن العودة إلى تلك المؤسسات ولو أمكن إحياؤها لأمكن،بالطبع ، إعادتها إلى قدرتها السابقة .

الرومانطيقيون : « سبقتنا أوروبا فى بعض المجالات منذ مدة . لنأخذ تكنولوجية اوروبا غير الموجودة لدينا ونهضمها دون أن نبدل نظامنا ، ودون استعجال . ولما كان واقع الأمر أن المسافة التى بيننا وبين أوروبا قد انفتحت قبل ٣٠ عاما ، فإنه من الممكن اللحاق بهم بسرعة وعودتنا إلى مركزنا السابق كأكبر دولة » .

الراديكاليون القائلون بتبديل النظام : « من الواضح أن أوروبا الآن قد سبقتنا فى بعض المجالات . ولو بقينا على نظامنا هذا ، لسبقونا فى كافة المجالات . لنغير نظامنا نحن كذلك ونلحق بهم ونسبقهم . ولسنا أقل منهم قدرة أو ذكاء » .

قرأ سليم الثالث ، الـ ٢١ تقريرا . تذكر الإصلاحات التى حققها أسلافه الخاقانات والوزراء ، والتى عزموا على تحقيقها فى السابق قبل مدة ليست بالقصيرة واتخذ قراره دون تردد : سيطبق الشق الثالث . ستطبق الإصلاحات الأساسية (الراديكالية) . سوف يتبدل النظام . ووجد له اسم : النظام الجديد = (بالعثمانية : نظام جديد) .

بعد مضى عصرين ، يمكننا نحن المؤرخين أن نقول : إن البادشاه كان محقا فى ترجيحه ذلك الشق . لكن هناك شيئا غاب عن نظر البادشاه هذا الشىء مهم جدا ، لم يستطع البادشاه أن يراه ، لكننا نستطيع رؤيته اليوم بعد دراستنا للأحداث ، ذلك هو :

أن الراديكاليين الذين رجح البادشاه وجهة نظرهم ، قد يبدون فى ظاهر الأمر متفقين ، لكنهم فى الحقيقة يمثلون ٣ جماعات :

جماعة القائلين بأفضلية كل شىء أوروبى ، وأن كل شىء تركى ، عثمانى ، - ويجوز - إسلامى ، هو فاسد . وهؤلاء ، يعتبرون رومنطيقيين ، كما أنهم يتنكرون للتاريخ التركى والعثمانى والإسلامى .

جماعة المصلحيين الحريصين جدا على الثروة والنفوذ والسلطة، وهؤلاء غايتهم الحصول على المناصب وامتصاص البلاد تحت شعار الإصلاح والتظاهر بالنظام الجديد .

و .. رجال الدولة المخلصون الذين يريدون نهضة تركية بإجراءات أساسية (راديكالية) سريعة .

كانت هذه الجماعة الراديكالية الأخيرة ، مقبولة . ومن الطبيعى أن تكون كذلك ؛ إذ لايمكن الحصول على نتيجة ، إلا بترجيح رؤية هؤلاء . ومن الطبيعى أنه فى حالة تدخل الجماعتين الاخريين ، فان جماعة المخلصين هذه ستكون على مر الزمن ، غير قادرة على العمل .

والحاصل أن السلطان سليم الثالث ، اعتبر الراديكاليين كتلة واحدة . كان هؤلاء من مؤيدى النظام الجديد ، وكان واجبه كسلطان ، الدفاع عنهم تجاه المحافظين ، وحمايتهم من أن يكونوا لقمة سائغة لهم . وعند الشروع فى تطبيق النظام الجديد ، كثر عدد المصلحيين الذين لاهم لهم غير الانتفاع ، ظاهرا : يقولون بالنظام الجديد ، « النظام الجديد » وعملاً يركضون وراء جمع المال والملك ؛ والمناصب والرفعة والشهرة . ولذلك فقد أخذ المحافظون يتساءلون « أهذا هو النظام الجديد ؟ » ، أهؤلاء مرغوب فيهم أكثر منا ؟ « وفى النهاية » لماذا يقدم هؤلاء علينا ؟ . يجب وقفهم عند حدهم . أخذت كتلة رجال الدولة ذوى النيات السيئة الذين همهم الانتفاع بدعوى أنهم المحافظون فى تحريض كتله المحافظين الوطنيين المخلصين حقا . فتر حماس الكتلة الكبرى تجاه النظام الجديد وتجاه موجده وممثله الخاقان ، وامتنعوا عن مساندته بإخلاص . والحقيقة أنه لايمكن تحقيق إصلاح حقيقى ، دون الاستناد إلى الكتلة الكبرى . كان من الممكن إجراء إصلاح فى الجماعات الصغيرة والهبوط تدريجيا من الأعلى إلى القاعدة ، إلا أن هذا ، لايعنى نهضة بالمعنى الصحيح .

فى الديمقراطية الغربية لانجد فرقا بين جوهر أهداف المحافظين والمصلحين من حيث المصالح العليا للدولة،ونشاهد أن كلا من الجماعتين تتولى الحكم ولانلحظ خلافاً كبيراً بين أعمال بعضهم البعض .

سليم الثالث هو أول مصلح ، ورائد حقيقى فى التاريخ العثمانى كله ، فى جميع العالم الإسلامى ، فى كامل آسيا ، يستلهم أوروبا بقصد أخذ تكنولوجيتها العليا . كل الذين جاءوا بعده ، قلدوه .

كان أصحاب التقارير الـ ٢١ ، من أكثرهم تحفظا إلى أكثرهم راديكالية ، متفقين

فى نقطة واحدة هى أن : الإصلاح يجب أن يبدأ فى الجيش أولا ! كان اتفاقا مدهشا . مدهشا بالنسبة إلى تشكيلات الإنكشارية . ترى هل ترضى هذه التشكيلات بالاصلاح ؟ لم يتردد سليم الثالث ابدا : كان هنالك بين اجداده ، وبين الوزراء كثيرون فقدوا رءوسهم القيمة ولكنهم لم يتمكنوا من إصلاح الإنكشارية . كانت هنالك حاجة إلى جيش لايتدخل فى شئون الدولة والسياسة ، ولاينهب الشعب عن طريق تدخله فى السياسة ، ويطيع قيادته طاعة عمياء ويكون ملما الماما جيدا بالعسكرية الحديثة . هذا الجيش سوف لايشتغل بالصناعات ، لايفرض الضرائب ، لايزاول أعمال النهب ، لايرفع السلاح فى وجه وطنه وضابطه ، لاينهزم عند رؤيته العدو . سيكون على النظام والضبط الذى كان عليه الجيش فى عهد القانونى ، لكنه سيكون مجهزا بتكنولوجية العصر . سيكون غذاؤه جيداً ، لباسه جيدا ، راتبه جيداً .

تابع السلطان سليم ، بكتبه الهمايونية المستمرة ، حركة التجدد (النظام الجديد) خطوة بخطوة وقام بتوجيهها . نشرت كتبه الهمايونية (الأوامر السلطانية) حول النظام الجديد فقط فى مجلدين . أسست خزينة ودفتر دارية (مالية) خاصة بالنظام الجديد لغرض الاصلاحات . وجعلت كوزارة مالية ثانية للدولة . وشرعت الدولة أولا فى تخريج جيش المشاة الحديث ، المدفعية الأكثر حداثة ، رغم أنها أصلحت مسبقا ، المختصين فى القنابل اليدوية (همباره جى) ، فى الاستحكام (لغمجى) ، فى النقل (عربه جى) . أنشأت معسكرات كبيرة لهذه الأغراض فى مناطق لوند ، اسكدار ، سليمية . ومن ناحية أخرى ، كانت تشكيلات القابوقولو ورؤساؤهم التابعون لهم الإنكشارية ، لاتزال مستمرة . استقدم من أوروبا الضباط ، والمهندسين ، والبحريين . البس الجيش ملابس بطراز مستنبط من اللباس الأوروبى .

لم يكن الاصلاح فى البحرية التركية ، بدرجة الاصلاح فى الجيش البرى . لان سلك البحرية كان سلكاً اكثر استناداً على التكنولوجية ، ولم يكن متخلفا إلى الدرك الذى انحط إليه الجيش . لكن السلطان سليم ، كان يريد بحرية ذات قدرة كذلك . أمر بإنشاء أحدث السفن الكبيرة . عين داماد كوجوك حسين باشا ، قبطان دريا (مشير البحر) (١٧٩٢/٣/١٠) الذى كان شابا فى ٣١ من عمره وأخا فى الرضاعة للسلطان سليم . تطوع لتنمية البحرية حتى وفاته مدة ١١ سنة ، ٨ أشهر ، ٢٨ يوما . ويمكن اعتباره مؤسسا للبحرية التركية الحديثة .

لم يكن الأمر سهلا ؛ لأن كامل الشعب ، كان مؤمنا بصورة عميقة - بأفضلية المدنية والثقافة العثمانية ، على الأوروبية .

أحيل داماد ملك محمد باشا ، الكبير السن إلى التقاعد (١٧٩٤/١٠/١٩) . دامت صدارته مدة سنتين ، ٥ أشهر ، ١٦ يوما . صار عزت محمد باشا بكلربك مصر السابق ، صدرا أعظم . ابن أخ قبطان دريا صفرانبولولو مصطفى باشا وعم القبطان دريا صالح باشا .

أعلن بمرسوم همايونى فى ٢٤ شباط ١٧٩٣ ، نظام حركة التجدد (النظام الجديد) . ضعفت سلطة الباب العالى ولو فى قسم من الايالات ، كان قد مضى النظام القديم الذى كان يدار بشكل مركزى بحت . أصبحت ايالات الجزائر ، تونس ، طرابلس فى افريقيا الشمالية ، كأن لهم استقلالا ذاتيا (Autonomy) . كان بكوات المماليك فى إيالة مصر التى تعتبر الإيالة الأولى فى البروتوكول ، يتمردون على البكلربك - الوزراء الذين ترسلهم إستانبول ، ونشأت بكلر بكوات (ولاة) أرثية ، فمثلا فى سوريا آل العظم ، وفى العراق مماليك الأيوبيين . وتركت اليمن لحالها لإدارة الإمام ، وحصلت عائلات « الأعيان » و « الأشراف » على نفوذ واسع فى منطقتى الأناضول وروملى اللتين تعتبران شريان حياة الدولة . كانوا ينفذون أوامر المركز ، وحتى البادشاه ، فى حدود مايحقق مصلحتهم . يرسل الجيش لتأديب ثلاثة أو خمسة منهم ولكن ، يحتل مكانهم خمسة أو عشرة وهناك من لايقدر عليهم . تفشت حوادث السلب والنهب فى كل مكان واختل الأمن فى المدن وعلى رأسها إستانبول . كانت الإنكشارية ، كأنها مافيا فى إستانبول وخاصة فى روملى ومدن أخرى . كانوا يجمعون الاتاوة من الجميع . كثرت حوادث هتك الأعراض . وبينما كان النظام الجديد فى محاولة تأسيس جيش مقتدر لافشال خطط تقسيم الإمبراطورية التى تحاك لها فى الخارج ، كانت الدولة فى الداخل وجها لوجه أمام هذه المشاكل .

٧) الحروب العثمانية - الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠٢)

كانت أوروبا ، فى هذه الفترة ، تعيش دور الاضطرابات التى سببتها الحروب التى حدثت نتيجة الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ . حدثت الثورة الكبرى فى

نفس السنة التى جلس فيها السلطان سليم ، بعد عدة شهور (نيسان وتموز) . كان الجنرال القدير لفرنسا الثورة - التى أصبحت جمهورية فى ١٧٩٢ - فى أواخر العصر ١٨ ، هو نابليون بونابارت . ومنذ حرب Nigbolu فى ١٣٩٦ أى منذ ٤٠٠ سنة لم تعلن فرنسا ولاتركية الحرب على الأخرى منهما بصورة رسمية . حصلت مناوشات وخلافات كثيرة ولكنها لم تصل إلى درجة القتال العام بين الدولتين . وخلال تلك الفترة ، اثبتت فرنسا أنها أقدر من انكلترا التى سبقتها قدرة عام ١٧٦٣ ، وأصبحت الدولة الأولى فى العالم . قضى الجنرال بونابارت على جمهورية البندقية فى ١٧٩٧ ووضع يده على أراضيها الموجودة فى دالماجيا ، واستولى على جزر ايونيا وأصبحت فرنسا فى وضع محاد لتركية للمرة الأولى . قفز بونابارت إلى الهند ، كان قصده قطع شريان حياة انكلترا أعدى أعداء فرنسا . سار بونابارت ، مع الأسطول وبغارة فجائية ، استولى على مالطه (١٧٩٨/٦/١٢) وأنهى دولة فرسان مالطه . ثم شوهد أمام ميناء الاسكندرية ، دون أن يعلن الحرب على العثمانية (١٧٩٨/٧/١) . لم تستطع أية دولة أن تخمن أن الهدف هو مصر .

الأسطول الفرنسى ، كان يتكون من ٤٥٠ قطعة ، أكثرها سفن نقل . كانت تحمل ٣٥٠٠٠ جندى و ٢٥٠٠٠ من جنود البحرية . كان بونابارت ، أكبر عسكرى فى التاريخ المسيحى ، كان عمره ٢٩ عاما . بقى ١٠ أيام فى الميناء واستولى على المدينة دون أن يمس الأهالى . ذكر فى منشوره الذى اذاعه باللغة العربية ، أنه جاء لمعاقبة بكوات المماليك الذين خرجوا على طاعة البادشاه ، وأنه سوف يترك المكان عند تثبيت سلطة البادشاه ، وأنه يحترم الدين الإسلامى واعرافه وعاداته . جاء مستصحبا معه وفدا كبيرا من العلماء والاخصائيين . دأب هؤلاء على دراسة مدنية وثقافة مصر القديمة والحديثة ، تاريخها وجغرافيتها ، بحماس كبير ونشروا عند عودتهم إلى فرنسا ، كتابهم المشهور Deseription de L'Egypte المكون من ١٩ مجلداً مسلسل (الطبعة الثانية ٢٥ مجلدا) .

تقدم بونابارت من الاسكندرية إلى القاهرة . وفى ١٣ تموز شتت بكل سهولة جنود مراد بك أحد المماليك البالغ عددهم ١٠٠٠٠ ، الذى أراد سد طريق القاهرة (معركة رحمانية الميدانية) . وهزم بونابرت جنود الوزير أبو بكر باشا بكلربك مصر البالغ عددهم ٢٠٠٠٠ فى الحرب الميدانية التى جرت فى الجيزة فى ٢١ تموز ، خلال

وقت يقل عن الساعتين . اشتهرت هذه الحرب باسم « حرب الأهرام » . حيث جرت فى الصحراء فى سفوح الأهرام . وخطاب بونابارت الذى قال فيه لجنده قبل الحرب : « تاريخ ٤٠ قرنا ، ينظر إليكم من خلال هذه الأهرام » ، خطاب مشهور . وفى اليوم التالى ، دخل القاهرة . فرض ضرائب على الاغنياء (أخذ فقط من نفيسه خانم زوجة مراد بك الذى فر إلى الجنوب ١٢٠٠٠٠ قطعة ذهبية).

وبعد عدة أيام ، دخل الأميرال نلسون الذى كان يتعقب الأسطول الفرنسى منذ أسابيع ، إلى الاسكندرية وأحرق فى أبى قير الأسطول الفرنسى برمته (١٧٩٨/٨/١) . ظل الجنرال بونابارت الذى أصبح مجردا من الأسطول ، حبيساً فى مصر .

عزل الصدر الأعظم عزت باشا ، على أساس أنه كان قبل تصدره الوزارة بكلربك على مصر وأنه رغم اطلاعه على مصر بصورة جيدة ، لم يتمكن من تجهيز الإيالة ضد الخطر الخارجى (١٧٩٨/٨/٣٠) . لم يكن هذا السبب صحيحا ، إذ إن ماحققه بونابارت من أعمال فى القارة الأوروبية ، كانت أعمالا فوق العادة مثل فتحه مصر . دامت صدارة عزت باشا ٣ سنوات ، ١٠ أشهر ، ١٢ يوما . تصدر الوزير يوسف ضياء الدين باشا بكلربك ارضروم . كان مثقفا ، ورجل دولة قديرا .

أعلن الباب العالى الحرب على الجمهورية الفرنسية (١٧٩٨/٩/٢) . وعلى هذا أصبح حليفا طبيعيا لانكلترا التى تحارب فرنسا . وقعت الاتفاقيتان العثمانية – الروسية (١٧٩٩/١/٣) والعثمانية – الانكليزية (١٧٩٩/١/٥) ، ضد فرنسا .

سار بونابارت ، فى أوائل شباط (١٧٩٩) من القاهرة . احتل غزه فى ٢٥ شباط ودخل فلسطين . وفى (١٣ آذار) جاء إلى يافا وذبح بالسيف مايقرب من الـ ١٠٠٠٠ جندى ومدنى عثمانى . اقترف هذا الجرم لإرهاب السكان المحليين والاستيلاء على سورية دون مقاومة . وفى (١٩ آذار) جاء أمام عكا وهى أقوى قلعة محصنة فى المنطقة . كان الوزير جزار أحمد باشا ، هو الذى يدافع عن القلعة . وكان وضعه جيدا لتسلمه الامداد من جنود النظام الجديد من إستانبول قبل فترة وجيزة . قدم الاسطول المشترك التركى – الانكليزى إلى مياه عكا وفتح النار على الفرنسيين ، الا أن هذا القصف لم يكن بالغ التأثير على الفرنسيين ، ولكنه رفع معنويات مدافعى

عكا وزاد من حماسهم . ظل بونابارت دون حراك أمام عكا . كان رجل حرب ميدانية . نفر من حصار القلعة . لكنه كان متورطا فيه ، وعندما قدمت فى ٧ مايس وحدة جديدة من وحدات النظام الجديد المؤلفة من ٣٠٠٠ جندى ووفقوا فى دخولهم قلعة عكا ، أصبح الفرنسيون فى وضع خطر . كان بونابارت قد ترك عدة آلاف من الجند فى القاهرة . وعلى أثر فشله فى عكا ، علم بقيام عصيان فى القاهرة . وفى ٢١ أيار قطع أمله فى الحصار الذى دام شهرين و١٤ يوما ، ودفن بصورة سرية كافة مهماته وانسحب من عكا . وفى ١٤ حزيران ، نجا بنفسه حيث وصل إلى القاهرة بعد أن طاردته وحدات الجيش العثمانى المظفرة . وقال بعدها « لولا أن وقفت عكا فى طريقى ، لاستوليت على الشرق برمته » .

أستقبلت أوروبا بسرور هذه الخسارة الأولى لبونابارت . أرسل سليم الثالث ، إلى جزار أحمد باشا اكليلا من الذهب ، ومنح نلسون الذى أحرق الأسطول الفرنسى وساما من الماس . ولم يزج بونابارت نفسه ابدا ، بعد ذلك التاريخ ، وإلى نهاية حياته فى حصار قلعة ، وبحث عن العدو دائما فى الصحراء المفتوحة .

أنزل كوسه مصطفى باشا ، قرب الإسكندرية ٨٠٠٠ جندى بواسطة ٨٠ سفينة . لكن الفرنسيين أسروه . (١٧٩٩/٧/٢٥) . تخلص أكثرية جنوده من الفرنسيين بصعوبة ، بهروعهم إلى الأسطول . سار جيش من إستانبول متوجها إلى مصر . يظهر فى هذا الوضع أن ليس لبونابارت حظ فى الشرق . ترك مصر فى ٢٥ تموز فى سفينتين . وتمكن من الوصول إلى فرنسا ، دون أن تشعر به الأساطيل الإنكليزية والعثمانية . كان يريد إجراء المساومة حول مصر ، فى باريس . كان قد بقى فى مصر مدة سنة ، شهر ، ٢١ يوما . لم يتمكن من نسيان ذكرياته فى الشرق حتى نهاية حياته . عين Kléber اقدر عسكرى بين جنرالاته لقيادة الجيش الفرنسى فى مصر ، وخلال وجود بونابارت فى مصر ، احتل الاتفاق العثمانى – الروسى جزر ايونيا وموانىء أبير الموجودة فى حوزة فرنسا . وبموجب معاهدة ٢١ آذار ١٨٠٠ ، أعيدت إلى تركية الموانىء الأربعة الموجودة فى أبير Epir ، وبضمنها Preveze . وأسست جمهورية الـ ٧ جزر فى جزر ايونيا (كورفو..الخ .) وأعطيت لادارة العثمانية مثل جمهورية Dubrovink . تسدد للباب ضريبة سنوية قدرها ٣ ملايين آقجه .

كانت فترة النصف الأخير لعام ١٧٩٩ ، عام ١٨٠٠ ، النصف الأول لعام ١٨٠١ ، مليئة بالمصاعب المتزايدة بالنسبة لجيش الاحتلال الفرنسي فى مصر . انتخب الجنرال بونابارت فى باريس رئيسا للجمهورية بلقب « القنصل الأول » وكان يستعد لإعلان نفسه إمبراطورا . جاء الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) يوسف ضياء الدين باشا ، إلى غزة . أراد الدخول إلى القاهرة ، لكنه انهزم أمام Kléber . ومنى عظم - زاده وزير نصوح باشا ، بنفس العاقبة . وفى ١٤ حزيران (١٨٠٠) ، طعن ، تركى عمره ٢٤ عاما أسمه كليسلى سليمان بك ، Kléber بطعنة خنجر اردته قتيلا . قتل سليمان بك شهيدا بعد تعذيبه بالنار وطعنه بالوتد . سار القبطان دريا (مشير البحر) داماد كوجوك حسن باشا إلى الاسكندرية مع ٧٠ قطعة بحرية وحال دون عودة الفرنسيين عن طريق البحر . وعندما قطع الجنرال Bélard القائد العام الفرنسى الجديد ، أمله فى حصوله على مساعدة من فرنسا ، ولمنع وقوع كارثة ، وقع على اتفاق إخلاء مصر (١٨٠١/٦/٢٧) . دخل الجيش العثمانى فى ١٠ تموز إلى القاهرة وفى ٢٦ آب إلى الاسكندرية التى يدافع عنها الجنرال Menou . اقيمت فى إستانبول الأفراح لمدة ٤ أيام و٤ ليال . منح سليم الثالث لقب « غازى » بصورة رسمية . كان الانكليز قد أخذوا مالطة من الفرنسيين عام ١٨٠٠ .

وقعت معاهدة باريس بين تركية وفرنسا (١٨٠٢/٦/٢٥) وقع المعاهدة باسم فرنسا ، وزير خارجيتها الأمير Talleyrand ، وباسم العثمانية ، سفير باريس وهو من مؤيدى حركة النظام الجديد المشهور غالب أفندى ، الذى صار بعدها الصدر الأعظم غالب باشا . استقال يوسف ضياء الدين باشا ، بعد صدارة دامت ٦ سنوات ، ٧ أشهر ، ٢٥ يوما (١٨٠٥/٤/٢٤) . وهذه أطول مدة صدارة ، اعتبار من ١٧٣٠ وحتى نهاية السلطنة . صار ، قبطان دريا حافظ إسماعيل باشا ، البالغ عمره ٤٧ عاما ، صدرا أعظم .

٨) الوهابية ومشاكل البلاد العربية

أخذت الحركة الوهابية التى ظهرت فى البلاد العربية فى التعاظم على مر الزمن واكتسبت درجة من الأهمية . وضع الفقيه الحنبلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

أسس مذهب سنى جديد . تتلخص فلسفة المذهب فى إعادة الاسلام إلى منابعه الصافية فى عهد الرسول (ﷺ) ، وتنقية الدين من البدع . صار أمير نجد محمد ابن السعود صهرا للشيخ ، اتبع مذهبه ووفر له الامكانات المادية لنشر المذهب . استمر أخلاف امير نجد محمد ابن السعود الذى دامت إمارته مدة ٣٩ سنة حتى ١٧٦٦ ، على نشر نفس المذهب .

علم الباب العالى باتباع الأمير محمد فى ١٧٤٥ ، المذهب الوهابى . لم يظهر الباب العالى ، فى السنوات الأولى ، اى رد فعل ، بموجب السياسة العثمانية التى ترى عدم التدخل فى شئون المذاهب . ولكن عندما أخذت الحركة الوهابية فى الانتشار خارج نجد ، ارادت الدولة العثمانية أن تتخذ تدبير لذلك . وسع عبد العزيز ابن السعود بن الأمير محمد والذى احتل مكانه بعده والبالغ عمره ٤٣ عاما ، الدعاية لمذهبه وأخذ أتباعه فى الازدياد ودخل الحجاز فى أوائل عام ١٨٠٣ . وبعد حصار دام شهرا واحدا ، احتل الطائف . وفى ٣٠ نيسان دخل مكة . بقى فى مكة ٣ أشهر ، ٦ أيام . استرجع شريف باشا بكلربك الحجاز ، مكة (١٨٠٣/٨/٦) . لكن مجرد بقاء مكة ، ولو لمدة قصيرة بيد الوهابيين ، أحدث تأثيرا كبيرا فى العالم الإسلامى كافة وعرف العالم الإسلامى بالمذهب الجديد . طعن أحد الشيعه الأمير عبد العزيز بخنجر فى الجامع فى عاصمته درعية ، واستشهد (١٨٠٣/١١/٤) . كان عمره ٨٠ عاما . اكتسب المذهب الوهابى قوة كبيرة من خلال دعوته المتصلة طيلة ٣٧ عاما . ورغم شن ، أمير مكة شريف غالب ، ٣ حملات على نجد ١٧٩٠ ، ١٧٩٥ ، ١٧٩٨ لم يتمكن من القضاء على الوهابيين . أغار الأمير عبد العزيز الذى احتل الاحساء فى ١٧٩٠ على كربلاء (١٨٠٢/٤/٢١) ، وفى ١٨٠٠ و ١٨٠١ جاء إلى مكة متنكرا بغرض الحج ودرس وضع المدينة . احتل مكانه ابنه الأمير سعود ابن السعود البالغ من العمر ٥٥ عاما والذى كان يقوم بإدارة الوهابيين ونجد منذ عام ١٧٨٧ باسم أبيه . احتل عمان مرتين فى ١٨٠٣ و ١٨١١ . حكم المدينة مدة ٧ سنوات ، ٥ أشهر (حزيران ١٨٠٥ – ١٨١٢/١٢/٢) ومكة مدة ٧ سنوات (ك ١٨٠٦/٢ – ١٨١٣/١/٢٣) .

وهكذا انتقلت المشكلة الوهابية من عهد سليم الثالث إلى عهد محمود الثانى . كانت تدير البلاد العربية الأصلية فى النظام العثمانى السلالات المحلية التى يترأسها حكام

محليون باسم شيخ أو أمير . ويوجد فى مكة والمدينة أحد شرفاء الهاشميين بلقب أمير . كان يشرف على إدارة القسم الغربى من البلاد العربية ، بكلربك العثمانية الساكن فى جدة ، أما القسم الشرقى فكان يديره بكلربك البصرة أو بغداد ، وفى بعض الأوقات بكلربك الإحساء ، ويدير القسم الشمالى بكلربك الشام . كان البكلربكوات (الذين برتبة فريق) يسعون فى تنظيم علاقات الشيوخ مع الأمراء التى لم تكن جيدة .

ظهر الوضع الذى فتح المشاكل الكبيرة على الباب العالى والدولة العثمانية ، فبينما كان الباب العالى يشك فى بكوات المماليك ، إذ بهذه المصيبة تتطور بالشكل الذى لايؤمل ، وتأتى على يد شخص يأتى من الخارج ، هو محمد على باشا .

عندما دخل محمد على أغا ، مصر فى ١٧٩٩ ، كان عمره ٣٠ عاما . كان أميا ولايجيد العربية أبدا . ولد فى Kavala فى مكدونيا الجنوبية . كان واحدا من ١٧ ولدا لإبراهيم أغا ، أحد الضباط العثمانيين من عائلة جاءت من قونيا وسكنت مكدونيا . جاء محمد على من قاوالا إلى مصر كمساعد لابن عمه خليل آغا الذى عين بأمر الدولة قائدا لسرية مؤلفة تقريبا من ٢٠٠ متطوع اختيارى . كانت مصر لاتزال تحت الاحتلال الفرنسى . وعندما فر خليل آغا إلى قاوالا ، ترأس محمد على السرية . أخذ يكتسب الأهمية بصورة مطردة بعد الأحتلال الفرنسى . سخر الجنود المتطوعون الانكشاريون الموجودون فى مصر ، بكوات المماليك ، ضد البكلربك خسرو باشا (الذى صار صدرا أعظم بعد ذلك) . كان يقبض على بكوات المماليك الذين يخرجون على طاعة الباب العالى ويقطع رءوسهم . جذب انتباه الباب العالى ، هذا الضابط الشاب ، الذى عمل مالم يستطع عمله بكلربك مصر ، فبدأ يعتمد عليه . عرض محمد على على الباب العالى ، أنه سيذهب إلى الجزيرة العربية ويقضى على الوهابية ، فيما إذا منح رتبة البكلربك . أصبح محمد على بكلربك مصر برتبة وزير (١٨٠٥/٧/٨) . وخلال ٦ أشهر احتل مصر ذلك القطر الكبير الذى لم يكن يعرفه من قبل .

٩) الثورة الصربية والحرب مع روسيا (١٨٠٦)

ثار الصرب فى ١٨٠٦ . أحد أسباب الثورة هو فكرة القومية التى نشرتها الثورة الفرنسية فى كافة أوروبا وانتقال شرارتها إلى الأقوام المسيحية للدولة العثمانية . السبب الآخر ، هو معاملة جماعة الإنكشارية بوجه خاص للمسيحين فى البلقان معاملة سيئة ، كان الانكشاريون خلال هذه الأيام ، قد مزقوا محافظ بلغراد حاجى مصطفى باشا . ويمكن أن تتصور زمرة تعامل قائدها بهذا الشكل ، كيف يمكن أن تعامل المسيحيين . وكما هو الحال فى الأناضول ، فان روملى وهى الجناح الآخر للدولة ، كانت كذلك تحت سيطرة الأشقياء الذين يطلق على أكبرهم اسم « أعيان » وكان لبعضهم جيش لايستهان به ؛ فمثلا ، كان لكل من بازفان اوغلو عثمان آغا فى Vidin ، تيرسينيكلى اوغلو اسماعيل آغا فى روسجك قوة كبيرة.. ولسحق أعيان روملى ، استدعى سليم الثالث ، الوزير قاضى عبد الرحمن باشا اشهر قواد حركة النظام الجديد ، من قونية إلى إستانبول . سار الباشا ، مع ٢٤٠٠٠ من جنود النظام الجديد إلى إستانبول (١٨٠٦/٦/٢) . سار فى ١٥ تموز إلى أدرنة وفى الطريق ، قضى على من صادفه من الأعيان ، اقطاعيين ، اشقياء ، جبابرة . شكا اعداء النظام الجديد من رجال الدولة الموجودين فى إستانبول ، الباشا ، إلى السلطان بأنه سفك دماء المسلمين . أمر السلطان سليم ، عبد الرحمن باشا ، بالعودة . وبهذا فقد عرقل عملية تنظيف روملى من الأشقياء الجبابرة ، وإضافة إلى ذلك ، سبب اتساع ثورة الصربيين . ومن ناحية أخرى ، كان ذلك تنازلا كبيرا لأعداء النظام الجديد ومشجعا لهم .

لم يكن كل الأعيان من أعداء النظام الجديد ، بل كان بعضهم من مؤيديه ، وأحد هؤلاء هو أعيان Serez إسماعيل بك . والآخر ، هو علمدار مصطفى آغا ، أعيان روسجك الذى احتل مكان تيرسيتيكلى اوغلو بعد مقتله .

شجعت ألمانيا (النمسا) ، الثورة الصربية . كان زعيم الثورة ، قره يوركى صنيعة فينا . وفى ١٨٠٤ ، خان أسياده ، وتقرب إلى روسيا من حيث المذهب والقومية . وبعد كفاح طويل احتل بلغراد وذبح بالسيف كافة المسلمين فى المدينة (١٨٠٦/١٢/١٣) . أعلنت روسيا الحرب على العثمانية ، بغية استمرار الثورة

الصربية وعدم القضاء عليها وعلى أمل الحصول على فتوحات جديدة .

استولى الجنرال Mihelson مع ٦٠٠٠٠ جندى على Bender (١٨٠٦/١٢/٨) ، وخوتين (١٨٠٦/١٢/١٦) . وبعد استيلائه على Akkerman و KIlye ، احتل سواحل البحر الاسود لبيسارابيا . انهزم فى اسماعيل ووقف عند دلتا الطونه . بدأت حرب روسية – عثمانية بعد ١٤ سنة ، ١١ شهراً ، و١٤ يوما من معاهدة ياش . انتقلت الحرب من عهد سليم الثالث إلى عهد محمود الثانى .

عزل الصدر الأعظم حافظ اسماعيل باشا ، بسبب تصريحه بعدائه لحركة النظام الجديد بعد سنة ، ٦ أشهر ، ٢٠ يوما (١٨١٦/١١/١٤) . صار ابراهيم حلمى باشا آغا الإنكشارية ، صدرا أعظم وسردارا أكرم . وعندما سار إلى الجبهة ، صار الوزير كوسه موسى باشا قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) فى إستانبول . وعندما انتصر ، خلال هذه الاثناء ، وإلى سلستره الوزير علمدار مصطفى باشا قرب بخارست ، على الروس للمرة الثانية ؛ هرعت انكلترا لنجدة حليفتها روسيا لانقاذها من وضعها السيىء . سار أسطول البحر الأبيض الانكليزى المكون من ١٦ سفينة حربية بقيادة الفريق البحرى الأميرال John Dukworth ، ورغم أنه اجتاز مضيق جناقلعة وجاء أمام إستانبول (١٨٠٧/٢/٢٠) ، إلا أنه خرج مستعجلا من بحر مرمره . وفى هذه المرة ، قرر نفس الاميرال تجربة حظه فى مصر . احتل الإسكندرية (١٨٠٧/٣/٢٠) . لكن بعد عدة شهور ، أخرجه من الاسكندرية قاوالالى محمد على باشا . صنع هذا الانتصار لمحمد على باشا البالغ عمره ٣٨ عاما شهرة كبيرة فى أوروبا . الصدر الأعظم الذى سار فى ١٢ نيسان (١٨٠٧) وصل سلستره فى ٢٤ أيار . ولرفض تشكيلات القابوقولو ، الخروج إلى الحملة سوية مع جنود النظام الجديد ، لم يرسل الجيش الجديد إلى الجبهة . من الواضح أن دولة كهذه ، لايمكنها الانتصار فى حرب كبرى . ولكن عند الوصول إلى سلستره ، رفضت الإنكشارية عبور الطونه ودخول رومانيا خوفا من الروس الذين كانوا قد ضربوهم ضربا مبرحا فى الماضى ، ولان الروس لم يتمكنوا من حشد قوات كبيرة على الجبهة ، خوفا من نابليون ، أنقلبت الحرب إلى حرب تعادل . أخذ الأسطول الروسى بالتجوال حول بوزجه آدا ، لكنه انسحب عندما جاء القبطان دريا (المشير البحرى) جزائرلى

سيدى على باشا . استولى الروس فى قفقاسيا على تفليس . منح يوسف ضياء الدين باشا الصدر الأعظم الأسبق وبكلربك ارضروم لقب السردار (قائد) وانيط به الدفاع عن الجبهة الشرقية .

١٠) ثورة قباقجى (١٨٠٧/٥/٢٥)

عندما كانت الدولة العثمانية فى حالة حرب مع انكلترا وروسيا اللتين كانتا الدولتين العالميتين المقتدرتين الثانية والثالثة بعد الإمبراطورة الفرنسية ، وكان وضعها الداخلى كذلك يرثى له ، وحتى إستانبول كانت بؤرة للإرهاب ، حدثت ثورة تشبه ثورة باترونا التى جرت قبل ٧٧ عاما ، وأكثر منها ضررا من حيث النتائج . كانت حركة رجعية تماما .

كان العلماء فى البداية ، مترددين تجاه حركة النظام الجديد . كان بينهم من يؤيد الحركة . لكن عدم قدرة بعض رجال النظام الجديد ، وسوء تصرفهم شاع بشكل مفضوح . بدأ العلماء فى المعارضة . وعند مجىء اسحق - زاده محمد عبد الله أفندى إلى المشيخة (١٨٠٦/١١/١٤) ، وعلى الرغم من أنه كان من عائلة قره اسحق - زاده التى شرفت التاريخ العثمانى والتى قدمت الكثير من شيوخ الاسلام ، أخذ على عاتقه عملا غير شريف وحرض العلماء على العصيان ضد النظام الجديد وضد مؤسس هذا النظام البادشاه . من ناحية أخرى كان سليم الثالث كثير التنازل ، كان فناناً كبيرا يتحاشى سفك ولو قطرة واحدة من الدماء . لم تكن اخطاؤه قليلة ، كان كأنه يريد هدم آثاره التى أنشأها بيده . ظن أنه إذا قدم تنازلاً ، فإن المعارضين سيلينون ، والحال ، انهم تشجعوا . لم يتمكن رغم محاولاته ، من تصفية تشكيلات القابو قولو . أما هم ، فكانوا يعلمون أنهم يعيشون أيامهم الأخيرة . سواء كانوا الجند المخلصين الذين يؤمنون بأن ابتعادهم عن تقاليدهم ، وتركهم تشكيلات تقلل من شرفهم ، أو الذين يخشون من فقدانهم الكثير من دخلهم حيث سيقتصر الدخل على الراتب فقط فى حالة دخولهم النظام الجديد ، لم يكونوا راغبين فى الانفصال عن تشكيلات القابو قولو وتسجيل أنفسهم

فى حركة النظام الجديد . كان عدد جنرالات الإنكشارية المثقفين الذين يوقنون بعدم إمكان القتال مع الدول الأوربية بواسطة هذه التشكيلات كبيراً ، وكان هؤلاء مقتنعين بانه ليس هنالك حل بغير الغاء هذه التشكيلات ، ولم يكن هؤلاء يخشون فقدان مناصبهم بسبب كونهم من ذوى الرتب العالية ، حيث أنهم بطبيعة الحال سوف ينقلون إلى مناصب أخرى . لكن عدم وجود الشجاعة الكافية لدى البادشاه لالغاء هذه التشكيلات، زادت من شجاعة المعارضين . كان رجال الدين الجهلة المتعصبون تعصبا أعمى يدعون أن جيش النظام الجديد كافر لانه يرتدى البنطلون (السروال) بدلا من الشالوار (لباس يغطى النصف الأسفل من الجسم عريض وواسع) ، وأن البادشاه سوف يلبسهم القبعات كذلك وكانوا يثيرون الجهلة بمثل هذه الأقوال . خصصت الدولة للنظام الجديد ميزانية ضخمة قدرها ٣ مليارات آقجه . أما زمرة القابو قولو فكانوا يتسلمون رواتبهم التى تسمى علوفه بصعوبة . كانت الدولة تدفع رواتبهم كرها وتتعمد تأخيرها ، لأنها تعلم أنهم جميعا يشتغلون بالصناعات المختلفة ويتسلمون الجزية . لم يكن من السهل إعاشة جيش طفيلى بالاضافة إلى اعاشة جيش نظامى . كانت هذه التغييرات التى من الواضح جدا أنها من النمط الأوروبى ، تستثير المواطن المحافظ . ولم يكن هؤلاء قليلين . كانوا يتساءلون ، بأى جيش ذهبنا إلى فينا ؟ ولم يكن أحد منهم يسأل نفسه بأى جيش دافعت أوروبا عن فيينا . كان سليم الثالث ، يعامل ولى عهد – شهزاده مصطفى الذى كان يعامله أبوه بشفقة كبيرة عندما كان وليا للعهد ، معاملة حسنة جدا . لكن السلطان مصطفى هذا ، كان يحرض معارضى النظام الجديد ضد السلطة فى سبيل اعتلائه العرش ، وحتى ولع سليم الثالث بالفنون الجميلة ، عزفه على الطنبور ، الناى ، غنائه ، تلحينه .. كان موضوع نقد . هل يليق بالخاقان – الخليفة أن ينصرف إلى أعمال غير لائقه كهذه ؟ أخوات البادشاه ، السلطانه بيخان ، والسلطانتان خديجة وأسماء والأخت الكبرى لولى العهد ، كن يعشن حياةً تكاد تكون أوروبية فى السرايات (القصور) الكائنة على المضيق . كن يتقابلن مع رجال الفن الأوروبيين كالمعمار Melling ، ويستمعن بنشوة إلى الاشعار الغرامية كأشعار الشيخ غالب . وصار ذلك موضوعا للقيل والقال فى الأوساط المتعصبة .

وفى ٢٥ أيار ، تمرد مساعدو الانكشارية الموجودين فى فتحة مضيق إستانبول على

البحر الأسود، بتحريض من رجال الدولة السالف ذكرهم ، ونصبوا على رأسهم جنديا اسمه قاسطامونيلى قباقجى مصطفى . رفضوا لبس ملابس النظام الجديد ومزقوها . مزقوا شر ممزق محمود رائف أفندى ناظر المضيق رئيس الكتاب (وزير الخارجية) السابق ، الفنان والعالم المتميز المسمى « انكليزى » لأنه أكمل تحصيله فى انكلترا . عدة مئات من الغوغاء السفلة الذين مزقوا قائدهم خاصكى خليل آغا ، أخذوا ينتظرون الأوامر من رئيسهم الحقيقى كوسه موسى باشا (لغرض إنقاذ الشريعة) ، الذى كان وكيلا للصدر الأعظم الذى ذهب إلى الحرب ، وبعد أن أمر الباشا بعدم خروج جنود النظام الجديد من معسكراتهم ، أقنع البادشاه ، بأنه سوف يتمكن من القضاء على هذه الحفنة من العصاة بواسطة البستانجى لر (محافظى حدائق السراى) ، وأن اقحام وحدات النظام الجديد ، سوف يسبب إثارة أفراد تشكيلات القابوقولو . وبذلك لم يصدر سليم الثالث أمر خروج وحدات النظام الجديد من معسكراتهم .. وهكذا بدأ دور الرجعية المشئوم الذى سيستمر ١٩ عاما ، وسيترتب على هذا أن تعجز تركية عن سد هذه الفجوة الزمنية حتى يومنا هذا

كوسه موسى باشا وطوبال عطاء الله أفندى اللذان أجبرا سليم الثالث على الغاء النظام الجديد فى ٢٨ أيار لتسكين زمرة القابوقولو ، عزلا فى اليوم التالى البادشاه عن عرشه . وهكذا كانت عاقبة أكثر الحكام ثقافه وتقدمية فى الفكر وأقدر حاكم شهدته الدولة العثمانية منذ ١٦٧ عاما . دامت سلطنته ١٨ سنة ، وشهرا و٢٢ يوما . اعتلى العرش مكانه ابن عمه مصطفى الرابع الذى يصغره بـ ١٧ عاما ، و٨ أشهر ، ١٥ يوما . فتح الباب لعهد الرجعية لمدة ١٩ عاما ، وهو العهد الذى فقدت فيه الدولة - التى لم تستطع تأسيس جيش حديث - الكثير من أراضيها . والأهم من ذلك ، أن أوروبا ، فى هذا الدور استعملت البخار فى الصناعات وحققت الانقلاب الصناعى .كانت سن سليم الثالث تتجاوز الـ ٤٥ بـ ٥ أشهر و٧ أيام .

١١) الدول العالمية عند حلول القرن ١٩ (١٨٠٠)

تقدر نفوس العالم فى عام ١٨٠٠ بـ ٨٣٩ ٢٠٥ ٠٠٠ نسمة : ٥٤١ ٤٦٠ ٠٠٠ منهم فى آسيا ، ١٨٨ ٩٧٦ ٠٠٠ فى أوروبا ، ٧٦ ٨٥٧ ٠٠٠

فى أفريقيا ، ١٥٩٨٢ ٠٠٠ فى أمريكا الشمالية ، ١٢ ٩٧٥ ٠٠٠ فى أمريكا الجنوبية ، ٢ ٩٥٥ ٠٠٠ فى اوقيانيا . وتقدر الزيادة فى نفوس العالم خلال ١٧٥٠ – ١٨٠٠ بمقدار ١٤٠ مليون نسمة . وخلال ١٨٠٠ – ١٨٢٥ بمقدار ١١٦ مليون نسمة . ووصل نفوس العالم فى ١٨٣٥ تقريبا ، إلى مليار نسمة ، وللمرة الأولى خلال القرن الجديد تصل نفوس مدينة مسيحية (لندن) إلى مليون نسمة فى ١٨٠٠ تقريبا ، وتجاوزت نفوس ٢٢ مدينة أوروبية ١٠٠ ٠٠٠ نسمة فى كل منها .

كانت فرنسا ، خلال ١٧٩٩ – ١٨١٢ ، أقدر دولة فى العالم . وبعد ١٨١٢ وحتى ١٩٤٠ صارت انكلترا أقدر دولة فى العالم . كانت فرنسا خلال ١٧٩٢ – ١٨٠٤ جمهورية ، وخلال ١٨٠٤ – ١٨١٥ امبراطورية ، ثم ملكية مرة أخرى . تقدر أراضى ونفوس الدول فى عام ١٨٠٠ بالنسبة لتسلسل أهميتها بما فى ذلك مستعمراتها كما يلى :

جمهورية فرنسا٣٨١٨٨٤٩ كم^{2} و ٣١١٣١٠٠٠ نسمة (باريس ٧٠٠ ٠٠٠ ، ليون ١٣٠ ٠٠٠ ، مارسيليا ١١٥٠٠٠ ، نانتس ٩٦٠٠٠ ، بوردو ٩٥٠٠٠) .

ملكية بريطانيا العظمى ١٣٢٤٢٨٦٦ كم^{2} و ٧٨٥٥٠ ٠٠٠ نسمة (لندن ١٠٠٠ ٠٠٠ ، دبلن ١١٠ ٠٠٠ ، كلاسكو ١٠٢٠٠٠ ، بريستول ١٠٠ ٠٠٠) .

امبراطورية روسيا ١٧٨٥٠ ٠٠٠ كم^{2} و ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة (بطرسبورغ ٢٣٠ ٠٠٠ ، موسكو ٢١٠ ٠٠٠) .

امبراطورية تركية ١٢١٨٧٧٠٥ كم^{2} و ٦٣٧٠٠ ٠٠٠ (إستانبول ١٥٠٠ ٠٠٠ (المدينة الأولى فى العالم) القاهرة ٤٠٠ ٠٠٠ ؛ أدرنة ٣٠٠ ٠٠٠ ، الجزائر ١٢٢٠٠٠ ، تونس ١١٢٠٠٠) (لم تحتسب المدن الموجودة فى قارة آسيا) .

الامبراطورية الصينية ١١٧٦٥٠٠٠ كم^{2} و ٢٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

الامبراطورية الألمانية ٩٨٠ ٢٣٦ كم^{2} و ٤١ ٤٧٠ ٠٠٠ نسمة (فينيا ٢٥٠ ٠٠٠ ، البندقية ١٦٠ ٠٠٠ ، هامبورغ ١٢٠ ٠٠٠) : ألغى الامبراطور

نابليون الامبراطورية الألمانية فى ١٨٠٦ ، وسميت الامبراطورية النمساوية . وقد الغى مايقارب ٥٠ دولة ألمانية كانت ضمن الامبراطورية ، وترك مايقارب الـ ٣٠ دولة . وكل هذه الدولة انفصلت عن الامبراطورية النمساوية وشكلت دولا مستقلة .

الملكية الإسبانية ١٤٨٨٧٠٤٨ كم٢ و ٣١١٥٥٠٠٠ نسمة (مدريد ١٦٤٠٠٠ ، المكسيك ١٢٥٠٠٠) .

ملكية بروسيا ٢٨٠٠٠٠ كم٢ و ٩ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة (برلين ١٩٠ ٠٠٠) .

امبراطورية ايران ١٧٣٥٦٥٤ كم٢ و ١٢ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة .

عدا هذه الدول الكبرى ، فان تقديرات أراضي ونفوس بعض الدول الأخرى ، كانت كما يلى : ملكية البرتغال ٨٨٠٢١٩٢ كم٢ و ٨٣٠٠٠٠٠ نسمة (لشبونه ٢٨٠٠٠٠) ، جمهورية هولندا ١٠١١٠٨١ كم٢ و ٨٤١٥٠٠٠ نسمة (امستردام ٢٢٠٠٠٠) ، ملكية السويد ٧٩٤٢٧٨ كم٢ و ٣٧٠٠ ٠٠٠ نسمة ، ملكية الدانمارك ٥٢٨٩٥٧ كم٢ و ٢١٥٨٠٠٠ (كوبنهاكن ٩١٠٠٠) ، البابوية ٣٥٣٣٦ كم٢ و ١٦٠٠٠٠٠ نسمة (روما ١٦٥٠٠٠) ، ملكية الصقليتين ٩٨٩٢١ كم٢ و ٦٣٥٠٠٠٠ نسمة (نابولى ٤٠٠ ٠٠٠ ، باليرمو ١٠٥٠٠٠) ، ملكية ساردونيا ٥٢٧٥٢ كم٢ و ٣١٥٠ ٠٠٠ نسمة (تورينو ٩٢ ٠٠٠) ، جمهورية سويسرا ، ٤١٢٩٥ كم٢ و ١٨٧٥ ٠٠٠ نسمة ، دوقية توسكانا الكبرى ٢١٤٨٫٩ كم٢ و ١١٢٠ ٠٠٠ نسمة ، جمهورية ليكوريا (جنويز) ٥٤١٧ كم٢ و ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة ، جمهورية ماوراء الألب ٤١٩٣٤ كم٢ و ٣٥٠٠ ٠٠٠ نسبة (ميلانو ١٤٠ ٠٠٠) ، اتحاد الولايات الأمريكية ١٩٥١٧٨٠ كم٢ و ٤٣٠٨٠٠٠ نسمة .

امبراطورية اليابان ٤٤٤٥٩٩ كم٢ و ٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية الأفغان ٩٢٢٣٢٣ كم٢ و ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية الهند ٢٩٢٨٨٧ كم٢ و ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، خانات تركستان ٣٩٥٢٠٠٠ كم٢ و ١١٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية فاس ٣٠٥١٦٩٩ كم٢ و ٨ ٠٠٠ ٠٠٠

نسمة ، ملكية بورنو ٢٦٠ ٠٤٠ ٣ كم٢ و ٠٠٠ ٠٠٠ ٧ نسمة .

ممالك الزنوج الأفريقية المجهولة ١٢٣٨٢٢١٢ كم٢ و ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٥ نسمة ، اوقيانيا المجهولة ٨٢٠٧٢٤٤ كم٢ و ٠٠٠ ٢٨٠٠ نسمة .

١٢) مصطفى الرابع (١٨٠٧ - ١٨٠٨)

مصطفى الرابع الأبن الكبير لعبد الحميد الأول . أمه ، السلطانة - الوالدة عائشة سينه برور (Sineperver) (١٧٦١ - ١٨٢٨/١٢/١١) . كان السلطان مصطفى وليا للعهد مدة سلطنة ابن عمه السلطان سليم الثالث التى استمرت أكثر من ١٨ سنة . كان عمره عند وفاة والده وشغله منصب ولى العهد ، يتجاوز الـ ٩ سنوات بـ ٧ أشهر . توفيت ابنة السلطان مصطفى الوحيدة التى ولدت بعد وفاته ، بعد ٦ أشهر ، ولم يرزق بأولاد عداها .

ورغم أن السلطان مصطفى وصل إلى العرش مستندا إلى فكرة مخالفته النظام الجديد ، فإنه قتل المتسببين فى ثورة قباقجى فردا فردا .

كان قد قتل فى الثورة ، قسم من رجال النظام الجديد ، وتمكن القسم الآخر من الفرار ، ولجئوا إلى علمدار مصطفى باشا ، أحد مؤيدى النظام الجديد فى روسجك . ويطلق عليهم « روسجك يارانى » (أصحاب روسجك) . وبتشجيع رجال الدولة هؤلاء (الذين أكثرهم شباب) ، قرر علمدار ، إجلاس سليم الثالث على العرش مرة أخرى . ولكن السلطان مصطفى ، الذى مل من تحكم شيخ الإسلام طوبال عبد الله أفندى الذى يعتنق الدكتاتورية ، ويميل إلى تحكم الأشقياء ، استدعى علمدار مع جيشه إلى استانبول . قتل علمدار فى الطريق قاباقجى مصطفى (١٨٠٨/٧/١٣) ووصل إستانبول فى ١٩ تموز . ذهب السلطان مصطفى إلى سراى داود باشا ، خارج إستانبول واستقبل علمدار . عرض « أصحاب روسجك » على علمدار اعتقال البادشاه هنا ، فقال علمدار بأن ذلك يتنافى مع الرجولة ، وهكذا أضاع الفرصة .

عزل ، السلطان مصطفى ، شيخ الإسلام مستندا على علمدار . وفى نفس اليوم ، نفى العلماء الذين تدخلوا فى الحركة الرجعية . شكر البادشاه ، علمدار على خدماته

وأمر بعودته وعدم تركه سواحل ألطونة . تلكأ علمدار مدة أسبوع ، دون قصد . وفى النهاية اقتحم مع ١٥٠٠٠ من جنوده الباب العالى ، وأخذ الختم الهمايونى من الصدر الأعظم عنوة . استمرت صدارة جلبى مصطفى باشا مدة سنة وشهر ، و١٠ أيام . وصار علمدار مصطفى باشا صدرا أعظم بصورة فعلية ، وإن لم يكن بصورة شرعية .

جاء بعد ذلك إلى سراى طوب قابو الذى يبعد عنه قليلا . علم البادشاه بحادث اقتحام الباب العالى ، وعلم بمقصد علمدار ، فاتخذ تدابيره المشئومة . لكن علمدار بدلا من اعتقاله البادشاه أرسل شيخ الإسلام إليه عارضا عليه التنازل عن العرش . أمر السلطان مصطفى الذى لم يستمع حتى إلى أقوال شيخ الإسلام ، بقتل الخاقان السابق سليم الثالث وولى عهد - شهزاده السلطان محمود . وبذلك يبقى هو الوحيد من بنى عثمان على قيد الحياة ، حيث لم يكن هنالك شهزاده (أمير) آخر غيره .

استشهد السلطان سليم بعد مضى ١٨٦ سنة وشهرين ، و٩أيام ، على واقعة « هائله عثمانية » التى استشهد فيها عثمان الثانى . وبامر السلطان مصطفى ، اقتحم ٢٥ شخصا من موظفى السراى ، شقة سليم الثالث ، رئيس الدولة الكبير الذى كان انذاك ينفخ على الناى ، وقتلوه شهيدا بالساطور (١٨٠٨/٧/٢٨)كانت سنة تتجاوز الـ ٤٦ بـ ٧ أشهر و٥ أيام . نقل جثمانه فى اليوم التالى فى حشد غفير إلى مقبرة لاله لى جوار أبيه مصطفى الثالث . لا ولد له .

بعد أن أجهز القتلة على السلطان سليم ، دخلوا شقة ولى العهد . كان ولى العهد ينتظر وبيده السيف . كان رجاله قلائل ، فقضى عليهم أثناء دفاعهم عن ولى العهد . أخرج السلطان محمود بتضحيات كبيرة من نافذة غرفته إلى السطح وأنزل بالسلالم إلى الفناء . كان الفناء فى هذه الاثناء قد امتلأ بجنود علمدار . نجت حياة السلطان محمود .

ولكى يقضى مصطفى الرابع على أمل علمدار ، أمر بنقل جسد سليم الثالث إلى الفناء . وعندما انكب علمدار على النعش باكيا ، جاء السلطان محمود ، وكان أول من بايعه علمدار مصطفى باشا .

دامت سلطنة مصطفى الرابع سنة ، وشهرين . وهى أقصر مدة سلطنة فى التاريخ العثمانى بعد مراد الخامس (١٨٧٦) .

١٣) جلوس محمود الثانى (١٨٠٨/٧/٢٨) .. وشخصيته :

أمر السلطان محمود ، بقتل مايقرب من ١٠٠٠ شخص من الذين قتلوا السلطان سليم ، أو تفرجوا على قتله أو لم يتأثروا لمقتله وكان بينهم ١٠ جوار . ولعدم إمكان إعدام النساء فى النظام العثمانى ، فقد تم خنقهن وإلقاؤهن فى البحر خارج موقع قيز قوله سى .

كانت سن السلطان محمود تتجاوز الـ ٢٣ عاما بـ ٩ أيام . كان تلميذا لابن عمه سليم الثالث الذى يكبره بـ ٢٣ سنة و٧ أشهر ، و٢٧ يوما ووارثا لجميع أفكاره . رباه سليم الثالث الذى لم يكن له اولاد كابنه من صلبه . علمه سليم الثالث ، النفخ فى الناى ، العزف على الطنبور وحتى الموسيقى . أما توصياته السياسية ، فكثفها خاصة خلال الـ ١٤ شهرا الأولى من سلطنة مصطفى الرابع ، حيث كان البادشاه السابق يلتقى بكثرة مع ولى عهد – شهزادة بحجة تعليمه الموسيقى . استفاد السلطان محمود الذى يكن للسلطان سليم حبا عميقا ، من كافة اخطائه . كان يملك الصفات التى تؤهله لتقييم هذه الأخطاء . والحقيقة أن السلطان سليم ، سرد له معظم اخطائه بعد إجباره على التنازل عن العرش ، واوصاه بعدم الوقوع فى الأخطاء التى وقع هو فيها . وازاء الوضع الذى أصبح يتعدى كونه مسألة صيانة شرف سلالة ، إلى كونه مسألة صيانة مستقبل وكيان دولة ، التقت – باقتناع تام – ارادة سليلى بنى عثمان الاثنين : ذو العمر الناضج ، والشاب .

محمود الثانى ، هو الابن الصغير لعبد الحميد الأول وجد جميع بنى عثمان الذين عاشوا حتى يومنا هذا ولايوجد سلالة مستمرة من بادشاه يسبقه . أمه السلطانة الوالدة نقش دل (١٧٦٨ – ١٨١٧/٨/١٨) . لم يكن قد بلغ من عمره الرابعة عند وفاة أبيه . وكان بنفس العمر عندما صار ولى العهد الثانى لسليم الثالث الذى تبناه . كان أخوه الكبير مصطفى الرابع يكبره بـ ٦ سنوات تقريبا . صار وليا للعهد مدة ١٤ شهرا عند جلوس أخيه على العرش .

كان محمود الثانى الذى يسمى كذلك الأدبى « عدلى » ويحمل لقب « غازى » منذ ١٨١٣/٥/٢٨ ، شاعرا ، ملحناً ، نافخا فى الناى ، طنبوريا ، مغنيا ، نقشيا ومولويا وهو خطاط عظيم فى خط الثلث والنسخ والجلى . أعظم بادشاه جاء منذ وفاة السلطان سليمان القانونى فى ١٥٦٦ وحتى نهاية السلطنة ، مؤسس تركية

الحديثة والجيش التركى . من أكبر الشخصيات التاريخية التى أنجبها التاريخ التركى .
قامته تكاد تكون أقرب إلى الطول ، موزون الجسم ، جميل الوجه ومستديره تقريبا ،
أسود اللحية ، داهية فى السياسة والأمور الإدارية ، ذكى ، وقور فعال ، جسور ،
ذو عزم ، صبور . تمكن خلال سلطنته ، من السياحة إلى سواحل الطونة
(١٨٣١ - ١٨٣٧) ، وبواسطة يخته البخارى إلى جزر رودس (١٨٢٧) ،
ومرتين إلى غاليبولى وبولاير ، وزار فى الأناضول المحلات القريبة كازميت فقط .
له المام بعلوم عصره الحديثة ، وتعلم فيما بعد الفرنسية كذلك . له ألمام بالثقافة
واللغات الشرقية وإن لم يكن بدرجة سليم الثالث .

١٤) واقعة علمدار (١٨٠٨/١١/١٥) ، انتصار الرجعية الحاسم

استدعى « الأعيان » من الأناضول وروملى إلى استانبول ، وأفهموا أن الدولة فى
حالة حرب مع روسيا وحرروا ميثاق الاتفاق المسمى « سند اتفاق » (سند
الأتفاق) الذى بموجبه وقعوا على أنهم سيمتثلون لأوامر الدولة (١٨٠٨/٩/٢٩) .
ولحاجة الدولة إلى جيش محارب ، تم إحياء النظام الجديد باسم « سكبان جديد »
(١٨٠٨/١٠/١٤) . استدعى الوزير قاضى عبد الرحمن باشا من قونية إلى
إستانبول وترأس الجيش . وصار أحد أعضاء المجلس الثورى المسمى « روسجك
يارانى » (أصحاب روسجك) ، الدفتردار (وزير المالية) السابق ، بهيج أفندى
وزيرا للحربية لهذا الجيش بلقب « أمور جهاديه ناظرى » (وزير الأمور الجهادية) .

كان الصدر الأعظم علمدار مصطفى باشا . عسكريا جيداً . لكنه لم يكن
الشخصية التى يمكنها القيام بحركة الاصلاح .. كان يجهل أمور إدارة الدولة المركزية .
لم يكن نظام جيش علمدار الاختيارى الذى جاء إلى إستانبول من سواحل الطونه
بأفضل من الجيش الانكشارى ، بدءوا هم كذلك بأمور الشدة والشقاوة . لم يتمكن
البادشاه الشاب المدين بعرشه لعلمدار من استجماع نفوذه لمنع هؤلاء . وفى الحقيقة
لم يكن راضيا عن علمدار الذى يميل إلى الدكتاتورية . كان الإنكشارية يستعدون
للايقاع بعلمدار الذى أخبرهم بأنه سيلغى تشكيلاتهم . وقائد الجيش الحديث ،
« سكبان جديد » قاضى عبد الرحمن باشا كذلك غير مقتنع بعلمدار ، ولايعجبه
لاوضعه هو ، ولاوضع جيشه . أما رجال النظام الجديد الشباب المثقفون الذين

يسمون « أصحاب روسجك » ، فكانوا مدينين لعلمدار الذى أنقذ حياتهم . لكنهم لم يكونوا يؤمنون بقدرته على تحقيق الاصلاحات التى رسموها وتجمعوا حول الخاقان الذى وجدوه أكثر شبابا منه . وعلاوة على ذلك ، فهم يتهمون علمدار بعدم استماعه لقولهم وتسببه فى استشهاد السلطان سليم .

وفى جو كهذا ، اقتحم الانكشارية فى ليلة ١٥/١٤ ت٢ (١٨٠٨) سراى علمدار . لم يتدخل قاضى عبد الرحمن . دافع علمدار مع رجاله إلى النهاية . وفى آخر الأمر أطلق النار من مسدسه على برميل البارود الموجود فى مخزنه وفجر السراى . مات نتيجة الانفجار مع أكثر من ٥٠٠ من الانكشارية الذين صعدوا على سطح داره ، أثناء محاولتهم ثقبه . دامت صدارته ٣ أشهر و١٨ يوما . صار مميش باشا ، صدرا أعظم لمدة شهر و٩ أيام . ثم أعطى الختم الهمايونى إلى بكلربك حلب الصدر الأعظم الأسبق يوسف ضياء الدين باشا (١٠٨٩/١/١) . وصار قبطان دريا جرخجى على باشا ، قائمقام للصدارة ، لحين وصوله إلى استانبول ، لمدة ٣ أشهر ، و٢٣ يوما .

استشهد علمدار ، فى الساعات المبكرة من صباح يوم ١٥ ت٢ . وفى نفس اليوم ، أصدر شيخ الإسلام ، فتوى قتل البادشاه السابق السلطان مصطفى . تردد السلطان محمود فى قتل أخيه الكبير . الا أن المتمردين أخذوا فى الهتاف باسم السلطان مصطفى . اقنع رجال الدولة البادشاه ، بأن حوادث سيئة جدا سوف تقع . خنق مصطفى الرابع ، بحزام حريرى (١٨٠٨/١١/١٥) . كانت سنه تتجاوز الـ ٢٩ بشهرين و ٢٨ يوما . كان قد مضى على إبعاده عن العرش مدة ٣ أشهر و١٩ يوما . دفن فى مقبرة حميدية فى بقجه قابو جوار أبيه . لم يبد الشعب أى تأثر لمقتل السلطان مصطفى لأنه كان ناقما عليه ، لقتله سليم الثالث شهيدا ، اشتركت جماعة قليلة فى تشييع الجثمان .

وبقتل السلطان مصطفى ، بقى محمود الثانى ، الشخص الوحيد من بنى عثمان . لم يكن هنالك أى شهزاده (أمير) وأى ولى عهد يرث العرش . بقى العرش دون وارث مدة ٣ سنوات وشهر و٩ أيام لحين ولادة أحد شهزادات السلطان محمود . شهدت الدولة والسلالة هذا الوضع للمرة الثانية ؛ الأولى ، الفترة التى تقل عن سنتين تقريبا التى مضت لحين ولادة محمد الرابع الشهزادة الأول لإبراهيم خان الذى جلس

بعد وفاة أخيه مراد الرابع . كان المتمردون قد فقدوا وعيهم . مزقوا مصطفى رفيق أفندى كتخدا الصدارة (وزير الداخلية) من « أصحاب روسجك » . وتمكن البادشاه من إخفاء البقية . ثم سار العصاة بعد ذلك على البادشاه قاصدين قتله ، أى إفناء السلالة . أجابوا أرباب العقول عند سؤالهم عمن سيكون السلطان ؟ بأنهم سيجلسون السلطانة أسماء أخت البادشاه ، الأرملة التى تكبره بـ ٦ سنين . دافع عبد الرحمن باشا عن سراى طوب قابو مع ٤٠٠٠ من جنود سكبان جديد . مات المئآت من كلا الطرفين . أيقن العصاة بعدم إمكان دخولهم السراى عنوة . أخفى عبد الرحمن باشا أثرهم ، وذبح بالسيف ٣٠٠٠ انكشارى . أمر البادشاه ، البحرية أن تقصف سليمانية المحل الموجود فيه سراى إقامة ومقر آغا الإنكشارية . كان يوما عصيبا كأنه من أيام يوم القيامة . شعب إستانبول ، كان تحت نار بحريته . ومن حسن الحظ ، أن جامع سليمانية الفخم الذى كان قريبا جدا من قصر الآغا ، لم يصب بضرر . أيقن العصاه عدم إمكانهم القضاء على البادشاة . لجأ كافة جماعة القابوقولو ، إلى العلماء ، وأقسموا على الإستجابة لأى قرار يصدرونه بشأنهم . أصدر العلماء القرار التالى : يوقف إطلاق النار فورا من كلا الطرفين ، يدخل القابوقولو إلى ثكناتهم ، يلغى البادشاه جيش « سكبان جديد » . وافق السلطان محمود .

لا الرجعيون تمكنوا من القضاء على الخاقان ، ولا الخاقان تمكن من تطهيرهم . بعد هذا ، تمكن الطرفان من الحفاظ على التوزان بالكاد لمدة ١٨ سنة . كان الحفاظ على هذا التوازن ، وتحويله لصالحه ، الشغل الشاغل للسلطان محمود . انتظر لحظة الانطلاق بصبر كبير . أعلن فى ١٨ ت٢ إلغاء جيش « سكبان جديد » . أرسل الجنود إلى بلدانهم ووظف الضباط . كان العصاة قد عمدوا إلى حرق الأسطول ، ميناء صنع السفن ، الطوبخانه (معمل صنع المدافع) ، معسكرات لوند وسليمية (أى مؤسسات الدفاع التى تستند عليها الدولة) وسببوا حرائق كبيرة . شرع فى إصلاحها جميعا . لكن الانكشارية قبضوا فى الأيام التالية على كثير من جنود وضباط « سكبان جديد » وقتلوهم شهداء .

١٥) حـرب روسـيا (١٨٠٩ - ١٨١٢) ، معاهـدة بخارست (١٨١٢/٥/٢٨)

وقعت روسيا التى كانت تعانى من نابليون ، على هدنة مع العثمانية فى عهد مصطفى الرابع (١٨٠٧/٨/٢٥) . وعندما اتفق القيصر بعد ذلك مع نابليون وأخذ موافقته على انتقال رومانيا إلى روسيا ، بدأت الحرب مجددا . وازاء اتفاق القيصر مع نابليون ، وقعت انكلترا مع تركية على معاهدة اتفاق (١٨٠٩/١/٥) . غادر الصدر الأعظم يوسف ضياء الدين إستانبول بصفته سردار أكرم (قائد أعلى) (١٨٠٩/٧/٢٣) . جاء إلى سلستره . انهزم الجيش الروسى البالغ ٦٠٠٠٠ شخصا وخسر ١٠٠٠٠ قتيل فى المعركة الميدانية « تاتاريجه » الواقعة جوار تلك المنطقة ، وترك الساحة للعثمانية التى فقدت ١٠٠٠ شهيد (١٨٠٩/١٠/٢٤) . تقدم الروس الذين احتلوا « اسماعيل » فى شهر ك١ و « ابرائيل » فى شهر ك٢ (١٨١٠) وأصبحوا يسيطرون على دلتا الطونة وعلى الأراضى الرومانية ، فى قفقاسيا على امتداد ساحل البحر الأسود .

أرادت روسيا فى ربيع عام ١٨١٠ تكثيف حملتها على العثمانية لإجبارها على الصلح ، حتى تتفرغ لفرنسا . احتل الروس سلستره ودوبروجا ، حاصروا فارنا ، ولكنهم انسحبوا على أثر دخول الأسطول الهمايونى فارنا . أوقف تقدمهم فى حرب شومنو الميدانية ، بعد تكبيدهم ٢٠٠٠٠ قتيل (١٨١٠/٨/٤) . واحتلوا فى ٢٧ أيلول روسجك وثم يركوى الواقعة فى شمال الطونة . مر عام ١٨١١ بتوازن . عزل الصدر الأعظم والسردار الأكرم يوسف ضياء باشا بعد سنتين ، ٣ أشهر ، ٩ أيام (١٨١١/٤/١٠) . مجموع صدارتيه الاثنتين ٨ سنوات ، ١١ شهرا ، ٤ أيام . احتل مكانه ايمراخور أحمد باشا . جاء إلى شومنو وترأس الجيش . استرجع روسجوك بعد حصار ١٢ يوما (١٨١١/٧/٩) . وبسبب حملة نابليون على روسيا ، كانت روسيا تريد الصلح مع العثمانية ومستعدة لاخلاء رومانيا التى صممت على أخذها . كان نابليون ، يعرض بصورة مستمرة على العثمانية ، الاتفاق ضد روسيا ويقول بأنهم سوف يتمكنون من القضاء على روسيا فى الجبهتين . لكن ، الباب العالى لم يعد يعتمد على السياسة النابليونية .

انهت معاهدة بخارست (١٨١٢/٥/٢٨) المكونة من ١٦ مادة ، الحرب الروسية – العثمانية : تركت كامل بيسارابيا ، إلى روسيا (حوالى ٧٠ ٠٠٠ كم٢) . ولو أن أهالى بيسارابيا ، كانوا رومانا وقسما منهم اوكرانا ، لكن سكان سواحل البحر الأسود فى الجنوب التى تسمى « بوجاق » كانوا أتراكاً . وهكذا أصبح نهر بروت يشكل الحدود العثمانية – الروسية ، بدلا من دنيستر . تبقى دلتا الطونة ، لدى العثمانية . تنقل القلاع مثل Kilye , Akkerman ، اسماعيل إلى روسيا ، لكن تبقى قالاس ، ابرائيل ، اساكجى ، تولجا لدى العثمانية . يعيد الروس الأراضى الرومانية (افلاق بغدان) والأراضى القفقاسية التى استولوا عليها بعد اخلائها إلى العثمانية . تتأسس إمارة صربية مستقلة استقلالا ذاتيا فى بلغراد مع شريط من الأراضى يقع فى جنوبها وستكون مستقلة مثل افلاق وبغدان . يستمر الجيش العثمانى فى التواجد فى قلاع بلغراد والقلاع الأخرى . صار استقلال الصرب انموذجا للشعوب البلقانية الأخرى ، وكان سببا فى تحريض اليونان بوجه خاص .

عزل أحمد باشا ، بعد سنة ، ٤ أشهر ، ٢٥ يوماً (١٨١٢/٩/٥) . صار الصدر الأعظم ، قائد صوفيا ، أحمد خورشيد باشا لمدة سنتين ، ٦ أشهر ، ٢٧ يوما . وجاء مكانه بعده محمد أمين رءوف باشا (١٨١٥/٤/١) . ترك منصبه بعد سنتين ، ٩ أشهر ، ٤ أيام إلى محمد باشا والى (بورصه) (١٨١٨/١/٥) . وبعد سنتين ، ويوم ترك منصبه إلى اسبارطه لى على باشا والى خداوندكار (١٨٢٠/١/٥) . على باشا هذا ، فى تلك الحقبة ، هو زوج الأخت الكبيرة لمصطفى رشيد باشا البالغ عمره ٢٠ عاما – « الكبير » فى المستقبل .

استولى الوهابيون الذين قدموا من نجد ، على قسم كبيرا من الحجاز . كلف الباب العالى ، أحد اولاد والى مصر ، قاوالالى محمد على باشا ، والى جدة والحبش (الحجاز واريتره) الوزير محمد طوسون ، لاخراج الوهابيين من الحجاز . استمرت الحركات ضد الوهابيين من ١٨١١ إلى ١٨١٦ . استولى طوسون باشا ، على كل من المدينة (٢/ ١٢ /١٨١٢) ، ومكة (٢٣/ ١ / ١٨١٣) ، الطائف (١٨١٣/١/٢٨) . اكمل حركات طوسون باشا ، اخوه الكبير ابراهيم باشا . وأحتل درعية . ورغم كل ذلك ، استمرت الحركة الوهابية ولم يقض عليها . انتشرت فى الإحساء (١٨٣٠) ، وصلت جزر البحرين (١٨٣٤) ، لكن أصبحت علاقتها مع الدولة العثمانية بعد ذلك اكثر وفاقاً .

كانت المسألة الأخرى التى شغلت العثمانية هى ، تبه دلنلى على باشا . حصل على باشا ، وأولاده وأقرباؤه على الولاية من الدولة وسيطروا على أراض واسعة فى Epir ، والبانيا ، واليونان ، ومورا . كان مركزه يانيا . على باشا الذى كان من عائلة تركية من كوتاهية ، أخذ يتلكأ فى تنفيذ أوامر إستانبول . سار الصدر الأعظم السابق خورشيد باشا ، على تبه دلنلى . وبعد مقاومته فى يانيا مع ٥٠٠٠ من جنوده ، و٢٠٠ مدفع مدة سنة و٤ شهور ، ٢٥ يوم ، قطع رأسه (١٨٢٢/١/٢٤) . استمرت تبه دلنلى - زاده لر (عائلة تبه دلنلى Tepedelenli) إلى يومنا هذا وانجبوا رجال دولة عديدين للدولة العثمانية .

١٦) الحرب الإيرانية الأخيرة (١٨٢١ - ١٨٢٣)

أراد القاجاريون فى إيران عند بدء الثورة اليونانية ، الاستفادة من الظروف المحيطة بالإمبراطورية العثمانية التى تورطت مع الدول الأوروبية . هجموا على الأناضول الشرقية وعلى العراق (١٨٢١/١١/١٥) . أحتلوا بيتليس وحاصروا بغداد . عقد صلح بعد سنتين على أساس الـ Statu quo أى بقاء الوضع على حاله (١٨٢٣/٧/٢٨) . وهذه آخر حرب تركية - إيرانية جرت فى هذا التاريخ . لم تتمكن الدولتان ، فى أى وقت من الأوقات من الأتفاق ضد روسيا . أخذت روسيا فى استقطاع أقطار كبيرة بهجومها تارة على تركيا وتارة على إيران . وفى معاهدة تركمنجاى ١٨١٣ ، استقطعت من إيران داغستان وشيروان (اذربيجان الشمالية) وفى معاهدة كلستان ١٨٢٨ ، أخذت روان (ارمنستان الحالية) ونهجوان وكانت هذه الأقطار فى التواريخ المذكورة اقطارا تركية بحته . وبمعاهدة ١٨٢٨ خرجت إيران ، لأول مرة فى التاريخ من صفوف الدول العظمى . كانت الدولة العظمى الوحيدة التى بقيت ، هى تركيا . كانت هنالك دولة كبرى غير مسيحية أخرى ، وهى الصين . أصبحت كفة الرجحان والسيطرة بيد الأوروبيين فى القارات الست .

عزل اسبارطه لى على باشا من الصدارة بعد سنة ، وشهرين و٢٤ يوماً (١٨٢١/٣/٢٨) . وأصبح والى جلدر بندرلى على باشا ، صدرا أعظم لمدة شهر ، و٣ أيام (١٨٢١/٤/٣٠) . أعدم بعد ذلك . لم يتمكن ازميرلى صالح باشا من البقاء

في مقام الصدارة أكثر من سنة ، و٦ شهور ، و١٠ أيام (١٨٢١/٤/٢٩ ــ ١٨٢٢/١١/١٩) . جرى على عهد هذا الصدر الأعظم نفى نيشانجى (وزير الدولة) قرملى هالت افندى ، الذى سيطر على الدولة بصلاحيات واسعة منذ سنين وكان يسمى « مستشار السلطنة » ويستند على تشكيلات الإنكشارية ، إلى قونية واعدامه . وأصبح دلى عبد الله (حمد الله) باشا ، أحد مشيرى البحر السابقين ، صدرا أعظم . عزل بعد ٤ أشهر (١٨٢٣/٣/١٠) . اعتلى مقام السلطة سلاحدار على باشا ، ابن الوزير هزاركرادلى عزت أحمد باشا ، لمدة ٩ أشهر و٤ أيام . عين مكانه محمد سعيد غالب باشا ، أحد رجال النظام الجديد (١٨٢٣/١٢/١٣) . عين واليا على أرضروم بعد ٩ أشهر ، ويومين (١٨٢٤/٩/١٤) . صار والى سلسترة بندرلى سليم سرى باشا ، صدرا أعظم . حدثت الواقعة الخيرية على زمانه .

١٧) بدء الثورة اليونانية (١٨٢١/٢/١٢) ومرحلتها الأولى

بدأت الثورة اليونانية فى ١٢ شباط فى صبيحة يوم دافىء من أيام شتاء عام ١٨٢١ باحتلال مدينة باتراى من قبل ١٠٠٠٠ مسلح مورالى (من جزيرة مورا) بقيادة Germanos رئيس اساقفة Patras . ثم حاصروا قلعة المدينة . كانت هذه إشارة لعصيان مورا كلها . وفى بداية شهر نيسان ، انتقل كامل الجزيرة ليد العصاة عدا Tripolice مركز سنجق (لواء) مورا . أعلن اليونانيون بأن ميناء Nauplion (بالتركية آنابولى) الواقع فى شمال – شرق مورا ، مركزا لقيادة الثورة .

كانت هذه الثورة ، نتيجة استعدادات طويلة الآمد القت بذورها كاترينا الثانية فى الحرب الروسية – العثمانية فى ١٧٦٨ – ٧٤ . لكن العصيان الذى قام به المانيوتيون Manyot فى مورا ، لم يحقق أية نتيجة ، لاخماده فورا وبشكل حاسم على يد محسن – زاده محمد باشا . ونتيجة ذلك ، تم التخطيط لقيام الثورة فى جميع المناطق وباستعدادات أدق ، بدلا من قيامها فى منطقة واحدة . أخمدت حروب الثورة الفرنسية ، هذه المسألة مدة طويلة . وعلى أثر اكتساب أوروبا روحاً جديدة فى مؤتمر

فيينا عام ١٨١٥ ، أخذ اليونانيون ، تحت حماية الروس خاصة ، فى تأسيس جمعيات علمية ، أدبية ، سياسية . ومن بين هذه الجمعيات ، جمعية « Ethniki Hetairia » التى تأسست فى اوديسا عام ١٨١٤ وكانت جمعية سرية . كانت أهدافها إحياء الإمبراطورية البيزنطية ، أخذ إستانبول من الأتراك ، إخراج الأتراك من أوربا ودفعهم إلى آسيا . لم تكن هذه الأفكار ، أفكارا جديدة . كانت مشابهة للخطط الأوروبية الفاشلة وغير المجدية التى سارت عليها أوربا منذ قرون . لكن الفكرة القومية - بالمعنى الحالى - التى أوجدتها الثورة الفرنسية ، كانت تعطى الشجاعة لليونانيين . تقبلت شعوب الدولة العثمانية الناطقة باللغة اليونانية هذه المدنية القديمة ، رغم عدم وجود رابطة دم أساسية بينهم وبين اليونانيين القدامى ، عدا تكلمهم نفس اللغة بلهجة جديدة ، وبدعاياتهم أفهموا أوروبا أنهم ورثة المدنية اليونانية ، وأن المدنية التى أسسها أجدادهم ، تشكل كذلك الأساس للمجتمع الغربى ، وأنهم الآن يسحقون تحت أقدام الأتراك ، وأنهم فى ضوء ذلك كله أصحاب حق فى طلب الحرية . تمكنوا من إقناع أكثرية المثقفين الغربيين . كانت فكرة طلب الحرية على أساس القومية - الطبيعية جدا فى أيامنا هذه - غريبة جدا بالنسبة للعالم فى ذلك العهد . كانت هذه الأفكار من معطيات الثورة الفرنسية ، ولم تكن قد وضعت فى مرحلة التطبيق .

وفى الحقيقة ، فإن الحكام الأوربيين ، لم يتقبلوا هذه الفكرة ؛ ذلك أنه فى حالة تقبلهم مثل هذه الفكرة فإن العديد من الدول الأوربية سوف تتمزق وتصبح قطعا متفرقة . تقبلها القيصر فقط ، رأى اكساندر الأول الذى ورث هذه الفكرة عن ام أبيه ، أن هذه الفكرة فى صالح روسيا . كان يريد أن يثبت أنه هو حامى الأرثوذكس ، بسبب كونه مؤمنا بنفس المذهب الذى تؤمن به اليونان وخاصة أنه فى روسيا أكبر كتلة من أتباع هذا المذهب ، كما أن هذه الفكرة تضعف الدولة العثمانية وتستقطع منها اقطارا واسعة . يضاف إلى ذلك أن الأمير Lspilanti أحد بكوات بطريقية فنار Fener فى إستانبول ، الذى يدير جمعية Herairia ، كان مرافقا للقيصر . كانت الجمعية تحت حماية القيصر . وساندها بشكل كبير وزير الخارجية الروسى Capo d'Istria اليونانى الأصل Grigorios بطريق الأرثوذكس العالمى فى Fener وكان أكثرية أشراف الروم الذين يسمون « فنار بكلرى » « بكوات Fener » فى تعاون مستمر مع تلك الجمعية .

كان الناطقون باللغة اليونانية ضمن الإمبراطورية العثمانية فى مورا ، Attika وجزر إيجه ، يشكلون كثافة سكانية تزيد على ٥٠٪ من مجموع النفوس . فى كريت وقبرص ، كانوا تقريبا بنسبة ٥٠٪ . وكانوا أقلية فى الأقطار الأخرى ، لذلك تقرر بدء الثورة من المنطقة التى يشكلون فيها كثافة سكانية . أتاح إرسال خورشيد باشا ضد تبه دلنلى على باشا وإخلائه مورا بشكل تام وسحبه جنده ، الفرصة لليونانيين . كانت مدن مورا تحتوى على أقلية لابأس بها من الأتراك وفى مدينة او مدينتين ، كانوا يشكلون الأكثرية . لكنه تقرر فى الحال ، إفناؤهم جميعا بالذبح الجماعى .

المسلمون الذين تمكنوا من النجاة من القتل عند اشتعال الثورة فى باتراس (بالتركية ، باليابادرا) وانتقالها إلى كافة مورا ، وصلوا بالكاد إلى تريبوليجه . لكن تريبوليجه سقطت كذلك (١٨٢١/١٠/٥) وقتل بالذبح الجماعى الجيش الموجود فى القلعة و ٨٠٠٠ تركى مدنى ، بمن فى ذلك المواليد الجدد من الأطفال . كان يسكن مورا ٥٠٠٠٠ تركى تقريبا . كان قسم منهم مستوطنا فى مورا منذ ٤٠٠ سنة . قتل القسم الأكبر من سكان مورا الأتراك ، وتمكن قسم قليل من الهروب .

دهش الباب العالى للوهلة الأولى ، ثم غضب غضبا شديدا . الباب العالى الذى حمى اليونانيين منذ عصور ، وحسن حالتهم المادية عن طريق التجارة ، وأعطى أكبر الإمتيازات للبطريق ، والبادشاه هو الذى أعلن أنه بنفسه هو الحامى الرسمى للمذهب الأرثوذكسى ، هذا بالإضافة إلى أن حريتهم الدينية لم تمس ، كما أن الأتراك هم الذين حالوا دون سحق الكاثوليك لهم . وقد تحقق لهم كل ذلك بسفك دماء الكثير من المسلمين . وعندما ثبت اشتراك البطريق غريغوريوس بالثورة بوثائق مكتوبة ، قبض على البطرق العالمى ، وأعدم أمام الباب الوسطى لبطريقية فنار . وشهر لمدة ثلاثة أيام بتعليق لوحة على عنقه تبين خيانته (١٨٢١/٤/٢٢) . وبأمر من البطريق الجديد أغلقت هذه الباب الوسطية منذ ذلك التاريخ وأبطلت وقرر عدم فتحها لحين إعدام رئيس دولة أو حكومة تركية فى نفس المكان ، وحاليا مغلقة ، ولاتزال فى انتظار يوم فتحها .

أعدم كذلك اساقفة قيصرى ، طرابيا ، أدرميت مع عدة بكوات من بطريرقية فنار الذين ثبت اشتراكهم فى الثورة . مرافق القيصر الأمير Lspilanti الذى علم بالعصيان الناجح فى مورا ، جاء من اوديسا إلى ياش مركز بغدان (مولدافيا) مع

٣٠٠٠ رومى متطوع ، واحتلها فى ٥ مارت وفى ١١ منه احتل كالاس ، وفى ٣٠ منه أحتل بخارست مركز افلاق (رومانيا ، رومانيا الجنوبية ، اولاهيا) . استعاد الجيش التركى الذى دخل رومانيا فى الحال جميع هذه المدن وأفنى الروم . ايقن اليونانيون خطأهم الكبير فى اعتقادهم أن الرومانيين سيساندون الثورة لكونهم ارثوذكس مثلهم .

كثف اليونانيون الذين تركوا فكرة إحياء الإمبراطورية على أثر حل مشكلة رومانيا ، جهودهم وعزمهم المتواصل على تأسيس دولة وطنية يونانية فقط . احتج الباب العالى على روسيا . وعلى أثر ذلك ، عزل القيصر ، Jspilanti من وظيفته كمرافق له ، وطرد مرافقه الذى يحمل رتبة جنرال من الجيش .

أعلن الثوار تأسيس اليونان التى تضم مورا ، وجزر كيكلاد ، وجزيرة آغرى بوز وشبه جزيرة Attika وأن الأقطار اليونانية الأخرى ستنظم إليها وانتخبوا الأمير Mavrokordato رئيسا للدولة (١٨٢٢/١/١٣) . كانوا قد احتلوا أكثرية جزر بحر إيجه ، وإحدى هذه الجزر جزيرة سيسام (باليونانية : Samos) التى تقع فى خليج جزيرة قوش آداسى للأناضول وبعد أن سيطر ٦٠٠٠ من سكان سيسام على هذه الجزيرة ، صعدوا إلى الشمال الغربى منها ونزلوا فى جزيرة ساقيز الواقعة مقابل ميناء جشمه . كان تعداد ساقيز ٨٠٠٠٠ ، عدة آلاف منهم أتراك . تعدادها آنذاك يزيد على تعدادها حاليا ، كانوا يعيشون فى رفاهية . أثار السيساميون ، أهالى ساقيز وحرضوهم على العصيان . قتلوا بالتعذيب المسلمين الذين ظفروا بهم . لجأ الذين تمكنوا من الهروب ، إلى قلعة ساقيز التى يدافع عنها الوزير وحيد باشا . دخل القبطان دريا (مشير البحر) نصوح - زاده على باشا ميناء ساقيز (١٨٢٢/٤/١١) بعد ١٩ يوما من بدء العصيان فى الجزيرة ومحاصرة قلعة ساقيز . تم افناء وأسر العصاة الذين قاوموامدة أسبوع . ثار المثقفون الأوروبيون الذين سكتوا على القتل العام الذى جرى للأتراك فى مورا . بكى الشعراء مثل لورد بايرون ، فكتور هوغو والموسيقيون مثل بتهوفن ، والرسامون ، والصحفيون على إخماد عصيان ساقيز بمؤلفات محزنة وألفوا الحكايات الخيالية حول وحشية الأتراك فى أوروبا وأخذت تنهال الأسلحة ، والمتطوعون ، والنقود على اليونانيين من كافة أنحاء أوروبا .

لم تتمكن تشكيلات الإنكشارية التى تعيش لحظاتها الأخيرة من إخماد الثورة اليونانية . ولتحقيق ذلك ، كلف الباب العالى الوزير إبراهيم باشا ابن والى مصر محمد على باشا (١٨٢٤/٤/١) . جاء إبراهيم باشا البالغ عمره ٣٥ عاما ، خلال شهر تموز من اسكندرية إلى رودس مع ٣٠ ٠٠٠ جندى . كان قد منح رتبة الولاية على رودس بصورة رسمية . كان الأتراك المصريون ، هم الذين يشكلون الجيش المصرى المدرب تدريبا نظاميا . محمد على باشا الذى نصب الشراك لبكوات المماليك وجمعهم فى قلعة القاهرة وأفناهم ، وضع يده على أراضيهم الواسعة ، وثرواتهم الطائلة وأسس بذلك الجيش والبحرية . الشعب المصرى المحلى ، لم يكن يرغب فى الانخراط فى السلك العسكرى . جمع جيشه من المماليك ومن الأتراك الذين استوطنوا فى مصر فى عهد العثمانيين . كان قسم من جيشه يشكله الألبانيون ، الجراكسة ، والأباضة وهؤلاء يتكلمون اللغة التركية .

التقى قبطان دريا خسرو باشا ، مع إبراهيم باشا فى رودس . قضوا شتاء عام ١٨٢٤ - ٢٥ فى كريت . وفى نهاية الشتاء نزلوا فى ميناء Modon الكائن فى جنوب - غرب مورا (١٨٢٤/٢/٢٤) . تم احتلال ميناء نافارين الكائن قرب مودون (١٨٢٤/٥/١٨) ، بدأت حركات تطهير مورا من العصاة . تم خلال عام ١٨٢٥ احتلال كامل مورا عدا Nauplion التى سبق أن أعلن العصاة أنها عاصمة اليونان . سار محمد رشيد باشا من الشمال وجاء إلى Attika . حوصر العصاة بين نارين . جمعوا كامل قواتهم فى عدة أماكن مثل أثينا و Misolongi . سقطت Misolongi (١٨٢٦/٤/١٣) بعد محاصرتها مدة سنة واحدة ، واستسلمت أثينا كذلك (١٨٢٧/٦/٥) .

أصبحت الثورة اليونانية ، كأنها لم تكن . كانت قد انتهت من الناحية العسكرية ، لكنها لم تنته من الناحية الفكرية . كان قد انطبع فى مخيلة اليونانى الأوروبى ، خيال دولة يونانية مستقلة . منح ابراهيم باشا رتبة الولاية على كريت . اكد أنتصار جيش إبراهيم باشا المدرب تدريبا نظاميا ، وعزز ، لدى السلطان محمود المجرب إلى الدرجة التى لايمكن معها أن يغتر ويعتقد بأن القضية اليونانية قد أنتهت فى هذه المرحلة ، فكرة عدم تأخير تأسيس الجيش الحديث بعد الآن .

١٨) الواقعة الخيرية (١٨٢٦/٦/١٥)

انتظر السلطان محمود ١٧ عاما بكاملها لالغاء تشكيلات القابوقولو . أن جندا لم يتمكنوا من الوقوف تجاه عصيان يونانى ، ماذا سيكون حالهم فى حرب روسية يحتمل أن تعلن فى أى لحظة . لم يكن هذا الأمر يقلق الخاقان فقط ، بل أخذ يقلق جميع رجال الدولة ، وجنرالات الإنكشارية بالذات . لم يكن بالإمكان تحقيق ذلك بارادة البادشاه الذى كان يعتقد فى وقت ما ، أنها تأتى بعد إرادة الله عز وجل . كانت تشكيلات الإنكشارية قد اثبتت بعمليات عديدة وبإراقة دماء كثيرة ، وباظهارها عدم ترددها فى سحق مصالح الدولة الحيوية .. أنها سوف لاتعترف بمثل هذه الإرادة ، كان يجب البدء فى العمل بتأسيس نواة جيش جديد كما عمل سليم الثالث . كان السلطان سليم ، قد لقن السلطان محمود بشكل جيد أن مستقبل الدولة متعلق بذلك .

السلطان محمود الذى لم يغفل عن أخطاء السلطان سليم ، أدخل بين جنرالات الإنكشارية جنرالات من مؤيديه يؤمنون بفكرة تأسيس جيش حديث . لم يكن ذلك بالأمر الهين أو البسيط . سعى لتحقيق ذلك سنين طوالا وباحتياط وصبر . لجأ إلى الطرق الملتوية حتى لايثير الإنكشارية الذين كانوا حذرين وفى قلق . وفى النهاية تم بصورة رسمية إعلان تأسيس تشكيل جديد فى الجيش باسم « تشكيلات اشكينجى » (١٨٢٥/٥/٢٥) . جند فورا ٧٦٥٠ شخصا وشرع بتدريبهم على الطراز الأوروبى . أختير هؤلاء الأفراد من بين الإنكشارية المتطوعين اختياريا . يبين هذا مقدار الدقة والحساسية فى هذا الشأن . أصدر شيخ الإسلام طاهر أفندى فتواه المشهورة حول تأسيس هذه التشكيلات الجديدة . البس الجند الجدد ، اللباس على الطراز الأوروبى وشرع فى تدريبهم (١٨٢٦/٦/١١) . اتخذت كافة التدابير حيال عصيان انكشارى . كان آغا (رئيس) الإنكشارية جلال الدين آغا وجنرالات الإنكشارية الآخرون ، من رجال البادشاه . عين لمحافظية سواحل المضيق الأناضولى ، عزت أحمد باشا . الصدر الأعظم فى المستقبل ، ولمحافظية سواحل روملى آغا حسين باشا عدو الإنكشارية اللدود . كان هذان الجنرالان قد جمعا عساكرهما من الأناضول وعنيا بتعليمهم بشكل دقيق . واستنادا لأمر بادشاهى ، أتخذت

الترتيبات لإمكان إرسالهم إلى المدينة فى أية لحظة . لكن الثورة اندلعت حتى قبل الوقت الذى كان يتصوره السلطان نفسه . الانكشارية الذين صبروا على جنود النظام الجديد ١٤ عاما ، عصوا فى هذه المرة بعد البدء بتدريب تشكيلات اشكنجى بـ ٣ أيام فقط ، مساء ١٤ حزيران . نجا بصعوبة جلال الدين آغا ، آخر أغا للانكشارية فى التاريخ ، من الموت بالتمزيق ، وأعلم السلطان محمود بالوضع .

يوم ١٥ حزيران ١٨٢٦ ، من الأيام المعدودة القليلة فى التاريخ التركى . أخرج الانكشاريون قزانهم (قدرهم) المشهور وقلبوه فى أت ميدان(ميدان آقسراى) . أمر ، الصدر الأعظم بندرلى سليم باشا ، كلا من آغا حسين وعزت باشا ، الخروج إلى المدينة مع جنودهم . أمر السلطان محمود ،بتثبيت راية الرسول ﷺ (بالتركية صنجق شريف) فى ميدان سلطان أحمد . وأصدر الإرادة السلطانية بأن يتجمع كل إستانبولى يحب وطنه ، تحت الراية . حضر شيخ الإسلام طاهر أفندى ومعه اثنان من قضاته العسكريين ، قاضى إستانبول ، العلماء ذوو الرتب العالية ، ٣٥٠٠ طالب علم متعصب تعصب أعمى من الذين يدرسون فى القسم العالى من المدرسة العلمية وتجمعوا تحت الراية الشريفة وأخذوا بالقاء الخطب النارية . وإلى ذلك التاريخ ، كان الانكشارية يسحقون ويقضى عليهم فى كل عصيان يقومون به ، دون الاستناد إلى رجال الدين ، أما اليوم ، فكان فى انتظارهم كارثة كبيرة .

خرج إلى الشوارع كافة سكان استانبول . كانوا ناقمين على الانكشارية . لم يبق شىء مناف للاخلاق لم ترتكبه هذه التشكيلات . شوهد خروج النساء وانتشارهن فى الشوارع ، الأمر الذى لم يسبق أن شوهد فى التاريخ العثمانى . تشكيلات قابوقولو الأخرى ، عدا الانكشارية عرضت طاعتها واخلاصها للبادشاه . فتح نقيب المدفعية قره جهنم ابراهيم آغا نار قذائف بطاريته على ثكنات الانكشارية فى اقسراى . لم يسبق ان اقتحمت ثكناتهم فى أية ثورة إنكشارية سابقة . تضعضعت أسوار الثكنة ، وفتحت فيها ثغرة وانهارت . ودفن معهم كذلك ، دور من أدوار التاريخ التركى . إبراهيم أغا ، أول شخص فى التاريخ يدخل عنوة إلى ثكنات الانكشارية دون أخذ الاذن منهم . استمرت قره جهينم - زاده لر (عائلة قرة جهنم) حتى يومنا هذا ، وصار أحد أفرادها داماد « صهرا » للبادشاة ، وأصيب فى عقب قدمه برصاصة من بندقية إنكشارى .

دخل دارنده لى عزت باشا وآغا حسين باشا ميدان آقسراى . كان يتبعهم جمع غفير هائل من الناس . كان أمام جامع طوبخانه حاجى حافظ أحمد أفندى ، أمام الجند يشجعهم . وعند حلول المساء ، لم يبق شيء اسمه صنف الإنكشارية . قتل ٦٠٠٠ انكشارى . أفنى شعب إستانبول بغضب شديد هذه التشكيلات ، التى تركت الأقطار الإسلامية تحت أقدام الروس والروم العصاة ، والتى كانت تتقاضى الخراج . وفى اليوم التالى . تم اعتقال ونفى ٢٠٠٠٠ انكشارى . ألغيت هذه التشكيلات فى كافة انحاء الإمبراطورية . أبيدت كافة علاماتهم . وجرت حوادث غريبة خلال ذلك ، منها : أغلقت تكايا البكتاشية التى ينتسب إليها الإنكشاريون (ستفتح بعد مدة) ، كسرت علامات رءوس الإنكشارية التذكارية المنحوتة على أحجار المقابر ، محيت آثار الإنكشارية ، كما الغيت أيضاً مهترخانه خاقانى (الموسيقى العسكرية الخاقانية) تلك الموسيقى العثمانية العسكرية العظمى التى اعتبرت من تشكيلات الانكشارية . كان انقلابا . لم يدع هؤلاء مجالا ليذرف أحد الدمع على هذا الصنف الذى يملك ماضيا مشرفا .

أحدث إلغاء التشكيلات التى استمرت ٤٦٥ عاما ، صدى كبيرا فى جميع أنحاء العالم . خصصت الصحف الأوروبية عناوين كبيرة لذلك . هنأ السفراء البادشاه ، فى إستانبول باسم حكامهم . أطلق اسم « عساكر منصورة محمدية » (العساكر المحمدية المنصورة) على الجيش الحديث المزمع تدريبه . تم احداث منصب « سرعسكر » ومنحت له صلاحية وزير الحربية إضافة إلى رئيس أركان الجيش . أصبح آغا حسين باشا أول سرعسكر . السراى القديم الموجود فى بيازيد (حاليا البناية المركزية للجامعة) صار مقرا للسرعسكر ، تم تحويل سراى الاغا الموجود فى سليمانية إلى دائرة مشيخة وأعطيت لشيخ الإسلام .

وهكذا أغلق الدور الأول لسلطنة السلطان محمود الذى دام ١٧ سنة ، ١٠ أشهر و١٨ يوما . وفتح الدور الثانى لسلطنته والذى دام ١٣ سنة وشهرا ، و١٦ يوما . كان فى ذلك التاريخ فى سن الـ ٤١ . ومع أن الدور الثانى هو أصعب من الدور الأول ، لكن حجر الأساس لتركية الحديثه سيوضع فى هذا الدور . كانت المؤسسات التى تسلمها محمود الثانى تتماثل من حيث الشكل مع عهد مؤسسات فاتح ، ولكنها فى الوقت الذى كانت فيه مؤسسات عهد فاتح أرقى المؤسسات فى

العالم ، كانت هذه المؤسسات فاسدة بل إنها وصلت إلى شفا هاوية الانهيار ، ومن ثم فإنه كان يجب انشاؤها مجددا . ليس هنالك حق فى الحياة لدولة لاتتجدد . ازال حادث الغاء تشكيلات الانكشارية وتشكيلات القابوقولو الأخرى بشكل جبرى وعدم التردد فى التعرض لحرب داخل المدن والشوارع والتى انتقلت إلى التاريخ باسم « واقعة خيرية » ، المانع الكبير فى تحقيق حركة التجدد دون خشية . الواقعة الخيرية ، حادث من أهم الحوادث القليلة فى التاريخ التركى بأسره . كانت هذه الحادثة أكبر الانقلابات الجذرية . كانت البداية لتركيا الحديثة .

وهكذا فتح الباب أمام عهد التجديد فى تاريخ الدولة العثمانية ...



فهرس
محتويات المجلد الثاني

المبحث الخامس:

الدولة العثمانية العالمية بعد القانوني (١٥٦٦ - ١٦٨٣) ٣٥٩

المبحث السادس:

عصر التوقف (١٦٨٣ - ١٧٦٨) ٥٣٩

المبحث السابع:

دور الإنحطاط (١٧٦٨ - ١٨٢٦) ٦٢١